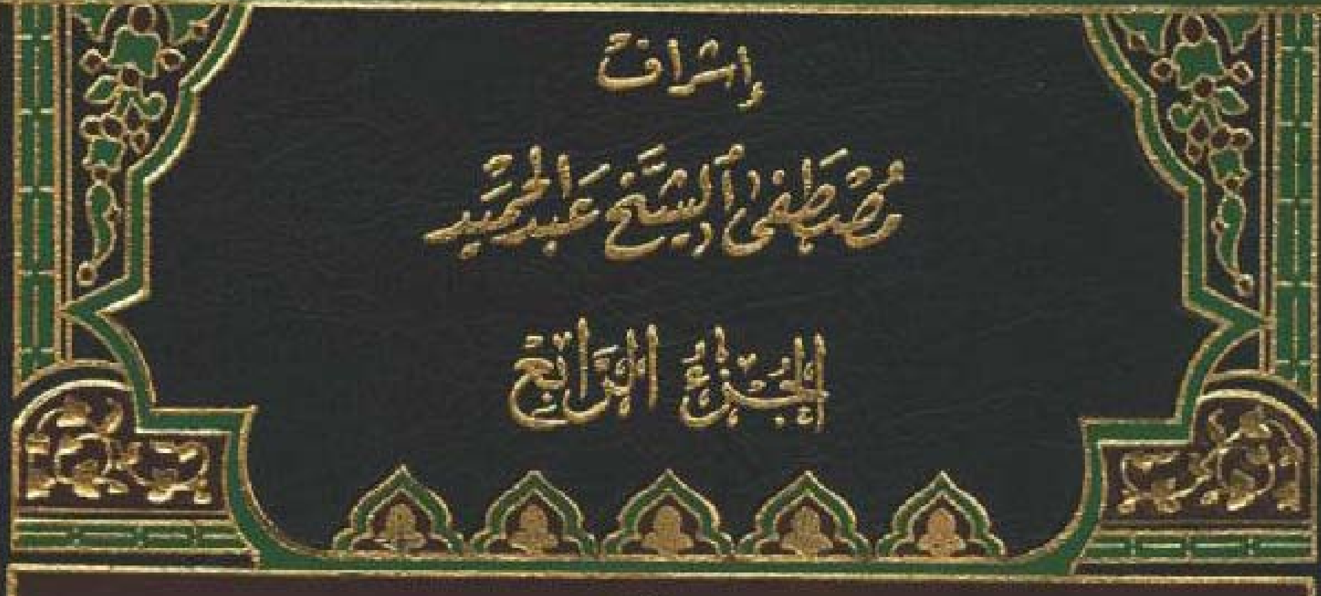
محاضرات الوائلي



منشورات
شركة دار المصطفى لإحياء التراث

محاضرات الوائلي

رحمه الله

إشراف

مصطفى آل الشيخ عبد الحميد

الجزء الرابع

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

مصطفى آل الشيخ عبد الحميد آل مرهون

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

يطلب من:

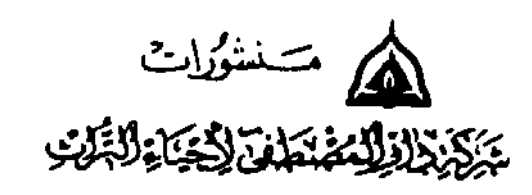
لبنان - بيروت - جادة السيد هادي - مفرق الرويس - بناية اللؤلؤة - ط١-

ص.ب: ٢٤/١٩٧ - برج البراجنة - بعبدا ٢٠٢٠ ١٠١٧ - هاتف: ٠٠٩٦١١٥٤٠٦٧٢

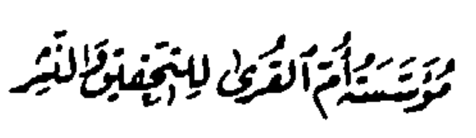
سوريا - دمشق - ص.ب: ٧٢٣ - السيدة زينب - تلفاكس: ٠٠٩٦٣١١ ٦٤٧٠١٢٤

إيران - قم - خ سمية - ١٦ مترى عباس آباد بلاك ٢٤ هاتف: ٧٧٣٨٨٦٥ - فاكس: ٧٧٣٨٨٥٥

البريد الإلكتروني: e-mail: hidayh@shuf.com



لبنان - بيروت - ص.ب: ٢٤/١٩٧



فرع قم المقدسة

ت/٠٠٩٨٢٥١٧٧٣٥٦٤٦

فاكس/٠٠٩٨٢٥١٧٧٣٠٣٨٠

Info@omalqra.com

﴿٧٢﴾

البناء الأُسري في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: طبيعة الأُسرة وكيفية بنائها

كل أُسرة تعتبر لبنة أساسية من لبنات المجتمع، ولا نستطيع أن نبني مجتمعاً سليماً دون العناية بالأُسرة. والآية الكريمة تذكّر بنعم اللّه تعالىٰ علىٰ عباده بقولها: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾؛ بتقرير أن المرء لا يعيش بدون الزوجة، والزوجة لا تعيش بدون الزوج. فالرجل يكمّل نفسه بالمرأة وبالعكس.

تفاصيل علاقة الرجل بالمرأة

إن تفاصيل هذه العلاقة الحيوية بين الرجل والمرأة كانت مادّة دسمة

(١) النحل: ٧٢.

للفلاسفة، ومادّة لعلماء الاجتماع والتاريخ والأخلاق؛ لأن هذه العلاقة هي الركيزة الأساس التي يقوم عليها المجتمع، فتناولوها من عدّة جوانب؛ من حيث نمط العلاقة ومن حيث العدد الذي يحق للإنسان أن يتزوّج منه، وكذلك هل يمكن أن يجمع بين اثنتين وثلاث وأربع، وما هو نمط الزواج؛ هل هو زوج لزوجات أو زوج لأزواج أو أزواج لزوجات علىٰ نحو الإشاعة. وكل ذلك تناوله علماء الاجتماع، فانتهوا إلىٰ نتيجة هي أن أسلم طريقة للزواج لكي تحفظ كرامة الإنسان (الرجل والمرأة) علىٰ حدّ سواء، هو الصيغة الاعتبارية: زوج لزوجة.

خلق حوّاء

والآن لنرَ خطوات الشارع المقدس في هذا الميدان من أجل إسعاد المجتمع، تقول الآية: ﴿وَاللّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أنفُسِكُمْ أزْوَاجاً﴾، ويخصوص هذا المقطع نجد أن هناك إصراراً عند أكثر المفسرين على أن فيه إشارة إلىٰ أن اللّه جل وعلا خلق لآدم زوجة بعد أن استلب ضلعاً من أضلاعه؛ فلذلك سميت حوّاء لأنها خلقت من ضلع حي؛ فحينما نام آدم أخذ اللّه ضلعاً من أضلاعه فخلقها منه. لكنهم لا يعلّلون ذلك، ولست أدري لماذا؟ فهل إن اللّه تعالى لا يستطيع أن يخلق إلّا باستلاب ضلع من آدم؟ حاشاه ذلك، فإن اللّه تعالى ﴿إنَّمَا أمْرُهُ إذَا أرَادَ شَيئاً أنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١]؛ حيث إنه جلّ وعلا يأخذ التراب ويصدر إليه أمره بأن يكون، فيكون.

هذا بناء على عقيدتنا القائمة على أساس أن اللّه خالق ومبدع، وأن

---

(١) يس: ٨٢.

القدرة لا تتعلّق بممتنع، وإنما هي متعلّقة بالممكن الذي إذا توجّهت له القدرة أبدعته. وعليه فلا حاجة حينئذٍ لأخذ ضلع من آدمؑ كي تخلق حوّاء منه.

إن سلب آدمؑ أحد أضلاعه تترتّب عليه في الواقع لوازم فاسدة كثيرة، وهذه النظرية من الإسرائيليات. والهدف منها هو تذويب معنىٰ الحرمة في نفوس الناس، فمحارم الإنسان يتميّزون بأن لهم حرمة وقداسة في نفسه؛ فلا يقرب منهم محرّماً ولا يأتيه. ومن يقع علىٰ محارمه فحكمه القتل؛ سواء كانوا نسبيّين[1] أو سببيّين[2]. وهذه القدسية موجودة بين الرجل ومحارمه؛ ولذا فإنهم يرومون تذويب هذا المعنىٰ عندهم؛ فنسمع أحدهم يخاطب ابنته:

فلا تمنعي نفسك المعرسين ... من الأقربين إلىٰ الأجنبي

لماذا حللت لذاك الغريب ... وصرت محرمة للأبِ

أليس الغراس لمن ربّه ... ونمّاه في الزمن المجدبِ[3]

فتأمّل هذا اللون من الانحدار والخسّة، وهذه لها مدرسة، وغالباً تمتدّ جذورها إلىٰ النظريات اليهودية. ونلفت النظر إلىٰ أن نظرية فرويد تهدف إلىٰ نفس الهدف، حيث يصبغ كل أنواع السلوك بالصيغة الجنسية. وهذا يعتبر إهانة للإنسان واعتداءً علىٰ كرامته وعقله وتطلّعاته نحو الأسمىٰ، حيث يريد تصوير الإنسان كحيوان جنسي مع أن الإنسان فيه الروح والعقل والتطلّع إلىٰ الأعلىٰ، وفيه القابلية لأن يصير أسمىٰ من الملَك، ويستطيع أن يصل إلىٰ درجة من الخسّة بحيث تعتبر الحيوانات أنبل منه.

---

(١) ما كانوا عن طريق الدم. (٢) ما كانوا عن طريق المصاهرة.

(٣) من أشعار أحد زعماء القرامطة.

فالإنسان الذي له هذه القابلية ثم يأتي البعض ويحاول أن يصهره في بوتقة الجنس، لهو أمر يعتبر في غاية الإساءة للإنسان، والحال أن اللّه تعالى كرم الإنسان[1]، وجعل عنده القابليّة، وأودع عنده الاستعداد للسمو؛ حيث الخلق والكرم والنبل. في حين أن هذا الذي ذكرناه يريد أن يحصره في نطاق الغريزة الجنسية، ويصهره في بوتقتها.

نعود للموضوع فنقول: إننا إذا راجعنا هذه النظريات فسنجد أن جذورها يهودية، والمشكلة أن المفسرين أخذوا هذه النظريات من كعب الأحبار ووهب بن منبه مقاتل بن سليمان، ونحن لا نقبل بنظرياتهم ولو كانت في أي كتاب؛ حيث إننا لا نستطيع أن نصدق أي شخص يهودي يأتي فيقول: إن عزرائيل نزل ليقبض روح نبي اللّه موسىٰ فقال له: **«جئتني زائراً أم قابضاً؟»**. قال: **«جئتك قابضاً»**. قال: **«أتقبض روحي؟»**. ثم ضربه علىٰ وجهه، فلطم عينَه، فرجع عزرائيل إلىٰ ربّه بعين واحدة[2].

فهل نقبل بهذا، ونقوم بتلويث عقليّة أجيال الإسلام بأمثال هذه الروايات؟ إننا نضرب بهذه الرواية وأمثالها عرض الحائط، وكيف نستطيع أن نؤمن ونصدق بأن نبيّاً من الأنبياء ومن أُولي العزم يفعل فعل الأشقياء؟ وعليه فإننا لا نقبلها بأي حال من الأحوال.

فالشيء الذي ينبغي أن يكون هو أننا عندما نقرأ رواية من هذا النوع فيجب أن نسأل أنفسنا: ما الذي يُلجئنا لأن نأخذ بها؟

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ﴾. الاسراء: ٧٠.

(٢) صحيح مسلم ٧: ١٠٠.

فاللّه تعالىٰ هو الخالق المبدع المصور القادر الذي يقول للشيء: كن فيكون، فلماذا يُنيم آدمﷺ، ثمّ يأخذ ضلعاً من أضلاعه فيخلق منه حواء، مع أنه كان قد خلق آدم من التراب، ويستطيع ويتمكن من أن يخلق من التراب امرأة لآدمﷺ وتنتهي المشكلة؟

المبحث الثاني: نوع الجعل في الآية

إذن ما معنىٰ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾؟ وما المراد بالجعل هنا؟ هناك رأيان في المسألة:

الرأي الأوّل: أنه طرد وهم إمكانية الزواج من الجنّ

فالآية الكريمة تطرد وهماً من الأوهام التي كانت سائدة عند العرب وغيرهم، وهو أن بعض الناس كان يعتقد بأنه يستطيع أن يتزوّج من الجنّ، وأن الجنية يمكن أن تلد منه. وكانت العرب تعتقد وتروي مثلاً أن فلاناً قد تزوج من الجن، وأن زوجته الجنيّة قد أنجبت له أولاداً منهم، كعمر بن يربوع، حيث يروون أنه تزوج جنيّة، وكان يسترها عن البرق؛ لأنها كانت تخاف منه وتهرب. وقد وُلد له منها أولاد يسميهم العرب: أولاد السعلاة، يقول شاعرهم:

يا قبح اللّه بني السعلاة ... عمرو بن يربوع شرار النات[1]

ويشير إلىٰ هذا المعنىٰ أبو العلاء المعري في إحدىٰ قصائده حيث يقول:

كأني بعمرو والسعالي مطية

---

(١) الكنز اللغوي: ٤٢ ـ باب السين والتاء، لسان العرب ٢: ١٠١ ـ نوت. والنات: لغة في (الناس) لبعض العرب.

إلىٰ آخر أبياته التي يصوّر فيها هذا الوهم السائد بين الناس.

فبعض المفسرين يقولون[١]: إن الآية جاءت لتطرد هذا الوهم. والحقيقة أن هذا الوهم يعيش حتىٰ عند بعض الفقهاء الذين ينتمون لبعض المذاهب الإسلامية حيث إنهم يقولون: إن من الممكن الزواج من الجنّ، ويذكر أن جماعة تزوجوا وأنجبوا. وأدبنا العلمي يمنعنا من أن نحمل عليهم؛ حيث إننا نحملهم علىٰ البساطة، وإلّا فالحقيقة أن هذا الكلام لا يمكن قبوله؛ لأن اللّه جعل الجنّ صنفاً يتزاوجون فيما بينهم، وجعل الإنس صنفاً يتزاوجون فيما بينهم، فالجنّ للجنّ والإنس للإنس.

ثم إن الزواج من الجنّ ـ حسبما قالوا ـ تترتب عليه أُمور فاسدة، حيث إنه سوف تكون ثمرته أولاد إنسية وأولاد جنيّة؛ فتُخلق بهذا طبقات مختلفة الأصل والمنشأ والخلقة بين الناس. هذا فضلاً عن أن رسول اللّه يقول: **«كلّكم لآدم وآدم من تراب»**[٢].

ثمّ إن هناك جماعة يقسمون الناس إلىٰ جماعة سام، وجماعة حام الذين أصبحوا ذوي لون أسود، والسبب كما يوردونه أن النبي نوحاً حينما ركب السفينة هوّمت عيناه، فكشف الهواء عن عورته، فلما رآها حام ضحك، فبادر إخوته فستروها، فاستيقظ نوح من نومه ورآه يضحك، فسألهم عن سبب ضحكه، فقالوا: إنه رأىٰ عورتك فضحك. فقال: **«اللهم اجعل ولد هذا عبيداً لولد هؤلاء»**[٣]، وهكذا أصبح أولاده عبيداً لأولاد إخوته.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠: ١٤٢.

(٢) تحف العقول: ٢٤، كنز العمّال ١٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

(٣) انظر: علل الشرائع ١: ٣٢/١، تاريخ الطبري ١: ١٣٩، أخبار الزمان: ١٠٧.

وهذا الكلام لا يعدو أن يكون خرافات، وإلّا فما ذنب هؤلاء الذين خلقوا سوداً حتى يكونوا عبيداً لغيرهم بسبب ذنب أذنبه أبوهم، فدعا عليه أبوه؟ ثم إن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[١]، فإن الذي يخطئ يأخذ جزاء خطئه. ولذا فإن هذه المسألة لا علاقة لهذا بذلك، بل هي مسألة تتحدّد علاقتها بالمناخ؛ فليس كل أسود عبداً.

إذن اختلاف اللون لا دخل له بالعبودية، فالعبد يمكن أن يكون رومياً أو من جنسيات أخرىٰ، وكل ما في الأمر أنه إذا أُخذ أسير حرب أو في غارة فإنه يستعبد.

هذا وينبغي ألّا ننسى أن اللّه جل وعلا خلق الناس كلهم أحراراً.

والباحث حول هذه النظريات يجد من خلفها أصابع مشبوهة تحاول أن تضع الكثير من العقبات في طريق الإسلام. وما أكثر ما زرعه المستشرقون وغيرهم من هذا القبيل في طريق نموّ الإسلام وانتشاره.

الرأي الثاني: أنه جعل تكويني

وهو ما يقابل الجعل التشريعي. فمعلوم أن الجعل قسمان: تكويني وتشريعي. والجعل التكويني فهو الخلق والإيجاد.

الرأي الثالث: أنه جعل تشريعي

والجعل التشريعي فهو مادّة قانونية. وهذا الرأي هو الأقرب إلى الصواب؛ حيث إن الرجل تملك منه زوجته ما لا يملك منه أحد غيرها، وكذلك الرجل فإنه يملك من زوجته ما لا يملكه منها أحد غيره. فالزوجة بالنسبة للرجل أو

---

(١) الإسراء: ١٥.

الزوج ستر، وهو كذلك لها. وهو ما عبّر عنه القران الكريم بقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾[1].

فالزوجة يمكن أن تحول جوّ البيت إلىٰ جنّة وسعادة، ويمكن أن تحوّله إلىٰ نار، وهي ترىٰ من الرجل ما لا يراه غيرها، وهو كذلك. فهناك امتنان. فالقرآن يمتنّ علينا ويقول: إن من نعم اللّه عليكم أنه أكمل نصفكم بكلمة بهذا الجعل التشريعي. ومعلوم إن الفرق بين الحلال والحرام هو كلمة في العقد الشرعي، أي «زوجتك»، أو «أنحكتك»، أو «متّعتك». وهذه الكلمات هي المتداولة في العقد الشرعي الذي يذلّل أي عقبة أمام الإنسان. وهكذا تكون الآية في معرض الامتنان علينا؛ فإنها توطّئ الطريق وتذلّل الصعوبات، وتجعل المرأة ملكاً للرجل والرجل ملكاً للمرأة.

هذا مع الأخذ بالاعتبار أن الملكية هنا ملكية اعتبارية. فالرجل والمرأة ينفصلان عن أحضان أهلهما فيستقرّان ويلجأان إلىٰ بعضهما. وهذا إنما يتمّ بهذه الكلمة المجعولة شرعاً. وهي الكلمة التي ربطت الأُسر مع بعضها البعض، واستحلّت وأحلّت الفروج لذويها؛ لأنها كلمة تترتّب عليها آثار التزاميّة؛ فهي كلمة اللّه.

الجعل مركّب وبسيط

ثم إن هذه اللفظة معربة عن الإرادة، والإرادة هي بناء الأُسرة؛ إذ معنىٰ ﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أن الجعل هنا جعل تصييري، ومعلوم أن الجعل منه مركّب أو تصييري، ومنه بسيط: فالجعل البسيط أن تقول: جعلت التراب، أي خلقته.

---

(١) البقرة: ١٨٧.

والمركب أن تقول: جعلت التراب إبريقاً، أي صيّرته كذلك. أما موضوع المقام فهو جعل تصييري أي بعد أن يتمّ العقد بين الزوجين، فإن الزوجة تتحوّل إلىٰ جزء من نفس الزوج وهو يتحوّل إلىٰ جزء من نفسها. فكأن القرآن يريد أن يجعل جوّ الأُسرة مملوءاً بالودّ والحنان والشفقة والرقّة والرحمة؛ لأن الأُسرة هي العشّ الذي تدور حوله مجموعة الأخلاق، فإذا لم يكن فيها انسجام وأخلاق فإن المجتمع ستصيبه كارثة.

المبحث الثالث: عقبات في طريق الزواج

الأولى: عقبة التكافؤ

نرجع إلىٰ نقطة هامّة هي أنه إذا كان الإسلام يركّز علىٰ جانب الأُسرة، فلماذا نحول الأُسرة إلىٰ تجارة حيث إننا نجد العقبات الكثيرة التي يخلقها الآباء ويضعونها في طريق الزواج، مع أن ضابطة الزواج الشرعية هي التكافؤ بين الزوجين؟

تحديد مفهوم التكافؤ في الزواج

إن الإسلام يعتبر الكفاءة قائمة علىٰ أساس الدين: «**إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه**»[1]. فالدين هو الذي يحدّد الكفاءة وهذه المسألة قد حُوّلت إلىٰ عقدة عند البعض حيث يقول: لا أرضىٰ بهذا الشخص؛ لأنه من المذهب الفلاني، مع أن الرواية تقول: «**ترضون دينه**»، ونحن جعلناها: «مذهبه».

فالإسلام جاء ليذلّل هذه العقبة، وكلّ ما علينا هو مراعاة المقوّمات الأُخرىٰ؛ فالبنت ابنتك، فلا تجعل أمام سعادتها وفي طريقها عقبة موهومة.

---

(١) الكافي ٥: ٣٤٧ / ٢ ـ ٣، الفقيه ٣: ٢٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمّال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

إن القرآن الكريم يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]، فأزال كلّ العقبات الموجودة في الطريق والتي يمكن أن تعترض الزوجين.

ويُلاحظ أن هناك في مسألة التكافؤ أموراً عجيبة منها عدم تزويج المتمذهب بمذهب من متمذهبة بمذهب آخر، وعدم جواز زواج هذا الجنس كالرومي مثلاً من ذلك الجنس بحجّة وذريعة أن هذا الجنس لا يكافئه ذلك الجنس. وهذه عقبات ما أنزل اللّه بها من سلطان. بل إن بعضهم لا يقبل شهادة أحد الصناع حيث يقول: إنه يعمل في العمل الفلاني فلا تُقبل شهادته. وهذا غريب من المسلمين الذي يجب عليهم أن يتعبّدوا بالنص الشرعي ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

الثانية: عقبة المادة

حيث إن أهل الفتاة ينظرون قبل كل شيء إلىٰ رصيد الفتىٰ، وما الذي يستطيع أن يدفعه ثمناً ـ من وجة نظرهم ـ لابنتهم، فينظرون فيما إذا كان يملك مالاً ويملك سيارة أم لا. مع أن عليهم أن ينظروا قبل ذلك إلىٰ رصيده الأخلاقي، فما قيمة المال الذي يملكه إن كان منحلّاً خلقياً؟ وما الذي يفيده المال هنا حينما يرجع مترنّحاً من السكر أو المخدرات؟ فهذا إذا كان يملك ـ وليكن مال قارون ـ فما الذي تنتفع به الزوجة منه؟ وأيُّ سعادة تدخل هذا البيت الذي تخيّم عليه أشباح الفساد والانحلال؟ نعم لك الحق في ألّا تُزوج ابنتك لشارب الخمر، فالحديث يقول: «**ابنتك كريمتك فانظر لمن تُرقّها**».

---

(١) الحجرات: ١٣.

حيث إنه قد يُطلّقها أثناء شربه الخمر أو قد يسمعها كلمة نابية. فمن عقوق الأبناء تزويجهم من مثل هذا الإنسان، لكن الناس للأسف لايهمّهم ذلك. وهذا الذي يذهبون إليه بعيد عن جوّ الإسلام، وجوّ الأُسرة الصحيحة الذي تتوفّر فيه الكرامة للطرفين.

وهناك نقطة هامة وهي أنه بعد الهجرة للدول الأجنبيّة فقد بعض الشباب أصالتهم متصوّرين أن المدنيّة تقتضي أن تكون زوجته سافرة. ونحن نقول له: إنك مسلم، وإن هذا العمل يعدُّ عيباً وعاراً، فهلا أخذت من الغرب النظام وروح الانسجام والنبوغ العلمي قبل أن تأخذ الانحلال والفساد الخلقي! فلماذا تعيش عائلاً علىٰ أفكار الآخرين؟ ولماذا تأخذ القضايا المنحطّة منهم؟ إن عليك أن تتمسّك بآدابك وقيمك وأخلاقك، فإن قيم الإسلام لا ترتبط ببيئة معيّنة بل هي تشمل كلّ البيئات، فإن الستر واجب في أي مكان تعيش فيه، فيجب عليك أن تكون أخلاقك الكريمة معك في كلّ بلد تحلّ فيه.

المغيرة والانغماس في رذيلة الزنا

ثمّ إن الزواج أنواع، فإذا كان الرجل غير ملتزم أو المرأة غير ملتزمة فهنا يحقّ لنا ألّا نزوّج هذا من تلك، أو هذه من ذاك، أما إذا كانت المرأة فقيرة أو كان الرجل فقيراً ليس لهما رصيد مالي، فليس هذا عيباً فيهما. وللشاهد التاريخي نذكر أنه يروى أن المغيرة بن شعبة كان والياً علىٰ الكوفة، وكان منحلّاً متساهلاً في أُمور الدين، ومن باب الشيء بالشيء يذكر أن أحدهم وقف علىٰ قبره بعد دفنه فقال:

أمن رسم دار للمغيرة تعرف ... عليها زواني الجنّ والإنس تعزفُ

فـإن كـنت قـد لاقيت هـامان بـعدنا وفرعون فاعلم أن ذا العرش منصفُ[(١)]

النساء أربع

وكان المغيرة قد خرج في يوم من الأيام يتمشىٰ بـين الكـوفة والنـجف، فرأىٰ أعرابياً فطلب من غلامه إحضاره، فلما أحضره سأله المغيرة: من أين أقبلت. قال: من السماوة ـ والمقصود بها بلدة بين العراق والشام في الهضبة، وليست هذه المدينة المعروفة حالياً ـ فقال له: كيف خلّفت الأرض خلفك؟ قال: عريضة أريضة. قال: كيف خلفت المطر؟ قال: ملأ الحفر وعفّىٰ الأثر. قال: عندي سؤال، أُريدك أن تخبرني عن أصناف النساء. فقال: النساء أربع: جميع مُجمع، وربيع مُربع، وغلّ لا يُنزع، وشيطان سمعمع. فقال له: فسّر لي، فأنا لا أفهم ذلك. فقال الأعرابي: أما الجـميع المُـجمع، فـهي المـرأة التـي تتزوّجها من أجل حسبها ونسبها. وهذا زواج مصلحة، فأنت تنظر إليها لأنها ابنة فلان، فتجمع نسبك إلى نسبها.

وأما الربيع المُربع، فهي المرأة التي إن دخلت البيت ضحكت في وجهك، وإن خرجت حمدتك في عقبك، وكلّ أُمورك موفّرة عندها، وكلّ حـاجاتك مقضيّة منها. تقوم لك مقام الربيع، فالأرض تهتزّ بالنبات في الربيع.

وأما الغلّ الذي لا يُنزع، فهي ابنة عمك، وأنت لا تشتهيها وهي كذلك لا تشتهيك، لكن التقاليد تحكم بذلك. وطبعاً إن هذا الإجبار خطأ لأن العقد لا ينعقد هنا؛ إذ أن من شروط صحّته الرضا، فإذا تخلّف هـذا الشـرط تـخلّف

---

(١) مروج الذهب ٣: ٣٥، وفيه: دويّ، بدل: زواني، شرح نهج البلاغة ٤: ٧١.

المشروط؛ لقاعدة أن المشروط عدم عند عدم شرطه[١]. فعليه يكون أولادهما أولاد زنا.

وأما الشيطان السمعمع، فهي المرأة التي إن دخلت كلحت بوجهك، وإن خرجت ولولت بدبرك، وحوائجك غير موفّرة عندها وأُمورك غير مقضية منها. تأكل زادك وتنمك لجيرانك.

قال المغيرة: نِعم ما تقول، لكن عندي سؤال آخر. قال: نعم. قال: أتعرف عامل المدرة؟ والمدرة منطقة. قال: لا أعرفه، لكنّي سمعت عنه. قال: ما سمعت عنه؟ قال: أعور زانٍ. فقال له غلام المغيرة: ما صنعت؟ إنه العامل. فقال الأعرابي: قُل الحقّ ولو علىٰ نفسك. وركب جواده وذهب[٢].

فموضع الشاهد أن النساء أربع، فهناك زواج من هذا اللون وهو أن هذه ابنة فلان وهذا الزوج لا يناسبها، مع عدم ملاحظة واقع الانسجام والتقارب والأخلاق والقيم التي يجب أن تخيّم علىٰ الأُسرة بعيداً عن الأنساب وبعيداً عن الألقاب. فعامل الأخلاق هو الذي يجب أن يكون عقبة لا عامل المادة والمال؛ لأن القرآن يقول: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[٣]. فمن الذي دخل الدنيا وهو مكلّل بالذهب؟ ومن الذي خرج منها وهو مكلّل به؟قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾[٤]. فمن دخل الدنيا دخلها عُرياناً وهو كذلك سيخرج عُرياناً وينام

---

(١) انظر: مبادئ الوصول: ٩٨، المجموع شرح المهذّب ٤: ٧٣.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٢: ٢٤، وليس فيه: عامل المدرة، بل إن هذه العبارة وردت في قصة ملاقاة المغيرة مع هند بنت النعمان بن المنذر بعد أن ترهّبت. انظر مروج الذهب ٣: ٣٥.

(٣) النور: ٣٢.

(٤) الأنعام: ٩٤.

علىٰ التراب :

فكم كومةٍ للتربِ من بعدِ كومةٍ — معلمةٍ هذا الزعيمُ وذا الهادي
فذو الزهو خلّى الزهوَ عنه وقد مضىٰ — وظلت علىٰ الغبرا سيادةُ أسياد
أعقباكِ يا دنيا قميصٌ وطمرةٌ — بصفرةِ أرضٍ من خراباتِ زهّادِ

فالعقبة الأساس هي عدم الخلق وعدم الدين. أما عقبة المال فليست عقبة حقيقية، وكذلك عقبة النسب فهي ليست عقبة حقيقية أيضاً: **«كلّكم لآدم وآدم من تراب»**[1].

إن الإسلام لا يعتبر المهر ركناً في العقد حيث يستطيع الإنسان أن يعقد علىٰ المرأة بدون ذكر المهر، ثمّ ينصرف المهر إلىٰ مهر المثل، ويصبح المهر ما كان متعارفاً ولو كان كفاً من بُرّ. فالآية الكريمة تقول: **﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾**.

المبحث الرابع: الحفدة

ثم قالت الآية الكريمة: **﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾**، وهنا يطرح سؤال نفسه، وهو: لماذا قال القرآن: **﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾**، مع أن المعلوم أن الولد يتكوّن من التقاء الزوجين كليهما؟

والجواب أن هذا فيه إشارة إلىٰ أهمية الأُم ودورها، هذا من ناحية ومن ناحية أُخرىٰ أن الأب ألقاها نطفة لا قيمة لها، ولذا فإن الرجل إذا عزل نطفته عن المرأة فإن ديته عشرة دنانير؛ فليس لها قيمة فهي كالنواة ترمىٰ في الأرض فتتحوّل إلىٰ شجرة، وهي تتبع صاحب الأرض، وكذلك النطفة

---

(١) تحف العقول: ٢٤، كنز العمّال ١٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

تنفصل من الرجل لا قيمة لها، وإنما تكون ذات قيمة عند تحوّلها إلىٰ رحم المرأة وتتغذّىٰ فيه وتنمو وتكبّر حتىٰ تصبح طفلاً كاملاً. والمرأة إضافة إلى ذلك تتحمّل مشاكل الحمل ثمّ آلام الولادة.

وقوله تعالى: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ موضع امتنان الباري جلّ وعلا؛ لأن البنين من نعم اللّه علىٰ العبد، فالشكل الطبيعي للحياة أن يكون لكل إنسان امتداد طبيعي. وهكذا يكون الولد نعمة سواء كان ذكراً أو أُنثىٰ. فالذين يتصوّرون أن الولد فقط هو الذي يكون نعمة، أما الفتاة فهي نقمة، فهم مخطئون في تصوّراتهم؛ لأن هناك الكثير من النساء اللائي يعدلن الكثير الكثير من الذكور، قال أحد الأدباء:

فلو كان النساءُ كمثلِ هذي ... لفضّلت النساءُ على الرجالِ

فما التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عيبٌ ... ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ[1]

فالولد الصالح سواء كان ذكراً أو أُنثىٰ هو من نعم اللّه تعالىٰ علىٰ العبد، فالباري جلّ وعلا يذكّرنا بهذه النعمة.

أقسام الحفدة

الحفدة هنا لفظ مختلف فيه، فللمفسرين واللغويين فيه ثلاثة آراء:

الرأي الأوّل: أنهم الأحفاد

أي أولاد الأولاد، والشارع يمتنّ عليك بهم. وقد كان العرب يتمدحون من كان عنده أولاد كُثر، يقول الشاعر:

لعلك يوماً أن تراني كأنما ... بَنيّ حواليّ الأسودُ اللوابدُ

---

(١) شجرة طوبى ١: ٢٤٩.

فــإن تــميماً قــبل أن تــلدَ الحــصى   أقام زماناً وهـو فـي النـاسِ واحدُ»[١]

الرأي الثاني: أنهم أبناء الأصهار والأختان

أي أنه إذا زوج ابنته فإن أولاد ابنته يكونون درعاً له يحمونه، فهم كأولاده وإن كان آباؤهم أجانب. وعليه فإن قول الشاعر:

بــنونا بــنو أبــنائنا وبــناتُنا   بــنوهن أبــناءُ الرجــالِ الأبــاعدِ[٢]

---

(١) ديوان الفرزدق: ١٤٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٧٩، شرح نهج البلاغة ١١: ٢٨.

قال القرطبي بعد أن نقل استدلال النافين لكون ولد البنت ولداً على الحقيقة ما نصّه: هذا الاستدلال غير صحيح، بل هو ولد على الحقيقة في اللغة؛ لوجود معنى الولادة فيه، ولأن أهل العلم قد أجمعوا على تحريم بنت البنت من قول الله تعالى: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم﴾ النساء: ٢٣، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾ الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥، فجعل عيسى من ذريته وهو ابن بنته. فإن قيل: فقد قال الشاعر:

بــنونا بــنو أبــنائنا وبــناتُنا   بنوهن أبناءُ الرجالِ الأباعدِ

قيل لهم: هذا لا دليل فيه، لأن معنى قوله أن ولد بنيه الذكران هم الذين لهم حكم بنيه في الموارثة والنسب، وأن ولد بناته ليس لهم حكم بناته في ذلك؛ إذ ينتسبون إلى غيره، فأخبر بافتراقهم بالحكم مع اجتماعهم في التسمية، ولم ينفِ عن ولد البنات اسم الولد؛ لأنه ابن. وقد يقول الرجل في ولده: ليس هو بابني؛ إذ لا يطيعني ولا يرى لي حقّاً، ولا يريد بذلك نفي اسم الولد عنه وإنما يريد أن ينفي عنه حكمه. ومن استدلّ بهذا البيت على أن ولد البنت لا يسمى ولداً فقد أفسد معناه وأبطل فائدته، وتأوّل على قائله ما لا يصحّ، إذ لا يمكن أن يسمى ولد الابن في اللسان العربي ابناً، ولا يسمى ولد الابنة ابناً، من أجل أن معنى الولادة التي اشتقّ منها اسم الولد فيه أبين وأقوى؛ لأن ولد الابنة هو ولدها بحقيقة الولادة، وولد الابن إنما هو ولده بماله مما كان سبباً للولادة.

وقال ابن أبي الحديد: وقال حكيم العرب أكثم بن صيفي في البنات يذمّهن: إنـهن يـلدن الأعداء، ويورثن البعداء. قلت: ليس في قول اكثم ما يدلّ على نفي بنوّتهن، وإنما ذكر أنهن يلدن الأعداء، وقد يكون ولد الرجل لصلبه عدوّاً، قال الله تـعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ

هو عرف سائد دعّمه الأُمويون ليُبعدوا الحسنين عليهما السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وإلّا فإن ابن الابنة ابن؛ فابنة الابنة لا يصحّ أن يتزوّجها جدّها لأمّها، كما لا يصحّ أن يتزوّج ابنة ابنه؛ فابنة الابنة بنت صلبيّة. وعليه فالحفدة هم أبناء الأصهار الذين يحفدونك ويرعونك، ويكونون لك ردءاً ودرعاً وعوناً.

الرأي الثالث: أنهم الخدم

ويستدل فقهاء المالكية منها علىٰ أن على المرأة أن تقوم بخدمات بيتيّة. ففي الشريعة الإسلامية أن المرأة لا يملك منها الرجل إلّا العلاقة الجنسية؛ وإلّا فإن غسل الملابس وطبخ الطعام أمران خارجان عن العقد، وليس للزوج مطالبة زوجته بهما، لكنها عادات اعتاد عليها الناس وسار عليها العرف. وفقهاء المالكية وحتىٰ فقهاء غير المالكية يقولون: إنها تتبع عادة أمثالها أي حسب طبقتها، فمثلاً لو أنها من طبقة عادة المرأة فيها أن تغسل الثياب وتطبخ الطعام وتنظّف البيت والزوج عليه واجبات إزاء الزوجة فيجب عليها هنا ـ إن كانت من هذه الطبقة ـ أن تقوم بهذه الواجبات إذا تزوجت، أما إذا كانت بنات طبقتها لا يؤدين هذه الأعمال، فليس للزوج أن يجبرها أو يطالبها بذلك.

المبحث الخامس: شبهة زواج القاسم

وننتقل إلىٰ القاسم في هذه الليلة حيث تنقل شبهة مبتنية على رواية مفادها أن القاسم قد تزوج فيها، فالحسين عليه السلام زوّج القاسم مقتدياً بعمل آبائه؛ فأبو طالب عليه السلام زوج الرسول صلى الله عليه وآله، ورسول الله صلى الله عليه وآله زوّج الإمام علياً عليه السلام، والإمام علي زوّج الكثير من أبناء الأسرة، والحسن كذلك. فالإمام الحسين عليه السلام قد عزّ

﴿ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ ﴾ [التغابن: ١٤]، ولا ينفي كونه عدواً كونه ابناً.

عليه أن يكون في بيته ابن أخيه، وهو وديعة عنده، مضافاً إلى ذلك رغبة كانت عند الإمام الحسن بأن يتزوّج القاسم من ابنته، فلذا رأى أن عليه أن يلبي هذه الرغبة وأن يزوج القاسم من إحدى بناته.

لكن حقيقة هذا الزواج غير ثابتة، فهناك روايات مرسلة غير معتمدة تشير إليه، فتقول: إنه عقد على إحدىٰ بنات الإمام الحسين. أما أن تذكر رواية أن القاسم تزوّج فعلاً من سكينة فهي رواية غير صحيحة حتماً؛ لأنها كانت متزوّجة يوم الطفّ، وعندها طفل علىٰ بعض الروايات.

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية أن القاسم لم يكن مؤهّلاً للزواج؛ لأن عمره كان آنذاك ستّ سنين، فليس هناك زواج ولا عرس، لكن هذه الرغبة كانت موجودة عند الحسين الذي يعتبر القاسم كأولاده، وأنه آخر نبلة في كنانة الحسن حيث خلفه أبوه، ولذلك فإن الإمام الحسن عند احتضاره دفع القاسم إلىٰ الإمام الحسين الذي وضعه في حجره ثمّ قال له: **«هذه وديعتي عندك»**. وهكذا رُبي القاسم في حجر عمه الحسين.

فكانت لدىٰ الحسين هذه الرغبة فعقد له علىٰ إحدىٰ بناته، وهذا بناء علىٰ ما في هذه الروايات المرسلة.

وكان القاسم شجاعاً بحيث إنه كان يندفع اندفاعاً غير محدود للقتال، فنزل إلى المعركة، لكن الحسين جذبه من يده، وبيّن له بأنه وديعة عنده من أخيه الحسن، وإنه لا يريد أن يفرط بهذه الوديعة، ثم قال: **«إن القوم يطلبونني ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب سواي»**[1]. فهو يقول له: تستطيع أن

---

(١) روضة الواعظين: ١٨٣، الارشاد ٢: ٩٢، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، الدمعة الساكبة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين (المقرّم): ٢٦٢ ـ ٢٦٥، تاريخ الطبري ٤: ٣١٨، البداية

تأخذ بيد أخيك وتذهبا وأنتما في حلّ من بيعتي. فقام أولاد الحسن عليه السلام وأولاد إخوته وبنو عمّه وقالوا: قبّح اللّه العيش بعدك يا أبا عبد اللّه.

وهكذا ألحّ هذا الصبي على عمّه لينزل إلىٰ الساحة حيث قال: لقد ضاق صدري وسئمت الحياة؛ فائذن لي حتىٰ أطلب بثأري من هؤلاء القوم. وهو آخر مقاتل يقتل من أصحاب الإمام (سلام اللّه عليه)؛ حيث إنه (سلام اللّه عليه) نظر إلىٰ الخيام ولم يرَ أحداً بل رأىٰ اخوته وأبناء أُخته وأنصاره صرعى. فأذن له بعد أن قال له: «**أمهلني قليلاً**». ثمّ دخل إلىٰ الخيمة فأخرج عمامة الإمام الحسن عليه السلام فلفها علىٰ رأسه، وأخرج له رداء ألبسه إياه، ثمّ أخرج سيف أبيه الحسن عليه السلام وقلّده إياه ثمّ أمسكه من يده ورمق السماء بطرفه وقال: «**اللهم اشدد وطأتك علىٰ هؤلاء القوم؛ إنهم دعونا لينصرونا، فوثبوا علينا فقاتلونا**»[1]. فنزل القاسم عليه السلام وهو يرتجز:

إن تنكروني فأنا نجلُ الحسن سبط النبيّ المصطفىٰ والمؤتمن
هذا حسين كالأسير المرتهن بين أُناس لا سقوا صوب المزن[2]

وأخذ يفري الرجال بسيفه فرياً إلىٰ أن توسط الساحة فانقطع شراك نعله، فانحنىٰ ليربطه وإذا بالسيف علىٰ رأسه، وسقط علىٰ الأرض منادياً: أدركني يا عماه. فأقبل إليه الحسين عليه السلام كالصقر الذي ينقض علىٰ فريسته، وذاد عنه

☚ والنهاية ٨: ١٩١.

(١) انظر: الإرشاد ٢: ١١١، بحار الأنوار ٤٥: ٤٢، وفيهما أنه عليه السلام قالها حين نزل علي الأكبر عليه السلام إلى المعركة، تاريخ الطبري ٤: ٢٩٣، ٣٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ٣٠٤، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٠٩، وفيها وفي غيرها أنه عليه السلام قالها حين قتل صبي له، باختلاف في اللفظ في الجميع.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٥، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (الخورزمي) ٢: ٢٩.

الخيل يميناً وشمالاً وجلس عند مصرعه وأخذ رأسه وراح يمسح الدم والتراب عن وجهه، وهو يقرأ قوله تعالىٰ: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[1] ثمّ قال: «قتل الله قوماً قتلوك»[2]. ثمّ أخذ رأسه ووضعه في حجره ثمّ أقبل يحمله إلىٰ المخيم واضعاً صدره علىٰ صدره ورجلاه تخطّان الأرض، وبعد أن وضعه مع القتلىٰ خرج من الخيمة ليفسح المجال لأُمّه وعمّته وباقي النساء، فدخلت أُمّه رملة ووضعت رأسه في حجرها:

فجعني الدهر بوليدي   وخيب ضنوة سنيني

---

(١) الأحزاب: ٢٣.

(٢) لم نعثر عليه في القاسم، وإنما هو في علي الأكبر. انظر: الإرشاد ٢: ١٠٦، مقاتل الطالبيّين: ٧٦.

﴿ ٧٣ ﴾

من ملامح التنظيم الكوني

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وما تَغِيضُ الأرحامُ وَمَا تَزدَادُ وكُلُّ شَيءٍ عِندَهُ بِمِقدَار﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: هل يقصر القرآن معرفة الحمل على الله فقط؟

هذه الآية الكريمة تناولت جوانب هامّة يتّصل قسم منها ببعض الأحكام، وقسم آخر بالتنظيم الكوني الذي أراده الله لهذا الكون. فأول مقاطع الآية يقول: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾، وقد كثر الحديث والأخذ والرد في هذا الموضوع، فهل يمكن التوصل إلىٰ ما تحمل المرأة أم لا؟ وهل استطاع العلم بهذه الأشعّة التي تصوِّر ما وراء الحديد والخرسانة المسلحة أن يميز نوع الجنين؟ هذه الأشعة إلى الآن لم تستطع أن تخترق السائل الذي يسبح به الجنين. ولكن هل يستطيع العلم في المستقبل أن يجد وسائل أُخرىٰ لمعرفة

---

(١) الرعد: ٨.

الجنين وعدده وصفاته من سمرة وبياض وغيرها؟

والجواب علىٰ ذلك أنه ليس من حقّنا أن نغلق الباب بوجه الإمكانات العلمية، فنقول: إن هذا لا يمكن. فهذا المنطق ليس علمياً، وإنما الذي يهمنا من الإمكان وعدم الإمكان أن نقول ما يقوله القرآن، فهل أغلق القرآن الباب في وجه معرفة ما تحمل الأُنثىٰ؟ وهل التعبير في الآية السابقة يقصر معرفة الجنين علىٰ اللّه تعالىٰ؟ فهنا رأيان في المسألة:

الأوّل: أن ذلك ممتنع علىٰ غير اللّه تعالىٰ

إن صيغة الآية والقاعدة فيها أنها في معرض تبيان عظمة اللّه تعالى، وبهذا فإنه يتقرّر أن هذا العمل مختصّ باللّه تعالىٰ فقط، وأن غير اللّه لا يتوصّل إلى هذا. والذي يساعد علىٰ هذا الاعتبار أن الأُمّ أو الأب إذا عرفا نوع الجنين أو عدده فقد يولّد عندهم ذلك بعض المشاكل؛ فمن الناس من لا يريد البنت بسبب العامل الاقتصادي مثلاً، أو العامل الاجتماعي وهو التكاثر الذي يرتبط عادة بالنصاب الحضاري، فلا زالت عندنا أمكنة حتى الساعة تعيش فيها الروح القبلية، فالإنسان الذي عنده عدد كبير من الأولاد الذكور يُحترم ويقدّر، مع أن بعض الناس قد يفضّل الأُنثىٰ لأسباب معيّنة.

فإذا حدث أن عُرف نوع الجنين فربما يحصل ضرر أو خطر علىٰ الجنين نفسه، ذلك أن الأب الذي لا يريد هذا الجنس أو ذاك فإنه قد يفكّر بالخلاص منه، وربما فكّرت الأُمّ كذلك.

والمصيبة أن هناك مسألة أخذت تجتاح البلدان الأوروبية، وهي المطالبة بحق الإجهاض، وقد تصلنا هذه المسألة الغربية التافهة، كما وصلت إلينا العديد من القضايا التافهة مثلها. مع العلم أنني صادفت في إحدى السنوات

خلال زيارتي لبريطانيا موجة من الاستنكار العجيب لهذه الظاهرة، فقد رفعت إحدىٰ النساء دعوىٰ ضدّ القضاء لأن زوجها يمنعها من الإجهاض والقضاء لا يعطيها هذا الحقّ، فاضطرّ القضاء إلى إعطائها هذا الحق، فحدثت موجة من الاستنكار المؤلم في نفوس الناس، وقد ضجت بذلك الصحف. غير أن القضاء أعطىٰ هذا الحقّ علىٰ كلّ حال. وقد يأتينا في يوم ما هذا اللون من الفكر كسائر الأفكار الغربية الغريبة التي أتت إلينا، وهي تصطدم مع أخلاقنا ومفاهيمنا.

إذن فإن عُرِف الجنين، وكان طريق الإجهاض سهلاً تعرّض الجنين للخطر.

ومن ناحية أُخرىٰ فإن المرأة نفسها قد تتعرض إلى الخطر، فهناك من الرجال من يدخل إلى البيت ويواجه المرأة بالإهانة والتوبيخ لأنها تلد البنات، وهذا من الميراث الاجتماعي للحضارة العربية التي نعيش فيها نحن. فنحن نعرف أن بعض العرب إذا ولدت امرأته بنتاً فإنه لا يدخل إلى البيت. يروىٰ أن أحد العرب ـ وكان يدعىٰ أبا حمزة ـ ولدت له امرأته بنتاً، فحوَّل خباءه عنها ولم يدخل إلى خبائها، فراحت تُرقِّص طفلتها وتقول:

ما لأبي حمزةَ لا يأتينا ... يَظلُّ بالبيت الذي يَلِينا

غضبانَ ألّا نلدَ البَنِينا ... وإنّما نأخذُ ما أُعطِينا

ونحنُ كالأرضِ لزارِعِينا ... نُعطِيهُمْ ما يَذرُوهُ فِينا

فرقَّ لها أبو حمزة وعاودها[1]. فهي غير مسؤولة عن هذا الأمر، وإنما هو

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٧٠، ولم ينقل البيت الثالث، البيان والتبيين ١: ١٠٨، ٥٨١، مجمع الأمثال ١: ٦٤، وفيه: ما لأبي الذلفاء ... .

خارج عن إرادتها.

والخلاصة أنه إذا عرف الأب والأمّ نوع الجنين، فقد تحدث الكثير من المشاكل للأمّ أو للجنين.

الثاني: أن الإنسان يمكن أن يعرف جنس الجنين دون خصوصياته

ومفاد هذا الرأي أن اللّه تعالى يمكن أن يطلع الإنسان علىٰ جنس الجنين، ويكون معنىٰ الآية: أن اللّه تعالى يعلم التفاصيل الأُخرىٰ لا نوع الجنين وجنسه وعدده فقط. فالعلم قد يعرف عدد الأجنَّة وبعض التفاصيل الجزئية، لكنه يجهل ما إذا كان هذا الجنين يولد حياً أو ميتاً، أو كم سيبقىٰ في بطن الأم، أو هل أنه شقي أو سعيد، يقول الشاعر:

فكمْ من وليدٍ قد ودِدْنَا لو انه ... يَموتُ بِكَفِّ القَابِلَات مُنَاغِيَا

يهُشُّ إليه الأمَّهاتُ ولو دَرت ... بما سوف يَجنيهِ لَطمْنَ النَّوَاصِيا

فهذا المستقبل من كون الجنين صالحاً أو طالحاً، أو أنه قصير العمر أو طويله، وغير ذلك من التفاصيل يجهلها الإنسان، والذي يعرفها هو اللّه وحده. فيمكن حمل الآية علىٰ هذا الجانب.

وقد كان العرب يعتبرون أن المرأة إذا ولدت أبناء كثيرين فإن ذلك يكون علىٰ حساب التكامل، فلو أنها ولدت واحداً فإنه يكون متكاملاً. أما إذا ولدت أكثر من ذلك فإن الطاقة تتوزع عليهم فلا يكونون متكاملين، يقول شاعرهم:

بُغَاثُ الطَّيرِ أكثرُهَا فِرَاخاً ... وأمُّ الصَّقرِ مِقلَاتٌ نَزُورُ[1]

---

(١) اختلف في قائله. شرح نهج البلاغة ٦: ١٥٥، ١٣: ٢٢، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ١٤٩، ٥٠: ٨٤، ٨٥.

والمقلات: هي التي لا يعيش لها ولد[١] أبداً، أو التي تحمل مرة واحدة فقط[٢]. فالتي لا تحمل ينتظرون بها أن يموت أحد رؤساء العرب فيُسجُّونه وتعبر تلك المرأة علىٰ جنازته، يقول الشاعر:

تَظَلُّ مَقَالِيتُ النِّسَاءِ يُطَأْنه ... يَقُلنَ ألا يُلْقَىٰ عَلَىٰ المَرْءِ مِئْزَرُ[٣]

الحجّاج وأم البنين بنت عبد العزيز

ذهب الحجّاج يوماً إلى الشام يريد الدخول علىٰ الوليد بن عبد الملك، فدخل وهو مدجّج بالسلاح. فأرسلت أم البنين زوجة الوليد إلى زوجها تسأله: من هذا الأعرابي المدجّج بالسلاح الذي دخل عليك؟ فأرسل إليها الوليد قائلاً: إن هذا هو الحجّاج. فأرسلت إليه: واللّه لو يخلو بك ملك الموت أحبّ إلي من أن يخلو بك الحجّاج. فقال الوليد للحجاج مازحاً: إن أُم البنين تقول عنك كذا وكذا. فقال الحجّاج: أصلح اللّه الخليفة، إن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، فلا تُطلعْها علىٰ أسرارك، ولا علىٰ مكائدك لعدوك.

فنقل الوليد هذا الكلام إلى أم البنين زوجته. فقالت له: أقسمت عليك إلّا ما أرسلته إليّ. فأرسل الوليد إلى الحجّاج أن أُم البنين تريد أن تلاقيك. فقال الحجّاج: جنبني ذلك. فقال الوليد: لابدّ من ذلك. فدخل عليها الحجّاج، فسلم عليها فلم ترد، فجلس، فقالت له: أنت المشير علىٰ أُمير المؤمنين بما سمعته عنك؟ ما كان أحراه باتباع رأيك إذا كانت النساء ينفرجن عن مثلك، ولكن إذا كن ينفرجن عن مثله فما أحراه بترك رأيك! أتدلّ علىٰ أمير

---

(١) الكنز اللغوي: ٩١، الصحاح ١: ٢٦١ ـ قلت، وهي هنا بخصوص المرأة.

(٢) الصحاح ١: ٢٦١ ـ ٢٦٢ ـ قلت، وهي هنا بخصوص النياق.

(٣) البيت لبشر بن أبي خازم. شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٩٧، ترتيب إصلاح المنطق: ٣١٤.

المؤمنين بما فعل وأنت الذي قذفت الكعبة[١] وقتلت ابن ذات النطاقين؟ أما سمعت قول النبي ﷺ: **«إن في بني ثقيف كذاباً ومبيراً؟»**. أمّا الكذّاب فعرفناه، وأما المبير فأنت. فقام الحجّاج ولم يعرف أين يضع قدمه[٢].

فالعرب كانوا يتمدحون بالمرأة التي تحمل قليلاً باعتبار أن الولد يكون أكثر نضجاً. وقد تميل بعض النظريات العلمية الحديثة إلى ذلك في الوقت الحاضر، وقد تدحضه بعض النظريات باعتبار أنه خلاف الحكمة، وأن اللّه لو كان يعلم أن أحد المولودين يجور علىٰ الآخر لما جعل المرأة تحمل توأماً.

المبحث الثاني: معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿تغيض﴾

ثم قالت الآية: **﴿وما تَغِيضُ الأرحامُ وَمَا تَزدَادُ﴾**، وفي هذا المقطع رأيان:

الرأي الأوّل: طول مكث الجنين في بطن أمه

ومعنىٰ ذلك أن مدة بقاء الجنين في بطن الأُمّ تكون أطول من الحالة المعتادة، فالحالة الاعتيادية هي تسعة أشهر، ولكن قد يتأخّر الجنين عن هذه

---

(١) قال الذهبي: «الحجّاج أهلكه الله في رمضان سنة خمس وتسعين كهلاً. وكان ظلوماً جباراً ناصبياً خبيثاً سفاكاً للدماء ... قد سقت من سوء سيرته في تاريخي الكبير، وحصاره لابن الزبير بالكعبة، ورميه إياها بالمنجنيق، وإذلاله لأهل الحرمين ... وتأخيره للصلوات إلى أن استأصله الله. فنسبّه ولا نحبّه، بل نبغضه في الله؛ فإن ذلك من أوثق عُرا الإيمان. وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله». سير أعلام النبلاء ٤: ٣٤٣ / ١١٧. وانظر حول ضرب الكعبة المشرّفة وحرقها: التاريخ الكبير ٣: ٤ / ١٢، وقد ضعّف السند، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ - ٢٥٢، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، ينابيع المودّة ٣: ٣٦.

(٢) شرح نهج البلاغة ٦: ١٠٧ ـ ١٠٨، ١٦: ١٢٥ ـ ١٢٦، بلاغات النساء: ١٢٨، ولم ينقلا الحديث.

المدة فيبقىٰ عشرة أشهر مثلاً. وفي رأي الإماميّة أن أقصىٰ ما يمكن أن يبقىٰ الجنين في بطن أمه ـ وهو من الحالات الشاذة ـ أحد عشر شهراً، وأقل ما يمكن أن يبقىٰ فيها ستة أشهر[١].

وهذه المسألة تترتب عليها آثار فقهية؛ منها مثلاً لو أن رجلاً تزوج، وبعد ستة أشهر ولدت امرأته، فلو لم يحدّد القرآن أقل مدة للولادة لما ترتّبت الآثار الشرعية علىٰ هذا الولد من البنوة والميراث والنسب.

ويستدل الفقهاء علىٰ أقل مدة الحمل بالجمع بين آيتين من الذكر الحكيم: الأُولىٰ قوله تعالىٰ: **﴿وَالوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾**[٢]، والأُخرىٰ: **﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾**[٣]. فنطرح الحولين وهما أربعة وعشرون شهراً من ثلاثين شهراً؛ فيبقىٰ ستة أشهر وهي أقلّ مدة للحمل.

وقد حدث في أيام الخليفة الثالث أن امرأة ولدت لستة أشهر فأمر برجمها، وكانت أُختها إلى جانبها، فراحت تبكي، فقالت لها: أُخية، اللّه يعلم أنه ما دنا إلي أحد سواه، واعلمي أنني سوف أخاصمهم عند اللّه. فلما أخذوها ليرجموها جاء أمير المؤمنينعليه السلام فقال لهم: **«ما الخبر؟»** فأخبروه، فقال: **«أرجعوها»**. فذهبوا ليرجعوها فوجدوها قد رجمت. فقال: **«لا حول ولا قوة إلّا باللّه»**. ثم قال لعثمان: **«إن هذه لو خاصمتك بكتاب اللّه لخصمتك، أما قرأت قوله تعالىٰ: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿وَالوَالِدَاتُ**

---

(١) المقنعة: ٥٣٩، المهذب (ابن البراج) ٢: ٣٤١، السرائر ٢: ٦٤٨، وفي الجميع أن أقصىٰ مدة الحمل تسعة أشهر، الحدائق الناضرة ٢٥: ٨٠، وفيه أن أقصاها سنة.

(٢) البقرة: ٢٣٣.

(٣) الأحقاف: ١٥.

يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾؟».

وهذه الرواية لا يرويها الشيعة[١] فقط وإنما يرويها السنة أيضاً، ومن أحب أن يتأكد فليراجع (الدر المنثور)[٢] للسيوطي في شرح هذه الآيات. كما يذكرها أكثر من مؤرخ[٣] منهم.

والتصدي للفتوىٰ بلا علم من البلايا التي ابتلينا بها، فالناس عادة يتصورون أن من يُحسب علىٰ الدين هو من أهل الفتوىٰ والعلم. والواقع أنه ليس كذلك وإنما هناك الكثير من الدجالين الذين ليسوا من أهل العلم، وليس من شأنهم الفتوىٰ، وسوف يحاسب اللّه تعالى هؤلاء أشد الحساب. يقول الإمام أمير المؤمنين ﷺ لابنه الإمام الحسن ﷺ: **«اهرب من الفتيا هربك من الأسد»**[٤].

فالفتوىٰ ليست من الأُمور السهلة، فهي توجّه المجتمع، فهي لابدّ أن تكون وتصدر ممّن عانىٰ وحصَّل ملكة الإفتاء التي لا ينالها إلّا ذو حظّ عظيم، يقول تعالىٰ: **﴿آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ﴾**[٥]، ويقول عن النبي ﷺ: **﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾**[٦]. وقد أمرنا الله تعالى أن نسأل أهل الذكر[٧] وهم بيت النبوة[٨]

---

(١) الصراط المستقيم ٢: ١١، ١٧ ـ ١٨. (٢) الدر المنثور ١: ٢٨٨، ٦: ٤٠.

(٣) المصنّف (الصنعاني) ٧: ٣٤٩ ـ ١٣٤٤٣/٣٥٠، ٧: ٣٥٠ ـ ١٣٤٤٤/٣٥١، مع عمر بن الخطاب، أحكام القرآن ٣: ٥١٧، المغني ١٠: ١٩٣، وقد نسبها في تاريخ المدينة ٣: ٩٧٨ لابن عباس.

(٤) بحار الأنوار ١: ٢٢٦ / ١٧.

(٥) يونس: ٥٩. (٦) الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦.

(٧) في قوله تعالىٰ: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾. النحل: ٤٣.

(٨) انظر: الكافي ١: ٢١٠ ـ ٢١٢ / بـاب أن أهـل الذكـر هـم الأئـمة ﷺ، جـامع البـيان،

وعدل الكتاب[١].

وفي التأريخ الكثير من الفتاوىٰ التي لم تصدر عن علم، أو أن مهمتها التفريق بين المسلمين وضرب وحدتهم، أو أن من ورائها بارقاً من بوارق الطمع، فقد أفتىٰ الشيخ نوح الحنفي في حلب مثلاً بإباحة دماء الشيعة، وباستحلال فروج نسائهم، ونهب أموالهم[٢]. وقد بقيت هذه الفتوىٰ إلى الآن تمزق المسلمين وتعبث بالتأريخ.

كما أنني كنت مثلاً أُجلّ الفقيه أبا يوسف القاضي. ولكنني وجدت العلماء يروون عنه أن زبيدة استفتته في مسألة فأفتاها بما تحب.

وقد استفتىٰ الخليفة المهدي أحدهم في اللعب بالطيور فأفتاه بالجواز، فسئل عن الدليل فقال: يقول النبي ﷺ: **«لا سبق إلّا في خف أو حافر أو نصل»**[٣] أو ريش. أي أنه أضاف إلى الحديث الشريف عبارة (أو ريش)، فلما خرج هذا المفتي من المجلس ضحك المهدي وقال: لم يكن في الحديث كلمة «ريش»، لكنه أتىٰ بها ليرضيني[٤].

☚ المجلد: ١٠ ج١٧: ٨، شواهد التنزيل ١: ٤٣٥ ـ ٣٤٦ / ٣٦٣ ـ ٤٦٤، تفسير القرآن العظيم ٢: ٥٩١.

(١) وهو ما أوصىٰ به النبي ﷺ في حديث الثقلين بقوله: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، ولقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض». فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها.

(٢) خاتمة مستدرك وسائل الشيعة ٢: ١٥٩، الكنى والألقاب ٢: ٣٣١. وهو نوح بن مصطفى الرومي الحنفي نزيل مصر (ت ١٠٧٠هـ/ ١٦٦٠م)، وكان مفتي قونية. سكن القاهرة وتوفي فيها. الأعلام ٨: ٥١.

(٣) الكافي ٥: ٤٩ / ٦، مسند أحمد ٢: ٤٧٤.

(٤) تاريخ الخلفاء (السيوطي): ٢٧٥.

فأقل مدّة الحمل هي ستة أشهر، أما أكثرها فهي أحد عشراً شهراً. ولكن المصيبة الدهماء أن هناك من يقول: إن الحمل يمكن أن يبقىٰ في البطن ثمانية عشر عاماً! ولو أن أحداً مات وجاءت امرأته بولد بعد ثماني عشـرة سـنة فالولد له! ولو كانت هذه النظريات عندنا لانقلبت الدنيا علىٰ رؤوسنا. بـل هناك من يذهب إلى بقائه عشرين سنة. ومن أراد المزيد عن هذا الموضوع فليراجع (المغني)[1] لابن قدامة.

ومن البلايا أن يتدخّل المرء في غير تخصّصه، فالفقيه ينبغي ألّا يتدخّل في الأُمور الطبية أو ذات الطابع العلمي الذي لا علاقة له بالفقه. فهو يشخّص الحكم، أما الموضوع فقد يكون من اختصاصه إذا كان فقهياً أو اجـتماعياً، وإلّا فعليه أن يتركه لغيره.

الرأي الثاني: أن الأرحام لا تغيض دماؤها طمثاً ولا تزداد نفاساً

فاللّه تعالى كما يقدّر للإنسان غذاءه في الدنيا فكذلك يقدّره في الرحـم، تقول الرواية الشريفة: **«يأتي للإنسان ساعة الاحتضار أربعة من الملائكة، فيقول الأوّل: لقد طفت بحار العالم فلم أجد لك شربة تشربها. ويقول الثاني: لقد جبت أطعمة الدنيا فما وجدت لك لقمة تأكلها. ويقول الثالث: لقد جبت الأجواء فما وجدت لك نفساً تتنفسه. ويقول الرابع: لقد عشت الزمن فما وجدت لك لحظة تعيشها»**. فكما أن اللّه سبحانه وتعالى يقدّر الرزق للعبد في الدنيا، فهو كذلك يقدره له في الرحم.

---

(١) المغني ٩: ١١٦ ـ ١١٧، وانظر: مغني المحتاج ٣: ٣٩٠، مواهب الجليل ٥: ١١٥، البحر الرائق ٤: ٢٦٥.

المبحث الثالث: شبهة حول قوله تعالى: ﴿بمقدار﴾

ثم قالت الآية: ﴿وكُلُّ شَيءٍ عِندَهُ بِمقدَار﴾، وفي هذا المقطع شبهة نحاول توضيحها، وهي أنه إذا كان كلّ شيء عند اللّه بمقدار فهذا يستلزم الظلم؛ لأنه يقدّر لأحد أن يعيش منعّماً وللآخر أن يكون معذّباً، فهذا ليس من العدل والإنصاف.

والجواب علىٰ هذه الشبهة أن علم اللّه لا يغيّر الواقع، فعندما نقول: إن اللّه يعلم أن عمر فلان ثلاثون سنة، فليس معنىٰ ذلك أن هذا الواقع يَفرض علىٰ اللّه أن يكون عمر ذلك الإنسان كذلك، لكن علمه سبحانه يتعلق بالشيء بعد وقوعه فلا يغيره، ولو كان علمه يستلزم التغيير لكان ذلك جبراً وهو غير جائز علىٰ اللّه.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرىٰ فإن هذا الذي نراه هنا في الدنيا هو ليس من توزيع اللّه كي يكون ظلماً، فالمؤسسات التي نعيشها ليست مؤسسات السماء؛ فالمصارف ليست إسلامية، والمؤسسات الأُخرىٰ تقتبس النظام الأوروبّي اليهودي أو المسيحي. وقد لا نقف عند هذا الحدّ فيأتي من أولادنا من يقول: إن النظام الأوروبّي أجدىٰ وأنفع كثيراً من النظام الإسلامي والقرآن نفسه.

فالذي أُريد قوله: إنه لو كان النظام غير نظام اللّه فلا يصح الاعتراض علىٰ اللّه، فنظام اللّه لا يخلق هذا التفاوت الذي نراه بين أبناء البشر. ولكننا آثرنا ما أرادت الأثرة وما أراده الهوىٰ وما شاءه الظالمون، فقدّمنا حكم الظالمين علىٰ حكم اللّه؛ ولذلك يقول القرآن: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أنزَلَ اللّـهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ

الظَّالِمُونَ ﴾[١]. وهذا هو الدافع الذي دفع الإمام الحسين إلى النهوض والقيام والخروج؛ فقد رأىٰ أن الرسالة نُحِّيت جانباً، وأُمر الناس بالأخذ من الجاهلية، ورأىٰ أن هذه الدماء سوف تثمر؛ فلذا قدمها وقد لعبت دوراً كبيراً، يقول أحد الأُدباء:

فدمٌ أرَقتَ كأنه من جِدَّةٍ ... لِلآن يعبِقُ بالثرىٰ ويُخضِّبُ

وتركتَ للأجيالِ حِينَ يَلُزُّهَا ... عَنَتُ السُّرىٰ ويَضيقُ عَنها المَهرَبُ

جُثَثَ الضَّحَايَا من بَنيكَ تُريهُمُ ... أنَّ الحُقُوقَ بِمثلِ ذلكَ تُطلَبُ

وقد تعودت بيوت الهاشميين منذ صدر الإسلام أن تكون خالية، فكانت تضحياتهم في بدر وأُحد، ثم جاءت واقعة الطف فاجتاحتهم اجتياحاً عجيباً. وقد كانت واقعة فخ أكثر قتلاً في الهاشميين من الطف، وحملت رؤوسهم من المدينة إلى بغداد، ولما رأى موسى بن المهدي الرؤوس أمسك السيف بيده وأخذ يردد:

بني عمِّنَا لا تُنشِدُوا الشِّعرَ بعدَمَا ... دَفنتُم بِصَحرَاءِ الغَمِيمِ القَوافِيَا

فلَسنَا كَمَنْ كُنتُم تُرَجُّونَ نَيلَهُ ... فَنقبَلُ حُكمَاً أو نُحَكِّمُ قَاضِياً[٢]

لكن مصارع الطف حدثت فيها مآسٍ لم تحدث في غيرها، فلم يقتل في فخٍّ طفل كما في الطفّ، ولم يكن فيها منظر وداع مؤثر كمنظر الإمام الحسين وهو يودع أهله عندما رجع إليهم، فانفرد بأُخته زينب وجلس معها، وقال لها: **وأُخية تعزي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان، اعلمي أن**

---

(١) المائدة: ٤٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٢٣، معجم ما استعجم ٣: ١٠٠٧ ـ الغميم، ونقل البيت الأوّل فقط.

أهل السماء يموتون وأهل الأرض لا يبقون، ولي ولكل مسلم برسول الله أسوة حسنة »[١]:

أخت يا زينب أوصيك وصايا فاسمعي　　إنَّني في هذه الأرضِ مُلاقٍ مَصرَعي

فاصبِري فالصَّبر من خيم كِرامِ المَنزَع　　كلُّ حيٍّ سَيُنَحِّيهِ عَنِ الأحياء حَينْ[٢]

* * *

قوموا إلى التوديع إن أخي دعا　　بجواده إن الفراق طويلُ

فخرجن ربات الحجال عواثراً　　وغدا لها حول الحسين عويلُ

* * *

خويه انروح كلّ احنه فداياك　　اخذنه للحرب يحسين وياك

---

(١) الارشاد ٢: ٩٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٩،البداية والنهاية ٨: ١٩٢ .

(٢) نيل الأماني ديوان الشيخ حسن الدمستاني (قصيدة أحرم الحجّاح): ١٩٠ .



﴿ ٧٤ ﴾

النبي إبراهيم الخليل عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1] .

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: العوامل التي ساعدت على جعل إبراهيم عليه السلام إماماً

النبي إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء، ويحتل مكانةً مهمة عند الشعوب كافّة، والقرآن الكريم دعا العرب إلى أن يسيروا علىٰ منهج النبي إبراهيم الخليل عليه السلام . وهنك عدّة عوامل مساعدة علىٰ تحقيق هذه الدعوة التي دعاهم إليها القرآن الكريم منها:

١ـ أن إبراهيم عليه السلام هو جدّ العرب من جهة انتمائهم إلى إسماعيل عليه السلام ، وهو ابن إبراهيم عليه السلام ؛ فهو أبوهم من هذه الناحية.

٢ـ أن إبراهيم عليه السلام هو الذي بنىٰ الكعبة، وهي مجد العرب الأوّل. وكانت العرب عامّة وقريش خاصّة تأخذ مكانة متميّزة بفضل سدانة الكعبة،

---

(١) النحل: ١٢٠ .

فالقوافل التجارية التي كانت تعبر الطرق سواء للجنوب أو للشمال مثلاً كانت تتعرّض للنهب والسلب والاعتداء عدا قوافل العرب، فقد كانوا يعتبرونهم سكان بيت الله، ويحترمونهم من أجل الكعبة، فهم يكرمونهم لأنهم سدنة الكعبة.

فالقرآن الكريم أراد أن يوظّف هذين العاملين في خدمة الدعوة، فذكّرهم بأنهم ينتمون إلى إبراهيمعليه السلام، وإبراهيم هو باني البيت، فينبغي لهم أن يكونوا على منهجه، خصوصاً أن العرب كان عندهم هذا الاتّجاه، فكانوا عندما يُدعون إلى دين جديد فإنهم يقولون: **﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾**[1].

وهذا اللون من التقليد كان موجوداً عندهم؛ ولهذا السبب ذكّرتهم الآية الكريمة بأبيهم الأوّل.

المبحث الثاني: معنى الأُمّة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾**، فما معنى **﴿كَانَ أُمَّةً﴾**؟ الأُمّة هي الجماعة من الناس قلّوا أو كثروا[2] وتأويل الأُمّة بخلاف ذلك جهل؛ ولذلك حاولت بعض الأقلام ذات الأهداف غير السليمة أن تتّهم الشيعة بأنهم يشتمون العرب، لأنهم يخاطبون الحسينعليه السلام في زيارتهم له بقولهم: **«لعن الله أُمّة قتلتك»**[3]. وهذا مردود من جهتين:

---

(١) الزخرف: ٢٢.

(٢) الصحاح ٥: ١٨٦٤ ـ أمم، لسان العرب ١٢: ٢٨ ـ أمم.

(٣) مصباح المتهجّد: ٤٠٢، ٧٢١، وفيها: «فلعن»، ٧٢٢.

الأولى: أن الأُمّة هي الجماعة قلت أو كثرت[١].

الثانية: أن الإمام الحسين عليه السلام هو من العرب، وعندما يشتمون العرب فذلك يعني أنهم يشتمون الإمام الحسين عليه السلام نفسه.

فالواقع أن الأُمّة هي الجماعة، يقال: جاءت أُمّة من الناس، أي جماعة من الناس، وقد تطلق ويراد بها الشعب. إذن ما معنىٰ أن إبراهيم عليه السلام كان أُمّة؟ مع أن إبراهيم شخص واحد؟ وما هو المعنىٰ الذي يريده القرآن الكريم من ذلك حينما يقول: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾؟ هذا المقطع من الآية فيه ثلاثة آراء:

الرأي الأوّل: أنه كان يدعو إلى البر والخير

فالذي يدعو إلى البر والخير يسمى أُمّة[٢]. قال عبد اللّه بن مسعود: رحم اللّه معاذاً، إنه كان أُمّة. فقالوا له: لماذا؟ قال: إنه كان يدعو إلى الخير والبر، والذي يتصف بهذه الصفة يقال عنه: إنه أُمّة[٣].

وقد يقول قائل: إن الأنبياء كلّهم يدعون إلى الخير، ويدعون إلى البر، فلماذا تميز إبراهيم عليه السلام بهذا المعنىٰ، والحال أنه لا يوجد نبي لم يدعُ إلى الخير أو إلى البر؟ إن هذا يقتضي أن يسمىٰ كلّ نبي أُمّة. فلماذا اقتصرت هذه التسمية علىٰ إبراهيم عليه السلام؟

في الواقع أن إبراهيم عليه السلام تفرّد بأُمور كثيرة؛ فهو أوّل من أسّس الضيافة،

---

(١) الصحاح ٥: ١٨٦٤ ـ أمم.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٢: ٣٣٤ ـ سبط، لسان العرب ٧: ٣٠١ ـ سبط.

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢: ٣٥٨، ٣: ٢١٧، وقال ابن الأثير ـ بعد أن نقل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الحسين سبط من الأسباط» ـ ما نصّه: «أي أُمّة من الأمم في الخير». انظر الهامش السابق.

وأوّل من أسّس رعاية من يفد إلى بيت اللّٰه الحرام، إلى غير ذلك من أشياء تميز بها أكثر من غيره لدعوته إلى البر والخير؛ فلذلك عبر عنه بأنه أمّة.

وهنا يرد سؤال: ما العلاقة بين البر والخير وبين تسمية فاعلهما أُمّة؟

العلاقة هي أنه﵇ كان يحمل هموم أُمّة، يحمل همّ الجائع، وهمّ صاحب الحاجة وهمّ المنقطع .. كان﵇ يحمل هموم الأُمّة وتطلّعاتها؛ ولذلك عُبّر عنه بأنه أمّة؛ لوجود هذه العلاقة. فآلام الأُمة وآمالها هو من كان يجسدها، بما حملت من هموم، وتطلعات. وهناك في التاريخ أشخاص من هذا النوع مع أن أغلب الناس يعيشون لأنفسهم لا لغيرهم كما هو حال الأنبياء﵈. يقول أحد الشعراء:

إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر [1]

أي أن المهم أن أعيش أنا، ولا يهمني غيري. فهذا نمط يعيش لنفسه، وهناك نمط آخر يعيش لغيره، ولهذا يقول المفسرون عن النبيﷺ عندما يأتون إلى قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾[2]، يقولون: كلّ نفس تجادل عن نفسها ماعدا رسول اللّٰهﷺ، فكلّ واحد ينادي: نفسي، إلّا النبيﷺ، فإنه ينادي: «أُمّتي»[3]. فيحمل هموم أُمّة، وآلام أُمّة، وتطلّعات أُمّة. فهؤلاء في واقع الأمر لولا هذا العبء الذي يحملونه في أنفسهم لعاشوا عيشة في غاية الراحة والدعة. فمثلاً: رأيت أحد المؤرخين يقول: ما الذي

---

(١) عجز بيت لأبي فراس، وصدره:

معللتي بالوصل والموت دونه

ديوان أبي فراس: ١٥٧.

(٢) النحل: ١١١.

(٣) تفسير القمي ٢: ٤٢١، بحار الأنوار ٨: ٦٥ / ٢.

أخرج الإمام الحسين عليه السلام ؟ ولماذا عرض نفسه للإبادة؟ وهذا المتسائل من النوع الذي يعيش لنفسه. أمّا الإمام الحسين عليه السلام فهو من النوع الذي يعيش لأُمّة، ويعيش لمجتمع، يحمل هموم مجتمع، وتطلّعات مجتمع، فلا تستطيع أن تساويه مع الشخص الذي يعيش لنفسه. فالتعبير عنه بأنه أُمّة لأنه يمثل آلام الأُمّة وآمالها وتطلّعاتها.

الرأي الثاني: أن شرعيته تستمدّ من الأمّة

أي أن روح الأُمّة تجسدت به، وعليه فيكون الخروج علىٰ طاعته خروجاً علىٰ الأُمّة. وهذه النظرية تختلف عن النظرية الأُولىٰ، وهي موجودة حتىٰ عند الشعوب الأوروبية، فمثلاً «هيگل» أُستاذ «كارل ماركس» عندما يمر بتأريخ ملك بروسيا يقول: هذا يمثل الأُمّة فرداً فرداً، فإذا خرج أحد الأفراد علىٰ طاعته فكأنما خرج علىٰ الأُمّة بكاملها. وقد ألّف كتاباً أسماه (الروح الشعبية) يقول فيه: «الروح الشعبية تجسّدت في هذا الرجل، فأصبح الشخص الواحد إذا غلط وخرج عليه فكأنما خرج على الأُمّة».

وهذا المعنىٰ ـ أن الأُمّة كلّها متمثلة في إبراهيم عليه السلام، والخروج عليه خروج علىٰ الأُمّة ـ غير سليم؛ فنحن لا نستمدّ للأنبياء منزلتهم من إرادة الأُمّة .. هذه الإرادة التي يتغنّون بها دائماً. فيقول لك أحدهم: إن هذا الواقع يمثّل إرادة الأُمّة، أو: هذا يمثّل خلاصة مطلب الشعب، وحينما تأتي إلى الشعب تجده لا يعرف هذا الكلام كله، فهو مسكين يباع ويشترىٰ، ولا يشعر بنفسه إطلاقاً. فالواقع أن هذا اللون من الكلام ـ شرعية الأنبياء عليهم السلام تُستمدّ من الأُمّة ـ هو مغالطة، فنحن لا نلتمس مصدر الشرعية للنبي من الناس بل نلتمسه من السماء؛ لأن الناس في واقع الأمر أغلبهم لا يعرف منفعته من ضرره.

نظريتان في مصدر شرعية الخلافة

نعم، نشترط في الإمام العصمة والعدالة وأن يراعي مصالح الطبقات بأجمعها، نشترط هذا، لكن ليس معناه أن يستمدّ شرعيّته من الأُمّة، وهذا يجرّنا إلى الكلام حول الخلافة فنقول: هناك نظريتان فيها:

النظرية الأولى: الجعل والتعيين

وهي تنصّ علىٰ أن الخليفة يستمدّ شرعية وجوده من اللّه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[١]، ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾[٢]. وهذه النظرية هي التي عليها الإمامية[٣] وعليها مجموعة من المسلمين القائلين: إن تعيينه من قبل السماء.

النظرية الثانية: الشورىٰ

أي أن السماء لم تتدخل في مسألة الخلافة بل تركتها للمسلمين: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[٤]، فهم يختارون الذي يصلح لهم.

نقد نظرية الشورىٰ

وأول شيء يرد على هذه النظرية تساؤل مفاده: ما مبلغ علم هذا الفرد الجاهل بما يصلح له وما لا يصلح؟ وما مقدار معرفته؟ وما مقدار قدراته الذهنية والعقلية حتىٰ يقدّر أن هذا صح وهذا خطأ؟ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾[٥]، فالآية صريحة؛ لأنها راعت أدنىٰ مستوىٰ، وهو من لا يملك من العلم شيئاً يعتدّ به.

---

(١) البقرة: ٣٠. (٢) البقرة: ١٢٤.

(٣) عيون أخبار الرضا ﷺ ١: ٢١٠، بحار الأنوار ٤٩: ٢٠٣.

(٤) الشورىٰ: ٣٨. (٥) القصص ٦٨.

ثمّ إننا نقول لصاحب هذا الرأي: إنك تستند إلى الشورىٰ، أو الأمّة، لكن ما هو أدنىٰ عدد لهذه الأُمّة التي تمثّل المجتمع، أو التي تصلح لانتخاب الخليفة؟ وما هي قابلياتهم؟ في أوروبا التي يسمونها أُم الحريات أو في غير أوروبا إذا حصل انتخاب، فإن قسماً من المرشحين يعمل الولائم، فيأتي الناخب ليملأ بطنه، وقسماً يفرّق شيئاً من الدولارات فيأخذها الناخب، ثم ينتخب وينتهي الأمر. ونحن نسأل هذا السؤال: ما هو أدنىٰ عدد لهذه الأُمّة التي تنتخب؟ فيأتي الجواب: أهل الحل والعقد. ثم نسأل: كم عدد هؤلاء؟ فيقال: يكفي واحد. أي أنك إذا جاءك أحد وأنت تمشي في الطريق وقال لك: بايعتك إماماً، فقد وجبت طاعتك علىٰ الناس كافّة! هل هذا كلام يقرّه العقل؟ الإنسان له عقل، وعليه أن يحترم عقله.

وعليه فإن هؤلاء الذين يقولون: إن إبراهيم ﷺ كان أُمّة، بمعنى أنه تجسّدت فيه روح الأمة، وأن الخروج علىٰ طاعته خروج علىٰ الأمّة فإنما يجعلون شرعيّته مستمدة من الأُمّة، ونقول لهم: لا، ليس كذلك بل إن شرعيته مستمدّة من اللّه عز وجل، وهو الذي خلق الخلق ويعرف عباده، ويعرف من يصلح للنبوّة ومن لا يصلح.

إذن هذا الرأي لا سبيل إلى قبوله والأخذ به.

الرأي الثالث: أنه يشتمل علىٰ ماتشتمل عليه أُمّة من المعارف وغيرها

وهو رأي مهم، ذلك أننا يمكن أن نقول: إن هناك رجلاً يعدّ برجلٍ واحد، أي أنه بحجم رجل واحد، ليس فيه نقص ولا زيادة، فهو يمثل نفسه، وهناك رجلاً يساوي أُمّة، بمعنى قول الشاعر:

ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم في واحدِ[١]

فتراه في البطولة بطلاً، وفي الكرم معطاءً، وفي العلم نافذاً، وفي الأخلاق على جانب عالٍ. وهذه الصفات المجموعة فيه صفات متفرّقة في أمّة، فيصبح واحداً يعادل أمّة. يقول أحد الشعراء:

كل عضوٍ بالروع منه جموع

فهذا يمثل أُمّة؛ كون حجمه أكبر من حجم رجل واحد. أليس يقال في تاريخنا قديماً: إن فلاناً يعدّ بألف فارس؟ فهذا من قبيل هذا المعنىٰ. فكلمة أُمّة هنا تعني أن هذه الصفات لو وزّعت على أُمّة فإنها تكفيها.

وهناك رجل بالاسم فقط؛ إذ ليس له ميزة من المزايا، وهؤلاء أينما وجدوا وجد الطغاة، وحيث يوجد هؤلاء يوجد البغي والظلم، وإلّا فالرجال الرجال لا يسمحون للطغيان أن ينمو أبداً.

إذن عرفنا ما معنى الآية القرآنية: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾، وأنه يعني أن ما كان يحمله من الخِلال والقيم والمزايا لو وزع علىٰ أُمّة لكفاها.

شروط الإمامة

وفعلاً كان ﷺ كذلك فيما يحمل من قيم وأخلاق وبطولات. وهذا المعنىٰ هو الذي يذهب إليه الكثير من المحقّقين، وهو سليم ووجيه. ولذلك يشترطون في الإمام شروطاً هي أن يكون أعلم الناس وأعدلهم وأورعهم، مع أن بعض الناس يقولون: من أين لكم هذا؟ إنْ هذا إلّا كلام خيالي.

والجواب: أننا لا نعطي الإمام شيئاً فوق مستوىٰ الطبيعة البشريّة، وهذا

---

(١) البيت لأبي نؤاس. تاريخ بغداد ٤: ٣٦٧، شرح نهج البلاغة ٧: ٢٠٣، مختصر المعاني: ٣٠٦.

الغلط يوجد عند بعض الكتاب، فيتهموننا بأننا نغالي، والحال أننا لا نغالي أبداً، لكن لا نُنقص الإنسانية حقّاً من حقوقها. فالإنسانية فيها قابلية للسمو الذي لا حدود له، انظر إلى هذا الإنسان العادي، تجد أن من الممكن أن يصير بمستوىٰ أكبر من مستوىٰ الملائكة، ومن الممكن أن يكون بمستوىٰ أحطّ من مستوىٰ الشيطان؛ فهو يمتلك قابلية للهبوط وللارتفاع. ونحن إنما نقول في الإمام ما هو في حدود الطبيعة البشرية، أما إذا خرج ما يقال فيه عن الطبيعة البشرية فهنا يصبح غلوّاً، ونحن نرفض الغلوّ والغلاة، فالمغالي لا نزوّجه، ولا نغسله ولا ندفنه إذا مات[1]، بل نحن نخرج الغلاة من حضيرة الإسلام[2]. فنحن لا نغالي في الأيمّة، ولا نعطيهم إلّا ما تتّسع له طبيعتهم البشرية في أرقىٰ صورها؛ إذ أن الإمام في الذروة، وهو بشر في الذروة، فإن أعطاه أحد صفات غلوّ فإننا نأباها ونرفضها أشدّ الرفض، وقد مرّ الإمام أمير المؤمنين ﷺ في شهر رمضان، فرأىٰ جماعة جالسين يأكلون، فقال لهم: «**أنتم علىٰ سفر فتستعملون هذه الرخصة؟**». قالوا: لا. قال لهم: «**مرضىٰ؟**». قالوا: لا. قال: «**لماذا تأكلون في شهر رمضان؟**». فقالوا له: أنت.. أنت. فقال: «**من أنا؟**». قالوا: أنت إله (والعياذ بالله). فنزل الإمام من علىٰ راحلته، ومرّغ خدّه علىٰ التراب، وقال لهم: «**أنا عبد من عبيد الله، والله إن لم**

---

(١) البيان: ٢٤، ٢٨، ذخيرة المعاد ٢: ٣٢٧ (حجري).

(٢) المعتبر شرح المختصر ١: ١٩٨، منتهىٰ المطلب ١: ١٥٢، بل إن بعض فقهائنا يحكمون بنجاستهم، انظر: شرائع الإسلام ١: ١١ ـ ١٢، إيضاح الفوائد ١: ٢٦، وبعدم جواز أكل ما يذكّون، انظر: قواعد الأحكام ٣: ٣١٨، إيضاح الفوائد ٤: ١٢٧، وبعدم توريثهم، انظر تحرير الأحكام ٢: ١٧١ (حجري).

ترتدعوا لأضرمن عليكم ناراً»[1].

وكان الإمام الصادق يجلس في مجلسه ويلعن أبا الخطاب ويتبرّأ منه[2]؛ لأن هذا قد اتّخذ الغلو وسيلة لمنافعه.

وهناك الكثير غيره من الغلاة في تاريخ الأيمّة، وكانوا يلعنونهم في مجالسهم ويتبرؤون منهم، يقول الإمام الصادق: **«والله ما نحن إلّا عبيد الذي خلقنا»**[3]. أي نحن ناس عبيد، لكن نزهونا عن النواقص، ولا تصعدوا بنا إلى أكثر من مستوىٰ البشر.

إذن معنى أن إبراهيم كان أُمّةً، أنه كان ذروة بجميع ما تتسع له الطبيعة البشريّة، والله عز وجل يعطي الطبيعة البشرية بما تتسع إليه من مزايا، فهو تعالىٰ يسلّح الإمام أو النبي بجميع الإمكانات التي تتّسع لها طبيعته البشرية.

المبحث الثالث: معنىٰ القانت

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿قَانِتاً لِلّهِ﴾، القانت هو المطيع، فالقنوت: الطاعة، وهو من باب تسمية الشيء باسم لازمه؛ لأن القنوت هو الدوام علىٰ

---

(١) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٨٨ / ١٢٨، فتح الباري ٦: ١٠٦، ١٢: ٢٣٨، شرح نهج البلاغة ٥: ٥، ٨: ١٩٩، ولم يذكروا طرف القصة.

(٢) قال الصادق: «ملعون ملعون من أخّر المغرب طلباً لفضلها». فقيل له: إن أهل العراق يؤخّرون المغرب حتى تشتبك النجوم. فقال: «هذا من عمل عدوّ الله أبي الخطّاب». من لايحضره الفقيه ١: ٢٢٠ / ٦٦١.

وقال: «أبرأ إلى الله ممّا قال فيّ الأجدع البراد عبد بني أسد أبو الخطّاب لعنه الله». بحار الأنوار ٢٥: ٢٩٠.

(٣) اختيار معرفة الرجال ٢: ٤١٩ / ٤٠٣، بحار الأنوار ٢٥: ٢٨٩.

الخشوع، فإذا داوم أحد علىٰ الخشوع فقد اتّسم بسمة من سمات الطـاعة. ولوجود هذه العلاقة سماه اللّه تعالى قانتاً، يعني: مطيعا للّه عز وجل.

وقد يقول قائل: إن هذا تحصيل حاصل، كما نقول: الشمس مضيئة؛ فنحن عندما نقول: إن إبراهيم مطيع للّه فهذا ليس شيئاً جديداً. فكل واحد مـطيع للّه. فما معنىٰ ﴿**قَانِتاً لِلّهِ**﴾إذن؟

والجواب أن يقال هنا: إن اللّه تعالى يريد أن يبين أن طبيعة الأنبياء تتميز بما منحها اللّه عز وجل من لطف عن طبائع سائر الناس بشيء مهم، هو أن طاعة الأنبياء عليهم السلام وعبادتهم لا يخالطها عامل آخر غير عامل العبادة. أما كيف ذلك، فنقول: نحن غالبا ما تتداخل عندنا العوامل في سلوكيّاتنا، فإذا أراد أحدنا أن يسلك سلوكاً معيناً فإنك ترىٰ دوافعه تتداخل، فحينما يدافع عن مظلوم، فلك أن تتساءل عن الهدف، فلو كان لمجرّد الدفاع عن المظلوم فهو فضيلة، لكن ما الشيء الذي يختلط بذلك عنده؟ يختلط عنده عامل النفوذ والقوة به، فهو لا يخلص العمل للّه، ولم يجعل نيّته فيه خالصة له تعالى وحده، وإنما أدخل معها عاملاً ثانياً من غير سنخها.

ثم أليست الرواية تقول بأنه يؤتىٰ يوم القيامة بأحد العلماء البارعين، وهو يقول: يا رب، أنا كتبت وألّفت في سبيل دينك. فيقول له اللّه عز وجل: لا ولا كرامة لك، إنك إنما صنعت ذلك ليكثر خلفك خفق النعال، خذوه إلى النار. ويأتي آخر فيقول: يارب أنا بذلت في سبيلك، وأعطيت وأكرمت ووصلت، وكلّ ما عندي من أموال أعطيتها. فيقول له اللّه تعالى: لا ولا كرامة لك، إنما صنعت ذلك لكي يقال: إنك جواد، خذوه إلى النار. ويأتي ثالث فيقول: يـا رب، أنا قد أخذت سيفي وقاتلت وجرحت، وقتلت في سبيلك. فيقول له اللّه

تعالى: لا ولا كرامة لك؛ لأنك أردت أن يقال لك: إنك شجاع.

أما الأنبياء فلا يتداخل في سلوكهم عامل إضافي إلى جانب العبادة في أي نمط من أنماط سلوكهم، فكلّ السلوك الذي عندهم سلوك عبادي المقصود به وجه اللّه:

ومـا ثـمّ إلا اللّـهُ فـي كـلّ حـالةٍ ... فلا تعتمدْ يوماً علىٰ غير لطفِهِ[1]

إذن معنىٰ ﴿قَانِتاً﴾: مطيعا للّه، وهذه سمة الأنبياء، وإبراهيم أبو الأنبياء، فطاعته لا يشوبها عامل من العوامل الأُخرى التي يمكن أن تدخل كعامل إضافي في عبادة غيره من الناس للّه تبارك وتعالىٰ. ولعل مظهراً من مظاهر الطاعة هو الدعاء، والعلاقة التي بين الدعاء وبين هذه العملية التي نحن نؤديها فيالصلاة ـ وهي أن يرفع الإنسان يديه ويدعو في القنوت ـ هي بهذا المعنىٰ.

حكم القنوت والهدف منه

وهذا يجرّنا إلى السؤال التالي: ما حكم القنوت في الصلاة؟

الجواب: عند بعض المذاهب الإسلامية وهم الأحناف[2] والحنابلة[3] أنه لا

---

(١) لأمير المؤمنين بيتان قريبان من هذا:

لَعَمْرُكَ مَا الإنْسَانُ إلَّا بِدِيْنِهِ ... فَلاَ تَتْرِكِ التَّقْوَى اتِّكالاً عَلَى النَّسَبْ

فَقَدْ رَفَعَ الإِسْلاَمُ سَلْمَانَ فَارِسٍ ... وَقَدْ وَضَعَ الشِّرْكُ الشَّرِيْفَ أَبَا لَهَبْ

ديوان الإمام علي بن أبي طالب: ٢٨ .

وروي صدر البيت الأول هكذا:

عليكَ بتقوى اللّهِ في كلِّ حالةٍ

تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ١٧٣ .

(٢) المبسوط ١: ١٦٥ ، تحفة الفقهاء ١: ٢٠٣ .

(٣) المغني ١: ٧٨٨.

يصحّ إلّا بالوتر، فلا يصحّ القنوت إلّا في هذه الركعة، فالقنوت في الوتر فقط.
أما عند المالكية[١] والشافعية[٢] فليس كذلك، وإنما يُقنت في صلاة الصبح من بعد ما يرفع المصلّي رأسه من ركوع الركعة الثانية. أما عند الإمامية فهو مستحب في الصلوات[٣].

وهناك سؤال آخر هو: ما الهدف من القنوت؟

والجواب: هو أننا الآن في طاعة الله، ونحن واقفون في الصلاة بين يدي اللّه عز وجل وفي طاعته، لكن اللّه عزّ وجل يريد أن يعطي، وعندما يعطي فإنه يريد من عبده أن يسأل، فيجب ألّا نسأل إلّا اللّه؛ لأنه يقول عن عبده: **«إن دنا مني شبراً دنوت منه ذراعاً، وإن دنا مني ذراعاً دنوت منه باعاً»**[٤]، ويقول: **«مَنِ استطعمني فلم أُطعمه؟»**.

أي أنه تعالىٰ يقول: إذا طلب أعطيته. والكرم نوعان: نوع تطلبه أنت، ونوع هو يطلبه من عندك أي أنه يطلب منك أن تسأله كي يعطيك؛ لأنه معطاء يريد أن يعطي؛ فلذا هو يريد من يسأل. يقول أحد شعرائنا:

إني دعوت ندىٰ الكرامِ فلم يُجبْ ... فلأشكرنّ ندىً أجابَ وما دُعيْ

ومن العجائبِ والعجائبُ جمةٌ ... شكرٌ بطيءٌ عن ندىً متسرّعِ[٥]

وفي الواقع إن القنوت هو دعوة إلى اللّٰه تعالىٰ.

---

(١) مواهب الجليل ٢: ٢٤٣.

(٢) فتح العزيز ٣: ٤٤٠، المجموع شرح المهذب ٣: ٤٩٤، ٥٠٤، ٤: ٢٤، روضة الطالبين ١: ٤٣٢.

(٣) الرسائل العشر (ابن فهد): ١٥٩، مدارك الأحكام ٣: ١٩.

(٤) أمالي المرتضىٰ ٢: ٦، الدعاء (الطبراني): ٥٢٣.

(٥) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٨٤.

وقد يتساءل البعض فيقول: لماذا نُدير الخاتم، ونوجه فصّه للسماء، وبعد ذلك نرفع أيدينا إليها ثمّ نرفع رؤوسنا، والحال أن اللّه عز وجل في كلّ مكان، لا يخلو منه مكان: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إلا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[١]؟

الجواب: لأن السماء باب الدعاء، والآية الكريمة تقول: **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾**[٢] وليس لأن اللّه عز وجل بجهة حاشا، فالكون كله بقبضته، وهو تبارك وتعالى لا يخلو منه مكان، ولا يحويه مكان: **﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ﴾**[٣].

إذن هذا القنوت هو لون من ألوان الدعاء، فالإنسان إنما يعبد حينما يدعو؛ لأن الدعاء بحدّ ذاته عبادة، كما أن واقع الداعي هو الشعور بالنقص، وطلبٌ لإكمال النقص من الكامل. فأنا عندما أقول: ربي عافني، فلأني أمرض، وأعرف أنني عندما أمرض لا يعطيني العافية إلّا اللّه عز وجل؛ فلذلك أنا أطلب إكمال هذا النقص من الكامل، وإلّا لو كان يمرض مثلي فما الفائدة؟ إن طلبي يصبح حينها عبثاً. مرّ الإسكندر يوماً ومعه جيوشه الهائلة علىٰ رجل يدعو، وكان منغمراً ذائباً بالدعاء، ولم يتحرك أبداً أمام جيش الإسكندر، فدنا الإسكندر منه وقال: لمَ لمْ تتحرك؟ ألم تخف من هذا الجيش وهذه العدة وصكصكة اللجم وصليل السلاح؟ أما أرعبك هذا؟ قال: لا . قال: لماذا؟ قال: كنت مع من هو أكبر منك، كنت مع اللّه.

فهزت هذه الكلمة الإسكندر، وقال له: واللّه مثلك فليدّخر، إني أُحبّ أن أصطحبك معي . قال: لا، أنا لا أستطيع أن أذهب معك . قال: لماذا؟ قال: هل

---

(١) المجادلة: ٧.   (٢) فاطر: ١٠.
(٣) البقرة: ١١٥.

تستطيع أن تعطيني حياة ليس معها موت، وتعطيني عافية ليس معها مرض، وتعطيني غنى ليس معه فقر؟ قال: كلا، هذا شيء لا أستطيع أن أؤمّنه حتىٰ لنفسي. فقال: أنا مع من يؤمّنه لي، فاللّٰه عز وجل يستطيع أن يعطيني هذه الأشياء.. يعطيني عافية بلا مرض، ويعطيني حياة بلا موت، ويعطيني غنى بلا فقر، فلماذا أترك اللّه وآتي معك؟

إذن الدعاء هو عبارة عن شعور بالنقص وطلب إكمال النقص من الكامل، فالقرآن يقول: إن إبراهيم عليه السلام كان قانتاً مطيعاً للّه تعالىٰ، مداوماً علىٰ الطاعة والانقطاع إليه.

المبحث الرابع: ديانة الأنبياء عليهم السلام قبل أن يبعثوا

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿حَنِيفاً وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فقد كان العرب يقولون: نحن علىٰ ملّة إبراهيم الخليل عليه السلام، ومع ذلك فهم حينما يطوفون بالبيت الحرام يقولون:

لبيك لا شريكَ لكْ إلا شريكاً هو لكْ

تملكه وما ملكْ

فكيف يقولون:

لبيك لا شريكَ لكْ تملكه وما ملكْ

فإذا كان شريكاً للّه، فقد صار ندّاً له، لأنهم يقولون: إن الأصنام أبناء اللّه، وهي عوامل مساعدة للسماء. فهؤلاء مع أنهم كانوا يعلنون بأنهم علىٰ ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، لكنهم في حقيقة الأمر مشركون، وكلّ واحد منهم كان يحمل هذا الشعار، مع أن كل واحد منهم يعبد صنماً أو هوى أو نصباً، فقال

لهم القرآن: إن إبراهيم ما كان مشركاً حتىٰ تدّعوا أنكم علىٰ ملته.

ولهذا فالعلماء دائماً يبحثون أمراً هو أن نبيّنا محمّداً ﷺ خلال هذه الفترة قبل أن يبعث هل كان مشركاً؟ وهل كان الأنبياء مشركين قبل أن يبعثوا أم لا؟

والجواب: أن النبي ﷺ لا يكون مشركاً أبداً، ولا يمكن أن يكون كافراً غير معترف بالله. لماذا؟ لأن المفروض أن النبي يجب ألّا يعتوِره نقص يؤدي إلى توهين منزلته، فإذا كان أحد بالأمس مشركاً ثم يأتي بعد ذلك يدعو الناس إلى وحدانية الله فإنهم سيقولون له: متىٰ صرت موحّداً وبالأمس كنت تعبد الأصنام؟ فلا تكون له حينئذٍ منزلة في النفوس، لكن عندما يكون طاهراً مطهراً بعيداً عن درن الأصنام، فإن منزلته قطعاً ستكون متمكنة في النفس أكثر. فالأنبياء كانوا يعبدون الله علىٰ الرسالات العامة قبل أن يبعثوا، ونبيّنا ﷺ كان يعبد الله علىٰ ملة إبراهيم الخليل قبل بعثته.

وقد يعترض البعض فيقول: لا، لأنه ﷺ إذا عبدَ الله علىٰ ملة إبراهيم عليه السلام صار تابعاً، والمتبوع أفضل من التابع، وهذا يؤدي إلى نقصان منزلة النبي ﷺ.

والجواب أنه ﷺ ليس تابعاً لإبراهيم عليه السلام، وإنما هو تابع للّه عز وجل، وإبراهيم عليه السلام إنما هو قناة يمرّ عبرها الوحي ليس إلّا. والأنبياء عليهم السلام ليس عندهم شريعة يخترعونها من ذاتهم، وإنما هم حملة إرادة السماء، وحملة إرادة اللّه. فإذا قيل: إن أحداً تابع لهذا النبي، فيعني أنه تابع للّه عبر هذا النبي. ولذلك فإننا لا نعطي النبي ﷺ حق الاجتهاد أبداً، مع أن البعض ببالغ الأسف يعطي للإنسان حق التشريع فيقول: إن هذا يستحسن أن يعمل الشيء

الفلاني، فيصبح ذلك حكماً شرعياً، أو يُقرّ ما يسمى «نظرية التصويب» حيث يقول أصحابها: إنه ليس للّه عز وجل حكم واقعي، بل إن الحكم الواقعي هو عبارة عن الفتوىٰ التي تصدر من العالم، فإنه إذا أفتىٰ بشيء فهو حكم اللّه الواقعي.

ونحن نقول: لا ؛ لأن وظيفة العالم هي أن يبحث عن الحكم الواقعي ؛ فإن أصابه حصل على أجرين، وإن أخطأه حصل على أجر[1]؛ لأن اللّه عز وجل هو الذي يشرّع الأحكام، وليس من حق أحد أن يأمر وينهىٰ. والناس عبيد لله، وعليهم امتثال ما أمر به اللّه عز وجل .

المبحث الخامس: خصائص الإمام وصفاته

﴿وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فالمفروض بالنبي ﷺ أن يحمل رسالة السماء، والإمام امتداد للنبي، أي أنه يجسّد رسالة السماء، وإذا كان كذلك فكيف نستطيع أن نعبر عن أحد بأنه أمير المؤمنين، مع أنه يصعد علىٰ المنبر ويقول:

ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسلْ
لأهلّوا واستهلوا فرحاً	ثم قالوا يا يزيد لا تشلْ
قد قتلنا القرم من ساداتهم	وعدلنا ميل بدرٍ فاعتدلْ
وأخذنا الثأر من آل علي	وقتلنا الفارس الليث البطلْ
لعبت هاشم بالملك فلا	خبر جاء ولا وحي نزلْ[2]

---

(١) انظر: الأم ٦: ٢١٦، ٧: ٩٩، ٢٩٢، ٣٠٠، ٣١٥، ٣١٧، مسند أحمد ٤: ١٩٨، ٢٠٤، وغيرها.

(٢) سبق أن نوّهنا في ج ٢ ص ٨٠ هـ ٤ من كتابنا هذا إلى أن هذه الأبيات لعبد الله بن الزبعرى، وأن يزيد تمثّل بها وأضاف عليها في مناسبتين:

ثم يأتيك من أصحاب الكلمة غير المسؤولة من يرمي القول على عواهنه، فيقول: هذا الشعر اخترعه الشيعة[1]. ودونك عشرات المصادر التي ترويه[2]، وهي بين يديك. فالذي يقول:

لعبت هاشم بالملك فلا   خبر جاء ولا وحي نزلْ

هل يمكن أن نسميه أمير المؤمنين؟ وهل يستحقّ هذا اللقب وهو الذي عندما جيء إليه بالسبايا قام إليه أحد من كانوا في مجلسه وقال: هؤلاء خوارج؟ قال: بلى. قال: إن بيتي خالٍ، وهؤلاء بغاة علىٰ الإمام ويصح أن نستخدمهم، ولا توجد عندي خادمة، وأنا أُريد هذه الجارية خادمة في بيتي. وأشار إلى فاطمة بنت الإمام الحسين، تقول فاطمة: فتعلقت بثياب عمتي زينب، وقلت: عمة مع الأسر أُستخدم وأنا ابنة الحسين؟ فقالت له: «مه، ما جعل اللّه ذلك لك ولا لأميرك». فقال لها يزيد: بلى لو شئت أفعل ذلك لفعلت. قالت: «كلا إلّا أن تخرج عن ديننا وتدين بغير ملتنا». فقال: إياي تستقبلين؟ إنما خرج عن الدين أبوك وأخوك. فعند ذلك اختنقت بعبرتها، وغالبتها دموعها، ثمّ قالت: «يزيد أنت أمير تشتم ظالماً وأنا امرأة»:

☚ الأُولىٰ: عند قتله سيّد شباب أهل الجنة. انظر: بلاغات النساء: ٢١، ٢٢، البداية والنهاية ٨: ٢٠٩، ٢٢٢، ٢٤٦، وفيها قال ابن كثير: فهذا إن قاله يزيد بن معاوية فلعنة اللّه عليه ولعنة اللاعنين، وإن لم يكن قاله فلعنة اللّه علىٰ من وضعه عليه.
الثانية: عند واقعة الحرّة. انظر: الأخبار الطوال: ٢٦٧، تاريخ الطبري ٨: ١٨٧، ضمن الكتاب الذي أخرجه المعتضد في لعن معاوية وأبيه وابنه. النصائح الكافية: ٢٣٦.

(١) البداية والنهاية ٨: ٢٤٦.

(٢) انظر الهامش قبل السابق.

لا والدٌ لي ولا عــــمٌ ألوذ بـــه ولا أخ لي بقي أرجوه ذو رحمٍ[١]

* * *

أنه امنين أبـو فـاضل أجـيبه أراويــه حـال اخـته الغـريبه

فالتفتت يميناً وشمالاً، فلم تجد أحـداً حـولها، فكـتمت لوعـتها إلى أن أُدخلت إلى الخربة، ودلفت إلى رأس أبي عبد اللّٰه:

المـن بـعد يـحسين مـنواي ظلني انكطع وانكطع رجواي

* * *

أأخي مـن يـحمي بـنات مـحمدٍ إن صرن يسترحمن من لا يرحمُ

---

(١) شجرة طوبى ١: ١٢٩، وله بيت ثانٍ هو:

أخي ذبيـح ورحلي قد أُبـيح وبـي ضاق الفسيح وأطفالي بغير حـميْ

﴿٧٥﴾

في ذكرى الرسول الأعظم ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: تأبين السيد عبد الأعلى السبزواري ﵀

إنا للّه وإنا اليه راجعون، بمزيد من الأسى واللوعة ننعى علماً من أعلامنا، ورائداً من روّاد الحركة العلميّة، وإماماً من أيمّة الفقه، ورجلاً مجاهداً مرت عليه هذه السنون وهو في طريق الصمود إزاء ما كان يحدث داخل العراق.

من ملامح شخصيّته الشريفة

كان الرجل غاية في الصلابة في موقفه، ولقد تميز بجملة من المميزات، منها:

الأوّل: التحقيق والتدقيق

فقد عرف بالتحقيق من بواكير عمره، فحينما كنت طفلاً، كان السيد

---

(١) البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧.

مستأجراً لأحد بيوتنا وهو بيت الشيخ مهدي الكاظمي﴿ره﴾ ، في منطقة العمارة مقابل آل الشيخ راضي . فكنت أخرج صباحاً إلى بيت أُختي فأراه وأرى مجلسه حاشداً ؛ لأن باب مكتبه «البراني» الذي يجلس فيه يكون مفتوحاً عادة . فكنت أرى رجالاً ووجوهاً من طلاب العلم كان يتولّى تدريسهم .

وبعد ذلك كانت لي به صلة أيضاً . فقد كانت لدينا قطعة في الكوفة فيها مشتمل مقابل بيت السيد الخوئي﴿ره﴾[1] . فسكنه إلى أن ألجؤونا إلى إخراجه منه . فكنت على تماسّ به إلى حد ما .

الثاني : بروز الجانب الفلسفي عنده

لقد كان كثير الصمت قليل الكلام ، وكانت كلماته غاية في الانتقاء ، وأداؤه غاية في الروعة والدقّة . وقد عرف من بواكير عمره أنه بارع في تدريس الحكمة الإلهية ، وهذا ما انعكس في مؤلّفه الثمين (مواهب الرحمن في تفسير القرآن) . فقارئه يلمس الروح العرفانية واضحة في أدائه﴿ره﴾ .

الثالث: الصلابة والحدية

وقد عرف أيضاً بالصلابة في رأيه ، فلم يكن يحيد عن رأيه ، فقد مرت هذه النكبات ، وتعرض فيها للكثير من الضغوط ، فما لان ولا انهار ، وواصل مسيرته العلمية ، فكان له الباع الطويل في الفقه والتفسير . وكان من المأمول أن يمد اللّه في عمره ليكمل مسيرة التفسير الذي صدر منه إلى الآن أحد عشر جزءاً ، حيث إن الأجزاء الباقية كانت في طريقها إلى الصدور . وفي تفسيره لفتات غاية في الروعة ، وعطاء غاية في الثراء ؛ فهو إلى جانب الفقه

---

(١) توفي في ٨ / ٢ / ١٤١٢ هـ .

والحكمة كان ضليعاً في التفسير، كبيراً في الأخلاق، عظيماً في النفس، على خط آبائه الطاهرين وأجداده المنتجبين عليهم السلام. وقد شاء الله لهذه الحياة الحافلة الحاشدة أن تُختتم في مثل هذا اليوم في ليلة وفاة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله ليلتحق به.

ولئن انتقل علم من أعلامنا فلله الحمد، إن «ديار علي والحسين وجعفر»[1] غنية بالعطاء من الأفذاذ الذين سوف يملؤون الساحة، ولئن رُزئنا بالتدريج بهم واحداً بعد واحد، فإن أملنا بالله عزّ وجل أن يمدّ بأعمار قادتنا الموجودين، كالسيد الگلبايگاني[2] والسيستاني (أمد الله في عمرهما)، وباقي مراجعنا العظام في النجف أو في قم أو في أي مكان. والله وحده نسأل أن يمدّ في أعمارهم وأن يأخذ بأيديهم لنشر فكر آل محمد صلى الله عليه وآله، ولإكمال مسيرتهم في طريق العطاء وحمل هذه الأمانة والرسالة المقدّسة. وما خلت لنا مدرسة في يوم من الأيام، ولن تخلو ما دمنا في ظلال آل محمد صلى الله عليه وآله، وفي ربيعهم وفكرهم عليهم السلام؛ فالله وحده هو المسؤول أن يعوّضنا عن هذه الخسارة الفادحة.

ولئن تعرَّض إلى الضغط في حياته فقد تعرّض له بعد وفاته[3]؛ فما سُمح لجنازته أن تشيّع في هذا اليوم إلاّ على مستوى أفراد قلائل، ونقل من الصحن الشريف إلى المقبرة لبضع خطوات، حيث ووري عند أمير المؤمنين عليه السلام وفي ظلّ حامي الحمى. (فرحم الله تلك الروح الطاهرة، وأغدق عليها شآبيب رحمته). فعزاؤنا لأيمّة المسلمين وقادتهم وللحوزة العلمية التي نأمل أن

---

(١) صدر بيت عجزه: وحمزة والسجّاد ذي الثفنات. ديوان دعبل الخزاعي: ٣٨.

(٢) توفي في ٢٦ / ٢ / ١٤١٤ هـ.

(٣) توفي في ٢٧ / ٢ / ١٤١٤ هـ.

تكون منجبة لأكثر من واحد وواحد، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم، وإنا لله وإنا اليه راجعون.

المبحث الثاني: مراحل حياة الرسول الأعظم ﷺ

وفي هذا اليوم سيكون ختام هذا المجلس الطاهر في ذكرى الرسول الكريم، نبينا وشفيعنا محمد المصطفى ﷺ، وللتعرّف على حياته وسيرته (صلوات اللّه عليه وعلىٰ آله) لابدّ من المرور بمراحل ثلاث من هذه الحياة الشريفة، وهي مراحل ملؤها العطاء:

المرحلة الأولى: من ولادته حتى بعثته ﷺ

ولد ﷺ في مكّة المكرّمة[1]، وقد اعتاد المؤرّخون أمراً هو أنهم إذا مرّوا بولادته ﷺ فإنهم يذكرون إرهاصات وأُموراً جرت معها وساوقتها. لكن نقول: إن الواقع أن هذه الأُمور لا تزيد الرسول ﷺ شيئاً فوق ما هو عليه.

إرهاصات ولادته ﷺ

ومن هذه الأُمور التي يذكرها المؤرخون أنْ فاضت بحيرة السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، ومنعت الشياطين من استراق السمع[2]، وغيرها[3]. وهذا التماس للمناقب من خارج ذات الرسول ﷺ، وهو غني عن ذلك، فكل لحظة من لحظات حياته عطاء ومكسب من المكاسب لهذه الأُمة ما زال يمدّها ويرفدها. فسواء غارت النجوم أو منع الشياطين من استراق السمع أو غاضت بحيرة ساوة أو لم يكن، فإن ذلك لا يعطي النبي ﷺ شيئاً أكبر مما

---

(١) في ١٧ / ربيع الأول من عام الفيل.

(٢) قال تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَدًا﴾. الجن: ٩.

(٣) انظر كل ذلك في مناقب آل أبي طالب ١: ٢٧ ـ ٣١، أُسد الغابة ٥: ٥٢.

أعطاه الله، فهوﷺ منذ ولادته ولد في أقدس الحجور وأطهر البيوت، فبيت الرسولﷺ ـ وهذا معروف على تسلسله ـ ما خضع لنكاح من أنكحة الجاهلية. يقول البوصيري:

لم تزلْ في ضمائر الكون تُختا ... رُ لك الأمهاتُ والآباءُ

تتباهى بك العصور وتسمو ... بك علياء بعدها علياءُ

وبدا للوجود منك كريمٌ ... من كريمٍ آباؤه كرماءُ

نسبٌ تحسبُ العُلا بحُلاها ... قلّدتها نجومَها الجوزاءُ

حبّذا عقدُ سؤددٍ وفخارٍ ... أنت منه اليتيمةُ العصماءُ[1]

فرسول اللّهﷺ ولد في بيت طاهر، ولم يتطّرق إلى نسبه شيء من العقود التي كانت في الجاهلية.

وألفت النظر هنا إلى أن الإسلام لم يقدح بالعقود التي كانت في الجاهلية: «لكل قوم نكاح»[2]. فأقرّهم على ما هم عليه، وكان معظم الصحابة مولودين من زواج على غير الصيغة الإسلامية. فكان العقد في الجاهليّة أن يوجّه الإنسان باب خباء إلى باب خباء، أو باتّباع اصطلاحات أُخرى بحيث لو صدرت الآن فإننا لا نقرّها، لكنها صادرة منهم، و«لكل قوم نكاح». وبتعبير آخر إن إبراز الإرادة تارة يكون لفظياً وأُخرى يتمّ عملياً، وهذا مثل البيع المعاطاتي الذي يتم دون إجراء لفظ العقد بصيغته الشرعية التي ينبغي أن يقول البائع فيها: بعتك، ويقول المشتري: اشتريت. وكذلك العقود التي كانت في الجاهلية فإنها مبرزة للإرادة، فأقرّها الإسلام. ولكن عرف عن بيت رسول

---

(١) ديوان البوصيري: ٩.

(٢) تهذيب الأحكام ٧: ٤٧٢ / ١٨٩١، المهذب (ابن براج): ٢٥٥.

اللّه﴿ص﴾ أنه انتقل من الأصلاب الطيّبة إلى الأرحام الطاهرة: «**أشهد أنكم كنتم نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، لم تنجّسكم الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسكم من مدلهمّات ثيابها**»[١].

فترعرع﴿ص﴾ في ذلك البيت الذي حنا عليه؛ لأنه عاش يتيم الأبوين، فقد توفّي أبوه وهو في بطن أُمه، وتوفيت أُمه وعمره ستة أشهر، فحرم من عطف الأبوين. ولكن شاء اللّه أن يستبدله بحجر عوَّضَهُ ذلك العطف بل زاد على ما كان متوقعاً، وهو حجر جده عبد المطلب﴿ع﴾، وبيت عمه أبـي طـالب﴿ع﴾، وحجر هذه المرأة الطاهرة الرائدة في دنيا الإسلام فاطمة بنت أسد (رضـي اللّه عنها) التي كفلته وحملته. وكان﴿ص﴾ ينقل عنها أن أولادها يصبحون وقد يكون أحدهم مترباً، في حين أنه﴿ص﴾ يصبح وقد دُهن شعره ورُجِّل وغسل وأُلبس ثياباً جدداً. وكانت تحرم أولادها من الطعام وتقدّمه له﴿ص﴾. ولذلك كان يقول عنها: «**أمي**»[٢].

وعندما توفيت شيّعها﴿ص﴾ وقال لأمير المؤمنين﴿ع﴾: «**إذا أدخلتها إلى القبر فأخبرني**». فنزل﴿ع﴾ إلى القبر، ونزل رسول اللّه﴿ص﴾ معها، فكفّنها بـردائـه، وأضجعها بيده، وخرج والتأثّر بادٍ على وجهه، ثم قال: «**أردت أن يخفف اللّه عنها ضغطة القبر وأن يقيها بردائي**»[٣].

أما عمه أبو طالب﴿ع﴾ فقد وقف معه مواقف سوف نعرفها عندما نمرّ بالدور

---

(١) مصباح المتهجد: ٧٢١ / ٨٠٧.

(٢) المعجم الكبير ٢٤: ٣٥١، المعجم الأوسط ١: ٦٧، كنز العمّال ١٣: ٣٣٥ ـ ٣٣٦ / ٣٧٦٠٧.

(٣) قريب منه في عين العبرة: ٦٨، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٠٨، كنز العمّال ١٣: ١٣٥ ـ ٦٣٦ / ٣٧٦٠٦ ـ ٣٧٦٠٧.

الثاني من حياتهﷺ.

فنشأﷺ وترعرع في هذا البيت الطاهر، ولم يألف مجتمعاً من مجتمعات قريش التي كانت في مكّة، وكان يتحنّف في طفولته. ويختلف المفسّرون والكتّاب في أنهﷺ هل كان يتحنّف على الحنيفيّة التي هي ملّة إبراهيم الخليلعليه السلام، أو أن اللّه ألهمه أن يتحنّف على طريقته، لهم في هذه المسألة رأيان، وكل رأي له جماعته وأنصاره. لكن المهم أن النبيﷺ كان يخرج فيطيل النظر إلى السماء، ويقلب طرفه في الكواكب كأنه يتوقّع حدثاً جديداً.

وكانﷺ يخرج قبيل بعثته إلى غار حراء فيأخذ الإمام علياًعليه السلام معه آنذاك وهو لا يزال طفلاً صغيراً، يقول البوصيري في همزيّته:

ألِفَ النُّسكَ والعبادة والخلـ ـوةَ طفلاً وهكذا النجباءُ

وإذا حلَّت الهدايةُ قلباً نشطت في العبادة الأعضاءُ[1]

فكانﷺ يخرج هناك يدعو الله ويتضرع إليه، ويتأمل في الكواكب ويقلب طرفه فيها. ومكث هذه الفترة الطويلة في مجتمع قريش وليس هو معهم. وكانﷺ يلقب بالصادق والأمين؛ لأنه كان متّصفاً بكلّ صفات الصدق والأمانة، بحيث إن قريشاً كانت إذا أهمّها أمر رجعت إلى رأيه، وكانت تسميه المبارك.

الرسولﷺ يفضّ النزاع في رفع الحجر الأسود

فمن المعروف أنه هو الذي فضّ النزاع بين قريش في موضوع وضع الحجر الأسود في الكعبة، وإلّا فإن الأمر كان قد وصل إلى القتال بين قبائل

---

(١) ديوان البوصيري: ٩.

قريش، فكلّ قبيلة تريد أن تضع الحجر بنفسها. وجاء رسول اللّه ﷺ فأمرهم أن يضعوا إزاراً ويضعوا عليه الحجر، وتتوزّع القبائل على جوانبه الأربعة فيحملوه دفعة واحدة، فلما رفعوه وضعه بيده الشريفة في مكانه[1].

لقد عرف بسداد الرأي وحصافة الفكر منذ طفولته، وعرف بالطهر الطاهر، فقد كان بعيداً عن آثام قريش ولم تدنّسه أوضار الجاهليّة. وإنما كان يخرج وليس له من لِدَةٍ يألفها إلّا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وبعض اللِّدات الذين لم يُلقِ التاريخ عليهم كثيراً من الأضواء، ولكن المعروف عنه أنه كان يألف علي بن أبي طالب عليه السلام، فكان يحمله على صدره ويطوف به شعاب مكّة ويقول: **«أخي ووزيري وناصري وخليفتي من بعدي»**[2]. وكان إذا عاد إلى البيت عاد بعلي عليه السلام معه.

وقد قضى ﷺ هذا الدور إلى أيام زواجه من خديجة عليها السلام، وكان يصرّ خلال هذه الفترة على أن يعمل ولا يأكل إلّا من عمله، فاشتغل ﷺ في كثير من الأعمال كان آخرها العمل في التجارة مع خديجة عليها السلام التي كان لها الكثير الكثير من الأموال، وكان التجار القرشيّون يضاربون بأموالها ويقترضون منها. ويقول بعض المؤرّخين عن أموال خديجة: لو أن رجلاً وقف بهذا الجانب، ووقف رجل آخر بذاك الجانب ووضعت بينهما أموال خديجة عليها السلام لما رأى أحدهما الآخر لما تشكّله هذه الأموال من تلٍّ من بدر الدنانير

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠٠، المستدرك على الصحيحين ١: ٤٥٨.

(٢) ورد هذا الحديث عن الصادق الأمين ﷺ في حق أمير المؤمنين عليه السلام بصيغ كثيرة ومناسبات عدّة، انظر: الكافي ١: ٣٢١ / ٧، الأمالي (الصدوق): ٣٥٤ / ٤٣٢، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ١٢٦ / ٨٤٥١، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١.

والدراهم[١]، وقد ساقتها بأجمعها إلى بيت النبيﷺ، وساقت معها ثمانية آلاف ناقة، ومن الحلي والحلل ما أطنب التاريخ في وصفه، كلّ ذلك كان في خدمة الإسلام[٢]، وآل بها الأمر أن تضطجع مع النبيﷺ على جلد كبش، فقد أنفقت كلّ ذلك في سبيل الله.

نعم لقد اشتغل النبيﷺ مع خديجة بأن ذهب في تجارة لها مع غلامها ميسرة، وقد أوصت غلامها ميسرة أن يراقب النبيﷺ في بيعه وشرائه، فكان يراقبه فيرىٰ أنه إذا مشى في الصحراء انفصلت غمامة من الغمام فتظلّل على رأسه وتدفع عنه حرّ الشمس، وتميل معه أينما مال. فأخبر ميسرة خديجةؑ وقال لها: واللّه لقد رأيت صدقه وعفافه وأمانته، ورأيت الغمامة تظلّله، يقول البوصيري:

ورأته خديجةُ والتُّقى والـ ـجودُ منه سجيّة والحياءُ

---

(١) قريب منه في بحار الأنوار ١٩: ٦٢ ـ ٦٣.

(٢) انظر ذلك في محاجّة أسماء بنت عميس (رضي اللّه عنها) مع عمر، وذلك أنه حين رأى أسماء قال لها: نحن سبقناكم بالهجرة؛ فنحن أحقّ برسول اللهﷺ منكم. فغضبت وقالت: كلّا والله، كنتم مع رسول اللهﷺ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا في دار أو في أرض البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسولهﷺ. وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول اللهﷺ، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبيﷺ، وأسأله والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه.

فلما جاء النبيﷺ قالت: يا نبي الله، إن عمر قال كذا وكذا. قالﷺ: «فما قلت له؟». قالت: قلت له كذا وكذا. قالﷺ: «ليس بأحقّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهلَ السفينة هجرتان».

انظر: صحيح البخاري ٥: ٨٠، صحيح مسلم ٧: ١٧٢، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ١٠٤.

ومعلوم أنهﷺ كان فقيراً؛ فهوﷺ كان ينفق من أموال خديجةؑ، ويؤيّده ما في المصدر السابق.

وأتاها أن الغمامة بالصحـ ـراء قد ظللته والأفياءُ
فدعته إلى الزواج وما أحـ ـسنَ ما يبلغُ المنى الأذكياءُ
وإذا سخّر الإلهُ أناساً لسعيدٍ فإنّهم سُعداءُ[1]

خطب له عمه أبو طالب خديجة، وساق لها ثلاثمئة من الإبل نُحرت، وساق لها المهر، فتزوّج من خديجة فأرسلت منادياً لينادي في الناس: كلّ مال لي فهو تحت تصرف محمد يفعل به ما يشاء. فأخذ النبي تلك الأموال وأنفقها في طريق الإسلام بأجمعها. ثم أعقب منها القاسم والطاهر والزهراء التي لقّبها بـ **«أم أبيها»**[2]؛ لأن الأم هي أصل الأشياء، ومن هنا عُبّر عن مكة بـ «أم القرى»، وعن الفاتحة بـ «أم القرآن»، وكذلك فاطمة؛ لأنها الأصل، فلولا أولاد فاطمة لانقطع أصل النبي ونسله. ولذلك كان يقول عنهما: **«ابناي»**[3].

وهذا ما احتجّ به الإمام موسى بن جعفر علىٰ الرشيد حيث قال له: **«لو بُعث رسول الله حياً وخطب منك ابنتك أكنت مزوّجه؟»**. قال: بلى والله، وأفتخر بذلك على العرب والعجم. فقال الإمام: **«وهل يسعني أن أُزوجه؟»**. قال: لا. فقال الإمام: **«لماذا؟»**. قال: لأنك داخل في صلبه. قال الإمام:

(١) ديوان البوصيري: ٩، وانظر: كمال الدين: ١٨٧، المستدرك علىٰ الصحيحين ٢: ٦١٦.
(٢) مقاتل الطالبيّين: ٢٩، المعجم الكبير ٢٢: ٣٩٧، أُسد الغابة ٥: ٥٢٠.
(٣) تحفة الأحوذي ١٠: ١٨٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٢ / ٢٢، خصائص أمير المؤمنين (النسائي): ١٢٣، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٢٣، المعجم الصغير ١: ٢٠٠، كنز العمّال ١٣: ٦٧١ / ٣٧٧١١، تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٥، ٢٦، ١٩٩، ١٤: ١٥١، ١٥٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٥، وغيرها كثير.

«فهذا هو الذي دعانا إلى أن نقول: نحن أبناء رسول اللهﷺ»[١].

وقد درج القاسم والطاهر في حياة النبيﷺ، أما ربائبه الثلاث غير فاطمة فتختلف آراء المفسّرين والمؤرّخين في كونهن بناتِه أو ربائبَه، ويميل ظاهر التحقيق إلى كونهن ربائبه[٢]، وهناك روايات بأنهن بناته[٣].

وبقيت هذه النسمة الطاهرة التي قال عنها النبيﷺ: إنها **«أم أبيها»** مبعث سلوة لرسول اللّهﷺ يلمس في جبينها جبين أُمها خديجةعليها السلام التي ما ذكرها إلّا وانتفض واهتزّ من قرن إلى قدم، حتى قالت له بعض نسائه يوماً: ما الذي يدعوك إلى الإكثار من ذكر خديجة؟ وهل هي إلّا امرأة حمراء الشدقين أبدلك اللّه بخير منها؟ فقالﷺ: **«كلا إن اللّه لم يبدلني بخير منها، إنها آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذب بي الناس، ورزقني اللّه منها ولداً إذ حرمني أولاد سائر النساء»**[٤].

المرحلة الثانية: من بعثته المقدسة حتى هجرته الشريفة

مر الدور السابق على رسول اللّهﷺ قبيل البعثة وهو في هذه الأجواء التي رسمتُها لك؛ ابتداءً من طفولته وتحنّفه في غار حراء واستمراره على هذا

---

(١) انظر الاحتجاج ٢: ٣٣٨ / ٢٧١.

ومثلها مناظرة الإمام الرضاعليه السلام مع المأمون، انظر بحار الأنوار ١٠: ٣٤٩ / ٩، ٩٤: ١٨٧ / ١٩.

(٢) انظر كتاب: الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام؛ سيرة وتاريخ (آل ياسين): ٢٧.

(٣) الطبقات الكبرىٰ ١: ١٣٣، ٨: ٢١٧، تاريخ مدينة دمشق ٣: ١٢٥، ١٢٨، ١٢: ١٢٨، أُسد الغابة ٥: ٤٥٦.

(٤) بحار الأنوار ١٦: ١٢، مسند أحمد ٦: ١١٨، المعجم الكبير ٢٣: ١٣، سير أعلام النبلاء ٢: ١١٢، الإصابة ٨: ١٠٣، كنز العمال ١٢: ١٣٢ / ٣٤٣٤٨.

النوع وابتعاده عن مجتمع قريش وترقبه لعطاء السماء إلى أن أراد اللّه تعالى لهذه الأرض أن تزدهر بنور النبوّة، وأن يغمرها عطاء السماء، وأُريد للنبي ﷺ أن يحمل قبس الهداية. خرج ﷺ من بيته قاصداً غار حراء، فنزل الوحي بأول سورة كانت إيذاناً ببعثته ﷺ: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[١].

وهنا يقول المؤرّخون: إن علياً ﵇ كان مضطجعاً إلى جانبه. وقد أشارت إلى ذلك خطبته الغرّاء التي يقول فيها: «**أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوّة. ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ**»[٢].

فخرج الرسول ﷺ من غار حراء يحمل هذا العبء: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**﴾[٣]، ويرى أن الدنيا قد أُنيط به إصلاحها، وهو عبء حمله ذلك الكتف العملاق، فما إن نزلت الآية حتى رفع عقيرته: «**قولوا: لا إله إلّا اللّه تفلحوا**»[٤].

إن رسول اللّه ﷺ حمَلنا عبئاً، فلنحمله فكراً، وحمَلنا جاهلية فينبغي أن

---

(١) العلق: ١ ـ ٥.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ١٩٢، المعروفة بالخطبة القاصعة.

وفيها: «ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما؛ أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوّة. ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان أيس من عبادته. إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى إلّا إنك لست بنبي، ولكنك وزير، وإنك لعلى خير».

(٣) المزّمّل: ٥.

(٤) مناقب آل أبي طالب ١: ٥١، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨: ٤٤٢ / ٦.

نحمله هداية، وعشنا في همومه فينبغي أن يعيش في همومنا. وأنتم الآن في بلد ليس من بلدان الإسلام، فأولادكم هنا أمانة في أعناقكم، فلا يبعدوا عن الإسلام وعن سيرة نبيّنا محمد ﷺ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ﴾**[1]. فعليكم تقع المسؤولية بالتضامن والتكاتف.

إني أتّصل في بعض الأحيان بقسم من الأُخوة هنا، فيجيبني أبناؤهم تلفونياً وهم لا يعرفون العربية، أو يتعثّرون في أدائها، وهؤلاء بالتدريج سوف ينسون القرآن والأحكام والقيم والأخلاق، ونحن مهما ربحنا لكن حين نخسر الأخلاق فإننا لم نربح شيئاً. لا تخسروا أولادكم وبناتكم والأسرة الإسلاميّة، وحاولوا الاتّصال بالمؤسّسات والجماعات الإسلاميّة، وخصّصوا في الأُسبوع ولو يومين لهم للدراسة في مدارس تُنشِئُونها باللغة العربية، لتدريس اللغة والقرآن. وفي الوقت نفسه على الآباء أن يدفعوا أبناءهم، بشتى الوسائل إلى تعلّم دينهم وأخلاقهم، وأن يكون ذلك مصحوباً بالإصرار منهم إن لزم الأمر.

قد تقول لي: إنني مضطرّ إلى البقاء هنا، وإذا ذهبت إلى مكان آخر فقد لا يتوفّر لي رغيف الخبز.

وأقول لك: لكن علينا ألّا نكون كمن قال فيه الشاعر:

أَبُنَيَّ إن من الرجال بهيمةً ... في صورة الرجل السميعِ المُبصِرِ

فَطِنٌ لكلّ رزيّةٍ في ماله ... فإذا أُصيب بدينه لم يشعُرِ

وهناك نقطة أُخرى مهمة أرجو أن تتنبّهوا إليها، وهي أن الغرب يحنُّ إلى

---

(١) التحريم: ٦.

مؤسّساتنا الإسلامية، ويريد الأُسرة الإسلامية. فلا ينتهين بكم الأمر إلى حد أنه إذا وصل الابن إلى السن القانوني ترك أباه يصارع آلامه وحده، و إذا كبرت البنت فلتت وملكت زمامها بيدها. وهذا المصير عليكم أن تتوقّعوه وتضعوه أمام أعينكم؛ لأنني أعرف أن الحالة في بلداننا لا تشجّعكم على الرجوع حتى لو حُلّت مشكلتنا؛ لأنكم وجدتم هنا خدمات لا تتيسّر لكم هناك. وأنا أشك في أن الكثير ممن خرج سوف يرجع مرة أُخرى.

فإذا كان الأمر كذلك فعليكم أن تضعوا أمام أعينكم الحل الذي يحفظ لكم أُسركم وأبناءكم بأي طريق كان، ولا تلقوا التبعات على غيركم. فأنتم مسؤولون مباشرة في أن تتعاونوا على حفظ أُسركم وأبنائكم. وهذا الصوت أرفعه من هنا، وآمل من اللّه أن يستجيب له مَن يقوى على الاستجابة بقليل أو كثير.

نعم، رجع النبي ﷺ من غار حراء، فهبط عليه جبرئيل يحمل السورة الثانية: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾[1]. فخرج، وخرج من ورائه الساعد الذي ما فارقه، والسيف الذي ما ابتعد عنه، والنفس التي ما برحت إلى جانب روحه ليل نهار، وهي نفس علي ابن أبي طالب﴿ع﴾. فكان رسول اللّه ﷺ يقول: «**قولوا: لا إله إلّا اللّه تفلحوا**»، والحجارة تأخذه، ويد علي﴿ع﴾ على سيفه يناله قسط من الحجارة التي تنال النبي ﷺ، ويناله الألم، ويتعرض إلى ما يتعرض له رسول اللّه ﷺ، فيذود عنه ويدافع، ولا يكاد يترك قائم السيف حتى يعود إلى البيت.

---

(١) المدّثر: ١ ـ ٢.

ويندر أن يعود النبي ﷺ وعلي عليه السلام خاليين من الجراح، فقد كانت الجراح والحجارة تستوعبهما، وكان النبي ﷺ بما عرف عنه من النفس الكبيرة يمسح الدم ويشخص ببصره إلى السماء فيقول: **«اللهم اغفر لقومي؛ إنهم لا يعلمون»**[1]. إلى أن اضطروه يوماً من الأيام من كثرة ضغط الحجارة أن يخرج إلى الطائف، فوقف له أهل الطائف ثلاث فرق، وقال له أحد رؤسائهم: أما وجد اللّه نبياً غيرك يبعثه؟ فأغضى النبي ﷺ وسكت عنه؛ لأن السكوت في بعض الأحيان هو أبلغ جواب. وقال له الآخر: أنت يتيم أبي طالب، وتريد أن تسود العرب؟ ألا يسرق ثياب الكعبة إن كان اللّه بعثك؟ ولم يجبه النبي ﷺ أيضاً. والتفت له الثالث فقال: أنت بين أمرين: إما أن تكون نبيّاً، وإما أن تكون كذّاباً، فإن كنت نبيّاً فأنت أكبر من أن أُكلمك، وإن كنت كذّاباً فأنا أكبر من أن أكلّمك.

ثم أشاروا إلى أطفالهم فأخذته الحجارة من كلّ جانب ومكان حتى أدمته، فرفع رأسه إلى السماء وقال: **«اللهم إني أشكو إليك ضعف قوّتي وقلّة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي، لمن تكلني؛ إلى عبد يتجهّمني، أو إلى عدوّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أُبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك، أو يحلّ علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلّا بك»**.

ونظر إليه عتبة عن بعد، وقد عطفته عليه أواصر الرحم، فالتفت إلى غلام

---

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٣٨٤، بحار الأنوار ٩٥: ١٦٧.

له اسمه عُداس من أهل الموصل وقال له: احمل بيدك شيئاً من العنب، واذهب إلى هذا الجالس، واطرح العنب بين يديه وابتعد عنه، وإياك والدنو منه؛ فإنه ساحر، وأخاف أن يسحرك بسحره. فأقبل إليه عُداس، فرفع إليه النبي بصره وقال: «**عُداس هذا؟**». قال بلى، من الذي أخبرك باسمي؟ قال: «**أوليس قد أسمتك أمك بهذا الاسم عندما وضعتك؛ لأنك كنت ثقيلاً في بطنها؟**». قال: بأبي أنت وأمي، من الذي أخبرك بهذا؟ قال: «**أولست أنت من قرية العبد الصالح يونس بن متى من نينوى بالموصل؟**». قال: وما أدراك بهذا؟ قال: «**ذاك نبي وأنا نبي**». فقال عداس: واللّه إني لأرى عليك سيماء النبوّة. ثم انحنى على أقدامه يقبّلهما، فنظر عتبة إلى بعض من كان حوله وقال: قد سحر علينا غلامَنا فلا ننتفع به[1].

ثم رجع رسول اللّه، وفي الطريق وجد علياً وخديجة يبحثان عنه، وقد حملت خديجة وعاءً فيه طعام وماء وهي تنادي: بأبي أنت وأُمي يا رسول الله، أين أنت يا ثمال اليتامى؟ فلمّا التقياه أخذت خديجة تضمّد جراحه، ثم سقته ماء وأطعمته الطعام، ورجع يتّكئ على علي إلى البيت.

وهكذا كان رسول اللّه بين سيف علي يقوم بوظيفة توفير الحماية له، وبين عطف أبي طالب يدافع عنه، فكان يجن الليل على أبي طالب ولا يذوق النوم، وقد جند أولاده الأربعة في شعب أبي طالب في خدمة النبي، فكان النبي ينام ساعة في مكان ثم ينقله أبو طالب عنه إلى

---

(١) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٦١، مجمع البيان ٩: ١٥٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٦ ـ ٣٧، تاريخ الطبري ٢: ٨٠، السيرة النبوية (ابن هشام) ٢: ٢٨٦، السيرة النبوية (ابن كثير) ٢: ١٥، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢١١.

مكان آخر، ويأتي بأحد أبنائه ليضجعه مكانه، وهكذا إلى الصباح لا يذوق النوم[١]. وكان يمرّ فيجد النبي ﷺ يصلّي، وعلي عليه السلام يأتم به، ولم يكن على وجه الأرض آنذاك من يعبد اللّه غير هذين، فيقول لولده جعفر: صِل جناح ابن عمك، ثم يقول:

إن علياً وجعفراً ثقتي ... عند مُلمّ الزمان والنوبِ

لا تخذلا وانصرا ابن عمكما ... أخي لأمي من بينهم وأبي[٢]

إلى أن لفظ أبو طالب عليه السلام أنفاسه الطاهرة ولحق بربه.

المرحلة الثالثة: من هجرته الشريفة إلى لحوقه بالرفيق الأعلى

ثم توفيت خديجة عليها السلام فهبط جبرئيل على النبي ﷺ وقال: «**اخرج من مكة؛ فليس لك فيها ناصر**»[٣]. وأوحى اللّه له أن يخرج في تلك الليلة من بيت أبي طالب عليه السلام الذي ما انفكّ عنه، ولما نزل عليه جبرئيل بقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾[٤]، استدعى علياً عليه السلام وقال له: «**المولىٰ عزَّ وجلَّ أمرني أن أُهاجر من مكّة إلى المدينة، وأمرني أن أُضجعك مكاني**». فقال: «**يارسول اللّه، لو اضطجعت مكانك أوَ تسلم؟**». قال: «**بلى**». قال: «**روحي لروحك الفدا، ونفسي لنفسك الوقا**»[٥].

---

(١) روضة الواعظين: ٥٣.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٥٩٨ / ٨٢٥، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦٩، ١٤: ٧٦.

(٣) الكافي ١: ٤٤٩ / ٣١، الفصول المختارة: ٢٨٣.

(٤) الأنفال: ٣٠.

(٥) التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام: ٤٦٦ ـ ٤٦٧.

ورحم الله الكعبي حيث يقول:

ومـــناقب لك دون أحـــمدَ جـاوزتْ ... بـــمقامِك التـــحديدَ والتـــعديدا

فـعلى الفراشِ تـبيتُ ليـلك والعـدىٰ ... تُـــهدي إليك بـــوارقاً ورعـــودا

فــرقدتَ مـــثلوج الفـؤاد كأنـما ... يـــهدي القـراعُ لسـمعك التـغريدا

ووقــيت ليـــلته وبتّ مـــعارضاً ... بـــالنفس لا طـــفلاً ولا رعـــديدا

رصدوا الصـباح ليـنفقوا كـنز الهدىٰ ... أوَ مـا دروا كـنز الهدىٰ مـرصودا[1]

وخرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر، وقد صنعت لهما أسماء شيئاً من الطعام حمله أبو بكر معهم؛ إذ كان معه أيضاً أيمن ابن أُم أيمن وابن أبي أُريقط، فوصل النبي ﷺ إلى الغار فأوحى الله إلى حمامتين وحشيّتين فعشّشتا وباضتا في الغار، وأوحى إلى العنكبوت أن تنسج على باب الغار، يقول أحد الشعراء:

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على ... خير البرية لم تـنسج ولم تـحم[2]

فتبعته قريش حتىٰ الغار لكنها يئست أن يكون قد دخل إلى هذا الغار.

ووصل ﷺ إلى المدينة، وأبى أن يدخلها حتى وصل إليه الإمام علي ﷺ بـالظعينة، فـقد كـتب ﷺ إلى عـلي ﷺ أن يـرد الودائـع، فـردّها ولحـق بالنبي ﷺ، وكان للمدينة يوم مشهود عند دخوله ﷺ إليها، وبادر الأنصار يضربون الأكبار بأيديهم وينشدون:

طلع البدر علينا ... مـن ثنيات الوداع

(١) ديوان الكعبي: ٤١.

(٢) البيت للبوصيري في قصيدة البردة. ديوان البوصيري: ١٦٥.

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع[١]

ودخل ومعه علي ؑ، فناخت ناقته بباب بيت أبي أيوب ؓ الذي هدمه الأُمويون بعد ذلك ولم يبقوا له أثراً ولا عيناً.

وابتدأ الدور الثالث من حياته الشريفة، وحمل عبء إنشاء المجتمع المدني. فهو في مكّة كان يخطّط لترسيخ العقائد، ثم انصرف في المدينة إلى ترسيخ الدولة الإسلاميّة.

فجاهد في سبيل اللّه حقّ جهاده، وذلك أن خاض أربعاً وثمانين غزوة حتى لحقه أذى القتال، فكان ﷺ يرجع وبجسده الجراحات، وقدَّم الأضاحي من صحابته وأهل بيته، حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**﴾[٢]. فأدّى رسالة ربّه، وأكمل دينه حتى نزل به الوجع في يوم السبت الحادي والعشرين من صفر. وكان ﷺ قبل ذلك قد صعد على المنبر وخطبهم قائلاً: «**أيها الناس، أي نبيّ كنت لكم؟ ألم أربط حجر المجاعة على بطني؟ ألم أُجاهد الكفار والمنافقين؟ ألم أُقاتل في سبيل اللّه؟ ألم؟... ألم؟ ...**». ثم قال: «**إن ربي أقسم ألّا يفوته ظلم ظالم، فأيّما امرئ منكم له ظلامة عند محمد فليقم إليّ يأخذها، فإن القصاص في دار الدنيا أحبّ إلي من القصاص يوم القيامة على رؤوس الأشهاد**». فقام إليه أحدهم فقال: كنت طالباً منك أن تساعدني في زواج وقد وعدتني بأُوقيّتين. فأشار النبي ﷺ إلى الفضل بن العباس فقال: «**نحّله ما وعدته به**». وقام له سوادة بن قيس فقال: يا رسول اللّه، لي عندك شيء. قال ﷺ: «**ما هو؟**».

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٩٤، فتح الباري ٧: ٢٠٤، ٨: ٩٨.

(٢) المائدة: ٣.

قال: كنتَ راجعاً من الطائف، فرفعت القضيب الممشوق لتضرب الناقة فوقعت الضربة على بطني. وأنا أُريد القصاص. فالتفت إلى بلال فقال: **«يا بلال، قم إلىٰ المنزل فائتني بالقضيب الممشوق»**.

فذهب إلى بيت فاطمة﵍، فقال: يا بنت رسول اللّه، أعطيني هذه القطعة. فقالت: **«لماذا؟»**. قال: إن رسول اللّه يريده. قالت: **«وماذا يصنع والدي بالقضيب، وليس هذا يوم القضيب؟»**. قال: أوما علمت أنه يودّع أهل الدين والدنيا. فصاحت: **«واغمّاه لغمّك يا أبتاه! من للفقراء والمساكين وابن السبيل يا حبيب اللّه وحبيب القلوب؟»**.

ثم أخرجته له، فجاء به فتناوله النبيﷺ بيده فأعطاه له وقال: **«خذ يا سوادة»**. فقال: يا رسول الله اكشف لي عن صدرك. فكشف له النبيﷺ. فقال: يا رسول اللّه، أتأذن لي أن أُقبّله؟ فقال: **«افعل»**. فوضع فمه عليه وقال: أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول اللّه من النار يوم النار. فقالﷺ له: **«أتعفو أم تقتص؟»**. فقال: بل أعفو يا رسول اللّه. فقالﷺ: **«اللهم اعف عن سوادة بن قيس كما عفا عن نبيك محمّد»**.

ثم أُرجع النبيّﷺ إلى البيت وهو مثقل ويدعو: **«ربّ سلّم أُمّة محمّد من النار»**، فلمّا أضجعوه على فراشه أقبلت إليه ابنته فاطمة وهي تنادي: **«واغمّاه لغمّك يا أبتاه»**. ثم جلست إلى جانبه ورأسه في حجر أمير المؤمنين﵇، يقول أمير المؤمنين﵇ مخاطباً إياه: **«ولقد وسدتك في ملحودة قبرك، وفاضت روحك بين صدري ونحري»**. فقد كان رأسهﷺ بين صدر أمير المؤمنين﵇ ونحره، وبين الآونة والأُخرى كان الإمام﵇ يأخذ شيئاً من الماء ويمسح به جبين رسول اللّهﷺ وهو يرفع رأسه فيقول: **«رفقاً بي ملائكة السماوات،**

رفقاً بي ملائكة ربي، لمثلها فليعمل العاملون». وكان يقول: **«حبيبي جبرئيل، عند الشدائد لا تخذلني»**[١].

وخرج رسول الله ﷺ في اليوم الثاني إلى البقيع، ووقف على أهل البقيع فصاح: **«السلام عليكم يا أهل البقيع، لقد جاءت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها»**. ثم استغفر لهم وقرأ شيئاً من القرآن ورجع. وأخذت العلّة تشتدّ عليه، فصاح: **«عليَّ بعلي بن أبي طالب»**. فأقبل إليه، فسارّه طويلاً، واستدعى ابنته فاطمة عليها السلام، فسارها طويلاً، فبكت وضحكت، فلما سُئلت أجابت: **«انّي إذن لبذرة»**. ولما سُئلت بعد ذلك قالت: **«لقد بكيت في الأولى؛ لأنه نعى إلي نفسه، وضحكت في الثانية؛ لأنه أخبرني أنني أول أهل بيته لحوقاً به»**.

حتى إذا اشتدّت الحالة عليه أقبل الحسن والحسين عليهما السلام فوقعا على صدره، فأراد الإمام علي عليه السلام أن يبعدهما عنه؛ لئلا يضايقاه، فقال ﷺ: **«لا، لا يا علي، دعهما أتزوّد منهما ويتزوّدا مني»**[٢].

ثم أخذ يضمّهما إليه وهو في آخر لحظات حياته:

يومان لم أرَ بالأيام مثلَهُما ... قد سرَّني ذا وهذا زادني أرَقا

يوم الحسينُ رقى صدرَ النبي به ... ويوم شمر على صدر الحسين رقى

* * *

ومرَّ يحزُّ النحرَ غيرَ مراقِبٍ ... من اللّه لا يخشى ولا يتوجلُ

ولكن لمّا اشتدّ عليه الأمر سجّاه أمير المؤمنين عليه السلام إلى القبلة، وأقبلت إليه ابنته فاطمة عليها السلام فألقت بنفسها عليه وهي تصيح: **«وا لوعتاه، وا ثكلاه بعدك يا**

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٧٣٦ / ١٠٠٤. (٢) الأمالي (الطوسي): ٦٠٢ / ١٢٤٤.

رسول الله». فأقبل إليها أمير المؤمنين﴿ع﴾ ، وأقامها من على جسد أبيها برفق[1]. نعم نحّاها﴿ع﴾ عن صدر أبيها برفق، وليته يرى ولده الحسين﴿ع﴾ لما سقطت أُخته زينب﴿ع﴾ على صدره، فقد نحّاها شمر عنه بسوطه:

برضاك يسو رغماً عليك ... يجرني العدو من بين ايديك

---

(١) انظر: الأمالي (الصدوق) ٧٣٢ـ٧٣٦ / ١٠٠٤، مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠١ ٢٠٣ .

﴿٧٦﴾

عصمة الأنبياء عليهم السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

إن مُجمل الهيكل العام للآية الكريمة يدور حول أمر واحد هو أن اللّه عز وجل يعصم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم عن الخطأ وإن كان بشراً. ذلك أن البشر بحكم كونهم بشراً معرضون للخطأ؛ لأن الكمال للّه عز وجل، فإذا كان الإنسان كذلك فإنه يكون عرضة للتأثر بالنوازع نفسها التي يتأثر بها غيره من الناس بما عندهم من عواطف وعلاقات وارتباطات ولحظات ضعف تمرّ بهم، وكلّها تؤثر عليهم. فالآية الكريمة تقول له صلى الله عليه وآله وسلم: مع أن طبيعتك بشرية، لكنك بشرٌ صانه اللّه عن الوقوع في الخطأ. هذا هو مجمل جو الآية الكريمة.

المبحث الأوّل: سبب نزول الآية الكريمة

يذكر المفسّرون في نزول هذه الآية الكريمة أربعة أسباب:

---

(١) الإسراء: ٧٣.

السبب الأوّل: أن وفداً من ثقيف جاء إلى النبي ﷺ، فقالوا: إنك دعوتنا إلى الإسلام، ونحن نسلم ونبايع بثلاثة شروط. قال ﷺ: **«ما هي؟»**. قالوا:

الأوّل: أن تُحرِّمَ وادينا كما حرّمت مكة، فكما أن مكة محرّمة ولا يدخلها الإنسان إلا محرماً، وتترتب عليها أحكام، فنحن نريد أن تقول عن وادي ثقيف: إن اللّه جعله مثل مكة. وتذكر للناس أن اللّه أوحى إليك بحرمة هذا الوادي.

والثاني: أنك تأمر بالصلاة، ومن أفعال الصلاة أن الإنسان لا بدّ أن ينحني، فيركع ويسجد، ونحن لسنا على استعداد لأن ننحني؛ لأن انحناءنا ذُلّ، فنريد أن تُعفينا من هذا.

والثالث: أننا نريد منك مهلة سنة لتحطيم الأصنام، فنجمع بهذه السنة الهدايا والنذور التي تهدى للأصنام، ثم بعد ذلك نكون مستعدّين لتحطيمها وتكسيرها.

فإن حقّقت لنا هذه الشروط الثلاثة آمنا بك وبايعناك، وإلا فإننا لن نؤمن لك ولن نبايع.

نظرة على السبب الأول

ولنلقِ الآن بعض الضوء على شروطهم الثلاثة هذه:

فالشرط الأول ـ وهو تحريم الوادي ـ فيه طلب من النبي ﷺ أن يكذب ويدّعي أن هذا وحي من اللّه. وهذا منتهى العجرفة والصفاقة عند هؤلاء؛ فهم يريدون منه ﷺ أن يكذب، ويقول ما لم يقله اللّه له، وينسبه إليه تعالى. وهذه مشكلة من أخطر المشاكل، فهؤلاء لا يعرفون قيمة الوحي، ولا يعرفون أن النبوّة كلّها تتزلزل إذا ثبت بحادثة واحدة أن النبي ﷺ يمكن أن

يصدر منه شيء من هذا النوع.

أما الشرط الثاني ـ وهو إعفاؤهم من الانحناء في العبادة ـ فهذه مثل نظرية أبي جهل الذي دخل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوماً فقال له: تريد مني أن أُصلي حتى تعلوني استي؟ وهذا نمط من التفكير التافه الذي لا يستحقّ المناقشة؛ لأن المنحني في الصلاة ينحني للّه الخالق البارئ الرازق الذي أنعم عليه.

وأمّا شرطهم الثالث وهو أن يمهلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم سنة حتى يجمعوا الهدايا والنذور التي تهدى للأصنام فيوحي إلينا بالنظرية التي تقول: إن معظم السلوك مرتبط بالعامل الاقتصادي، وهي النظرية الماركسية، القائلة: إن دوافع الإنسان في السلوك دوافع اقتصادية. فإن أراد الصلاة والعبادة وغيرها فذلك بدافع اقتصادي، وإن السلوك يتأثر ١٠٠٪ بالاقتصاد. وهذه النظرية مبالغ فيها.

وتسمى مثل هذه النظريات بالنظريات ذات العامل الواحد. صحيح أن العامل الاقتصادي قد يلعب دوره في التأثير على السلوك، ولكن ليس معنى ذلك أن كلّ سلوك الإنسان هو بدوافع اقتصادية. لأنهم يقولون مثلاً: إن الإنسان حتى لو عبد اللّه فإنه يريد أن يراه الناس متديناً فيطمئنوا إليه ويتعاملوا معه أكثر، فيربح أكثر.

وهذا سوء ظن بالإنسان أولاً، وخلاف الواقع ثانياً؛ لأننا نعرف أن الإنسان تحركه دوافع متعددة، كغرائز الجوع والجنس والأنانية وغيرها. والمسألة معروفة ولا تحتاج إلى تفصيل.

فهذه الشروط الثلاثة إذن تدل على عقلية بدائية جاهلية.

السبب الثاني: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما كسر الأصنام قال له المشركون: اترك لنا

صنماً واحداً وهو على الصفا، فنحن مستعدّون لأن نؤمن بك، ولكن اترك لنا هذا الصنم مدّة من الزمن حتى نروّض أنفسنا ثم نكسره.

السبب الثالث: أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: لمَ تدعو إلى اللّه وتشتم آلهتنا؟ فأنت يمكنك أن تدعو إلى اللّه من غير أن تشتم آلهتنا. فكُفَّ عن شتمها، ولا تعبها وتفسد شبابنا.

السبب الرابع ـ وهو سبب يستدعي التوقف عنده قليلاً ـ: أن قريشاً قالوا له: لا ندعك تلتمس الحجر الأسود إلّا أن تُلمّ بآلهتنا. فقبل أن تلمس الحجر الأسود عليك أن تمرّ بأصنامنا وتتمسّح بها.

ويقول المفسرون: إن النبي ﷺ لما طلبوا منه ألّا يمسّ الحجر الأسود حتى يمرّ بآلهتهم، قال في نفسه: إن اللّه يعلم أني كاره لهذا المعنى، فلا مانع من أن أمرّ وأُوهمهم بأنني مررت بآلهتهم، لكي أمرّ إلى ما هو أهم، وهو الطواف وعبادة اللّه، والتماس الحجر الأسود[1].

نظرة على السبب الرابع

وهنا يأتي هذا السؤال: هل ينافي ما همّ به النبي ﷺ العصمة أم لا ينافيها؟ وهذا من قبيل: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾[2]. فما هو الهمّ هنا؟ هل هو تحرّك النوازع النفسيّة في نفسه بحكم كونه بشراً لولا العصمة؟ فكلمة ﴿لَوْلاَ﴾هي حرف امتناع لوجود، ومعنى ذلك: لولا أنك معصوم لكنت انسقت معهم لذلك. فاللّه عندما يرسل نبياً فليس معنى ذلك أنه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٩٩، تفسير الثعالبي ٣: ٤٨٧، وفيه: تمسّ آلهتنا، بدل: تلمّ بآلهتنا.

(٢) يوسف: ٢٤.

ينقطع عن ارتباطه بحكم كونه بشراً، وإنما تبقى له غرائزه ونوازعه البشرية: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾[١]، لكنه بشر معصوم لا يصدر منه الخطأ.

فلو أن معدتي أحسّت بالجوع، وكان عندي دين، هل كنتُ أُشبعها من الحرام؟ كلّا طبعاً. فكوني أعرف أن أكل مال الناس حراماً ليس معناه ألّا تتحرك معدتي بالجوع. فالنبيﷺ عنده همّ وعنده تحرّك وغرائز، والغرائز تخاطبه وتريد إشباعها، لكن اللّه يعصمه عن الوقوع بالخطأ. على أن يلاحظ أن عصمته لا تكون بالإجبار.

ماهية العصمة

وبما أننا مررنا بهذا الموضوع فدعونا نلقِ عليه الضوء، فهناك ضجّة تثار، ومفادها أن الشيعة يقولون: إن أيمّتنا معصومون. في حين أن صاحب الضجّة يثبت العدالة لعشرات الآلاف من الصحابة، فهم عدول لا يصدر منهم الخطأ، وإن صدر فهو اجتهاد، والمجتهد له أجر إن أخطأ. فإذا كان من الممكن أن يكون الإنسان عادلاً ولا يصدر منه الخطأ، فلمَ يستكثرون علينا أن يكون إنسان معصوماً؟

ثم ما هي العصمة؟ العصمة هي الامتناع عن الخطأ، فلدى المعصوم القدرة على الإتيان بالفعل ولكنه لا يفعله، والقدرة على ترك الطاعة لكنه لا يتركها. فهو يستطيع ترك الصلاة ولا يتركها، ويستطيع أن يشرب الخمر ولا يشربه؛ لأن لديه لوناً من التربية العالية. وهذا هو اللطف الذي صنعه اللّه بالمكلف، فجعله يمتنع عن إتيان القبيح وترك الواجب.

---

(١) الكهف: ١١٠.

فإن كان كذلك فالنبيﷺ لم تذهب عنه خواصّه البشريّة، ولا قلعت عنه نوازعه، فهو يهم أن يلبّي مطلبهم لولا العصمة. وقد تكون هذه طريقة من باب (الوسائل والغايات)؛ فبعض الغايات تكون جليلة، فيتوسّل إليها بوسيلة ما وإن كانت تلك الوسيلة دون مستوى الغاية. فالإنسان يستعمل الوسيلة كي يصل إلى الغاية.

وكمثال على ذلك أن اللّه تعالى نهى المؤمن أن يذلّ نفسه، ولكن في سبيل الإصلاح بين اثنين يمكن أن يذلّ نفسه، فيأتي إلى هذا ويخضع له قليلاً، ويذهب إلى ذاك ويفعل كذلك. فبلحاظ ما يترتب على المسألة من موضوع أهم يضحّي بالمهم من أجله. وهذا من العناوين التي يستند إليها الفقهاء، وهو تقديم الأهمّ على المهمّ. وله تطبيقات كثيرة[1].

فكانت المسألة مع النبيﷺ من هذا الباب، فكان الأهمّ أن يرشد هؤلاء، والمهمّ أن يمرّ على الصنم ويوحي إلى المقابل أنه كرّم هذا الصنم

---

(١) كالذي كان من سيدنا النبي إبراهيم عليه السلام في محاجّته مع قومه، وقد صوّرها القرآن الكريم بقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. الأنعام: ٧٦ ـ ٧٩.

وكما حدث من عمار، فقد ألحّت عليه قريش وطلبت منه الاستجارة بوثن. فلمّا عاد عمار إلى النبيﷺ كانت عيناه تطفحان بالدموع، فقال له: يا رسول اللّه، لقد انتزع هؤلاء مني كلمة بالإكراه. وقال من معه لرسول اللّهﷺ: قد كفر عمار. فقالﷺ: «لا، لا تقولوا هذا، إن عماراً مُلِئ إيماناً من قرنه إلى قدمه». ثم قال له: «لا تبكِ يا عمار، وإن عادوا فعُد». مجمع البيان ٦: ٢٠٣، تفسير القرآن (الصنعاني) ٢: ٣٦٠.

واحترمه؛ فهداية الناس أهمّ من المرور على الصنم. فلما همّ بذلك نزلت الآية تمنعه، فالنبي ما ارتكب شيئاً ينافي العصمة.

ومن ناحية ثانية فإن الهمّ الذي يحدث في داخل نفس الإنسان لا يؤاخذ عليه الإنسان دون الفعل والقول. فلو دار في ذهني أن أرتكب معصية، ولم أتكلّم بها ولم أُطبقها عملياً، فلا أُؤاخذ عليها. يقول الحديث الشريف: **«وُضع عن أمتي ما حدّثت به نفسها ما لم يعمل به أو يتكلّم»**[1]. فمجرد الخواطر التي تحدث في ذهن الإنسان لا يؤاخذ عليها إلّا إذا طبّقها بالقول والفعل.

هذه خلاصة أسباب النزول. ونعود الآن إلى الآية الكريمة، فالمجموع الذي نستفيده منها أن المشركين حاولوا جرّ النبي صلى الله عليه وآله بطريقة أو بأُخرى إلى تلبية مطالبهم. لكن اللّه عصمه عن أن ينزل إلى هذا المستوى.

المبحث الثاني: أن على صاحب الموقف الثبات على موقفه

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿**وإنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عن الذي أوحَينا إليكَ**﴾، أي كادوا لَيزيلونك عن موقفك. فالآية الكريمة تقول له: إن الإنسان موقف، وأنت تُعلّم الناس المبادئ، وأهمّ هذه المبادئ أن الإنسان إذا آمن بقضيّة فلا ينبغي له أن يتزلزل عن موقفه إزاءها. وهؤلاء يحاولون أن يزلزلوك عن موقفك؛ فعليك أن تبقى صامداً عليه.

---

(١) التبيان ٦: ٥٠٦، باختلاف يسير، مجمع البيان ٦: ٢٧٨، بحار الأنوار ١٧: ٥٤. وورد عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «وضع عن أُمّتي تسع خصال: الخطأ والنسيان وما لا يعلمون وما لا يطيقون وما اضطرّوا إليه وما استكرهوا عليه والطيرة والوسوسة في التفكر في الخلق والحسد ما لم يظهر بلسان أو يد».

انظر: الكافي ٢: ٤٦٢ ـ ٤٦٣ / ١، فتح الباري ١١: ٤٧٨، المعجم الأوسط ٨: ١٦١.

ومن تطبيقات هذا المعنى أن الإمام أمير المؤمنين حينما وصلت إليه الخلافة جاءه جماعة من الرؤوس البارزة، حتى من شيعته، فطلبوا منه ألّا يغيّر العمال والولاة من قبل عثمان، ولا يحرّكهم الآن، وأن يتركهم حتى يستقرّ الوضع وتأخذ الأُمور نصابها؛ فإنهم إن عرفوا غير مستعدّين للتنازل عن هذه الأمكنة والمناصب التي وصلوا إليها، فهم وصلوا إلى أمكنة ما كانوا يحلمون بها. وأن هؤلاء ليسوا مثل أمير المومنين في نظرتهم للدنيا، فقد وصلوا إلى الكرسي، فملكوا الأموال وحازوها، ونالوا الإمارات، فإن شعر أحدهم أنه سوف يُزال عن سلطان فسيخلق ألف مشكلة[1].

---

(١) ومن هؤلاء المغيرة الذي انصرف مغاضباً لمّا رفض الإمام الانصياع خلف أهوائهم في تثبيت معاوية في ملكه، وجعل ينشد:

نصحت عليّاً في ابن هند مقالة	فرُدَّت فلا يسمع لها الدهرَ ثانيهْ
وقلت له أرسل إليه بعهده	على الشام حتى يستقرّ معاويهْ
ويعلم أهلُ الشام أن قد ملّكته	وأُمُّ ابن هند عند ذلك هاويهْ
فلم يقبل النصح الّذي جئته به	وكانت له تلك النصيحة كافيهْ

مروج الذهب ٢: ٣٩١.

ويروى أن المغيرة قال لابن عبّاس فيما بعد في مجلس معاوية: والله لقد أشرت على عليٍّ بالنصيحة، فآثر رأيه، ومضى على غلوائه، فكانت العاقبة عليه لا له. فقال له ابن عبّاس: كان والله أمير المؤمنين أعلم بوجوه الرأي ومعاقد الحزم وتصريف الأُمور من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه وعنّف عليه، قال سبحانه: ﴿لا تَجِدُ قَوماً يُؤمِنُونَ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَن حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَو كَانُوا آبَاءَهُم أَو أَبنَاءَهُم أَو إِخوَانَهُم أَو عَشِيرَتَهُم﴾ [المجادلة: ٢٢]. ولقد وقفك على ذكر مبين، وآية متلوّة قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً﴾. وهل كان يسوغ له أن يحكّم في دماء المسلمين وفيء المؤمنين من ليس بمأمون عنده، ولا موثوق في نفسه؟ هيهات هيهات، هو أعلم بفرض الله وسنّة رسوله من أن يبطن خلاف ما يظهر إلّا للتقيّة، ولات حين تقيّة مع وضوح الحقّ، وثبوت الجنان وكثرة الأنصار، بل يمضي كالسيف المصلت في أمر الله، مؤثراً لطاعة ربّه، والتقوى

وقد يكون هذا الرأي من الوجهة السياسية ممكناً، وله حصة من الصواب، لكن الإمام علياً عليه السلام يتصرّف وفق أحكام الإسلام، وهو عليه السلام إسلام يمشي على الأرض. فقال عليه السلام لهم: **«أمّا طلحة والزبير فسأرىٰ رأيي فيهما، وأمّا معاوية فلا والله لا أراني مستعملاً له ولا مستعيناً به مادام علىٰ حاله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾[1]، ولكن أدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المسلمون، فإن أبىٰ حاكمته إلى الله»**[2].

فهو عليه السلام يقول لهم: ما المبرر لأن أترك أحداً يعصي الله ويشرّع في مقابله؟ فأنا أحكم باسم القرآن، ولا بدّ أن أُطبّق القرآن، وهو يقول: **﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾**[3]، ويعطيني حدوداً هي أن أُعطي الأمر إلى من يستحقّه، وهؤلاء ليسوا مستحقّين من وجهة نظر الشرع، فكيف تطلبون مني أن أدعهم؟

دخل أبو الدرداء يوماً على معاوية فقال له: ما المبرر لك أن تشرب بآنية الذهب وقد حرّم الإسلام ذلك؟ فقال: أنا لا أرى به بأساً[4]. فما المبرّر لعلي أن يترك هذا في عمله؟ يقول أمير المؤمنين: **«قد يرىٰ الحوّل القُلّب[5] وجه الحيلة، ودونها مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين»**[6].

☚ علىٰ آراء أهل الدنيا. بحار الأنوار ٤٢: ١٧٠، شرح نهج البلاغة ٦: ٣٠١.

(١) الكهف: ٥١.
(٢) مروج الذهب ٢: ٣٩١.
(٣) هود: ١١٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٧: ٣٩٢.
(٥) القلّب: البصير بتحويل الأُمور وتقليبها. مختار الصحاح: ١٦٤ ـ حول.
(٦) نهج البلاغة / الخطبة: ٤١.

والغريب هنا أن بعض الكتاب لم يفهموا علي بن أبي طالب‌ﷺ، ولا المسألة التي يعالجونها، فراحوا يقولون عنه: إن حياة هذا الرجل حدثت فيها أخطاء كان اللازم عليه ألّا يعملها. ومن ذلك أنه ما كان ينبغي له أن يسارع إلى عزل ولاة عثمان حتى يستقرّ له الأمر.

وهذه ليست من الأخطاء، إنما هي من الالتزامات والمواقف التي يريدها الشرع؛ لأن الشرع يريد ممّن يحكم باسمه أن يطبّق أوامره ونواهيه. وقد كان بوسع أمير المؤمنين‌ﷺ أن يتركهم في أعمالهم، لكن ضميره لا يدعه يتركهم، والتزامه بأحكام الله وأوامر القرآن لا يعطيه مجالاً لأن يتصرّف هذا التصرّف. ولذا لم يقبل آراء المقترحين، وقال لهم: ليحدث ما يحدث، فأنا لست صاحب مصلحة، ولا أُريد أن أُحافظ على كرسي أجلس عليه، وإنما أريد أن أُطبق أحكام الله في الأرض.

وكانت هذه من القضايا التي سبّبت حرجاً لأمير المؤمنين‌ﷺ، ولها نظائر من القضايا كثيرة، فمن هذه القضايا أن الحاكم اليوم مثلاً لو كانت عنده جريدة تخدمه، فتنشر له أخباره يومياً وتبرّر وجوده وتفخّمه وتعظّمه وتدعمه فكرياً، فإنه يلتزمها وإن كانت باطلاً. والشعراء في عصر أمير المومنين‌ﷺ كانوا صحفاً سيّارة، فالشاعر يذود ويدافع ويبرّر ويحسّن ويقبّح، وللشاعر منزلة كبيرة، لكن إذا ارتكب الشاعر العصيان وشرب الخمرة، فما المبرّر لعلي‌ﷺ ألّا يقيم عليه الحد؟ وهذا ما حدث له‌ﷺ مع جرير الشاعر المعروف، فقد كان يشرب الخمرة، وفي الوقت نفسه يريد عطاءً من أمير المؤمنين‌ﷺ من الحق الشرعي. والحق الشرعي لا يمكن أن يعطيه الإمام‌ﷺ لمن يصرفه بالحرام، وهذا ما يذهب إليه المسلمون كلهم؛ ففي ذلك إعانة

على الإثم، فلم يكن الإمام مستعداً لأن يعطيه، فالتحق بمعاوية[١]. في حين أن غير علي بن أبي طالب يبحث عن ألف طريق لتبرير مثل هذه العمل.

لقد كان ابن هرمة شاعراً أديباً، وقلماً من الأقلام ذات المنفعة، وكان صديقاً للمنصور، فلما وفد على المنصور سأله: ألك حاجة؟ قال: بلى، حاجتي أن توعز إلى الوالي ألّا يلاحقني في الخمرة بأن يقيم عليّ الحدّ فيها؛ فإني لا أصبر عليها. فقال المنصور: لا أستطيع أن أفعل ذلك أمام الناس وأُعطل حداً من حدود اللّه، ولكن اذهب وسوف ترى.

ثم بعث المنصور إلى الوالي فقال له: إذا جاءك من يشهد أن ابن هرمة شرب الخمر، فاجلد ابن هرمة الحدّ ثمانين سوطاً، واجلد من شهد عليه مئة سوط. فراح ابن هرمة يسكر في الشارع ويصيح: من يشتري ثمانين بمئة؟ فلم يتجرّأ عليه أحد[٢].

وهذا لون من التحايل على حدود اللّه. ولكن الضمير الذي حمل اللّه في داخله لا يمكن أن يتساهل في موقف فيه إساءة للدين ولو بقيد شعرة.

فالآية تقول للنبي صلى الله عليه وآله: أنت موقفٌ، فلا يُزِلك هؤلاء عن موقفك، وأنت تحمل للناس التعليم، وهذا التعليم يدرّبهم على المبادئ الكريمة، فلا تتغيّر إزاء ذلك.

المبحث الثالث: في الافتراء على الله ورسوله صلى الله عليه وآله

ثم قالت الآية: ﴿لتَفتَريَ علينا غَيرَهُ﴾، وهذه أشدّ من سابقتها، فهم يقولون

---

(١) حوار مع الشيعة (الجبري): ٢٠٣، السيف والسقيفة (الورداني): ١٢٦ عن بعض الكتاب، وانظر الدولة الأُموية (الخضري) ١: ٢٨٨.

(٢) جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٣١١، تاريخ مدينة دمشق ٧: ٧٣.

له: كما جعلتَ مكّة بلداً حراماً آمناً، فاجعل وادينا مثلها. فاللّه حرم فيها سفك الدم واللجاج والعناد أثناء الحجّ، فقل في وادينا: إن اللّه قال فيه: إنه محرم، ليعرف العرب فضلنا، أي انسب إلى الوحي ما ليس منه. فأجابهم النبي ﷺ بأن هذا لا يمكن أن يكون أبداً. وهذه أيضاً من النقاط الخطرة، فالكل يلاحظ في تاريخ القمم التي حكمت في أُمّتنا أن الحاكم يبحث عن جماعة يبرّرون وجوده ويثلبون أعداءه، فمثلاً يدخل أحدهم ممن يعتبرونه من الفقهاء على الحجّاج، والحجّاج معروف في أن وسيلته للحكم هي سفك الدم ونشر الرعب والإرهاب، فيبرّر له هذا «الفقيه» عمله بقوله: إن اللّه إذا استرعى عبداً رعيّة كتب له الحسنات وأسقط عنه السيئات[1]!

فهذا يقول له: إن اللّه هو الذي ولّاك على هؤلاء هذا أوّلاً، وثانياً: إن اللّه سيكتب لك الحسنة ويمحو عنك السيئة. فلماذا هذا؟

قد يقول قائل: هل إن هذا التيّار موجود فعلاً عند المذاهب الإسلاميّة؟

فأقول: نعم، هذا صحيح، إنه موجود مع الأسف، ويعزّ عليّ أن أُصرّح بهذا المعنى. فهناك مَن حكم، ولمجرد أنه حكم صار مقدّساً. وأكبر دليل على ذلك أنهم يطلقون عليه لقب الخليفة، كالوليد ويزيد بن الوليد[2]، ثم يفترضون طاعته، ويروون أن من يبيت ليلة وليس في عنقه بيعة لهم ثم يموت فإن ميتته ميتة جاهلية[3]. مع أنه إنسان كلّه ثغرات وعيوب، فكيف يُطلب منا أن نتعبد

---

(١) انظر: شرح نهج البلاغة ١٧: ٦١، فتح الباري ١٣: ١٠١، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢: ٣٠١، وفيها ردّ الزهري لهذا الحديث.

(٢) قد مرّ ما كان من أفعال هؤلاء وأمثالهم في ج ٣ ص ٩٢ ـ ٩٣ من كتابنا هذا.

(٣) انظر: صحيح مسلم ٦: ٢٠ ـ ٢٢، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٢: ١٥٨ ـ ١٥٩ / ٨، صحيح مسلم بشرح النووي ١٢: ٢٢٩، التمهيد: ١٥٢.

ونتقرب إلى اللّه بإطاعته[١]؟

يروي البخاري في الصحيح عن عبد اللّه بن عمر أنه لما حدثت واقعة الحرة في المدينة جمع أولاده وأهله فقال لهم: إذا بايع الناس أحداً ثم غدروا به فقد غدروا باللّه، وللغادر لواء يُرفع يوم القيامة. فتمسّكوا ببيعة يزيد[٢].

وهذا الذي يرى أن من ينكث بيعة يزيد يكون غادراً يقال له: ما المبرّر لك في طاعة هذا الرجل؟ إنه كان يجلس على منبر المسلمين ويقول:

أقول لصحبٍ ضمّت الكأسُ شَملَهم ... وداعي صباباتِ الهوى يَترنَّمُ

خُذوا بنصيبٍ من نعيمٍ ولذَّةٍ ... فكلٌّ وإن طالَ المَدى يَتَصَرَّمُ[٣]

كان هكذا في الخمرة، أضف إلى لعبه بالقرود والفهود[٤]، ومع ذلك يرى ابن عمر التمسّك بطاعته، والمبرّر هو أن يزيد صار حاكماً. بل الأكثر من ذلك أن هناك حملات على الذي ينتقد واحداً ممّن حكم. وأقولها ببالغ الأسف: إن مثل هذا الفكر لا يطارَد وإنما يطارَد من يتمسّك بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[٥].

فمثل هؤلاء ينسبون إلى اللّه ما لم يقل وما لا يريد، من مثل «إن اللّه إذا استرعى عبداً الخلافة كتب له الحسنات ومحا عنه السيئات»[٦]. وفي المقابل

---

(١) انظر محاضرة (موقف الإسلام من الجور) في ج ٣ ص ٨٥ ـ ١٠١ من كتابنا هذا.

(٢) صحيح البخاري ٨: ٩٩، وانظر صحيح مسلم ٦: ٢٠ – ٢٢، قريب منه.

(٣) جواهر المطالب ٢: ٣٠١.

(٤) انظر: شرح نهج البلاغة ٢٠: ١٣٣، البداية والنهاية ٨: ٢٣٩، النزاع والتخاصم (المقريزي): ٥٦.

(٥) هود: ١١٣.

(٦) فتح الباري ١٣: ١٠١، شرح نهج البلاغة ١٧: ٦١، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢: ٣٠١، وفيها أن الوليد بن عبد الملك سأل ابن شهاب عنه فكذّبه.

يحاولون أن يحطّموا أولياءه. فيبتكروا حديثاً ينسبونه للنبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ، فمثلاً ينبري أحدهم ليقول: قال النبي: إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء[١].

من هم آل أبي طالب الذين هم ليسوا بأولياء للرسول ﷺ؟ أجعفر ﷺ ذو الجناحين الشهيد الذي لفعته دماء الشهادة، الطهر الطاهر الذي مُلئ إيماناً من قرن إلى قدم، أم علي بن أبي طالب ﷺ إمام المتقين، أم سيد العرب عقيل بما له من مزايا ومكانة، أم جمانة بنت أبي طالب المؤمنة الصالحة[٢]؟ أهؤلاء ليسوا أولياء للّه! فإن لم يكونوا كذلك فمن هو ولي اللّه؟ سمرة بن جندب[٣]؟

والمصيبة أن الرواية تقرؤها في كتاب يعتبر الثاني بعد القرآن، فلماذا يا تُرى يوجد مثل هذا اللون من النقل الذي يحزّ في النفس؟ ومعنى هذا أنك ترى مثل هذا الرافد في حضارتنا الفكرية الدينية يفتري على اللّه كذباً.

---

(١) صحيح البخاري ٧: ٧٣، وفيه: آل أبي [ ]، قال عمرو: في كتاب محمّد بن جعفر بياض ، صحيح مسلم ١: ١٣٦ ، وفيه: آل أبي ، يعني فلاناً، لكن يؤيد أن المقصودين هم آل أبي طالب، ما في فتح الباري ١٠: ٣٥٢، شرح نهج البلاغة ٤: ٦٤ عن البخاري ومسلم ، ١٢: ٨٨ ، صحيح مسلم بشرح النووي ٣: ٨٧ ، قال النووي بعده: الكناية بقوله: « يعني فلاناً » هي من بعض الرواة، خشي أن يسميه فيترتب عليه مفسدة وفتنة .

(٢) أم أُمّ هانئ التي أجار رسول اللّه ﷺ من أجارت وهما أخوا زوجها هبيرة بن أبي وهب المخزومي ، وكانا ضمن من هرب عند الفتح ، وذلك بقوله ﷺ: « قد أجرنا من أجرت يا أُمّ هاني ». الموطأ ١: ١٥٢ ، مسند أحمد ٦: ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٤٢٣، ٤٢٤، ٥٢٥، صحيح البخاري ٧: ١١٠ .

(٣) الذي يروى أنه قتل في يوم واحد ثمانية آلاف شخص في البصرة، ولم يفرّق ويميّز بين خارجي ومسلم. وحينما اعتُرض عليه في قتل المسلمين قال: الخارجي يعجّل به إلى النار، والمسلم يعجّل به إلى الجنة. انظر: تاريخ الطبري ٤: ١٧٦، تاريخ ابن خلدون ٣: ١٠، النصائح الكافية: ٧٦ .

فالآية تخاطب النبي صلى الله عليه وآله باعتباره عنوان الخطاب، وإلّا فالأمة هي المعنيّة بالخطاب. فمن يفترِ على اللّه تهدده الآية الكريمة، قال تعالى: **﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾**[1]، وقال: **﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**[2].

فالآية مقام البحث تقول للنبي صلى الله عليه وآله: إن هؤلاء يحاولون أن يزعزعوك ويقرّبوك إليهم كي تميل إلى اختراع شيء وتنسبه إلى اللّه تعالى، وهذا افتراء على وحي السماء.

المبحث الرابع: في اتخاذ الكافرين أولياء

ثم قالت له: وإنك لو فعلت ذلك لهم **﴿إذاً لاتَّخذُوكَ خَليلاً﴾**. فالنبي صلى الله عليه وآله له خلّة مع اللّه تعالى، وهو تعالى ناجى الأنبياء عليهم السلام كما في قوله لموسىٰ عليه السلام: **﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾**[3]. فالآية الكريمة تقول له صلى الله عليه وآله: إنك لو أطعت هؤلاء صرت خليلاً لهم ولم تعد خليل اللّه، بل تنفصل عن ولاية اللّه إلى ولاية هؤلاء الظلمة. وهذا في الحقيقة تهديد مرعب.

الحجّاج والأعرابي

ومما له صلة بهذه المعنى حادثة حصلت للحجاج، ذلك أنه كان في الحج ذات يوم، وكان الزحام شديداً على الكعبة، فلم يستطع الطواف، فوضعوا له طنفسة في طرف من أطراف البيت واتّكأ عليها. وفي هذه الأثناء مرّ أعرابي يلبّي بصوت عال ملفت للنظر. فقال الحجّاج: عليّ به. فلما جيء به سأله:

---

(١) يونس: ٥٩. (٢) البقرة: ٨٠.

(٣) طه: ١٣.

ممن؟ قال: من بطن أُمي. قال الحجّاج: أعني من أين استُقصي أثرك؟ قال: من ظهر أبي. قال الحجّاج: بل أعني من أين جئت؟ قال: من الطائف. قال: كيف تركت محمد بن يوسف؟ (وهو أخو الحجّاج، وكان والياً على الطائف). قال: تركته عظيماً جسيماً خرّاجاً ولّاجاً، لبّاساً حريراً، آكلاً شارباً، يلعب بأموال عباد اللّه. قال الحجّاج: أنا لا أسألك عن سيرته الذاتية، وإنما أسأل عن سيرته الاجتماعيّة مع الناس. قال الأعرابي: تركته ظلوماً غشوماً، آمراً بالمنكر تاركاً للمعروف، عاصياً للّه، مطيعاً للناس. قال: أتقول ذلك وأنت تعلم موضعه مني؟ قال: بلى، أنا زائر لنبي اللّه ﷺ، ووافد على بيت اللّه، أفتراه بمكانة منك أعزّ مني بمكانتي من اللّه ونبيّه؟

فسكت الحجّاج، وخرج الرجل من بين الصفوف دون أن يشعر به أحد، فتبعه طاووس الذي كان جالساً في المجلس، فقال له الأعرابي: ما تريد؟ قال: إن موقفك هذا أعجبني، وأحببت أن أنتفع بصحبتك. فقال الأعرابي: أنت صاحب الوسادة؟ وكان قد ثنيت له وسادة يجلس عليها جنب الحجّاج. قال: بلى، هذا رجل قوي، وكما طلبك طلبني. فقال: أما كان من ورعك ما يردعك عن الاستقرار بمجلسه؟ ثم قال: وإنك تطلب مني الصحبة؟ قال طاووس: بلى. قال: لا، إن لي صاحباً يغار علي، ولا أُريد أن أترك صحبته[1].

فالآية تقول للنبي ﷺ: إن هؤلاء لو ملت إليهم لاتّخذوك خليلاً ولن تكون حينها حبيباً للّه. وقد كان أبو الزهراء ﷺ حبيب اللّه حقاً، فقد وقف في

---

(١) جمهرة خطب العرب ٣: ٣٣١ ـ ٣٣٢، ولم ينقل حديث طاووس معه.

الليالي المظلمة حتى انتفخ الساق وورم القدم ونزل عليه قوله تعالى: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[١]. فقال صلى الله عليه وآله: «**حبيبي أفلا أكون عبداً شكوراً؟**»[٢].

هذا هو خط آل محمد صلى الله عليه وآله، إذا جنّ عليهم الليل تجدهم ذائبين بالله عز وجل. فهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله، وهكذا كان خليله وأخوه وصفيه علي بن أبي طالب عليه السلام. يقول حبة العرني: بت عنده ليلة فرأيته عند منتصف الليل شبيه من طار عقله، يتلمس الحيطان ويقول: «**ربي ليت شعري أفي غفلات مُعرض أنت عني، أم ناظر إليّ؟ ما لي كلّما طال عمري كثرت خطاياي؟**». ولم يهدأ إلى الصباح[٣].

وكان أولاده هكذا، لا في اللحظات الاعتيادية التي يكون فيها الإنسان على وعي واتجاه إلى الله، وإنما حتّى في أحرج ساعة تمر بهم، فكان أبو الشهداء عليه السلام يرمق السماء بطرفه في لحظاته الأخيرة ويقول: «**لك العتبىٰ يارب، صبراً علىٰ قضائك، ياغياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخذ حتىٰ ترضىٰ**»[٤]. فحتى هذه اللحظات العصيبة لا تجعلهم ينفكّون عن الله أبداً، على الرغم من الارتباط بأُسرهم وأولادهم وأهلهم. فالإمام الحسين عليه السلام في

---

(١) طه: ١ ـ ٢.

(٢) الكافي ٢:٩٥/٦، مسند أحمد ٤:٢٥١، وليس فيهما: حبيبي، فالحديث فيهما خطاب منه صلى الله عليه وآله لمن سأله: لم هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

(٣) لم نعثر عليه عن أمير المؤمنين عليه السلام، وقريب منه ما يرويه طاووس عن السجاد عليه السلام، انظر: مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩١، المزار (المشهدي): ١٤١ ـ ١٤٢، وسيذكره المحاضر فيما سيأتي، انظر محاضرة (قبسات من حياة الإمام السجاد عليه السلام).

(٤) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣:٨٣.

لحظاته الأخيرة يرفع رأسه إلى السماء ويقول:

تركتُ الخلقَ طرّاً في هَوَاكا ... وأيتمتُ العيالَ لكي أرَاكا

فلو قَطّعتَني في الحُبِّ إرباً ... لما مالَ الفُؤادُ إلى سِواكا[1]

وأي علاقة كانت له مع أهله؟ خصوصاً مع أُخته زينب؟ إنها علاقة لا يقوى الإنسان على تصويرها؛ لأنها درجت معه من طفولتها.. من حجر فاطمة إلى حجر علي في أرجاء ذلك البيت، لا تكاد تفارقه.. وجهه ملء عينيها، لا تبتعد عنه الليل ولا النهار.

لقد كانت في بيت عبد اللّه بن جعفر، لكنها تركت بيتها وأولادها وجاءت مع الحسين، فتبعها ولداها محمد وعون، وقتلا بالطفّ، فلم تذكرهما أبداً، وإنما كانت مغمورة بالحسين، وقد صعب عليها مصرعه، وجعلها لا تهدأ الليل ولا النهار..تدخل إلى داره فترى صورته أمامها، وطيفه يناجيها، وتخرج فترى مواطئ قدمه من الأرض التي درجا عليها معاً. فكانت أينما ذهبت تلاحقها أنفاسه فتملأ عليها أحاسيسها. فكانت إذا جن عليها الليل تتّجه إليه:

أعيش وياك حلم بنوم ... وصوره من اكعد من النوم

ما بيّه ابتعد عنك ... أريد وياك اعيشن دوم

كلبي بكربلا عفته ... يرف عالكبر رف الحوم

---

(١) سبق أن نوّهنا في ج ٢ ص٣٣٦ من كتابنا هذا إلى أننا لم نعثر على من ينسبهما للإمام الحسين، بل هما ينسبان لأحد أبناء إبراهيم بن أدهم. انظر تاريخ مدينة دمشق ٦: ٣٠٦.

وآنـــه هـــنا بكـايا روح تــعيش احــزانـها وتـنعاك

* * *

وعــيونك يــبو الســجاد لو يـــــمك يـــخلوني

أحــط راسـي عـلى كـبرك وارشــه بــدمعة عـيوني

أكـضي العـمر كلّه هـناك واكـــولن للـــــيلوموني

* * *

هذي الطفوفُ ومنها بـالحشا شُـعَلُ مَــن نــاشدٌ ليَ أحـباباً بـها قُـتِلوا

مِـن طـيبةٍ بَـزغوا فـي كَـربلا أَفَـلوا (بالأمس كانوا معي واليومَ قد رحلوا

وخـلّفوا فـي سُـويدا الـقلب نـيراناً)[1]

---

(١) انظر البيت المخمّس في شجرة طوبىٰ ١: ٩٠.



﴿ ٧٧ ﴾

عليّ عليه السلام ميزان العدل

من خطبة لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام:

«اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان
منا منافسة في سلطان ولا لالتماس شيء
من فضول الحطام، ولكن لنردَ المعالم من
دينك؛ فتُقام المُعَطَّلة من حدودك، ويأمن الضعيف من عبادك. اللهم إني أول من أناب، وأسلم وأجاب، لم يسبقني أحد بالصلاة إلّا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

المباحث العامّة للموضوع

مقدمة حول بعض الاجتهادات المخطوءة في صدر الإسلام

هذه الخطبة تعدّ من المواطن التي أعرب فيها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن تحليل بعض مواقفه، وبالذات موقفه في الصدر الأول. والمسألة في الواقع هي جواب لسؤال مضمر في النفوس؛ لأن بعض الناس يتساءل: إن ما نعرفه عن علي عليه السلام من هيكله ووضعه العام أنه ليس إنساناً حبّاباً للدنيا أو الكرسي، أو يتهالك على شيء من الرغائب المؤقّتة. فلماذا إذن وقف موقف السلبيّة من الصدر الأول، فامتنع عن البيعة مدة من الزمن ثم أخذ يبدي تذمّره من بعض

(١) نهج البلاغة / الكلام: ١٣١ .

التصرّفاتّ؟ فما هو الدافع الذي دفعه لذلك؟

وهنا لا بد من السؤال: هل إن الوضع العام في الصدر الإسلامي كان منحرفاً عن الإسلام، أو إنه في خطّ الإسلام ولكن فيه اجتهادات مخطوءة؟ فإن كان منحرفاً عن الإسلام فالواجب على الإمامﷺ أن يجاهد ويقاتل ولو بنفسه. فهذا الفرض إذن لا سبيل إلى الأخذ به، ولا بد من الأخذ بالفرض الثاني وهو أن الوضع كان في خطّ الإسلام لكن كان فيه اجتهادات مخطوءة. وبتعبير آخر فإن هناك مناهج تختلف عن منهج الإمامﷺ الذي يتّضح عندما قال له عبد الرحمن بن عوف: أُبايعك على كتاب اللّه وسنّة رسولهﷺ وسيرة الشيخين. فقال لهﷺ: **«بل على كتاب اللّه وسنة رسوله، وأجتهد برأيي»**[1].

فالمسألة إذن أن الخطّ كان خطّاً إسلاميّاً، وهذا هو الذي يفسّر لنا مواقفهﷺ الإيجابية؛ كإرسال أبنائه إلى الفتوحات[2]، ووقوفه مراراً وهو يشارك بالنظريّة وإبداء الرأي[3]، وحضوره الاجتماعات والمجالس[4]، وهذا

---

(١) المسترشد في الإمامة (الطبري الشيعي): ٣٦٥، بحار الأنوار ٣١: ٣٩٩، شرح نهج البلاغة ١: ١٨٨، وانظر المحصول في علم الأُصول ٦: ٨٦.

(٢) انظر: طبقات المحدثين بأصبهان (ابن حبان) ١: ١٩١، تاريخ جرجان: ٤٨.

(٣) كما في قضيّة التأريخ في الإسلام وتحديد بدايته، فقد اختلف المسلمون حول ذلك في خلافة عمر بن الخطاب؛ حيث قام رجل لعمر فقال: أرّخوا بتاريخ الروم، فإنّهم يؤرّخون من عهد ذي القرنين. فقال لهم أمير المؤمنينﷺ: «أرّخوا من مهاجرة رسول اللّهﷺ». فرضوا بذلك. انظر: تاريخ الطبري ٢: ٣، الكامل في التاريخ ١: ١١.

(٤) فقد ذكر التاريخ لنا كمّاً هائلاً من قضاياه العجيبة التي حكم بها أيام الخلفاء قبله، ومن رام الاستزادة فليرجع إلى كتاب (قضاء أمير المؤمنينﷺ) فقد ترك لنا فيه ثروة كبيرة في هذا المجال، ومنها مارواه المفسّرون والمحدّثون والفقهاء والمؤرّخون، انظر مثلاً: مسند أبي داود الطيالسي: ١٨، الجامع لأحكام القرآن ١٥: ١٦٣، عون المعبود ٩: ٢٧١، والكثير غيرها.

بدافع حفظ بيضة الإسلام.

فالخطّ إذن خطّ إسلام، ولكن هناك منهج فيه أخطاء، وهو في نظر الإمام﷤ لا يؤدي إلى الإسلام بالشكل المطلوب الذي يريده هو. فليست المسألة هي ضم جماعة إلى جماعة، أو ضم قطعة من الأرض إلى قطعة أُخرى، وإنما هي مسألة صنع مسلم حقيقي. وهذه النقطة هي التي اختلفت فيها المناهج.

المبحث الأول: أنه﷤ أرفع من أن ينافس في سلطان

يقول الإمام﷤: «**اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان**». وقد تستغرب من هذا الأُسلوب، وهو أن الإمام﷤ يستشهد باللّه، ويضع في صدر خطبته هذا اللون من التأكيد مع أن منزلته فوق الشبهات، فما هو الدافع لذلك؟ الدافع هو أن الدعاية كانت عاتية أقوى من الواقع، وغالب الناس سذّج تأخذهم الدعاية، وليس بعيداً عنك ما يحدث في زماننا من أثر الدعاية التي تجعل من بعض الأصنام أُناساً، فتقلب الحقّ باطلاً، وتغير النظريّة رأساً على عقب. فالناس يعيشون الواقع، ولكن لا يعيشونه بعقولهم إنما بآذانهم، ورحم اللّه شوقيّاً حيث يقول:

ملأ الجو هتافاً بحياة قاتليهِ

يا له من ببغاءٍ عقلُه في أذنيهِ

فالدور الدعائي له من الإمكانية أن يقلب الحق باطلاً وبالعكس.

فالإمام﷤ ينطلق من هذا الواقع لطرد هذه الشبهات عن الأفهام، فهو يقول لهم: لا تتصوّروا أن ما ترونه من موقفي هو بدافع من الرغائب المؤقّتة، وإنما

هو في خطّ المبدأ العامّ، ولا تتصوّروا أنها قضيّة شخصيّة أبداً، أو أن من وراء موقفي السلبي هذا أهدافاً ضيقة تعود عليّ بالنفع.

والدليل على ذلك أن الإنسان إنما يريد السلطان إما لإرضاء شعور بالنقص في داخله، فهو يريد أن يشعر أن الناس تنحني له وتسمع وتطيع وهو يأمر وينهى ويفعل ما يشاء، أو لاستفادة من حطام كالمال والكرسي والمركز. وهذان كلاهما غير موجودين عند أمير المؤمنين﵇، وسيرته أوضح دليل على ذلك؛ فهو ذو نفس قوية متكاملة لا تشعر بأي لون من ألوان الشعور بالحاجة إلى الغير[1]، وهو الصادق الأمين الذي أعرب عن هذا بقوله: **«والله لا يزيدني كثرة الناس حولي عزّة، ولا تفرّقهم عني وحشة»**[2].

وهذا الذي آمن به جسّده على أرض الواقع، فقد دخل عليه جماعة من أصحابه وأرادوا منه أن يتهاون قليلاً مع البعض على حساب المبادئ، فلم يفعل. ومن جملة من دخل إليه مالك الأشتر فقال له: ماذا تصنع يا أمير المؤمنين؟ الأولى أن تفضّل الرؤساء على سائر الناس، والعرب على الموالي، وتستميل من تشكّ في ودّه. فتبسم أمير المؤمنين﵇، وبلهجة الواثق الذي لا تزيده الحياة إلّا شعوراً بالسموّ والرفعة مهما وصلت، قال﵇ لهم: **«أتريدونني**

---

(١) خرج﵇ على أصحابه يوماً وهو راكب، فمشوا معه، فالتفت إليهم فقال: «لكم حاجة؟». فقالوا: لا يا أمير المؤمنين، ولكنا نحبّ أن نمشي معك. فقال لهم: «انصرفوا؛ فإن مشي الماشي مع الراكب مفسدة للراكب ومذلّة للماشي».
وركب مرة أُخرى فمشوا خلفه فقال: «انصرفوا؛ فإن خفق النعال خلف أعقاب الرجال مفسدة لقلوب النوكى». المحاسن ٢: ٦٢٩ / ١٠٤، مشكاة الأنوار: ٣٦٤.
والنوكى: الحمقى. لسان العرب ١٠: ٥٠١ ـ نوك.

(٢) نهج البلاغة / الكتاب: ٣٦.

أن أطلب النصر بالجور؟ لا والله، لا أفعل ذلك ما طلعت شمس، وما لاح في السماء نجم»[1].

إنه﵇ يقول لهم: أنا لا أسحق مصالح الجماهير من أجل كرسي أجلس عليه، ولا أعتدي على حقوق الناس من أجل شيء تافه لا يعدل شيئاً. يقول أحدهم في علي﵇:

إنـي أتـيتُك أجـتليك وأبـتغي ... وِرداً فـعندك للـعطاش مـعينُ

وأغضُّ من طرفي أمام شوامـخٍ ... وقـع الزمـان وأسُّـهُنَّ مـتينُ

وأراك أكـبرَ مـن حـديث خـلافةٍ ... يسـتامُها مـروانُ أو هـارونُ

لك بـالنفوس إمـامةٌ فـيهونُ لو ... عصفت بك الشورى أو التعيينُ

فـدع المـعاول تـزبئرّ قسـاوة ... وضـراوة إن البـناء مـتينُ[2]

فهو﵇ يقول: لو كانت الأموال لي لواسيت بينهم، فكيف وهي أموال الله تعالىٰ وأموالهم؟

وهذه المفاهيم كانت غريبة كثيراً عن العصر الذي كان يعيشه أمير المؤمنين﵇، فقد كان الحاكم آنذاك يرى نفسه أنه ظلّ اللّه وخليفته في

---

(١) الأمالي (الطوسي): ١٩٤ / ٣٣١، ونسب العتاب فيه لجماعة من أصحابه﵇، وفي نهج البلاغة / الكلام: ١٢٦ ما نصّه: «والله، ما أطور به ما سمر سمير، وما أمّ نجم في السماء نجماً. لو كان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله؟ ألا وإن إعطاء المال في غير حقّه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الناس ويهينه عند الله. ولم يضع امرؤ ماله في غير حقّه ولا عند غير أهله إلّا حرمه الله شكرهم، وكان لغيره ودّهم. فإن زلّت به النعل يوماً فاحتاج إلى معونتهم فشرّ خدين وألأم خليل».
وكما مرّ من محاولات المغيرة، انظر: بحار الأنوار ٤٢: ١٧٠، مروج الذهب ٢: ٣٩١، شرح نهج البلاغة ٦: ٣٠١.

(٢) ديوان المحاضر ١: ٢٠.

الأرض، يقول معاوية: المال مال الله وأنا خليفة الله؛ إن شئت أعطيت، وإن شئت منعت. وهذه هي العقليّة التي كانت سائدة حينذاك، ولكن أمير المؤمنين يأتي حاملاً هذا المفهوم الجديد: الأموال أموالهم، وأنا أُمَثِّلُ مصالحَهم. وهذا اللون من الفكر ـ كما قلنا ـ جديد جداً على المنطقة والبيئة اللتين عاش فيهما أمير المؤمنين.

فلم يكن الكرسي بالذي يستهوي علياً ويستميله ويزيده شيئاً من الشعور بالزهو والخيلاء، بل العكس هو الصحيح، فالتراب الذي يجلس عليه وإلى جانبه بعض رفاقه الذين يألفهم ويأنس بهم ويميل إليهم نفسياً أكبر في عينه وألذّ لنفسه وأمتع لقرارته من أن يجلس على كرسي يرى أنه جلس عليه بغير حقّ، إنه أبعد عن هذا وأكبر.

وفي الوقت نفسه لم يكن يرى أن التكامل الجسدي يمر عبر ملابس زاهية مُحَلاَّة بالذهب يتباهى بها، أبداً، يقول: **«ولقد رقعت مدرعتي حتىٰ استحييت من راقعها، وحتىٰ قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت اعزب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ»**[1].

وكان يقول: **«ما لعلي ولنعيم يفنىٰ ولذة لا تبقىٰ؟»**[2].

ولئن أبى أن يلبس رداء من هذا النوع، فقد لبس رداء الحمد ضافياً على امتداد السنين، يقول أحد الشعراء:

أبـا حسـنٍ إنْ ربَّـعوا بك دَسـتَهُم ... فيوشَكُ أن يُمسي كما شئتَ خـاويا

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٠، عيون المواعظ والحكم: ٤٠٥، وقد رأينا أنه يشتري الثوبين بخمسة دراهم فيلبس ذا الدرهمين ويعطي ذا الثلاثة دراهم لقنبر. انظر روضة الواعظين: ١٠٧.

(٢) نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤.

فأنت حديثُ الدهرِ ما زلت طافحاً   على فمه تُروَى وما زال راويا
وأنت حديثُ الدهرِ مهما تناسَلَت   لياليه أياماً وآبت لياليا
وما مِدحتي تُوليك فخراً وإنما   أردُّ بإطرائي عليك الطواريا
إذا الملأ الأعلى تحدَّر بالثَّنا   عليك فما شأني وشأن ثنائيا

المبحث الثاني: من مظاهر زهده عليه السلام

ثم قال عليه السلام: «**ولا لالتماس شيء من فضول الحطام**». وما قيمة الأموال[1] عند هذا العملاق الذي كان يرى في الرغيف كفاية له[2]، وفي المُرقَّعة ثوباً له، ويأبى أن يمدّ يده إلى طعام ما لم يكن طيّباً[3]. وماذا خلَّف من الأموال عند استشهاده؟ لقد أوقف كلّ ما لديه في سبيل الله[4]، وكل ما خلفه سبعمئة درهم كان قد خصصها لشراء أجير كانوا بحاجة إليه في البيت يساعدهم في

---

(١) لقد عاش عليه السلام ومات وما بنى لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، تهذيب الأسماء ٢: ٣٤٦، أُسد الغابة ٤: ٢٤، مناقب أمير المؤمنين (الخوارزمي): ٧٠، البداية والنهاية ٨: ٥٥. وقد باع عليه السلام سيفه وقال: «لو كان عندي ثمن عشاء ما بعته». كشف المحجّة: ١٢٤.
وقد قال عليه السلام: «أنا الذي أهنت الدنيا». ترجمة الإمام علي (ابن عساكر) ٣: ٢٠٢، البداية والنهاية ٨: ٥ .

(٢) وهو عليه السلام القائل: «والله لو شئت لاهتديت الطريق إلىٰ مصفىٰ هذا العسل...»، وسيأتي. نهج البلاغة /الكتاب: ٤٥. والقائل: «من أدخله بطنه النار فأبعده الله». الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد ابن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١.

(٣) أي مكتسباً من حِلّ.

(٤) فقد وقف عليه السلام على الحاجّ مئة عين استنبطها في ينبع، مناقب آل أبي طالب ٢: ١٢٣، وقد تصدّق عليه السلام بكل حوائطه وما استنبط من عيون ووقفها على المسلمين، ولم يُبقِ منها شيئاً حين وفاته كما هو صريح خطبة ولده الحسن السبط عليه السلام حين توفي والده. الفتوح (ابن أعثم) ٤: ١٤٦، ترجمة الإمام علي (ابن عساكر) ٣: ٥٨، ٦٠.

نقل الماء والحطب وغير ذلك[1]، وكان أمير المؤمنين ﷺ يتولّى ذلك بنفسه، فكان ينقل الماء والحطب حتى في أيّام خلافته، وكان يخرج صباحاً يدور في الأسواق ثم يرجع وبيده شيء من التمر الذي اشتراه من ميثم التمار ﷺ، فيلتقيه شرطة الخميس ويطلبون منه حمل هذا التمر عنه فيقول: **«أبو العيال أحقّ بحمله»**[2]. فيحمله إلى البيت، ويقوم بأعماله البيتية كأي إنسان عادي[3]، ثم يأتي إلى دكة القضاء.

فكان عياله بحاجة إلى من يساعدهم، ولذا كان يدّخر من عطائه الخاصّ شيئاً ليأخذ لعياله أجيراً يساعدهم في البيت. والزهراء ﷺ نفسها من قبل كانت تطحن بيدها عند إقامة أمير المؤمنين ﷺ في المدينة؛ ولذلك فإن هذه الطيوف تلاحق الإنسان وهو يدخل إلى القبر النبوي الشريف، يقول أحد الشعراء:

وعفّرتُ خدّي في ثرىً مسّ عَفرَهُ	**لجبريل من جنحيه ريشٌ مُزغّبُ**
وفيه محاريبُ لآل محمدٍ	**بهنّ ضراعاتٌ إلى الله تُنصَبُ**
وآثارُ أقدامٍ صغارٍ ومهجعٌ	**إلى الحسنين الزاكيين وملعبُ**
وصوتُ رحى الزّهراء تطحنُ قوتَها	**إلى جلدِ كبشٍ حيثُ تجلس زينبُ**

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٦٢، الفتوح (ابن أعثم) ٤: ١٤٦، الاستيعاب (هامش الإصابة) ٣: ٤٨، تاريخ الإسلام ٢: ٢٠٧. وقد أمر بردّ هذا المبلغ إلى بيت المال بعد وفاته كما ذكره الإمام الحسن ﷺ في خطبته. الفتوح (ابن أعثم) ٤: ١٤٦، وقد مرّ ما في هذا الهامش والهوامش الثلاثة التي قبله مفصّلاً في ج ٢ ص ٢٧٣ـ ٢٧٤ من كتابنا هذا.

(٢) الغارات ١: ٨٩، مناقب آل أبي طالب ١: ٣٧٢، وفيه: رب العيال، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٨٩، البداية والنهاية ٨: ٦، كنز العمّال ١٣: ١٨٠ / ٣٦٥٣٧.

(٣) وكان ﷺ يعمل في خلافته حتى أصاب يديه المَجَل. الغارات ١: ٩٢.

رؤىً سوف يبقى الدَّهرُ يروي جلالَها وتبقى على رغم البساطة تأشبُ[(١)]

فكلّ ما كان عند أمير المؤمنين عليه السلام هو هذه السبعمئة درهم التي أراد أن يشتري بها خادماً أو جارية لعياله. في حين أن أحد كتَّاب المأمون مات، فبعث المأمون أخاه المعتصم ليحرّر تركته ويحصيها، فاشتغلوا في تحريرها شهراً كاملاً، ثم عادوا إلى المأمون فقال لهم: ما رأيتم؟ فقال المعتصم: لقد ترك ثمانية آلاف ألف دينار ـ أي ثمانية ملايين دينار باصطلاح اليوم ـ وهذا الرقم ليس في عصر النفط طبعاً إنما في عصر المعتصم الذي كان فيه الدرهم يُشغِّل عشرة عمال، فالعامل يشتغل بدانق واحد، والدينار ستة دراهم، فالدينار يشغل ستين عاملاً.

وهذا الكاتب ترك ثمانية ملايين دينار، فقال المأمون لأخيه المعتصم: ما لك مددت بها الكلام؟ واللّه ما كنت أرضاها لتابع من أتباعه، اتركوها لأهله[(٢)]. فتركها المعتصم لصغاره، ووهب الأمير ما لا يملك كما يقال. أما علي عليه السلام، الخليفة الشرعي الذي تجبى له الأموال من الشرق والغرب فلا يترك سوى سبعمئة درهم.

المبحث الثالث: أسباب عدم اهتمامه عليه السلام بالفتوحات

ثم يقول عليه السلام في خطبته: «ولكن لنردَ المعالم من دينك»، فللدين معالم واضحة ولكن الناس لا يصلون إليها، وإنما يقعون غالباً على الشكليّات والمظاهر ولا يقعون على اللباب. فكان عليه السلام يريد أن ينشئ مجتمعاً فيه حرارة

---

(١) ديوان المحاضر ١: ١٥، وتأشب: تجتمع. لسان العرب ١: ٢١٤ ـ أشب.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٨: ٨٧.

إيمان، ومنهج إسلام، ومثل هذا العمل يتطلّب تغييراً جذريّاً للمجتمع والطبائع السائدة، وهذا هو السرّ الذي جعل عصر الإمام ﷺ خالياً من الفتوحات عدا بعض الفتوحات البسيطة؛ لأنه ﷺ أراد أن ينشغل بالكيفيّة لا بالكميّة. وهذا أشبه بمن يكون عنده عشرة أولاد بلا علم ولا تربية وآخر لديه ولد واحد كلّه أخلاق وعلم وتربية، فهذا الواحد هو حتماً أفضل من أُولئك العشرة كما هو واضح.

لقد كان بوسع أمير المؤمنين ﷺ أن ينصرف إلى الفتوحات، ولا يستطيع أحد أن يتّهمه بالجبن، فهو مَن كان العرب وغير العرب يضربون المثل بسيفه، يقول أحد الشعراء:

ضربتَ ولم تضرب بسيف ابن طالبٍ ... بسيف أبي رغوان سيفِ مُجاشعِ[(١)]

نعم قد يكون للانشغال الداخلي، وعدم انتظام الجيش الأثرُ في انحسار الفتوحات في زمنه، ولكن أحد العوامل المهمّة في ذلك هو اهتمامه ﷺ ببناء الإنسان بناء صحيحاً، فقد دخل ﷺ إلى الكوفة وكان لا بدّ له من بناء الإنسان فيها، وقد بنى من الناس أمثال صعصعة بن صوحان وزيد أخيه وسويد بن غفلة وهاشم المرقال وعمار بن ياسر وغيرهم، أما الأجيال التي عاصرت الإمام ﷺ فلا تجد لها أثراً. وهذا هو حال الدنيا عبر التاريخ، فالعباقرة أفراد قلائل؛ لأنهم مَبنيُّون بناءً صحيحاً. وهذا هو الذي أراده الإمام ﷺ في تربيته

---

(١) البيت للفرزدق، قاله لمّا ضرب عنق رومي فنبا السيف عنه، فقال: كأني وابن اليقين وقد هجاني، ثمّ أنشد البيت. انظر مناقب آل أبي طالب ٣: ٨٣. وروي البيت ومناسبة قوله بشكل آخر في تاريخ الطبري ٥: ٣٠٦، شرح نهج البلاغة ٥: ٢٢.

الصارمة التي جعلت البعض يهرب منه إلى معاوية[١].

فكان عليه السلام كلّما صعد المنبر قال: «**سلوني قبل أن تفقدوني**»[٢]. فيقوم له من يقول: أخبرني، كم شعرة في لحيتي؟[٣].

المبحث الرابع: من مظاهر تعطيل الحدود في زمن مَن سبقه

ثم قال عليه السلام «**فتُقام المُعَطَّلة من حدودك**»، وهذه الحدود المعطّلة خلقت له مشكلة من أول أيام خلافته، وكم من الحدود كان معطّلاً! كما هو الحال مع المغيرة بن شعبة الذي عطّل عنه الحد، ودُرِئ عنه بشكل أو بآخر. ولم يتمكّن عليه السلام أن يغير من الواقع شيئاً؛ لأن تغيير الواقع يحتاج إلى وقت طويل، وإلّا فإن المغيرة مثلاً كان نصب عينيه، لكن الخليفة الثاني هو الذي درأ عنه الحد[٤]، والخليفة الثاني له منهجه، ومن الصعب على الإمام عليه السلام أن يغيّر المنهج بهذه البساطة التي نتصوّرها.

وهناك الكثير من المسائل التي أبقاها كما هي، فقد كتب إلى قضاته: «**اقضوا كما كنتم تقضون؛ فإني أكره الاختلاف، حتى تكون للناس جماعة أو أموت كما مات أصحابي**»[٥].

---

(١) كما مرّ من أمر جرير الشاعر وغيره. (٢) نهج البلاغة / الكلام: ١٨٩.

(٣) خصائص الأيمّة: ٦٢.

(٤) المسترشد في الإمامة: ٢٢٣، الاحتجاج ١: ٤١٣، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٦: ٥٦ / ٣، شرح نهج البلاغة ١٢: ٢٣٧ ـ ٢٣٨، ٢٠: ٢٣، كنز العمّال ٥: ٤٥٢ / ١٣٥٨٩، ٧: ٢٢ / ١٧٧٧٦، الإصابة ٣: ٣٠٤.

(٥) تهذيب الأحكام ٩: ٢٥٩ / ٩٧٠، صحيح البخاري ٤: ٢٠٨ ـ ٢٠٩، المصنّف (الصنعاني) ١١: ٣٢٩ / ٢٠٦٧٧، الإحكام (الآمدي) ٤: ٩، شرح نهج البلاغة ٧: ٧٢، ١٤: ٢٩، ١٩: ١٦١.

فهو يقول لهم: أنا صاحب منهج، ولا أستطيع أن أُنفذ ما أُريد إلّا أن أحمل الناس على منهجي، فأنا أحكم شعباً، ولا أُريد أن أحكمه بخلاف إرادته وإنما أُريد أولاً أن أطوّعه وأجعله يرتفع إلى مستوى الشعور بأن رأيي هو الأصوب، وأخلق عنده رأياً عامّاً موالياً لي، وعند ذاك أُنفذ مبادئي.

ومن الحدود المعطلة ما كان يستحقّه عبيد اللّه بن الخليفة الثاني الذي قتل الهرمزان وشخصاً آخر في المسجد انتقاماً لقتل أبيه على يد رجل فارسي[1]. ولم يكن للهرمزان ذنب سوى أن أحد أبناء جنسه قتل الخليفة، في حين أن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[2]. ولذلك لجأ عبيد اللّه بن عمر بن الخطاب إلى معاوية أوّل مجيء الإمام إلى الخلافة[3].

وهناك من الأموال ماكان يعاقَب عليه بقطع اليد؛ لأنها سرقت من بيت المال، وبُني بها البيوت، فراح يسترجعها وله في ذلك قوله المعروف: **«واللّه لو وجدته قد تُزُوِّج به النساء ومُلِك به الإماء لرددته؛ فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق»**[4]. ولذا التحق الكثير من المتضرّرين بمعاوية، وكلّف هذا المنهج الإمام ثمناً غالياً.

المبحث الخامس: من مظاهر عدله

ثم قال: **«ويأمن الضعيف من عباده»**، هذا الضعيف المسحوق الذي

---

(١) السنن الكبرىٰ ٨: ٦١، وذكر فيه أن عبيد اللّه احتج بأنه رأىٰ الهرمزان يدفع أبا لؤلؤة لقتل أبيه، فتح الباري ٦: ١٨٩، شرح معاني الآثار (ابن سلمة) ٣: ١٩٤، شرح نهج البلاغة ٣: ٥٩، ١٠١.

(٢) الأنعام: ١٦٤.

(٣) شرح الأخبار ٢: ١٣ / ٤٠١، بحار الأنوار ٣٠: ٣٧٣، الطبقات الكبرىٰ ٥: ١٧، شرح نهج البلاغة ٣: ١٠١.

(٤) نهج البلاغة / الكلام: ١٥.

يُستغلّ ويُتاجر باسمه، وتسحق آدميّته لا بد أن يأمن في دولة العدل. وقد رأيناه عليه السلام حينما انتهى له الأمر كيف كان يحمل مسؤوليّة الإنسان الذي يبعد عنه مئات الأميال. يقول في كتابه لعثمان بن حنيف: «**والله لو شئت لاهتديت الطريق إلىٰ مصفىٰ هذا العسل ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يقودني هواي، أو يغلبني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع، أأبيت مبطاناً وحولي بطون غرثىٰ؟**»[1].

وكان عليه السلام كثيراً ما تعجبه أبيات حاتم بن عبد الله الطائي:

أيا ابنةَ عبد الله يا أُمَّ مالكٍ ... ويا ابنةَ ذي البُردَين والأسدِ الوردِ

إذا ما صنعتِ الزادَ فالتمسي لنا ... أكيلاً فإني لستُ آكلُه وحدي

وحسبُك داءً أن تبيتَ ببِطنةٍ ... وحولَك أكبادٌ تحِنُّ إلى القِدِّ[2]

وانتهى به الأمر إلى أن يبيت طاوياً ثلاثة أيام، فنزلت سورة بكاملها ترفع عقيرتها آناء الليل وأطراف النهار: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً**﴾[3].

يقول الشاعر:

جاد بالقرص والطَّوى ملءُ جَنبيـ ... ـه وعافَ الطعامَ وهو سغوبُ

---

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

(٢) ديوان حاتم الطائي: ٤٣، ولم ينقل البيت الثالث.

(٣) الدهر: ٨ ـ ٩، وانظر في سبب نزولها: أسباب نزول الآيات (الواحدي): ٢٩٦، شواهد التنزيل ٢: ٤٠٣، ٤٠٥ ـ ٤٠٦، ٤٠٨، زاد المسير ٨: ١٤٥، الجامع لأحكام القرآن ١٩: ١٣٠، فتح القدير شرح الجامع الصغير ٥: ٣٤٨ ـ ٣٤٩، وانظر محاولات نفيها عنه عليه السلام والرد علىٰ ذلك في محاضرة (المودة في القربىٰ) من ج٦ من كتابنا هذا.

فأعادَ القرضَ المنيرَ عليه الـ ـقرضَ والمُقرضُ الكرامَ كسوبُ[1]

لقد كان هذا الرجل العظيم يطيل النظر إلى الرغيف ويندُّ ذهنه إلى كبد جائع، ونفس تبيت لا تجد طعاماً، يخرج﵇ إلى السوق، فلا يشتري من الثياب إلّا ما كان بدرهم أو بدرهمين، أما ما بلغ الثلاثة دراهم فيعطيه لقنبر، فقد روي أن أمير المؤمنين﵇ أتى سوق الكرابيس، فإذا هو برجل وسيم فقال: «**يا هذا عندك ثوبان بخمسة دراهم؟**». فوثب الرجل فقال: يا أمير المؤمنين، عندي حاجتك.

فلما رأىٰ أمير المؤمنين﵇ أنه عرفه مضى عنه، حتى انتهى إلى غلام، فقال له: «**يا غلام عندك ثوبان بخمسة دراهم؟**». قال: نعم، عندي ثوبان بخمسة دراهم. فأخذ الثوبين، وكان أحدهما بثلاثة دراهم والآخر بدرهمين، فقال: «**يا قنبر خذ الذي بثلاثة دراهم**». فقال له: يا سيّدي أنت أولى به مني؛ تصعد المنبر وتخطب الناس. فقال﵇: «**وأنت شاب ولك شره الشباب، وأنا استحي من ربي أن أتفضّل عليك؛ سمعت رسول اللهﷺ يقول: ألبسوهم مما تلبسون، وأطعموهم مما تأكلون**».

فلما لبس أمير المؤمنين﵇ القميص مدّ يده في ردن الثوب فإذا هو يفضل عن أصابعه، فقال للغلام: «**اقطع هذا الفضل**». فقطعه الغلام له، ثم قال: ياسيدي، هلمّ أكفّه لك. فقال له الإمام﵇: «**دعه كما هو؛ فإن الأمر أسرع من ذلك**»[2].

المبحث السادس: في أنه﵇ أول من أسلم وأناب

ثم قال﵇: «**اللهم إني أول من أناب وأسلم وأجاب، لم يسبقني أحد بالصلاة إلا**

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ١٠١. (٢) روضة الواعظين: ١٠٧.

رسول الله صلى الله عليه وآله ».

فهو عليه السلام يريد أن يقول: إن الذي يشفع لي بصحّة نيّتي أنني أول من ردّد شعار «لا إله إلّا الله».

وقد كان ذلك حقاً، فقد بُعث النبي صلى الله عليه وآله وكان أوّلَ من صدّقه علي عليه السلام هو وخديجة عليها السلام؛ ولذلك كانا (سلام الله عليهما) رفيقي رسول اللّه صلى الله عليه وآله في المحنة وأنيسيه في الشدّة، فقد خرج يوماً وقد رمته قريش بالحجارة حتى أدمته وأبعدته إلى وادٍ من الأودية وبقي حتى الغروب، فجاءت خديجة إلى الإمام علي عليه السلام، فقالت له: منذ الصباح ما رأيت رسول اللّه صلى الله عليه وآله، وقد أخرجه أعداء الله، وأنا حاملة معي شيئاً من الطعام، فاصحبني لنبحث عنه. وأقبلت تنادي: أين أنت يا رسول الله، أين أنت يا ثمال اليتامى، وأخذت تجول في الوادي وعلي عليه السلام معها واضعاً يده على قائم سيفه، حتى وجداه طريحاً قد أخذته الحجارة، فمسحا عنه الدم والتراب، وأتيا به صلى الله عليه وآله، وهو يتّكئ على أمير المؤمنين وخديجة عليهما السلام.

وهذا الموقف العظيم من هذه المرأة السيّدة الجليلة يُذكّرني بموقف حفيدتها يوم الطفّ، يوم جالت في وسط وادي كربلاء تبحث عن جسد صريع، ولكن شتّان بينهما، فقد وصلت جدّتها عليها السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله فوجدته حيّاً، فأقامته وحملته معها إلى بيته، ووجدت زينب عليها السلام أخاها صريعاً، وما حملت معها إلّا دمعة تلذع عينيها، فنضحته بدموعها، وجلست بجانب الجسد الشريف تمسح الدم والتراب عن الوجه الذي طالما اتّكأ عليه رسول اللّه صلى الله عليه وآله بشفاهه:

حَنَّتْ فلم تَرَ مِثْلَهُنَّ نوائحاً   إذْ ليسَ مِثْلُ فَقيدِهِنَّ فَقيدا

نـادَت فَـقطعت القـلوبَ لشجوِها ... لكـنَّما انـتظَمَ البـيانُ فـريدا
لا العـيس تـحكيها إذا حنَّت ولا الـ ... ـورقاء تـحسن عـندها التـرديدا
تخفي الشجا جلداً فإن غـلب الأسـى ... ضـعفت فأبدت شجوها المكمودا
إنسـانَ عـيني يـا حسينُ أخـيّ يـا ... أمـلي وعِـقدَ جُـماني المـنضودا
مـا لي دعـوتُ فـلا تُـجيب ولم تكـن ... عـوَّدتني مـن قـبل ذاك صُـدوداً
ألِـمِحْنَةٍ شـغلتك عـنِّي أم قِـلَىً ... حـاشاك إنَّك مـا بـرحت وَدودا[1]

* * *

إلمـن بـعد يـحسين مـنواي ... ظـني انكـطع وانكـطع رجـواي
أنـاديك مـا يشـجيك انـداي ... ولا تسـمع اعـتابي ونـخواي

---

(١) ديوان الشيخ هاشم الكعبي: ٣٩.

﴿ ٧٨ ﴾

فضل العلم والعلماء

عن كميل بن زياد النخعي رضي الله عنه قال: أخذ بيدي أمير المؤمنين عليه السلام فأخرجني إلى الجبّان، فلمّا أصحر تنفّس الصعداء ثم قال: « يا كميل، إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك... يا كميل هلك خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر »[1].

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: طبيعة الأجواء المحيطة بأمير المؤمنين عليه السلام

كانت الأجواء التي تحيط بأمير المؤمنين عليه السلام أجواء غير طبيعيّة، وكانت تُشعره بغربة، فعندما نرجع إلى ما يكتبه ثقات المؤرّخين فإننا نلاحظ أنه عليه السلام لم يكن مندمجاً أو متفاعلاً مع عصره ذاك التفاعل الكامل. والمعروف أن أمير المؤمنين عليه السلام نقل عاصمته من المدينة إلى الكوفة بلحاظ أن في الكوفة خلفيّة حضارية أبعد من باقي المدن الإسلاميّة. وهذا يقتضي أن الذي يريده أمير المؤمنين عليه السلام لابدّ أن يتحقّق، فهذا الوسط وسطٌ حضاري يتّسم بأن لديه

---

(١) نهج البلاغة / الكلام: ١٤٧.

قابلية جيّدة على الهضم والاستيعاب، فيستطيع أن يستوعب شخصيّة أمير المؤمنين﵇ ويعرفه معرفة كاملة. ولكن الأحداث أثبتت فيما بعد أنه كان يعيش في غربة، يقول أبو الطيب المتنبي:

فؤادٌ ما تسليه المُدامُ وعمرٌ مثلُ ماتهبُ اللئامُ

ودهرٌ ناسُه ناسٌ صغارٌ وإن كانت لهم جُثثٌ ضخامُ

وما أنا منهُمُ بالعيش فيهم ولكن معدِنُ الذهبِ الرُّغامُ[1]

وهذا المعنى بالذات يصوّر ما كان على عهد أمير المؤمنين﵇، فقد أحسّ﵇ بغربة بعدما استقام له الأمر في الكوفة، وذهب أصحابه الذين كانوا يُهدون إلى روحه الأُنس والراحة، وهم الطبقة التي كانت تفهمه وتقدّره، فأصبح يتلفّت فيجد نفسه بين مجموعة من الرعاع الذين تأخذهم نعقة وتردّهم نعقة. وهذا الأمر حزّ كثيراً في نفسه الشريفة (صلوات الله عليه).

من إنجازاته﵇ التي سبق بها عصره

ورأى﵇ أن هذا الجو قد ضاق به، فهو جو مملوء بالجهل والتخلف وعدم القدرة على استيعاب الأفكار التي جاء بها، فهذا الرجل العظيم جاء بأفكار تسبق عصره بآماد بعيدة، فقد تستغرب حينما ترى أنه﵇ أسّس في ذلك الزمان شرطة الخميس، وداراً للاستئناف تسمح لمن صدر ضدّه حكم ولم يقتنع به أن يكتب اعتراضاً ويضعه في صندوق، ثم تأتي شرطة الخميس لتجمع محتوى الصناديق وتأتي به إليه﵇ وهو على دكّة القضاء، فما كان من الأحكام صحيحاً أقرّه، وما كان له عليه ملاحظة نقضه. وهذه الفكرة

---

(١) ديوان المتنبي ٢: ١٠١.

الإنسانيّة لم يتّسع لها عصرهعليه السلام.

كما أسسعليه السلام سجوناً على أساس الفكرة الجزائية الإصلاحية، هذا العمل الذي لم يحدث حتى في أحدث الدول الأوروبية إلّا في القرن العشرين؛ لأن فكرة العقاب كانت تقوم على الانتقام لا على التقويم؛ إذ أن عقاب المجرم كان يبتني على فكرة الانتقام منه وليس تهذيبه أو تقويمه. مع أن المفروض أن يكون الهدف من العقاب هو تهذيب المجرم وردعه عن الجريمة، وترويضه على نظافة الروح والفكر، وتوجيهه التوجيهَ الجيّد. وبمقتضى فكرة العقاب هذه كانت السجون تقوم على أساس الانتقام فقط، فالمجرم يعاقب حتى وإن أدّى به العقاب إلى أن يعود مرّة أُخرى إلى السجن بممارسة جريمة ثانية. وقد أثبتت الإحصائيات أن جرائم العَود في تاريخ السجون جرائم غريبة.

ومن هنا أسّس أمير المؤمنينعليه السلام السجون على أساس الفكرة الجزائيّة الإصلاحيّة، فهوعليه السلام يعتبر أن هذا المجرم مريض، ويجب أن يعالج كما يعالج المريض. وهذا الفكر لم تصل إليه الدنيا إلّا في القرن العشرين.

ومن الأفكار الغريبة التي جاء بها (صلوات الله وسلامه عليه) في ذلك الزمان قوله: **«لا تقسروا أولادكم على آدابكم؛ فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم»**[1].

وهناك جملة من الأُمور التي كانت لهعليه السلام الريادة فيها، وهي مسطورة في كتب التواريخ والسير. ومن أراد المزيد فليراجع ما كتبه السيوطي في كتاب

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٦٧ / ١٠٢.

(الأوائل)[١]، والشيخ المجلسي في (البحار)[٢].

وقد كانت هذه الأوليات لا يتّسع لها عصر الإمام﵇ ؛ لأن حجمه أكبر بكثير ؛ ولذلك ضاق المجتمع بنظرياته الاقتصادية والاجتماعية والإصلاحية. فصار هذا الرجل يشعر بالغربة، وكان يصعد على المنبر فيقول: «**أين إخواني الذي ركبوا الطريق ومضوا علىٰ الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ ... أوّه علىٰ إخواني الذي تلوا القرآن فأحكموه ...**»[٣]. فيتلفت ويشعر بالوحشة الكبيرة، فلا يجد من ينسجم معه في هذا الجو.

فهؤلاء القلائل الذين يأنس بهم أخذتهم الحروب، ولذا كان ميثم﵁ يقول: كنت أتفقّد أمير المؤمنين﵇ فأراه جالساً في الجبّانة، وهو ينكت الأرض بإبهامه ويقول:

وفي الصَّدرِ لُباناتٌ ... إذا ضاق بها صدري

نكتُّ الأرضَ بالكفِّ ... وأبديتُ لها سِرِّي

فمهما تُنبِتُ الأرضُ ... فذاك النَّبتُ من بَذري[٤]

فكان يُسَرِّحُ طرفه في الفضاء والوحشة تلفّه، ثم يرجع إلى أهله.

---

(١) لم يتوفّر لدينا كتاب الأوائل للسيوطي، لكن انظر: الأوائل (ابن أبي عاصم): ٧٨ ـ ٨٠، ٨٩، الأوائل (الطبراني) ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) بحار الأنوار ٨: ٥، ١٨: ٢١٥، ٣٠: ٢٠، ٣١٢، ٣٣: ١٧٤، ٥٧٦، ٥٧٨، ٣٥: ٤٤، ٦٨، ٣٨٢، ٣٦: ١٧، ٤٢، ٦٤، ٣٧: ٣٠، ٣٨: ٢١١، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٥٥ ـ ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٧٠، وغيرها كثير جداً.

(٣) نهج البلاغة / الخطبة: ١٨٢.

(٤) فضل الكوفة ومساجدها (المشهدي): ٦٥، بحار الأنوار ٤: ٢٠٠، ٩٧، ٩: ٤٥٢. وقد مرّ في ج ٢ ص ٥٥ من كتابنا هذا.

ولا زال علي عليه السلام إلى الآن يعيش في غربة ؛ لأن المقاييس التي تُسلط عليه مقاييس مختلّة ؛ فلا زال الكثيرون حتى الآن يتصوّرون أن سبب عظمة الإمام علي عليه السلام أنه ذبح أكبر عدد ممكن، أو أنـه نـزل إلى بـئر ذات العـلم فـقاتل الجن[1]، ولا يتصوّرونه ذلك المُشَرِّع والعالم والأديب والإنسـان والعـبقري الذي سبق زمنه بقرون. فكم هم الناس الذين يتصورون فيه هـذه المـعاني، ويقيِّمونه التقييمَ الجيد؟ لا شك أنهم قليلون. فهذا الرجل كما كان في حياته يقيَّم من قبل طبقة خاصة، فهو كذلك الآن يقيم من قبل طبقة خاصة.

إن علي بن أبي طالب عليه السلام ليس مِلكاً لنا أو خاصّاً بنا، بل إنه هبة السماء لجميع المسلمين، فلماذا لا يكون هذا العطاء وهذه النظريات موضع تقييم؟ ولماذا لا يجتلي المسلمون هذا العطاء ويمتحون[2] من علي بن أبي طالب عليه السلام؟ والواقع المرّ أنك تجد بعض النظريات تنسب إلى بعض التافهين من الناس، فيما يُسدل ستار من النسيان على أمير المؤمنين عليه السلام.

لا زال كثير من الناس يتصور أن علياً عليه السلام كان كمن هم فـي عـصره ولا يختلف عنهم شيئاً، بل تجد أكثر من هذا فإن وجدوا انطلاقة عبقرية لعلي عليه السلام قالوا عنها: إنها مختلقة لا ترتبط بعلي بن أبي طالب عليه السلام ؛ لأن زمن علي عليه السلام لا يتّسع لمثل هذه المعارف والعلوم والنظريات.

وليس هذا مع علي عليه السلام فقط وإنـما مـع أتـباعه أيـضاً، فـقد رأيت أحـد المستشرقين يترجم لجابر بن حيان الكيميائي والفيزيائي وعالم البصريات ـ وهو نموذج رائع ورائد، وكان تلميذاً للإمام الصادق عليه السلام، وعـنه أخـذ هـذه

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ١٣٢.

(٢) متح: استخرج. المعجم الوسيط: ٨٥١ ـ متح.

النظريات ـ فيقول هذا المستشرق: إن هذه المؤلّفات المنسوبة لجابر ليست له في الواقع، وإنما هي من صنع إخوان الصفا أو غلاة الشيعة في القرن الثالث الهجري، فنسبوها إلى جابر، أما جابر فلا يمتلك هذه العقلية. أما عند ترجمته لابن خلدون فيجعل منه الدنيا بكاملها، ولا يورد عليه أي إشكال في ريادته لعلم الاجتماع.

والسر في المسألة واضح، فكل من كان له ارتباط بعلي بن أبي طالب‏ يعامل هكذا، وكما أن (نهج البلاغة) أو النظريات الأُخرى يُشكَّكُ في كونها لعلي‏، فكذلك الحال هنا.

يكتب أنيس منصور بكل وقاحة ودون أي دليل وبلا وازع من دين أو ضمير: إن الشيعة دسّوا أحاديث المهدي‏ في التاريخ. فهذا الكاتب ينطلق من مقاييسه هو، فهو يعيش في بؤرة من هذا النوع، فيتصور أن الناس كلّهم هكذا. وهو لا يملك ثقة بنفسه، ولو كان يملكها لما لجأ إلى مثل هذا الهراء، ولما قال عن أيمّة الشيعة من أهل البيت‏ إنهم كان عندهم عشرات الجواري، والشيعة يُخجلون أي دين ينتمون إليه. ومع الأسف الشديد تدخل المجلّة التي تحمل مثل هذا الهراء إلى بلد فيه شيء من الاستقرار وفي هذا الوقت بالذات ولا تُمنع.

يقول هذا الكاتب الوقح: إن الشيعة يتقرّبون إلى اللّه بإهانة البيت وأهل البيت، فيأتون بالقاذورات ويلقونها في الكعبة. ولا أقول إلّا إننا لا ننتظر من هذا الكاتب الذي يعيش تحت أقدام اليهود أكثر من هذا.

فعلي‏ إذن لازال يعيش الغربة من أعدائه ومن شيعته أحياناً، فيتصوّرون أن كلّ عبقريته أنه يشهر السيف ويقاتل به.

المبحث الثاني: في معنى القلوب

يقول كميل: خرج أمير المؤمنينعليه السلام إلى الصحراء فتنفس الصعداء ثم قال: «**ياكميل، إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها**». والقلوب يُقصد بها العقول، وهذا المصطلح مصطلح إسلامي: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾[١].

ثم إن نظرية استقرار العقل في المخ أو انعكاسه عنه لم تثبت بعدُ حتىٰ الآن، صحيح أن المخ هو عضو التفكير، لكن العقل واختزان التجربة هل هما في المخ أم خارجه؟ حتّى الآن لم يعطِ العلم رأيه فيها. ونحن نعرف الآن أن القلب هو مركز لضخ الدم، ولكن هل من الممكن أن يكون مركزاً لبعض العمليات العقلية؟ هذا الأمر غير معلوم وقد يكتشف العلم شيئاً من هذا فيما بعد.

ولكننا نعرف أن القرآن الكريم يطلق كلمة القلوب ويريد بها العقول كما مرّ في الآية. وقد يكشف العلم أن في القلب المعروف عندنا بعض الفعاليات العقلية، أو أن القرآن الكريم ربما استخدم هذا المصطلح جرياً على اصطلاحات العرب في اعتبار القلب مركز العقل، يقول الشاعر:

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادهُ ... فلم يبقَ إلا صورةُ اللحمِ والدمِ[٢]

فالإمامعليه السلام يقول: إن العقول أوعية، وكلّما ازداد الوعي والعلم والتجربة عند الإنسان أصبح إنساناً متكاملاً.

---

(١) الحج: ٤٦.

(٢) البيت للأعور الشني. كتاب الصمت وآداب اللسان: ٧١، شرح نهج البلاغة ٦: ٣٧٤، ١٨: ١٩٦، ٣٥٣، ١٩: ٣٤٠.

المبحث الثالث: في فضل العلم على المال

ثم قال: **« يا كميل هلك خزان المال وأهل العلم باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة »**. فالمال ما هو إلّا وسيط في معاملة مؤقّتة، وهو هالك، فالنقد هالك، والبيت هالك، والطعام ينتهي إلى نتائجه المعروفة، والملابس تتحوّل إلى خرق بالية. فكلّ ما يمكن أن يسمى مالاً ينتهي إلى الزوال، أما النظريّة العلميّة فلا تموت:

وإن الموت أقصرُ قيد باعٍ … بأن يغتال فكراً واعتقادا

فلا يمكن أن يموت العلم والفكر؛ ولذلك ترى أن الإسلام قد كرم العلم والعلماء بما لا مزيد عليه[1]، و**« الحكمة ضالّة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحقّ بها »**[2] بغضّ النظر عن وعائها الذي تصبّ فيه.

انظر إلى سماحة المسلمين في أخذ العلم وتزمّت غيرهم، فنحن نعرف أن أحد المجتمعات الكنسية كان يستمطر اللعنات على ابن رشد الفيلسوف

---

(١) قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُون إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ الزمر: ٩.
وقال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِين آمَنُواْ مِنْكُم وَالَّذِينَ أُوْتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ المجادلة: ١١.
وقد روي عن رسول الله أنه قال: « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً به. وإنّه ليستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في البحر، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء ». الجامع الصحيح (سنن الترمذيّ) ٥: ٤٨-٤٩ / ٢٦٨٢.
وفي الحديث عن الإمام الباقر أنه قال: « عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد ». الكافي ١: ٣٣ / ٨.

(٢) انظر: الكافي ٨: ١٦٧ / ١٨٦، سنن ابن ماجة ٢: ١٣٩٥ / ٤١٦٩.

المعروف، وعند هؤلاء أن المرء إذا تعلم نظريات ابن رشد اعتبر ملحداً. وقد أخذ أحد القساوسة بنظرية الجوهر الفرد التي يقول بها المعتزلة والأشاعرة، فأخذته الكنيسة ووضعته في محلّ عامّ، وأحرقته بالنار.

ولا أُريد أن أقول: إن تاريخنا لم يحصل فيه مثل ذلك، ففي تاريخنا أيضاً تعرّض العلم إلى كثير من المحن؛ فقد تعرّض الفيلسوف الكندي في أيام المتوكّل إلى محنة كبيرة[1]. وهناك جماعة تعرضوا إلى محنة عند القول بخلق القرآن الكريم[2]، ولكن عندما نرجع إلى تعرّض تلك النظريات إلى المضايقة فربما نجد لها سبباً. وقد تستغرب أن عالماً يصدر كتاباً تحت عنوان (السيف البتار في كفر من يقول: إن المطر من البخار)، وهذا العالم طبعاً خرج عن حدود اختصاصه؛ لأن هذه القضية قضية طبيعية لا شأن له بها، وعليه أن يتركها لعلماء الطبيعة.

غير أنه يمكن أن يوجّه هذا الكتاب على اعتبار أن بعض الناس يتصوّر أن المطر يأتي من البخار، والبخار هو العلّة التامّة له، بمعنى أن المطر يأتي من البخار فقط ولا يد للخالق في تكوينه وخلقه. وإلّا فإنه ليس من المعقول أن عالماً واعياً يقوم بإلغاء دور السبب الطبيعي. والحال أن دور السبب الطبيعي واضح عند علماء المسلمين.

وهذه النظرية ليست وليدة الساعة. فعبد اللّه بن عباس في تفسيره

---

(١) انظر محنة السرخسي مع المعتضد في سير أعلام النبلاء ١٣: ٤٤٨ ـ ٤٤٩، ومحنة ابن السكّيت مع المتوكّل في الفهرست (ابن النديم): ٧٩، الأعلام ٨: ١٩٥، وغيرها كثير، وهي مبثوثة في كتب السير والتراجم والفهارس.

(٢) لقد كفّر بعض علماء السنة من يقول بخلق القرآن. انظر: البحر الرائق ٥: ٢٠٩، المغني ١٢: ٣٠، حاشية در المختار ٤: ١٤.

(المقباس) يقول في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾[١]: إن السماء هي السحاب التي تسمو على رأس الإنسان، وذات الرجع أي التي تأخذ الماء من البحر وترجعه إلى البحر والأرض[٢]. وهذا أحد شعراء العرب يقول:

كالبحر يمطره السحابُ وما له فضلٌ عليه لأنه من مائهِ[٣]

فالنظرية إذن موجودة، وهذا العالم الذي يكتب مثل هذا الكتاب لا أرى إلّا أنه يعني بذلك من يعزو المطر إلى الأسباب الطبيعيّة فقط دون العلّة التامّة، وهي اللّه تعالى.

وخلاصة القول أن العلم وإن كان قد مرّ في تاريخنا بمحنة، لكن ليس بالمستوى الذي وقفت فيه الكنيسة من العلم[٤]، فقد عاشت عندنا نظريات اليهود والمسيحيين، كنظريات موسى بن ميمون الطبيّة التي كان يُعمل بها، وكان يؤلّف جزءاً من المجتمع الأكاديمي في عصره، وكانت نظرياته تتفاعل مع نظريات علماء المسلمين. وكذلك ابن بختيشوع الذي كانت نظرياته الطبية تعمل عملها في أيام الرشيد والعصر العباسي كله. فنحن نقتبس النظريات العلمية حتى وإن كانت لغير المسلمين، ونكرّمها ونتفاعل معها ونكرّم حملة العلم، ولكن الكنيسة على العكس من ذلك، فقد وقفت موقفاً سلبيّاً من العلوم وخصوصاً العلوم الإسلامية.

ولازال هذا الأمر قائماً حتى هذا الزمان حيث تصدر بعض المؤلفات التي

---

(١) الطارق: ١١.

(٢) المصدر غير متوفّر لدينا، وفي تفسير أبي السعود ٩: ١٤٢، نسبتُه للعرب.

(٣) البيت لهبة اللّه الاصطرلابي. معجم الأدباء ٧: ٢٤١، وفيات الأعيان ٥: ١٠١.

(٤) ونحن لا ننسىٰ محنة غاليلو مع الكنيسة حيث إنه قد أُجبر علىٰ التراجع عن اعتقاده بدوران الأرض حول الشمس، وأُحرقت كتبه التي أثبت فيها ذلك.

تريد أن تشعرنا أننا لا ننجح في استيعاب العلوم النظرية، وإنما ننجح في العلوم التطبيقية اليدوية فقط. وهذه النظريات تجدها في مؤلّفات المستشرقين وأذناب المستشرقين الذين تأثروا بهم. مع العلم أننا لم نقف منهم هذا الموقف، فقد لعب البرامكة دوراً مهماً في نقل العلوم من مختلف الأنحاء، فنقلوا العلوم الهنديّة والفارسيّة والسريانيّة، وشجّعوا الترجمة في زمانهم حتى أسّسوا مركزاً للترجمة كان له دوي هائل في بغداد.

وهكذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام يقول: إن العالم حي وإن كان تحت التراب؛ لأن نظريّاته تجعله حيّاً، يقول الشاعر:

أخو العلم حيٌ خالدٌ بعد موته — وأعضاؤه تحت التراب رميمُ
وذو الجهل ميتٌ وهو ماشٍ على الثرى — يُعَدُّ من الأحياء وهو عديمُ[1]

وقد عطف اللّه تعالى العلماء على الملائكة في منزلتهم فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ﴾[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[3].

إن تكريم العلم والعلماء لعب دوراً مهماً في الحضارة والتاريخ الإسلاميّين، والعالم إذا مشى بسطت له الملائكة أجنحتها فلا يطأ على الأرض[4]، وأي علم يُراعى به وجه اللّه ويخدم الإنسانية هو علم يكرّمه الإسلام ويدعّمه غاية الدعم. ولذلك فإن الإسلام يَعتبر المصيبة بالعالم لا تعدلها مصيبة أُخرى[5]. ومن هنا نلاحظ أن بعض شعراء الطفّ يلمّح إلى هذا

---

(١) البيتان لابن السيد البطليوسي. البداية والنهاية ١٢: ٢٤٥، حاشية ردّ المحتار ١: ٤٤.
(٢) آل عمران: ١٨. (٣) فاطر: ٢٨.
(٤) الجامع الصغير ٥: ٤٨ ـ ٤٩ / ٢٦٨٢.
(٥) قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «موت العالم ثلمة في الإسلام لا تُسدّ ما اختلف الليل والنهار».

المعنى، فالكعبي في داليّته عندما يمرّ بواقعة الطفّ يقول:

حنَّت فلم تَـرَ مـثلَهُنَّ نـوائـحاً ... إذ ليس مثل فقيدِهِنَّ فـقيدا[1]

فهذا الذي استشهد ليس دماً ولحماً ينتمي إلى النبي فقط، وإنما هو أفكار ومُثُل، والنبي عندما يقول: «**حسين مني وأنا من حسين**»[2]، فإن لفظة «**من**» ليست للتبعيض؛ لأننا نعرف أن الولد جزء من أبيه، وليس في هذا جديد، وإنما هي لبيان الجنس ـ أي لبيان السنخية ـ فالنبي يـريد أن يقول: إن الحسين من سنخي، وهو الامتداد الطبيعي لي في علمي ومبادئي وفكري، ولذلك يقول الكعبي:

إذ لـيس مـثـل فقـيدهـن فـقـيدا

ثم يقول بعد ذلك:

نـادت فـقطّعت القلوب بشجوها ... لكـنما انـتظم البـيان فـريدا

وهذا المعنى هو الذي أراده شاعر معاصر للحسين حينما قال:

يـا فـرو قـومي وانـدبي ... خـيرَ الأيـمة فـي القبورِ

وابكـي الحسـين مـع النـهو ... ض مـع التـنفس والزفيرِ

قـتلوا الحـرام مـن الأيمـ ... ـة في الحرام من الشهورِ[3]

ذلك لأن دم الحسين دم حرّمه الله وجعله محترماً، وهو لم يكـن

☚ كنز العمّال ١٠: ٤٩ / ٢٨٧٦٠، ١٥٩ / ٢٨٨٢٣ قريب منه.
وقال أمير المؤمنين: «إذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدّها شيء إلىٰ يوم القيامة». المحاسن ١: ٢٣٣ / ١٨٥، كشف الخفاء ١: ٩٨ / ٢٧٣.

(١) ديوان الشيخ هاشم الكعبي: ٣٩.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥.

(٣) مثير الأحزان: ٦١.

قطعة من النبي ﷺ فقط وإنما كان قطعة من دم النبي ﷺ وفكره ومشاعره، ولذلك كانت مصيبته غاية المصيبة.

انتبهت أُم سلمة (رضي اللّه عنها) مرّة وهي باكية، فاجتمعت حولها نساء النبي ﷺ يسألنها: ما عندك يا أم المؤمنين؟ قالت: الآن رأيت رسول اللّه ﷺ حافياً حاسراً يمسح التراب عن رأسه، فقلت: بأبي وأمي يا رسول اللّه، ما الذي دهاك؟ قال: يا أُم سلمة، الآن رجعت من مواراة ولدي.

وهذه المكانة لا يعطيها النبي ﷺ لولد عادي وإنما يعطيها لامتداده، لأنه أهل لهذا الموقف، ولأجل هذا نادت الحوراء زينب عليها السلام عندما نزلت في اليوم العاشر من المحرّم، حيث شبكت عشرها على رأسها وصاحت: «يا رسول اللّه، هذا حسينك بالعرا محزوز الرأس من القفا، مسلوب العمامة والردا! بأبي من هو لا جريح فيداوىٰ، ولا غائب فيرتجىٰ، بأبي من شيبته مخضوبة بالدما».

يقول شبث بن ربعي: نظرت إليها وقد أبكت كلّ عدو وصديق[1]:

تعنيت مهضومه الوليـنه   صحت بالمعاره حسين وينه

لمن سمعني دار عينه   أومه على صوابه بيمينه

ظنيت طعنه طاعنينه   أشدها ويكوم حسين لينه

أثاري الأعادي موزعينه

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ٧٩، بحار الأنوار ٤٥: ٥٩.

﴿ ٧٩ ﴾

صفات المؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والذينَ صَبَرُوا ابـتِغَاءَ وَجْـهَ رَبِّـهِمْ وأقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم سِـرّاً وعلانِيَةً ويَدرَؤُونَ بالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أولئك لَهُم عُقْبَى الدَّار﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: في أقسام الصبر ودواعيه

الأداء القرآني هذا وإن جاء بصيغة الإخبار لكن مضمونه مـضمون أمـر، فالقرآن الكريم يدعو الناس إلى التلبّس بهذه الصفات الأربع التي أوّلها الصبر ابتغاءَ وجه الله. فمن المعروف أن من الناس من يصبر ليقال عنه: إنه صلب لا ينهار أمام النكبات والمشاكل. وهذا المعنى هو الذي يقول فيه الشاعر:

فإن تسأليني كيف أنتَ فإنني صبورٌ على ريب الزمان صليبُ
يـعزُّ علـيَّ أن تُـرى بـي كآبـةٌ فيشمت عادٍ أو يُساء حبيبُ[2]

---

(١) الرعد: ٢٢.

(٢) البيتان ينسبان لأخي بني سليم، وقد استشهد بهما أمير المؤمنين عليه السلام كما في نهج البلاغة /

وهناك من يصبر ليتّقي شماتة الأعداء، فيتصوّر أنه إذا صبر فلن يستطيع أحد أن يشمت به، أما إذا انهار فسيكون عرضة للشماتة. وهذا المعنى تطرّق إليه الشاعر أيضاً في البيتين السابقين، وهو الذي يقول فيه شاعر آخر:

لا تُبدِيَنَّ لعاذلٍ أو عاذرٍ ... حاليكَ بالسرّاءِ والضرّاءِ
فلِرَحمَةِ المُتوجِّعين حزازةٌ ... في القلب مثلُ شماتةِ الأعداءِ[1]

وهناك صنف يصبر لأنه يعرف أن لا فائدة من الجزع، فيصبر قهراً لا اختياراً؛ إذ لا بديل له عن الصبر. وهناك عناوين أُخرى للصبر لكنها لا تدخل تحت المفهوم القرآني الذي ترسمه الآية الكريمة.

والصبر ابتغاء وجه اللّه تعالى يتّصف بعدّة صفات:

الأولى: أن العبد إذا نزلت به شدّة أو مصيبة، وعرف أن اللّه هو الذي قدّرها وأوقعها، فسيشعر أنها صادرة من جهة لا تَظلم.

الثانية: من المؤكّد أن في هذه الشدّة حكمة؛ لأن المسلم لا بدّ أن يعتقد أن أفعال اللّه تعالى ليس فيها عبث، وإنما هي كلّها خاضعة لحكمة، ولا بدّ أن من وراء الابتلاء حكمة.

الثالثة: أن ابنك الصغير لو رفع يده وضربك فلا شكّ أنك ستكون مستأنساً لهذه الضربة، فتستقبل هذا الفعل بالالتذاذ. فالإنسان الغارق في جمال اللّه عز وجل مهما تأتِه من صفعة من الابتلاء فإنه يزداد ذوباناً في الله، ويستغرقه

☚ الكتاب: ٣٦، وانظر: المعيار والموازنة: ١٨١، الإمامة والسياسة ١: ٥٥.

(١) البيتان لمحمد بن الحسين البغدادي. بحار الأنوار ١٠٤: ٢٤، البداية والنهاية ١٢: ١٤٩، وفيهما: مرارة، بدل: حزازة.

عشقه. وهذا المعنى نراه عند بعض الصوفية الذين يذوبون في حب اللّه تعالى، فلا يكادون يشعرون بشيء.

فهناك إذن نمط من الذوبان في اللّه عز وجل يجعل الإنسان لا يكاد يشعر بشيء، فيستغرق في ذات اللّه حتى ينسى الشعور بأية مصيبة؛ لأنه يعتقد أن هذه المصيبة أتت من الخالق وليس فيها عبثيّة، ثم يستولي عليه حب اللّه فيُنسيه ألم الوقعة. وهذا هو الصبر ابتغاء وجه اللّه.

أقسام الصبر

والصبر صبران: صبر عن المعصية ـ أي عن الوقوع فيها ـ وصبر على الطاعة، أي على فعلها. ولأن اللّه تعالى أمر بالصبر؛ فعلينا أن نكف أنفسنا عن الجوانب المغرية والبراقة في الدنيا، ولا نكون مثل الحيوان الذي يمارس شهوته في الطرقات والأزقّة. فالإنسان المسلم يُفترض به أن يمنعه دينه عن التورط في الممنوع.

أما الصبر على الطاعة فهو الصبر على ألم العبادة، فالصائم يشعر بالجوع والعطش والمشقّة، لكنه يعرف أن من ورائه حكمة، ومن ورائه امتثالاً للخالق، فيصبر على الطاعة[1].

هذه الأقسام من الصبر هي التي تدخل في مجال ابتغاء وجه الله عزّ وجل ليس إلّا، لا ابتغاء الأجر ولا ابتغاء الإبعاد عن النار ودخول الجنة، وإنما هو ابتغاء وجه اللّه تعالى فقط.

---

(١) وهناك قسم ثالث هو الصبر على المصيبة، كما سيأتي ذكره في محاضرة (عباد اللّه الذين اصطفى) في ج٦ من كتابنا هذا.

المبحث الثاني: في معنى ﴿وأقاموا الصلاة﴾

إن إقامة الصلاة تعني إقامة أركانها وشرائطها ووضع روح فيها، فالمصلّي عندما يصلّي يشعر أن في الصلاة روحاً وحرارة، ولا بدّ أن ينظر إليها على أنها ليست هيكلاً جامداً خالياً من المعاني. ثم إنه إذا ما انتقل إلى المحيط أو الشارع فعليه ألّا يتصادم في معاملاته وحركاته مع ما تفرضه عليه الصلاة. فالصلاة لا تعني هذه الحركات من الركوع والسجود وغيره، بل إن هذا هيكل الصلاة، والهيكل شيء والروح شيء آخر، وروح الصلاة مضمونها الذي يمنع من الكذب والدجل والاعتداء، وهو السمو بالنفس وتهذيبها، فإذا لم تؤدِّ الصلاة هذه الوظيفة لم تكن صلاة ذات مضمون، بل ستعود طقساً من الطقوس الجامدة الميتة[١].

ثمّ إنه ينبغي أن تكون هذه الروح واضحة جليّة أكثر عند الإنسان الذي يكون أكثر ثقة ومعرفة بالله عز وجل، فصلاة الجاهل ليست كصلاة العالم؛ لأن العالم يفترض به أن تكون صلاته ذات تأثير على سلوكه، فيكون مهذباً في تصرّفاته وأفعاله وأقواله، وليس عنده دجل أو كذب أو ابتزاز للناس بأية وسيلة من الوسائل.

فالمسألة إذن هي مسألة المضمون الذي سوف نُسأل عنه يوم القيامة. وهذا الذي يخالف ظاهرُه مضمونه يصفه القرآن الكريم بقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[٢]، أي يعاملهم معاملة المخادع.

---

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت: ٤٥.

(٢) النساء: ١٤٢، وقال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ البقرة: ٩.

المبحث الثالث: في معنى الإنفاق

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم سِرّاً وعلانِيَةً﴾، وهذا المقطع من الآية الكريمة يتضمّن أموراً:

الأوّل: اختلاف طريقة الإنفاق باختلاف المقتضي

فطريقة الإنفاق تختلف، فالمرء تارة يعطي علناً فيكون تأثير ذلك كبيراً؛ لأن فيها إيحاء، فهذه الطريقة تجعلُ الآخرين يقتدون بذلك المنفق، وتحملهم على المساهمة اقتداء به. فهي خطوة تربويّة تهذيبيّة. وتارة يعطي سرّاً؛ لأن إعلانها قد يخلق عند المنفق نوعاً من الشعور بالزهو والخيلاء، فالمعطي غير الآخذ.

فلكلّ حالة مجال تتحرّك فيه، والإنسان هو الذي يشخّص الحالة المناسبة للإنفاق؛ من حيث كونه سرّاً أو علناً. فلصدقة السرّ وقت، ولصدقة العلن وقت.

الثاني: مراعاة الجانب النفسي في الإنفاق السري

وهذا الجانب يظهر في محيط الأُسرة، فلو كان عند أحد ولدان، أحدهما مستقيم مطيع لربه ولوالديه والآخر بعكسه، وأراد أن يعطي الولد الأول فقط، فإن أعطاه علناً فإنه سيتسبّب في مشكلة بيتية، ويزرع الحقد والحساسية فيما بين أولاده. وهذه المشكلة هي التي حدثت بين يوسف وأُخوته، مع العلم أن عطف يعقوب‌ﷺ على يوسف‌ﷺ لم يكن تفضيلاً، إنما كان يعطف عليه وعلى أخيه بنيامين؛ لأنهما يتيمان، فأراد أن يعوّضهما عن فقد أُمهما، فأثار هذا التعويض الحسد في نفوس أُخوته.

ويذكر هنا أن أحد العلماء سئل: ما بال الصحابة كأنهم أشقاء وعلي‌ﷺ بينهم كأنه ابن علة (ضرة)؟ فقال: ولم لا يكون كذلك وقد سبقهم سلماً،

وفاقهم علماً، وبزّهم شجاعة؟[1].

وهذا هو الموقف الطبيعي، فلا شك أنه كتلة من المواهب والعطاء، فلابدّ أن يُحسد.

إذن هذا اللون من العطاء للولد لابدّ أن يكون بالسر؛ كيلا تثار حفيظة الولد الآخر، ولا يخلق في أنفس الأولاد الحقد. وهذا جانب نفسي له أثر خطر، ولذا يفترض أن يكون عند الآباء ميزان دقيق في مثل هذا المورد؛ لأن الدراسات في الحقول النفسية تعطي نتائج مرعبة جداً للتفضيل، والذي يقرأ علم نفس الأُسرة يعرف ذلك.

في حدّ الإنفاق وشرائطه

فالآية الكريمة إذن تقول: ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم سِرّاً وعلانِيَةً﴾، و«من» في هذه الآية للتبعيض، أي أنفقوا بعض ما رزقناهم لا كلّه؛ لأن بعض الناس كان يخرج جميع ما عنده في سبيل اللّه ويترك عياله يتكفّفون الناس، والقرآن الكريم ينهى عن ذلك.

هذا جانب، ومن جانب آخر تقول الآية الكريمة: ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم﴾، فهي تنسب الرزق إلى الله تعالى، وعليه فيكون المراد: أنفقوا من رزق اللّه الذي رزقكم إيّاه، لا من رزق الشيطان، فمن كان يشتغل بالربا والغشّ والحرام ثم ينفق منه شيئاً في سبيل اللّه تعالى، فليس ذلك بمقبول منه؛ لأنه ليس من رزق اللّه.

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٦٠٨ ـ ٦٠٩ / ١٢٥٦، بحار الأنوار ٢٩: ٤٨١ / ٣، والمسؤول هو الخليل بن أحمد الفراهيدي.

الثالث: أن الزكاة الواجبة تكون علانية والمستحبة تكون سرّاً

وقد قيل في السر والعلانية: إن ما أُعطي من الزكاة يكون علانية لئلا يُتَّهم المسلم بترك الحقّ الواجب، أما التطوّع فيكون بينه وبين ربه؛ وذلك لأسباب، منها أن يحفظ وجه السائل، ومنها أنه يجعل الأمر خالصاً لله. دخل أحدهم على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقال له عليه السلام: **«ما عندك؟»**. فقال: حاجة. فقال له عليه السلام: **«اكتب حاجتك على الأرض وانصرف، فإني أكره أن أرى ذلة السؤال في وجهك»**[1].

فليس من المستغرب إذن أن تجد أمير المؤمنين عليه السلام يعيش غريباً في عصره؛ لأن هذه الروح الشفّافة لا بدّ أن تعيش غريبة بين أُولئك الأجلاف. ولا يقع في تصوّرك أن محبّيه يغالون فيه؛ لأن لديه من القضايا والمواقف في شتى الحقول الاقتصادية والاجتماعية الكثير مما سبق به عصره. ومن الظلم للإنسانية وللعطاء أن يعامل هذا الرجل كما يعامل غيره، يقول أحد الشعراء:

ما عدت ألحو عاشقيك بما أتوا	وصفاتُك الغَرّاءُ حورٌ عينُ
آلاؤك البيضاءُ طوّقَتِ الدُّنا	فلها على ذِمَمِ الزّمانِ ديونُ
وبحيثُ تَحتَشِدُ الورودُ فَرَاشَةٌ	وبحيثُ ليلى يوجدُ المجنونُ[2]

المبحث الرابع: في معنى درء السيّئة

ثم قال تعالى: ﴿ويَدرَؤُونَ بالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾، وفي هذا المقطع الشريف من الآية عدّة آراء منها:

---

(١) البداية والنهاية ٨: ١٠، جواهر المطالب ٢: ١٢٩، ومثله في الأمالي (الصدوق): ٣٤٨، بحار الأنوار ٤١: ٣٤ / ٧.

(٢) ديوان المحاضر: ١٩.

الأوّل: أن يمحو الإنسان السيئة بالحسنة عن طريق التوبة

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أننا لا ينبغي علينا أن نفترض أن الإنسان معصوم، وأن نكلّفه أن يكون من الملائكة، ففي الإنسان قوانين تشدّه إلى الأرض كما يشدّ قانون الجاذبيّة الأشياء إليها. فهو مجموعة من الغرائز ذات التأثير الكبير، فلا يمكن أن يكون الإنسان كلّه ألقاً ونفساً كبيرة. فعند الإنسان غريزة الطمع والجمع، وغريزة الجنس، وغريزة الأنانية، وغير ذلك من الغرائز. فمن يرد من الإنسان أن يكون ملاكاً فهو في غاية البعد عن الواقع، ومن يقل له: إذا أردت القرب من ملكوت السماء فابتعد عن المرأة فهو بعيد جداً عن واقع الإنسان.

والكنيسة فلتت فلتة مرعبة؛ لأنها تريد من الإنسان أن يعطّل غرائزه ويقطعها. فالله خلق الإنسان هكذا، وهذا النصف منه هو الذي يكمله، فمن غير الممكن أن يبتعد عنه.

نعم، يمكن أن يقال للإنسان: إن هذه الغريزة التي عندك عليك أن تمارسها في الطريق النظيف الصحيح المشروع.

فمن كان من الناس يريد أن يعيش كما يعيش المَلَك، فيتخلّى عن اللذّة في الطعام والشراب وغيره، فهو ذو تفكير طوباوي بعيد عن الواقع، وهو لون من الإغراق غير الصحيح في تفسير بعض الأشياء.

وقد يقول قائل: لكن لماذا كان أمير المؤمنين﴿ع﴾ والنبي﴿ص﴾ هكذا؟

فنقول: إن أمير المؤمنين﴿ع﴾ كان خليفة مقتدى به، يريد أن يمزج نفسه بأقلّ فرد من الرعيّة؛ كيلا يشعر أي فرد من الرعية بالنقص، أو أنه معتدى على حقوقه، أو أن هذا الترف وهذه الرفاهية اللذين يعيشهما الخليفة هما

على حساب رغيفه، وإلّا فليس معنى ذلك أن اللذائذ محرّمة. أتى أحدهم أمير المؤمنين﵇ يوم النوروز بحلوى الفالوذج، فأخذ منها بكل عفوية وقال: **«نورزونا كلّ يوم»**[1].

وله قوله المشهور: **«واللّه لو شئت لاهتديت الطريق إلىٰ مصفّىٰ هذا العسل ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يقودني هواي، أو يغلبني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع، أأبيت مبطاناً وحولي بطون غرثىٰ؟»**[2].

فالمسألة إذن مسألة تأسٍّ، أما أن تَفترِض أني إنسان يجب أن يترفّع عن إشباع الغرائز مطلقاً، وأن أُحرَم من لذائذ الحياة التي أرادها اللّه للعباد فلا. يقول الإمام الصادق﵇: **«البس وتجمّل؛ لأن اللّه جميل يحب الجمال، وليكن ذلك من حلال»**[3].

فالقرآن الكريم إذن يقول: إن الإنسان عنده مجموعة من الغرائز، وهو مشدود لها ومن الممكن أن يخطئ، لكن عليه ألّا يترك غلطته تذهب دون أن يمحوها بالحسنة: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾[4]، فآدمية الآدمي لا تتمّ إلّا أن يكون هكذا، فهو عرضة للتصرّف المخطوء أو الكلام المخطوء أو التفكير المخطوء، لكن عليه ألّا يتمادى بالخطأ، وإنما عليه أن يمحو هذه السيئات بالحسنات.

---

(١) تاريخ بغداد ١٣: ٣٢٧، تهذيب الكمال ٢٩: ٤٢٣، سير أعلام النبلاء ٦: ٣٩٥.

(٢) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

(٣) الكافي ٦: ٤٤٢ / ٧، وسائل الشيعة ٥: ٦ / ٥٧٤١.

(٤) التوبة: ١٠٢.

وبعض الناس يقول يائساً: ما تنفعني الصلاة الآن وقد أمضيت ستين أو سبعين سنة وأنا لا أُصلي؟

فيقال له: إن هذا خطأ فادح، فإن لحظة واحدة ينقطع فيها الإنسان مخلصاً تائباً إلى اللّه تعالى لها الأثر الكبير عنده؛ لأن باب اللّه مفتوح للسائلين، وليس له تعالىٰ مصلحة في عذابنا، وإنما تسبق رحمته غضبه. فإن رأى الإنسان أن السيئات استبدَّت به فعليه ألّا ييأس من رحمة الله، بل عليه أن يجعل التوبة إلى جانبه دائماً.

الثاني: مقابلة الإساءة بالإحسان

أي أنه إذا أساء أحد لغيره فعليه ألّا يقابل إساءته بمثلها، جيء بابن لقيس بن عاصم المنقري مقتولاً، وكان في ريعان الشباب، وله من العمر عشرون عاماً، وقد حملوه لأبيه مع قاتله وكان أحد أبناء عشيرته، فقال لهم: إن كان هذا أخطأ مرّة بقتل واحد من العشيرة فلا أُخطئ مرّتين فأقتله. ثم أطلق سراحه، ونادى أحد إخوان القاتل وأمره أن يحمل إلى أُمّ المقتول ألفاً من الإبل، ثم أنشأ يقول:

أقولُ للنفسِ تأساءً وتسليةً ... إحدى يديَّ أصابتني ولم تُرِدِ

كلاهما خَلفٌ عن فقدِ صاحبِه ... هذا أخي حينَ أدعوهُ وذا ولدي[1]

فلم يقابل إساءته بالمثل، وإنما قابلها بالإحسان.

ونجد كثيراً من هذا المعنى في سيرة أهل البيت، فقد كانوا يقابلون

(١) خزانة الأدب ٢: ٣١١ ـ ٣١٢، ديوان الحماسة ١: ٦٦.

الإساءة بالإحسان[1]، وهذا الأُسلوب النفسي له دخل عجيب في الاستيلاء على النفوس، فمن يسئ لك وتحسن إليه ويتكرر ذلك منك، فسوف تترك في نفسه أثراً كبيراً، خصوصاً إذا كنت تستطيع مقابلة الإساءة بالمثل.

الثالث: الحلم عند الاعتداء والصبر عند الابتلاء

ويكاد هذا الرأي يكون مشابهاً لما قبله؛ فهؤلاء كلما اشتدّ عليهم الأمر ازداد تعلّقهم بالله. وتحضرني هنا حادثة ظريفة جرت لشقيق البلخي مع إبراهيم بن أدهم، وكلاهما من الصوفية، فقد جاء شقيق متنكّراً ودخل على إبراهيم بن أدهم، فسلم عليه، فقال له ابن أدهم: ممن الرجل؟ قال: من أهل بلخ. قال: هل تعرف شقيقاً البلخي؟ قال: نعم. قال له: كيف هي طريقة أصحابه؟ قال: إذا رُزقوا شكروا، وإذا مُنعوا صبروا. فقال: هذه طريقة كلابنا. فقال شقيق: إذن ما طريقة الناس الكاملين؟ قال: إذا أُعطوا آثروا، وإذا مُنعوا شكروا[2].

ملاقاة شقيق البلخي للإمام الكاظمعليه السلام

وكانت لشقيق قصة طويلة مع الإمام موسى بن جعفرعليه السلام، يقول شقيق: خرجت قاصداً الحج، فبلغت مكاناً رأيت الحجّاج نازلين فيه، ورأيت رجلاً ناحل الجسم تكاد تُميله الريح عندما تمرّ عليه، وعليه ملابس مرقّعة قصيرة، وعليه علامات السجود، فظننت أنه من هؤلاء الذين يصاحبون القوافل

---

(١) وقد مرّ الكثير من هذا سيما في المحاضرات التي تناولت السيرة العطرة للرسول الأكرمصلى الله عليه وآله وسلم وآلهعليهم السلام وخصوصاً سيرة الإمام السجادعليه السلام.

(٢) المستطرف في كل مستظرف ١: ١٦٠.

ويرتزقون منها إذ ليس عندهم ما يوصلهم.

ثم سرنا ولم ألتفت إليه، حتى وصلنا إلى منزل فَيد[1]، فنظرت إلى كثيب أحمر، فرأيت هذا الرجل يصلّي، وكانت صلاته شبيهة بصلاة العارفين، فلما فرغ رفع رأسه إلى السماء فقال: **«أنت ربي إذا ظمئت من الماء، وقوتي إذا أردت الطعام، إلهي وسيدي مالي سواها فلا تعدمنيها»**. وكانت إلى جانبه بئر لا يوصل إلى مائها إلّا برشاء، فرأيت ماءها يرتفع، فأنزل الرجل ركوة فأخذ بها ماء، ثم راح يضع فيه الرمل ويشرب، فدنوت منه، فقلت: بالذي أسقط عنك ملال التعب، ومنحك لذيذ الرغد، إلّا ما أعطيتني مما عندك فإني جائع. فقال: **«اشرب واكتم واشكر نعمة الله عليك»**. فشربت وإذا به سويق وسكر من ألذّ ما شربت في حياتي[2].

وهذا المعنى يأخذه الشاعر فيقول:

سل شقيق البلخي عنه وما عا ... ين منه وما الذي كان أبصرْ

قال لما حججتُ عاينتُ شخصاً ... ناحلَ الجسمِ شاحبَ اللون أصفرْ

يضعُ الرملَ في الإناء ويشربـ ... ـهُ فناديتُه وعقلي مُحَيَّرْ

اسقني شربةً فناولني منـ ... ـهُ فعاينتُه سَوِيقاً وسكرْ

---

(١) فيد ـ بفتح أوّله ـ: فلاة في الأرض بين أسد وطيّئ في الجاهلية، بشرقي سلمى (أحد جبلي طيّئ). معجم ما استعجم ٣: ١٠٣٣ ـ فيد.

(٢) نوادر المعجزات: ١٥٦ ـ ١٥٩ / ٢، مناقب أهل البيت (الشرواني): ٢٧٦، ينابيع المودّة ٣: ١١٩، وليس فيها قوله: بالذي أسقط عنك ملاك التعب ... إلىٰ آخره، بل هي عبارة تنسب لحماد بن حبيب الكوفي حينما ضلّ طريقة واستعان بالسجاد ليهديه الطريق، انظر: فتح الأبواب: ٢٤٥ ـ ٢٤٨، بحار الأنوار ٤٦: ٧٧ ـ ٧٨ / ٧٣.

فسألتُ الحجيجَ مَن يك هذا ... قيل هذا الإمام موسى بن جعفرْ[١]

سأل الرشيد أحد السجانين عن الإمام موسى بن جعفرعليه السلام: كيف حال هذا المسجون عندك؟ فقال: واللّه ما اطّلعت عليه إلّا رأيته قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً. فقال الرشيد: ويحك إنه من رهبان الليل من بني هاشم[٢].

وقد كان طيلة الفترة التي سجن فيها بالبصرة يسمعه عيسى بن موسى في الليل يقول: «**اللهم إنك تعلم أني كنت أسألك أن تفرغني لعبادتك، اللهم وقد فعلت، فلك الحمد**»[٣]. ولذلك انتزع الخلود انتزاعاً:

لتُهنِكَ عُقبَىٰ الصَّابرين أبا الرِّضا ... وإن طال حبس واستطال عقابُ
وَعربَدَ سَوطٌ في أكُفٍّ لئيمةٍ ... وجنٌ به للظّالمين عذابُ
تمرّس منك الضرُّ في كلّ مفصلٍ ... فما ناء عظم واهنٌ وإهابُ
فكوخٌ به عشتَ استطالَ إلىٰ السَّما ... وقصرٌ به عاشَ الرشيدُ خرابُ
ومن خربة فيها أقمت تلألأت ... تموّج في أزهى النضار قبابُ
ومُظلِمُ سِجنٍ عشتَ في جَنَبَاتِه ... أنيساك مِحرابٌ به وكتابُ
تَحَوَّلَ صَرحاً قَد تَكَامَلَ عِنده ... لأرفع آياتِ الفُنون نِصابُ
صبوح بمطلول الطيوب صباحه ... كأن فِناه للطيوب وطابُ
ومتّشح بالنور عند مسائه ... كأن له كل الشموس ثيابُ[٤]

وهذه هي عقبى الدار التي تقول عنها الآية الكريمة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٢٠، وقد نقل القصة والأبيات.

(٢) قريب منه في الإرشاد ٢: ٢٤٠، ولم يذكر قول الرشيد.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ديوان المحاضر ١: ٤٤.

صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾[1]، فقد قضى من حياته الكريمة فترة تبلغ أربعة عشر عاماً ـ أو ثمانية عشر عاماً ـ يُنقل من سجن إلى سجن، وكان آخر سجن دخله هو السجن الذي دخل عليه فيه علي بن سويد، يقول علي بن سويد: دخلت عليه وهو يصلّي، فلما انفتل من صلاته أقبل علي، فقلت له: سيدي، والله لقد ضاقت صدورنا، فمتى أيّام الفرج؟ فقال: **«يابن سويد، الفرج قريب»**. فقلت: متى يكون ذلك يا سيّدي؟ قال: **«يوم الجمعة على الجسر ببغداد ضحىً»**.

فخرجت منه ولا تكاد تحملني قدماي، فما انتهيت إلى باب من أبواب إخواني إلّا طرقتها وأخبرتهم الخبر وبشّرتهم، إلى أن حان الموعد، فاحتشدنا في الطرقات المؤدّية إلى الجسر، وبينما نحن كذلك إذا بالسجانين يحملون على أيديهم جنازة قد لفّت بعباءة، فطرحوها على الجسر، ونودي عليها بذلك النداء الفظيع.

يقول ابن سويد: كانت لي صحبة مع طبيب نصراني وقد مرَّ أمام الجسر، فقلت له: بالمسيح عيسى عليك إلّا ما نظرت في كفّ هذا المسجى. فكشف عنه الرداء وأخذ يده فلمّا نظر فيها طويلاً قام ولم يتكلم، فقلت له: ما بالك؟ قال: يا هذا لا تُطل، هل لهذا الرجل من عشيرة؟ قلت: ما الخبر؟ قال: ليطالبوا بدمه فإن الرجل مسموم:

يگلوله غريب اهله امبينين لاچن بالمدينه عليه بعيدين

وانتهى الأمر بأن جاء سليمان وأخذ الجنازة ووضعها في مفترق أربعة

---

(١) الرعد: ٢٤.

طرق، ونودي عليها: ألا من أراد أن يحضر جنازة الطيّب ابن الطيب فليحضر. فبلغ عدد المشيّعين سبعين ألفاً[١].

لكن عقيلة الطالبيّين وقفت يوم الطفّ على جسد أبي عبد اللّه‏عليه السلام، فتلفّتت يميناً وشمالاً ثم صاحت: «ويحكم، أما لهذا المسجى من عشيرة؟ أما فيكم مسلم يواري هذا الغريب؟ أما فيكم موحّد يدفن هذا السليب؟».

تعالوا لبنكم غسلوه   مهو عزيزكم چاليش عفتوه

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٩٣.



﴿ ٨٠ ﴾

تحريف القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: أُسلوبا التوكيد والتفخيم

في هذه الآية الكريمة استعمال لأُسلوبين معروفين عند العرب هما:

الأوّل: أُسلوب التوكيد

أول ما يقال في هذه الآية الكريمة أن مدرسة القرآن الكريم التعبيرية تعطي معنىً خارج حدود المعنى الحرفي، فمن المعروف أن لكل لفظ معنى، فكلمة ماء لها معنى هو هذا السائل المعروف، ودورنا نحن أن نأخذ المعنى من هذه الكلمة. وفي بعض الأحيان يؤخذ المعنى من الإسناد، فبإضافة كلمة إلى كلمة يؤخذ معنى جديد من هذا المجموع. وأحياناً يأتي المعنى من وراء السطور، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾؛ إذ أن من الممكن أن

---

(١) الحجر: ٩.

يقال: «نحن نزلنا الذكر»، أو يقال: «إنا نزلنا الذكر»، لكنه تعالى جمعهما لغرض. وقد تكرّر هذا التركيب ـ أُسلوب التوكيد ـ في أماكن عديدة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾[١].

والغرض من هذه الصيغة التعبيرية هو دفع الشبهات أو نفي أن يكون هذا الفعل من غير اللّه عزّ وجل. فاللّه تعالىٰ يريد أن يبين أن هذا الفعل من عمله هو وليس من عمل جهة أُخرى.

الثاني: أُسلوب التفخيم

الشيء الآخر في التعبير هو قوله تعالى: ﴿إِنَّا﴾، مع أن اللّه تعالى واحد، ويمكن أن يقول: «أنا» بصيغة المفرد. وهذا التعبير لغرض التعظيم الذي لا يليق بغير اللّه تعالى؛ لأن كل عظيم غيره لا يستطيع أن يحتفظ بعظمته، ومهما أُوتي من منزلة أو رتبة فإنه سوف يسقط وتنتهي عظمته. فعند الموت تنتهي عظمة أي عظيم مهما أُوتي من عزّة ومنعة وغطرسة وكبرياء، فتراه يدير بنظره في وجوه أهل بيته يستجدي العطف، ثم ينتهي هذا الخدّ المصعّر إلى التراب والديدان التي تعبث به كيفما شاءت[٢]. وليس من عظيم لا تتلاشى عظمته إلّا اللّه عزّ وجلّ، فمن حقّه أن يعبّر عن نفسه بصيغة الجمع؛ لأن العظمة لا تليق إلّا به تعالى وحده.

---

(١) يس: ١٢، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ ق: ٤٣.
وقال جلّ من قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾. الإنسان: ٢٣.

(٢) قال أبو العلاء المعرّي:

خفّف الوطءَ ما أظنّ أديمَ الـ ... أرضِ إلّا من هذه الأجسادِ
ربّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ... ضاحكٍ من تزاحمِ الأضدادِ

سقط الزند: ٧.

المبحث الثاني: الفرق بين «نزّلنا» و«أنزلنا»

ثم تعالَ إلى قوله تعالى: ﴿نَزَّلْنَا﴾ الذي يختلف في مدلوله عن «أنزلنا»؛ لأنها تعني التنزيل تدريجاً بعكس «أنزلنا» التي تعني الإنزال دفعة واحدة. فالقرآن الكريم نزل خلال ثلاث وعشرين سنة بالتدريج آية بعد آية، فكلّما حدثت مناسبة نزلت آية حتى غطى كلّ أبعاد المجتمع. فالمعالجة تكون بطريقين: إما بالطفرة وإما بالتدريج. والطفرة تفشل، لكن المعالجة التدريجيّة الهادئة تنمّي مدارك الإنسان وتطوّر أفكاره.

وهذا الطريق هو الذي استخدمه القرآن الكريم في المعالجة، فمثلاً أول مجيء النبيﷺ نزل عليه مبدأ اقتصادي هو: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[1]، والعفو هو الفضلة التي تزيد عن حاجة الإنسان، فأمر الله تعالى نبيهﷺ أن يأخذها من الأغنياء للفقراء. فكان النبيﷺ يأخذ كلّ ما زاد عن حاجة الإنسان؛ ذلك لأن المجتمع لم يكن متوازناً باديءَ الأمر، فكان إلى جنب كلّ شبعان آلاف الجياع. ثم لما أُعيد التوازن للمجتمع نزلت آية الخمس[2] وآية الزكاة[3]. وهي معالجات هادئة تتناسب مع المجتمع، فيما كانت المعالجة الأُولى بشكل ثورة. وهذا هو السرّ في تنزيل القرآن بالتدريج.

المبحث الثالث: في معنى حفظ القرآن

ثم قال تعالى: ﴿وإنَّا لهُ لَحَافِظُون﴾، فكيف يمكن تصوّر حفظ اللّه تعالى

---

(١) الأعراف: ١٩٩. (٢) الأنفال: ٤١.
(٣) التوبة: ٦٠.

للقرآن حيث إن الضمير في ﴿لَهُ﴾ يعود للقرآن، لا للنبي ﷺ كما يقول البعض[1]. في حفظ القرآن الكريم ثلاثة آراء:

الرأي الأوّل: حفظه من التناقض

لأنه لو كان من عند غير اللّه لكان فيه تناقض واختلاف، فالقوانين التي تصدر من الإنسان يكون فيها تناقض بيّن، أما قوانين اللّه فليس فيها تناقض، فمثلاً تجد فيالقانون الإنساني: «يجب تعميم العدل الاجتماعي بين الناس». فتقول: هذه مادة جيّدة وصحيحة في القانون تستهدف أن يُعَمَّمَ العدل الاجتماعي بين الناس، ثم تأتي إلى مادّة أُخرى فتجد فيها: «يتمتع رأس المال بحرية كاملة». وهذه المادّة تصطدم مع الأُولى؛ لأن رأس المال إذا أُعطي حرية كاملة فإن العدل لا يتحقّق. فالتاجر الذي يملك رأس مال مقداره عشرون ألف دينار مثلاً يحتاج إلى أن يربح بمقدار ١٠٪ لسدّ مصروفاته واحتياجاته. أما التاجر الذي رأس ماله مليونا دينار مثلاً فيكفيه ربح ٢٪ وإن كانت مصروفاته واحتياجاته ربما تبلغ ضعف ما يحتاجه صاحب العشرين ألفاً. عند ذاك يكون صاحب العشرين ألفاً بين أمرين: إما أن يبيع مثل صاحب المليونين، فتنتهي تجارته إلى خراب وخسارة، وإما أن يبقى على ربحه فيتوقّف عمله بالمرّة؛ لأن الناس تشتري من صاحب الربح الأقل. فهذه المادّة صدمت العدل.

وتجد مادة في القانون تقول: «يجب إنشاء المجتمع الكريم المهذب». ولكنه يسمح في الوقت نفسه بنوادٍ ليلية باسم الفن، وهي في حقيقتها

---

(١) انظر التفسير الكبير ١٩: ١٢٧.

مؤسّسات دعارة مهمتها إذا جاء الليل أن تبيع الرقيق بشكل أو بآخر. فكيف يتحقّق خلق المجتمع الكريم مع وجود هذا المستنقع القذر وهذه البؤرة؟

والألعن من ذلك أن يُسلَّط على هذه الدعارة أخطر جهاز إعلامي لنقل المباذل والفضائح إلى الناس؛ لتكون في كلّ بيت أمام نظر المراهق والمراهقة. فكيف ينشأ المجتمع الكريم والحال هذه؟

أوهام حول وقوع التناقض في القرآن

أما القرآن الكريم فلا تجد فيه هذا التناقض؛ لأنه من عند اللّه خالق الدقّة والعقل والنظام.

والمصيبة أن البعض يقرأ من القرآن بعض الآيات ثم يُورد إشكالات دون أن تكون عنده خلفيّة علميّة، فهذه القضايا من الأُمور الحسّاسة التي تحتاج إلى علم ودراية ومعاناة، فليس من الصحيح أن يُترك القرآن الكريم لِلَعب الجاهلين والمدّعين والأُمّيّين. وقد ورد في الحديث: **«من قال في القرآن الكريم برأيه فليتبوأ مقعده من النار»**[1]. فالقرآن الكريم قانون، ولكن الفرق في هذه الأيام أن المتلاعب بالقانون يتعرّض للعقوبة القانونيّة، أما المتلاعب بالقرآن الكريم فليس له من يحاسبه. فعلى المتصدّي للقرآن أن يكون ذا خلفيّة علميّة كافية، وأن تكون لديه مؤهّلات التفسير، أو أن ينقل آراء العلماء بأمانة إلى الناس.

---

(١) عوالي اللآلي ٤: ١٠٤ / ١٥٤، وفيه: فسّر القرآن، بدل: قال في القرآن، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٤: ٢٦٨ / ٤٠٢٣.

نماذج من ادعاءات التناقض في القرآن

الأنموذج الأوّل: آيات الجبر والاختيار

وقد يقال: إن بعض الناس وقع في أنفسهم أن في القرآن الكريم تناقضاً، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1]، وقوله تعالى في آية ثانية: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2]، وفي آية ثالثة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[3]. فإن في هذا ما يُشعِر بالجبر تارة وبالاختيار تارة أُخرى.

فنقول: ليس في ذلك كلّه تناقض أبداً، فقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ لا على نحو الحقيقة، فإن الذي رمى هو النبي ﷺ، ولكن الذي سدّده بالرماية وأعانه على إصابته الهدف هو الله. والاختيار يبقى محفوظاً في آية ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

أنموذج ثانٍ حول آيات الجبر والاختيار

وقد يقال: إن اللّه يقول: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[4]، فكيف يتّفق هذا مع قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾؟

والجواب: أن مشيئة اللّه تعالى لها طرف بالفعل، ومشيئة الإنسان كذلك، فمثلاً لو كان عندنا ماء يجري في نهر والنهر منحدر، ولدينا أرض عالية لا يصلها الماء، فأنشأنا سدّاً لنتمكن بواسطته من إيصال الماء إلى تلك الأرض، فمن الذي أوصل الماء إلى تلك الأرض العالية؟ هل وصل عفواً بجريانه أو بواسطتنا نحن الذين أنشأنا السدّ؟

---

(١) الكهف: ٢٩.
(٢) الإنسان: ٣.
(٣) الأنفال: ١٧.
(٤) الإنسان: ٣٠.

فإن قلنا: بواسطتنا، فيرد أنه لا يمكن أن ترتوي الأرض إلّا بوجود الماء، فلو أنشأنا السدّ مع عدم وجود الماء لا يمكن أن ترتوي الأرض.

وإن قلنا: إن الماء لوحده هو الذي روى الأرض فهذا غير صحيح؛ لأن وجود السدّ هو الذي ساعد على إيصال الماء.

فهنا شيء به الماء وشيء منه الماء، فالذي به الماء هو النهر، أما الذي منه الماء فهو السد. فللنهر وظيفة هي أنه أعطانا الماء، ولنا وظيفة وهي أننا رفعنا الماء بواسطة السد الذي بنيناه. وهذا المثال ينطبق على المشيئة الإلهية ومشيئة العبد، يعني أن اللّه يخلق عند العبد الاستعداد لفعل الإشاءة ومؤهّلات الإرادة، ودور العبد أن يستعمل هذه المؤهّلات، فلولا خلْق اللّه لهذه المؤهّلات عند العبد لما استطاع أن يفعل شيئاً. ولولا إشاءة العبد لما فعل اللّه تعالى شيئاً؛ لأن معنى ذلك أنه إجبار للعبد. فهذا الفعل له جانب وهذا له جانب.

الأنموذج الثالث: آيات الزواج

ومما يقال في تناقض آيات القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾[1]، وقوله تعالى في مكان آخر: ﴿**فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ**﴾[2].

والجواب: أن هذا ليس تناقضاً؛ لأن متعلق العدل مختلف، فالقرآن الكريم يقول: إن استطعت أن تعدل بالنفقة بحيث تكون عندك قدرة مالية وجسدية

---

(١) النساء: ١٢٩.

(٢) النساء: ٣، مع أن تمام الآية ـ وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ ـ تؤكّد الآية السابقة.

فخذ من النساء مثنى وثلاث ورباع، أما إذا لم تستطع أن تعدل بحيث يكون في التعدّد جور وظلم فلا. أمّا في الآية الأُخرى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، فذلك في المودّة؛ إذ لا يستطيع الإنسان أن يعدل في المودّة، فلابدّ أن تكون لإحداهن ميزة تختلف عن الأُخرى. بل حتى لو لم يكن ذلك فإن الميل النفسي يجعل الإنسان يميل من جانب إلى آخر.

فالقرآن الكريم يريد أن يجرَّ أيدينا إلى الواقع، فلا تناقض في الأمر؛ لأن متعلق العدل هنا هو المال ومتعلقه هناك هو المودة.

الرأي الثاني: حفظه بما ميّز به من ميزات

فلو وضعنا كلام الخالق إلى جانب كلام المخلوق للاحظنا أن كلام المخلوق مملوء بالركّة، أما تعبير الخالق فكلّه فخامة وإيقاع وعظمة وقدسية. فللقرآن ديباجة ليست لكلام المخلوق، ونحن مثلاً نسمع من يقول:

فؤادٌ ما تُسلّيهِ المُدامُ ... وعمرٌ مثل ما تهب اللئامُ

ودهرٌ ناسُهُ ناسٌ صغارٌ ... وإن كانت لهم جُثثٌ ضِخامُ

وما أنا منهمُ بالعيشِ فيهم ... ولكن معدِنُ الذَّهبِ الرُّغامُ[1]

فنعرف أن هذا المتكلم من ديباجته هو المتنبي، خصوصاً إذا كان السامع أديباً متمرّساً في الأدب. ولو سمعنا كلام البحتري أو غيره لعرفناه من ديباجته. وكذلك المتمرّسون بالقرآن الكريم يعرفون لغته وديباجته، ولو أراد الإنسان معارضتها لما استطاع أن يصل إلى مستوى القرآن الكريم، وكان الفرق ظاهراً بين كلام الخالق وكلام المخلوق.

---

(١) ديوان المتنبي ٢: ١٠١.

ولذا حينما يناقش ابن أبي الحديد الذين يقولون: إن (نهج البلاغة) ليس لعليﷺ ؛ لأن فيه أشياء لا تتناسب مع عصرهﷺ ـ وهذا الموضوع طويل ويحتاج إلى تفصيل، وهو ليس موضوع محاضرتنا الآن ـ فإنه يقول: إما أن نقول: إن (نهج البلاغة) بأجمعه ليس لعليﷺ وهذا باطل ؛ لأن القائلين بذلك ينسبونه إلى الشريف الرضي الذي عاش في القرن الرابع فيما يشتمل النهج على خطب مرويّة في القرن الثاني أو قبله، وإما إن نقول: إن بعض النهج ليس لعليﷺ، والبعض الآخر منحول ـ أي منسوب لعليﷺ ـ فنأتي بهذا القدر المتيقّن أنه لأمير المؤمنينﷺ ونقيس عليه هذا الذي يُشكك فيه، ونرى هل إنه بالأسلوب الأدبي والديباجة والإيقاع أنفسها، أو تختلف عنه[1]؟

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٠: ١٢٧ ـ ١٢٩، ونصّ كلامه فيه: «إن كثيراً من أرباب الهوى يقولون: إن كثيراً من (نهج البلاغة) كلام محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة، وربما عزوا بعضه إلى الرضي أبي الحسن وغيره.

وهؤلاء قوم أعمت العصبية أعينهم، فضلّوا عن النهج الواضح، وركبوا بنيات الطريق ضلالاً وقلّة معرفة بأساليب الكلام. وأنا أُوضح لك بكلام مختصر مافي هذا الخاطر من الغلط فأقول: لا يخلو إما أن يكون كل (نهج البلاغة) مصنوعاً منحولاً، أو بعضه؛ والأول باطل بالضرورة؛ لأنّا نعلم بالتواتر صحّة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنينﷺ، وقد نقل المحدثون كلهم أو جلهم، والمؤرخون كثيراً منه، وليسوا من الشيعة لينسبوا إلى غرض في ذلك. والثاني يدلّ على ما قلناه؛ لأن من قد أنس بالكلام والخطابة، وشدا طرفاً من علم البيان، وصار له ذوق في هذا الباب، لابدّ أن يفرّق بين الكلام الركيك والفصيح، وبين الفصيح والأفصح، وبين الأصيل والمولّد. وإذا وقف على كراس واحد يتضمّن كلاماً لجماعة من الخطباء، أو لاثنين منهم فقط، فلا بدّ أن يفرّق بين الكلامين، ويميّز بين الطريقتين. ألا ترى أنا مع معرفتنا بالشعر ونقده لو تصفّحنا ديوان أبي تمام، فوجدناه قد كتب في أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره، لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبي تمام ونفسَه وطريقته ومذهبه في

وهذا المنهج منهج سليم يأخذ به الأُدباء والنقّاد إلى هذا الوقت، فهم يعرفون النص الشعري الجاهلي من تعبيراته وأهدافه ومفرداته، فمثلاً إذا وردت في شعر ما لفظة التلفاز فلا يمكن أن يقال: إن هذا الشعر لطرفة بن العبد الذي عاش في عصر الجاهلية.

وأُوكد هنا أن هذه الضجة التي حدثت لـ(نهج البلاغة) هي بسبب الخطبة الشقشقيّة ليس إلّا، ففي هذه الخطبة يقول أمير المؤمنين: **« إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة**

☚ القريض؟ ألا ترى أن العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه؛ لمباينتها لمذهبه في الشعر، وكذلك حذفوا من شعر أبي نواس شيئاً كثيراً؛ لما ظهر لهم أنه ليس من ألفاظه ولا من شعره، وكذلك غيرهما من الشعراء، ولم يعتمدوا في ذلك إلّا على الذوق خاصّة؟

وأنت إذا تأمّلت (نهج البلاغة) وجدته كلّه ماءً واحداً ونفساً واحداً، وأُسلوباً واحداً، كالجسم البسيط الذى ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهية، وكالقرآن العزيز أوّله كأوسطه، وأوسطه كآخره، وكل سورة منه وكل آية مماثلة في المأخذ والمذهب والفن والطريق والنظم لباقي الآيات والسور، ولو كان بعض (نهج البلاغة) منحولاً وبعضه صحيحاً لم يكن ذلك كذلك. فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلال من زعم أن هذا الكتاب أو بعضه منحول إلى أمير المؤمنين.

واعلم أن قائل هذا القول يطرق على نفسه مالا قبل له به؛ لأنا متى فتحنا هذ الباب، وسلّطنا الشكوك على أنفسنا في هذا النحو، لم نثق بصحّة كلام منقول عن رسول الله أبدا، وساغ لطاعن أن يطعن ويقول: هذا الخبر منحول، وهذا الكلام مصنوع، وكذلك ما نقل عن أبي بكر وعمر من الكلام والخطب والمواعظ والأدب وغير ذلك. وكل أمر جعله هذا الطاعن مستنداً له فيما يرويه عن النبي والأئمة الراشدين، والصحابة والتابعين، والشعراء والمترسّلين، والخطباء فلناصري أمير المؤمنين أن يستندوا إلى مثله فيما يروونه عنه من (نهج البلاغة) وغيره، وهذا واضح ».

الإبل نبتة الربيع»[١]. وهذه أشدّ عبارة استخدمها أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنه كان غاية في الأدب، وكلامه غاية في اللياقة، فلم يكن عنده من التعبيرات ما عند من عاصره ومن لم يعاصره.

وقد استخدم شيعته هذا الأدب في تعبيراتهم، فانظر إلى الجدل الذي دار بين العلّامة ابن المطهر الحلي (رضي اللّه تعالىٰ عنه وأرضاه، وقدّس سرّه الشريف) وبين ابن تيمية، فالعلّامة الحلي عندما يذكر ابن تيمية يقول: وقال العالم ابن تيمية، أو: وقال شيخ الإسلام، أما ابن تيمية فيقول عن العلّامة ابن المطهّر الحلي: وقال ابن المُنَجَّس[٢]. في حين أنه يقتضي أدب العلم أن يكون اللسان نظيفاً، وأن يشعر المسلم أن على لسانه رقيباً، فلا تصدر منه كلمة نابية. وينبغي أن يكون للدين والخلق والأدب أثر على اللسان وعلى التعبير. ولكن لا نستكثر على رجل يقول: إن الشيعة لا يُصلّون؛ لأنهم ينتظرون صاحب الزمان وربما يظهر وهم في الصلاة فينشغلون عنه أن يصدر منه مثل هذه الألفاظ.

الرأي الثالث: حفظه من الزيادة والنقص

وذلك بأن نقيّض له من المسلمين من يحفظه، بحيث لو حدثت فيه زيادة أو نقيصة لردّوا عليهم. فالمسلمون حفظوا القرآن الكريم وكتبوه بحيث لو ظهر الآن أي تغيير فإنه يُعرف بسرعة، فلا يمكن أن تتسرّب للقرآن الزيادة أو النقيصة.

وهنا أذكر استنتاجاً جميلاً للفخر الرازي المفسّر العملاق يقول فيه: إن هذه

(١) نهج البلاغة / الخطبة ٣٠.
(٢) الفوائد الرجاليّة ٢: ٢٦٣.

الآية تدلّ على أن البسملة جزء من القرآن الكريم[1].

وهذا من مواضع الخلاف بيننا وبين المذاهب الأُخرى، فهناك خلاف بيننا وبين سائر المسلمين حول جزئيّة البسملة من القرآن الكريم، فنحن نقول بجزئيتها من كلّ سورة عدا سورة براءة، وخلاف ذلك تكون السورة ناقصة، فلابدّ من قراءتها في كلّ سورة.

فالفخر الرازي يقول: إن البسملة موجودة منذ أن وجد القرآن الكريم، فلو كانت من الزيادات فلن يصدق قوله تعالى: ﴿وإنَّا لهُ لَحَافِظُون﴾، فكونها مكتوبة والمسلمون هم الذين أثبتوها فهي جزء من القرآن الكريم، ولولا ذلك لكانت زيادة في القرآن الكريم. وإذا جاز أن نتصوّر أن في القرآن الكريم زيادة جاز أن نتصوّر أن فيه نقيصة.

ولا ننسَ أن نذكر التاريخ الظالم الذي يتّهمنا بالقول بتحريف القرآن الكريم، وهذا أشبه بقول القائل «رمتني بدائها وانسلّت[2]». فنحن لا نقول بالتحريف أبداً، ورأي محقّقينا وعلمائنا أن القرآن الكريم هو ما بين الدفتين. وهذا هو رأي الشيخ المفيد[3] والشيخ الصدوق[4] والعلّامة الحلّي وعمالقة الفكر الإمامي بأجمعهم[5].

وإن كان هناك قول بالزيادة أو النقيصة فعند غيرنا أكثر، وقد كتب السيد الخوئي﷫ في كتابه (البيان في تفسير القرآن)[6] فصلاً ممتعاً علمياً ودقيقاً في

---

(١) التفسير الكبير ١٩: ١٢٧. (٢) الصحاح ٥: ١٧٣١ ـ سلل.

(٣) المسائل السرويّة: ٧٨ / المسألة: ٩، أوائل المقالات: ١٨٧ / ٥٩، ٤٠٠ / ١٨٨.

(٤) تصحيح الاعتقادات: ٥٩ / ٣٣.

(٥) الشافي ١: ١٨٦، ٤: ٢٨٥، الانتصار: ٢٦، الفصول المهمّة (الحرّ العاملي) ١: ٥٩٠، نفس الرحمن: ١١. (٦) البيان في تفسير القرآن: ١٩٧ ـ ٢٣٩.

موضوع صيانة القرآن الكريم من التحريف، وذكر فيه النصوص التي تدلّ على أن الذي يقول بالتحريف هو غيرنا.

وهناك روايات عند بعض المسلمين تقول: إن سورة التوبة تنقص ما يقرب الثلاثة أرباع من حجمها الحقيقي[١]. فكيف يعتبرونها ناقصة، ويكون القرآن الكريم حجّة؟ فقد يكون هذا الناقص مخصِّصاً أو مقيِّداً أو غير ذلك؛ فلا يسلم حكم من الأحكام الشرعيّة على هذا الفرض. فالذي يقول بالنقص غيرنا لا نحن، ولكن المصيبة هي أننا على امتداد التاريخ ما ملكنا وسيلة إعلام، ولا حكمنا، فوقعت كلّ المصائب على رؤوسنا.

فالقرآن الكريم محفوظ من الزيادة والنقيصة، لكن التحريف وقع في التأويل والتفسير، صحيح أن القرآن الكريم لم يحصل له ما حصل للكتب السابقة التي حصل التحريف في نصوصها، لكن القرآن الكريم تعرض للتحريف بتفسيره، فمن أمثلة ذلك أن معاوية أعطى لأحدهم[٢] أربعمئة ألف درهم ليروي أن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[٣] نزل في عبد الرحمن بن ملجم؛ إذ باع نفسه لله عندما ضرب علي بن أبي طالب عليه السلام[٤]، يقول عمران بن حطّان:

---

(١) روى الهيثمي في مجمع الزوائد ٧: ٢٨، والحاكم في المستدرك على الصحيحين ٢: ٣٣١ والسيوطي في الدر المنثور ٣: ٢٠٨ أن حذيفة قال: تسمون سورة التوبة هي سورة العذاب وما يقرؤون منها مما كنّا نقرأ إلّا ربعها.

وللمزيد حول هذا انظر مبحث (هل يقول أهل السنة بالتحريف؟) مع مصادره في ج١ ص٢١٠ ـ ٢١١ من كتابنا هذا.

(٢) هو سمرة بن جندب.

(٣) البقرة: ٢٠٧.

(٤) الصراط المستقيم ٢: ١٥٣، وانظر مثلها في آية أُخرىٰ في النصائح الكافية: ٢٥٣.

يـا ضـربةً مـن تـقيٍّ مـا أرادَ بـها ... إلا ليبلغَ من ذي العرش رضوانـا
إنـــي لأذكـرُهُ يــوماً فأحسَــبُه ... أوفى البريةِ عندَ اللـهِ مـيزانـا[1]

ومن أمثلة ذلك ما قيل من أن علي بن أبي طالب عليه السلام صلّى بالناس وهو سكران، فقرأ: « ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[2] ونحن نعبد ما تعبدون »[3]، ولم يقرأها كما أُنزلت. وهذا المفتري الذي نسج مثل هذا الخبر أراد أن يغطّي ما كان من فعل أحد الصحابة الذي بقي يشرب الخمر حتى آخر حياته. ولكن كلّ ذلك يتبخّر وتبقى الحقائق كما هي.

ينقل الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (فلسفة العقوبة) رأياً لأبي حنيفة يقول فيه: «لو أغرقوني في الفرات على أن أشرب قطرة من الخمر لما شربت، ولو أغرقوني في الفرات على أن أقول: إنها حرام لما قلت». ويعلق أبو زهرة على هذا الكلام بقوله: إن بعض الصحابة شربها، ولا يريد أبو حنيفة أن يفسق هذا الصحابي. مع أن الحرام حرام سواء عند الصحابي أو غيره،

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٤٥٩، سير أعلام النبلاء ٤: ٢١٥، الإصابة ٥: ٢٣٢، البداية والنهاية ٧: ٣٦٤، وقال القاضي أبو الطيّب الطبري وقد بلغته هذه الأبيات:

يا ضربة من شقيّ ما أراد بها ... إلّا ليهدم من ذي العرش بنيانا
إنـي لأبـرأ مـما أنت قـائله ... عنِ ابن ملجمٍ الملعون بـهتانا
إنـي لأذكـره يـوماً فـألعنه ... والعن الدهر عمران بن حطّانا
عليك ثمّ عليه الدهر مـتّصلاً ... لعـائن اللّـه إسـراراً وإعـلانا
فأنتمُ من كلاب النار جاء بـه ... نصّ الشريعة بـرهاناً وتـبيانا

انظر الحور العين: ٢٠١.

(٢) الجحد: ١ ـ ٢.

(٣) انظر هذا المبحث كاملاً ونقضه والردّ عليه مع مصادره في ج ٢ ص ٧٨ ـ ٧٩ من كتابنا هذا.

ونحن لا نحلّل ولا نحرّم.

المبحث الرابع: في معنى كون القرآن ذكراً

ثم عبّر سبحانه وتعالى عن القرآن الكريم بأنه ذكر، أي أن الإنسان يكون فيه على تفاعل مع الله تعالى، فهو يذكر الله ويناجيه بكلامه. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«تعلّموا القرآن الكريم فإنه أحسن الحديث، وتفقّهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص»**[1].

ويبقى القرآن الكريم عزّنا ومجدنا ودستورنا ومصدر حياتنا وحضارتنا، ولذلك استمهل الحسين عليه السلام أعداءه ليلة العاشر ليقرأ القرآن الكريم[2]، وعاش تلك الليلة وملؤه الخشوع، يقول السيد حيدر الحلي:

سمةُ العبيدِ من الخشوع عليهم ... لله إن ضمتهم الأسحارُ

فإذا ترجّلت الضُحى شهدت لهم ... بيضُ القواضب أنُهم أحرارُ[3]

دخلت عليه أُخته ليلاً وهو يقرأ القرآن الكريم ـ كما يقول الشيخ الصدوق ـ فوضع القرآن الكريم على الأرض وقام إجلالاً لها وأجلسها إلى جانبه، ورأى في عينيها دمعة، فمدّ يده إلى منديله ومسح دمعتها وقال: **«يا**

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١١٠، وقريب منه عن الرسول صلى الله عليه وآله في تاريخ مدينة دمشق ١١: ١٦٧.

(٢) الإرشاد ٢: ٩١ ـ ٩٢، الأمالي (الصدوق): ٢٢١، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٩١، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٤ ـ ٣١٩، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، البداية والنهاية ٨: ١٩٠ ـ ١٩٢، مقتل الحسين (الخوارزمي) ١: ٣٤٩.

(٣) ديوان السيّد حيدر الحلّي ١: ٨٢.

أخية، تعزّي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان»[1]. فقالت له: «كيف تطلب مني أن أهدأ وأنت غداً تفارقني؟».

لقد كانت علاقتها بالحسين عجيبة، فلم تكن علاقة أُخت بأخيها فقط، بل كانت له الأُخت والأمّ والابنة، فلا تكاد تفارقه أو يفارقها، وكان يحمل لها الإجلال والتكريم. فهي تقول له: كيف تريد مني أن أسكت وأنت موشك على مفارقتي؟

انـچان تـريدني أنسه	**وابـطل النـوح وونـيني**
اخـذ ذكـراك مـن گـلبي	**واخذ صورتك من عيني**
أيـــام الچـــنت ويّــاك	**أنــاغيـك وتـنـاغيـنـي**
اشـبيدي عـايشه ويّـاي	**مـن ذيـچ الايـام اشـباح**

* * *

عــمر مــا فــارگيتك بـيه	**تذكر يـوم واحـنه صـغار**
مــن حـضن امّـي الزهـره	**لجـوانـح حـيدر الكـرار**
عـــيني تـــبحّر بـــوجهك	**وروحـي ويـاك ليـل نـهار**

فلسان حال الحسين يقول لها: أُخية البكاء أمامك، فلا تـدعيني الآن ألمح في عينيك دمعة، دعيني أخرج من الدنيا وأنا واثق من أنني تركتك مثل

---

١) الأمالي (الصدوق): ٢٢١، وانظر: الإرشاد ٢: ٩١ ٩٢، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٩١، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٤ ـ ٣١٩، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، البداية والنهاية ٨: ١٩٠ ١٩٢، مقتل الحسين (الخوارزمي) ١: ٣٤٩، وقد مرّ مفصّلاً في ج٢ ص٩١ من كتابنا هذا.

ما أُحب. وفعلاً ادّخرت الدمع إلى أن سقط، وخرجت إليه في الليالي المدلهمة، وكانت تناجي طيفه طول الليل، وهكذا كانت في السبي وفي أثناء الطريق وفي الخربة، فإن جنّ عليها الليل تراءى لها شبح الحسين عليه السلام:

بعد هيهات دهري بيكم يعود أرد اشيل راسي بيكم ردود





﴿ ٨١ ﴾

قبسات من حياة السجاد عليه السلام

وراهبُ أهلِ البيتِ كان ولم يَزَلْ
يُـلَقَّبُ بـالسَّجادِ حـتىٰ تـعبُّدِهْ
يُقَضِّي بطول الصومِ طول نهاره
مُنيباً ويقضي ليـلَهُ بـتَهَجُّدِهْ[1]

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: أن الأئمة عليهم السلام اثنا عشر كلهم من قريش

الإمام السجاد عليه السلام رابع أئمة أهل البيت عليهم السلام ، أو رابع الخلفاء الذين نصّ عليهم الحديث النبوي الشريف: «**يكون من بعدي اثنا عشر أميراً كلّهم من قريش**» . والحديث يرويه البخاري[2] ومسلم[3] في صحيحيهما عدا كتب الإمامية[4] وأهل السنة[5].

---

(١) البيتان لابن حماد . مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٢ .

(٢) صحيح البخاري ٨: ١٢٧ . (٣) صحيح مسلم ٦: ٣ ـ ٤ .

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٥٤ / ١٢، الخصال: ٤٦٩ ـ ٤٧٣ / ١٢ ـ ٣٠، روضة الواعظين: ٢٦٢، وغيرها .

(٥) سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ / ٤٢٧٩ ـ ٤٢٨٠، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٤٠ / ٣٢٣، المستدرك على الصحيحين ٣: ٦١٧ ـ ٦١٨ .

مغالطات المفسّرين وشرّاح الحديث في تجاوز ما له علاقة بالأيمة﵈

ونلاحظ أن بعض الشرّاح عندما يصل إلى هذا الحديث ويشرحه يتخطّى هذا الموضوع ـ وهو أن الأيمة اثنا عشر ـ ويتجاوزه؛ لأنـه لا يسـتطيع أن يُكيِّف هذه الرواية مع الواقع التطبيقي. هذا الواقع هو أن عصر الخـلفاء فـيه أربعة خلفاء، وفيما بعد تعاقب الخلفاء من الأمويّين؛ مـن آل أبـي سـفيان والمروانيين على الحكم بأكثر من هذا العدد. والعباسيّون كذلك تعاقب على الحكم منهم أكثر من هذا العدد، فلذلك يحار هؤلاء الشراح في تطبيق هذه الرواية على مصداقها بما يتلاءم مع الواقع القائم؛ ولهذا يتجاوزونها؛ لأن فيها اعترافاً صريحاً بقول الإمامية في كون الأيمّة﵈ اثني عشر.

كما أن بعض الروايات تنصّ على أن النبي ﷺ قال: **«لا تنقضي الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي ـ أو قال عترتي ـ يواطئ اسمه اسمي، يـملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»**[1].

ولهذا الأمر نظائر في التفاسير، فهناك بعض المفسّرين مـن يـتخطّى آيـة بكاملها ويتجاوزها إذا كانت لها علاقة من قريب أو من بعيد بأهل البيت﵈، فتجد الآية مكتوبة في المتن ولكن المفسّر ينتقل إلى الآية التي بعدها إذا وجد أنها تمسّ أهل البيت﵈[2]. وهذه المحاولات لا تخفى على الناقد، وهـي محاولات ليس فيها أمانة علميّة؛ لأن المفروض بالمسلم أن ينقل إلى الجيل

---

(١) انظر: الحد الفاصل: ٣٢٩، صحيح ابن حبان ١٥: ٢٣٧، المعجم الأوسط ٢: ٥٥، ٧: ٥٤، المعجم الكبير ١٣٣ ـ ١٣٧ / ١٠٢١٤ ـ ١٠٢٣٠، وغيرها كثير.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤: ٤٨٤ ـ ٤٨٥، حول تفسير سورة الدهر، تفسير الجلالين: ٧٨١ ـ ٧٨٢، في المورد نفسه وغيرهما فيه وفي غيره من الموارد.

المسلم العلم بأمانة ودقّة، ويترك للعقليّة المسلمة أن تتفاعل مع التراث وتأخذ منه الصحيح.

المبحث الثاني: في نسبهعليه السلام

بعد هذه المقدمة نعود إلى حياة الإمام السجادعليه السلام الذي ولد من أبوين غنيّين عن التعريف؛ فالأب منهما الإمام الحسينعليه السلام، ولا نحتاج بعد ذلك إلى تعداد الآباء، فالعرب تقول في أمثالها: «فلان قصير النسب»[١]، أي أنه لا يحتاج إلى تعداد آبائه؛ لشهرتهم وانتشار صيتهم، فيكفي في نسبه أن تقول: فلان ابن فلان؛ لأن أباه عَلَمٌ لا يحتاج إلى التعريف، فيكفي في الإمام السجادعليه السلام أن نقول: إنه ابن الإمام الحسينعليه السلام.

عوامل الامتزاج بين الحضارتين العربية والفارسيّة

أما أمهعليه السلام فهي شاه زنان ابنة يزدجرد. وهنا نحتاج إلى وقفة وتأمّل؛ لأن هذا اللون من التزاوج لعب دوراً هامّاً في مزج الفكر العربي بالفكر الفارسي، والثقافة العربية بالثقافة الفارسيّة، والأدب العربي بالأدب الفارسي، بحيث كوَّن مزيجاً له بصماته الخاصّة وأبعاده الحضارية. فلو أردنا أن نخلّص الأدب الفارسي من الأدب العربي لما استطعنا، وكذلك لو أردنا تخليص الأدب العربي من الأدب الفارسي؛ لأن أبعاد الثقافة امتزجت بينهما إلى درجة يصعب معها فصلهما.وقد أدىٰ إلىٰ حدوث ذلك خمسة عوامل هي:

العامل الأوّل: مظهر التزاوج

فمنذ أن أخذت الفتوحات عند المسلمين طريقها إلى الشرق والغرب،

---

(١) لسان العرب ٥: ١٠٠ ـ قصر.

راحوا يأتون بالجواري المسبيّات فيتزوّجونهن؛ والذي يحدث أن هذه الزوجة تنقل معها بيئتها الثقافية والاجتماعية والأخلاقية، وتلتقي ببيئة أُخرى فيحدث التفاعل بين البيئتين. ولذا نلاحظ أن موضوع التزاوج لعب دوراً كبيراً، فتجد أن بعض أُمهات الخلفاء الأُمويين والعبّاسيّين فارسيات، فقد تزوّج عبد الملك بن مروان امرأة فارسية فولدت له ابنة اسمها مسلمة. وقد خطب عبد الملك من عقيل بن علفة المري ـ وهو بدوي كان يعيش بالصحراء ـ فقال له: أصلح اللّه الخليفة، جنِّبْني هُجَنَاءَك[1]. (والهجين هو الذي يولد من أب عربي وأُم غير عربية)[2].

وهذا طبعاً لون من العصبيّة الممقوتة التي لا يقرّها الإسلام، وكلّ من تجده يحمل العنصريّة أو العصبيّة فهو بعيد من الإسلام؛ لأن الإسلام لا يلتقي مع العصبية بحال من الأحوال. وكم هي رائعة كلمة رسول اللّه ﷺ لما سمع بعض الناس يفخرون بآبائهم: **«فوالذي نفسي بيده لما يدهده الجعل بمنخريه خير من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية»**![3]. والجُعل لا يدهده (يدحرج) إلّا البعرة. فالإنسان ابن الفكر والعقيدة، وليست المسألة مسألة دم ولحم، وإلّا فإن بعض الحيوانات ـ كما هو معروف ـ أكثر من الإنسان لحماً ودماً.

وكانت أُم مروان آخر خلفاء بني أُمية كردية إيرانية، وكذلك أُم المأمون فقد كانت فارسية، والكثير من أُمهات الأيمة فارسيّات، ومنهن أُم الإمام السجاد عليه السلام، وخالته زوجة عبد اللّه بن عمر التي ولدت سالم بن عبد اللّه بن

---

(١) الأغاني ١٢: ٢٩٨، وليس فيه: جنبني هجناءك، بل فيه: يخطب إلي عبد الملك فأرده ....

(٢) العين ٣: ٣٩٢ ـ هجن.

(٣) مسند أحمد ١: ٣٠١، تحفة الأحوذي ١٠: ٣١٧.

عمر، وخالته الأُخرى زوجة محمد بن أبي بكر التي ولدت له ولداً. فكان يؤتى بالجواري أيّام الفتوحات فيتزوّج بهن المسلمون.

وقد تستغرب أنْ بلغ من أمر الرشيد أنه كان في قصره ألف جارية[١]، وفي قصر المتوكل أربعة آلاف جارية وسرّية[٢]، ولكن الغريب من أنيس منصور وغيره من المتهالكين علىٰ موائد البغض والتفرقة أن يحاولوا إلصاق ذلك بالأيمةﻹ. وسوف يمر بنا أن الإمام السجادﷺ كان يشتري العبيد والجواري، فإذا جاءت ليلة العيد قال لهم: ارفعوا أيديكم و: «**قولوا: اللهمّ اعفُ عن علي بن الحسين كما عفا عنّا**». فيعتقهم ويعطيهم شيئاً من المال ويأمرهم بالعمل ويقول لمن يعطيه: «**استعن بها علىٰ دهرك، أصلح اللّه لك أمرك فيها**»[٣].

فالجواري لم يكنّ يتأخّرن في بيوت الأيمةﻹ، وإنما كنّ يعتقن جميعهن. أما أن يدّعي أنيس منصور وغيره غير ذلك فهذا لا واقع له.

إذن هذا العامل كان قد لعب دوراً مهمّاً جداً في مزج الثقافتين. فهناك فارسيّات تزوّجن من عرب، وبالعكس هناك عربيّات تزوجن في بلاد فارس. ويلاحظ أن الفكر الإسلامي ليس فكراً فارسيّاً أو عربيّاً فقط، وإنما هو جدول تنصبّ فيه روافد متنوّعة، لكن أبرز هذه الروافد الرافد الفارسي؛ وذلك بسبب وجود الجواري.

---

(١) البداية والنهاية ١٠: ٢٣٨ ـ ٢٣٩، ٢٤١.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢: ٤٠.

(٣) الصحيفة الكاملة السجّاديّة / دعاؤهﷺ في آخر ليلة من شهر رمضان، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٤٤٤، بحار الأنوار ٤٦: ١٠٤، ٩٥: ١٨٧.

العامل الثاني: الجوار والتبادل التجاري

وهذا العامل هام جداً من حيث كونه وسيلة للانتقال بين البلاد التي تزاول عبرها وبينها التجارة ، فهنا جانبان:

الأوّل : الجوار

فبحكم التحادّ بين بلدين يحدث نوع من التبادل الفكري والثقافي بينهما ، لسهولة التنقل وقرب المسافة نوعاً ما في ذلك الزمان . وهذا الجانب يسهل كثيراً عملية التبادل الثقافي بسبب القرب بين البلدين المتجاورين .

الثاني: التبادل التجاري

وهو جانب يقوم بالدرجة الأُولىٰ علىٰ الجانب الأوّل (الجوار) حيث تكون مسألة التقارب بين البلدين عاملاً محفّزاً لقيام الرحلات التجارية بينهما ؛ مما يؤدي إلىٰ انتقال ثقافة كل بلد إلىٰ البلد الآخر عن طريق التجار الذين ينقلون عاداته معهم عبر الإماء وسوق الرقيق ، وربما عبر بيع بعض مصادر الثقافة أو نقلها من بلد إلىٰ آخر .

العامل الثالث: عامل الانتقال الوظيفي

فقد استعانت الدولة الإسلامية زمن الأُمويّين والعباسيّين بخبرات وكفاءات الأُمم الأُخرى ، فالإسلام انفتح على ثقافات متعدّدة كوّنت جدولاً تصبّ فيه روافد كثيرة ومتنوّعة . فاستفاد من هذه الثقافات والخبرات . والباحث يجد في قصور الخلفاء أيام الأُمويّين والعبّاسيّين النصراني والمسلم ، والنبطي والفارسي والتركي وغير ذلك من مختلف الجنسيّات . أمّا الوزارات فكانت من نصيب الفرس خاصّة ، فكان أول وزير للعبّاسيّين أبو سلمة الخلّال وهو

فارسي، ومن بعد أبي سلمة جاء الموریاني وهو فارسي أيضاً، ومن بعده يعقوب بن داود والبرامكة وآل سهل وكلهم من الفرس. وكان كلّ واحد من هؤلاء يستعمل مجموعة من الكتّاب والأُدباء، فتجد بيوتهم مؤسّسات أدبيّة تحمل الفكر والثقافة، فتجد الفقيه إلى جانب اللغوي والأديب والمحدّث والمفسر. وهذا اللون من التمازج بالفكر أحدث مزيجاً له بصمات متنوعة.

العامل الرابع: عملية الترجمة والنقل

فقد نقلت الكتب من الفارسيّة إلى العربية، ونقل الفكر العربي من العرب إلى الفرس؛ ولذا أُحبّ أن أُلفت نظر الشباب المثقّف إلى أن يطّلع على الحِكَم التي تروى عن كسرى أو بزرجمهر أو نظائرهم، أو التي تروى للمعاصرين منهم في الجانب الثاني، فإننا نجد أن البصمات واضحة ومتشابكة، وأن لكل منهما حِكَماً في أدب وثقافة الجانب الآخر.

وقد لعب الكثير من المترجمين دوراً مهماً في هذا المجال، فكان البلاذري مثلاً من المترجمين، بالإضافة إلى محمد بن بهزاد وشاهويه وابن المقفع، وعشرات المترجمين الذين نقلوا الكتب من مختلف الثقافات، وتطعمت مع الثقافة العربية الإسلامية.

العامل الخامس: تبادل الثقافة بين الأدباء

فالأسواري مثلاً كان أديباً فارسيّاً تثقّف بالثقافة العربيّة، وكان العتابي أديباً عربيّاً تثقّف بالثقافة الفارسيّة. فعندما تقرأ شعر العتابي تجد فيه البصمات الفارسيّة، فتجد الديباجة إلى جانب الفكرة، فيقول مثلاً:

فلو كان للشكر شخصٌ يرى   إذا مـــا تأمَّـــلهُ النـــاظرُ
لَـــمَثَّلْتُهُ لك حـــتى تــراه   فتعلمَ أنّـي امـرؤٌ شـاكـرُ[1]

وهذ اللون من التوليد بين المعاني والألفاظ ما عرف إلّا في هذه الفترة.

وتجد عند الكتّاب مثلاً ألواناً من العلوم النقليّة والعقليّة. فالعلوم العـقليّة مثل الطبّ والفلسفة والكيمياء والمنطق وغيرها من العلوم التي كانت تـتّخذ المنهج العقلي منهجاً لها. والعلوم النقليّة هي العلوم التي يعتبر مركزها القرآن الكريم مثل الحديث والتفسير والفقه واللغة العربيّة بمشتقّاتها. وفي هذه العلوم تجد العلماء متمازجين، فتجد سيبويه وأُستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدي، وتجد الشافعي و إلى جانبه الشريف المرتضى. وتجد في الأدب بشّار بن برد إلى جانب أبي العتاهية والأصمعي. فحصل لون من التـمازج يـصعب مـعه انفصال الثقافتين.

ولكن الذي لعب الدور الأول هو العامل الأول، وهو التزاوج.

المبحث الثالث: في افتراءات بعض الكتّاب عليه﵇

وهنا نحبّ أن ننبّه إلى أن بعض الكتّاب المهووسين حينما يتناول ولادة الإمام السجاد﵇ من كونه من أم فارسيّة فإنه يـقول: إن الذي مـنع الإمـام السجاد﵇ من الخروج إلى القتال يوم الطفّ أنه لم يكن متأثّراً بالوراثة بأبيه وإنما كان متأثّراً بأُمه. وهذا اللون من الكتب والكتابات عليها الكـثير مـن علامات الاستفهام، وهي كتابات تُســيء للإسـلام الذي صـهر الجـنسيّات المختلفة وذوّبها، وصنع منها مزيجاً رائعاً يهتزّ له الدهر إعجاباً. وهو لون من

---

(١) روضة الواعظين: ٤٧٤، الإمامة والسياسة ٢: ١٦١.

الفكر يطرده الإسلام عن حضيرته، ويأباه أشدّ الإباء؛ إذ لا تكاد تجد اليوم دماً خالصاً مئة بالمئة، ومن يقل ذلك فهو مغفّل.

وفي رأي الإسلام أن الإنسان إنسان بمشاعره وفكره ومصالحه المشتركة وأهدافه؛ ولذلك تجد الآن أن الخصائص التي يعطونها إلى الأُمم الأُخرى لا يدخل فيها الدم، فإن هذا الفكر أصبح فكراً خرافيّاً. أما الفكر الصحيح فهو الفكر القائم على أساس المصالح المشتركة واللغة والمشاعر، وهذه هي التي تحدّد معالم القوميّة.

فالإمام السجّادعليه السلام ولد بين هذين الأبوين، وقد ماتت به أُمّه وهي نُفَساء، أما ما تقوله الرواية من أنها حضرت واقعة الطفّ ورمت نفسها في الفرات وغرقت فهذه لا واقع لها ولا منشأ، ولا أساس لها من الصحّة إطلاقاً. والصحيح ما نقلناه من أنها ماتت به وهي نُفَساء، فأوكل الإمام الحسينعليه السلام أمره إلى جارية من جواريه، فربته وأرضعته وعطفت عليه ونشّأته. ولذلك فإن الإمامعليه السلام كبر على احترامها وإكرامها غاية الإكرام، يقول المؤرخون: إنهعليه السلام كان يجلس معها على مائدة الطعام ويؤاكلها ويؤانسها، ولا يمدّ يده إلى الطعام، فلما سئل عن ذلك قال: «**إني أكره أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه فأكون قد عققتها**»[1]. وهذا النمط من الأدب قد تجده أيضاً عند العرب، يقول حاتم الطائي:

وإني لأستحيي صِحابيَ أن يرَوا ... مكانَ يدي من جانب الزاد أقرعا

أقصّرُ كفّي أن تنالَ أكفَّهم ... إذا نحنُ أهوينا وحاجاتُنا معا

---

(١) الخصال: ٥١٨ / ٤، مكارم الأخلاق: ٢٢١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٠.

أبيت خميص البطن مضطمد الحشا حياء أخاف الضيم أن أتضلّعا

فإنك إن أعطيتَ نفسَك سُؤْلَها وفرجَك نالا منتهى الذمِّ أجمعا[1]

المبحث الرابع: نشأته ونشاطه إبّان إمامته

ثم ترعرع ونشأ في المدينة، وكانت له فعّاليّات كبيرة فيها بعد استشهاد أبيه الحسين؛ لأنه كان محجوباً أيّام أبيه الذي كانت فعّاليّاته ملء السمع والبصر، وكلّ فعّاليّة للسجّاد تندكّ بجانب فعّاليّات أبيه.

وحينما استشهد الإمام الحسين كان عمر السجاد اثنتين وعشرين سنة؛ لأنه ولد سنة ثمانٍ وثلاثين للهجرة، حيث إن جابر بن حريث كان قد خرج أيّام أمير المؤمنين إلى خراسان ففتحها، وأتى ببنات يزدجرد، فتزوّج الحسين واحدة منهن، فولدت السجاد، وتوفيت به وهي نُفَساء. فعلى هذا يكون عمره الشريف يوم الطفّ اثنتين وعشرين سنة. وكان متزوّجاً وعنده الباقر وله من العمر ثلاث سنوات. وكان علي الأكبر أكبر منه؛ ولذلك لقّب بالأكبر.

ولما رجع الإمام إلى المدينة بعد استشهاد والده، بدأت تظهر عنده بعض الفعّاليّات، وأهمّ هذه الفعّاليّات فعّاليّة الأدعية، فكان من نتاجه هذه الصحيفة السجادية الشريفة (زبور آل محمد)، هذه الثروة الضخمة التي عندما تقرأ دعاء منها كدعائه يوم عرفة فإنك تقف على مضامين فلسفيّة وعقليّة دقيقة جداً يسكبها الإمام في هذه الأدعية، وكذلك في دعائه في تذلّله وتضرّعه، أو إذا شاهد جنازة.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ١٨٩ ـ ١٩٠.

لماذا الدعاء؟

فما هو السبب في هذا اللون من الفكر الذي ارتبط به الفكر الصوفي من بعد؟ إن الصوفيّة ارتبطوا بالإمام أمير المؤمنين عن طريق الإمام زين العابدينعليه السلام وإن كان التصوّف قد دخلت فيه عناصر غنوصية[1] لاعلاقة لها بالعهد الإسلامي، فإن الصوفية في العهد الإسلامي هي غير الصوفية التي بدأت تكتسح العالم الآن، خصوصاً بعد إفلاس النظم الاجتماعيّة. فالإنسان عندما أفلس في تجاربه الاقتصاديّة والاجتماعيّة واصطدم بها حصل عند الناس ردّة فعل، وذلك بالاتّجاه نحو اللّه والانقطاع إليه، وانتشرت حركة التصوّف في هذا العصر. وهذا موضوع ليس محلّه الآن، لكننا نبحث عن البواعث التي دعت الإمام السجادعليه السلام إلى سلوك طريق الدعاء في زمانه.

لقد كان السبب في ذلك هو الانفتاح المادي الذي حصل بسبب الامتزاج مع الحضارات الذي شرحناه آنفاً. ويبدو هذا الأمر بشكل واضح في هذا العصر، فلو أنك نظرت إلى شاب كويتي يعيش في هذا الزمان وشاب آخر يعيش في الخمسينيّات وثالث في الثلاثينيّات للاحظت فرقاً كبيراً في الشخصية بين هؤلاء: فهذا الذي يعيش الآن يعيش دور الأموال والتلفزيون والرفاهية والمخترعات الحديثة، كالسيارات الضخمة والطائرات؛ ولذا تجد مجموعة من الشباب المتأثر بهذه الأوضاع ولها هويّة خاصّة، فقد دخلت في

---

(١) الغنوصية: نزعة فكرية ترمي إلىٰ مزج الفلسفة بالدين، وتشتمل علىٰ طائفة من الآراء المضنون بها علىٰ غير أهلها. وتطلق خاصة علىٰ جماعة من المفكرين في القرنين الأوّل والثاني الميلاديين. المعجم الوسيط: ٦٦٤ ـ غنص.

ذهنه تيّارات فكريّة ملحدة أو مشوّشة أبعدته عن عاداته وتقاليده. وإذا كان الشاب في الأوقات الاعتيادية كالراكب في السفينة في مهب الريح لا يدري متى يغرق، فكيف به في مثل هذه الأوضاع؟

نعم يوجد في الكويت الآن انفتاح فكري ضخم، ولا أُريد أن أقول: إن كلّ الذين فيها أصبحوا مفكّرين؛ فإن ذلك يحتاج إلى وقت، ولكنها تشهد انفتاحاً فكريّاً خصوصاً في رحاب الجامعات. وهناك فعّاليّات ثقافيّة ضخمة وإصدارات وكتب ومجلات، مثل (عالم الفكر)، و(عالم المعرفة) اللتين أعتزّ بهما كمجلّتين متميّزتين. وكذلك (العربي)، وهي مجلّة فيها فكر وتنويع وأبواب متعدّدة، وهناك نمط من التفاعل مع الثقافات الحديثة. لكن في مقابل هذا حدث ابتعاد عن الدين والعقائد، فيحتاج ذلك إلى تعديل التوازن، ولا يعدّل التوازن سوى الأخلاق.

معالجة السجّاد﵇ لحالة الابتعاد عن الدين

وهذه الحالة من الابتعاد حدثت في زمن الإمام زين العابدين﵇، وذلك يعود لعدة أسباب، منها انفتاح الأُمة الإسلاميّة على الشرق والغرب، فكان أن امتلأت البيوت بالجواري والأموال[1]، وحصلت حالة من الترف، وعمّت مجالس الطرب والرحلات والتنعّم. فرأى الإمام﵇ أن الناحية الماديّة غلبت على الناس بشكل عجيب، فلا تكاد تجد إلّا مجالس الأُنس والطرب والبيع والشراء والاتّجار بالرقيق والرحلات، فتلافى الإمام﵇ ذلك بطريقين:

---

(١) مرّ الحديث عن ذلك بشكل مفصل في ج٢ ص٢٠٥ / الهامش: ٤ ـ ٥، ص٢٠٦ / الهامش: ١.

الطريق الأوّل: الأدعية

فأدعية الصحيفة السجادية كلّها تصب في مجال التعلّق الروحي بالله عزّ وجلّ والخوف منه، ونقل الإنسان إلى عالم ما وراء الطبيعة، وشرح ما ينبغي أن يكون عليه العبد من الأخلاق والانقطاع إلى اللّه، وتذكيره بالآخرة والموت، **«وكفى بالموت واعظاً»**[1]. يقول طاووس اليماني: كنت أطوف بالكعبة في جوف الليل، فأقبل رجل قد أكربته أحزانه وأقلقته أشجانه، فدخل إلى الكعبة ورمق السماء بطرفه، وسمعته يقول: **«إلهي، وحقّك ما عصيتك إذ عصيتك وأنا بنكالك شاكٌّ، ولا لعقوبتك متعرّض، ولكن سوّلت لي نفسي وغرّني سترك المرخىٰ علي، فأنا الآن من عذابك مَن يستنقذني؟ وبحبل مَن أعتصم إذا قطعت حبلَك عني؟ فواسوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفّين: جوزوا، وللمثقّلين: حطّوا. ليت شعري، أمع المثقلين أحطّ، أم مع المخفّين أجوز؟ ما لي كلّما طال عمري كثرت خطاياي، أما آن لي أن أستحي من ربي؟»**. يقول طاوس: ثم سقط فأقبلت إليه، فرأيت شفاهه تتمتم بهذين البيتين:

« أتُحرقُني بالنار ياغاية المُنَى ... فأينَ جزائي ثمَّ أينَ محبّتي

أتيتُ بأعمالٍ قِباحٍ زريّةٍ ... وما بالورى خلقٌ جنى كجنايتي »

فجلستُ عنده أمسح التراب وحبات العرق عن وجهه، فانتبه لي فقال: **«من؟ طاووس هذا؟»**. قلت: نعم، فداؤك طاوس، هذا أنت وتصنع هذا؟ قال: **«ولماذا؟»**. قلت: سيدي، من ورائك شفاعة جدك ونسبك، ثم إنك محسن

---

(١) الكافي ٢: ٢٧٥ / ٢٨، مسند الشهاب ٢: ٣٠٢.

ورحمة الله قريبة منك. فالتفت إليَّ، وقال: **«دع عنك حديث أبي وأمي، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾[١]»**. ثم قال لي: **«دعني أدنُ إلى الله»**. قلت: تدنو إلى الله وأنت زين العابدين؟ قال: **«نعم، لا تحُل بيني وبين ربي»**. فأضجعته وقمت عنه[٢].

وهذا اللون من العبادة والانقطاع إلى الله كان الإمام﵇ يصدح به في كلّ مناسبة. فهو﵇ يقول مثلاً: **«لا تصف العقول صفة ذاتك عجزت الأوهام عن كيفيّتك، ولا تدرك الأبصار موضع أينيّتك»**[٣]. فأنت لا تقرأ في هذا دعاءً فقط وإنما تقرأ فكراً.

وذلك كما لو كنت تقرأ في دعاء جده أمير المؤمنين﵇: **«اللهمّ يا من دلع لسان الصباح بنطق تبلّجه، وسرّح قطع الليل المظلم بغياهب تلجلجه، وأتقن صنع الفلك الدوار في مقادير تبرّجه، وشعشع ضياء الشمس بنور تأججه، يا من دلّ على ذاته بذاته، وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته وجلّ عن ملاءمة كيفيّاته»**[٤]. فإنك إنما تقرأ قطعاً مموسقة رائعة تحتوي على أدقّ المعاني.

وكلّ ذلك أعطاه الإمام﵇ هذا الزخم ليعدّل التوازن بين الجانب المادي الطاغي على حياة الناس والجانب الروحي، فيجرّ الناس إلى الروح؛ لأن المادّة لا تحقّق لهم السعادة، وإنما المادّة عامل مساعد عليها.

يقول﵇ في أحد أدعيته: **«مولاي وارحمني عند تغيّر صورتي وحالي إذا بلي**

---

(١) المؤمنون: ١٠١.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩١، المزار (المشهدي): ١٤١ ـ ١٤٢.

(٣) الإقبال بالأعمال الحسنة ٢: ١٥٠. وفي جمال الأسبوع: «إلهي، أنت الذي عجزت الأوهام عن الإحاطة بك، وكلّت الألسن عن نعت ذاتك». جمال الأسبوع: ٦٢.

(٤) قطعة شريفة من دعاء الصباح له﵇. انظر: بحار الأنوار ٨٤: ٣٣٩ / ١٩، ٩١: ٢٤٣ / ١١.

جسمي وتغيرت أعضائي وتقطعت أوصالي؟»[1]. فالإنسان روح، أمّا هذا الجسد فسوف يعطيه للتراب شاء أم أبى، يقول الشاعر:

ولقد قلتُ لنفسي وأنا بين المقابرْ
هل رأيتِ الأمنَ والرا حةَ إلا في الحفائرْ
فأشارت فإذا للـ دود عَبْثٌ بالمحاجرْ

أقوال الصحابة والتابعين والخلفاء فيه عليه السلام

فالإمام عليه السلام أراد أن يخلق التوازن بين المادّة والروح، ولذلك تجد ألدّ أعدائه يعطيه الصفات الغريبة، يقول عبد الملك بن مروان للإمام عليه السلام: والله ما أُوتي أحد من الورع والعلم والفقه مثل ما أُوتيت إلّا أسلافك.

ويقول له عمر بن عبد العزيز: أنت سراج العالم وزينة الدنيا.

ويقول عنه الإمام مالك: إنما سمي بزين العابدين لشدة عبادته.

ويقول عنه الإمام الشافعي: ما رئي أفقه منه.

ويقول تلميذه الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل من علي بن الحسين عليه السلام، وكان إذا جنّ عليه الليل يأخذ اللحم الميت من مواضع سجوده؛ ولذلك لقب بالسجّاد.

الطريق الثاني: الخطابة

وناهيك بها من خطابة، فكان يوم الجمعة يصعد المنبر فيخطب ويعالج المشاكل الاجتماعية، وكان يحرص على إبعاد الروح الطائفي والتألّم من خطبه، فلا تجد فيها شيئاً من ذلك أبداً، مع أنه عانى معاناة ضخمة كان من

---

(١) الصحيفة السجادية: ٣٠٧ / ٥٣ ـ دعاؤه في التذلّل لله عزّ وجلّ.

بعضها أن رأس أبيه حُمل أمامه وضرب بالقضيب. لكنه عندما تمكن ممّن فعل ذلك بعث الطعام إلى أهله وحرس بيته من هجمات الثوار وراعى عياله[1]. وكان يدعو لحفظ الثغور في أيّامه[2] ويطلب من المسلمين أن يجاهدوا.

الطريق الثالث: التدريس في المسجد

ومن فعالياته في هذه الفترة ما كان يمارسه من نشر الوعي عن طريق المسجد. ولا ننسَ أن المسجد هو الذي بنى مجتمعنا وأسّس حضارتنا، فكان يقضي معظم أوقاته بالتدريس وتفسير القرآن الكريم في المسجد، وكانت آلاف الأسئلة ترد عليه كلّ يوم من مختلف الجهات، فكان يجيب عليها.

نماذج من أجوبته

١ـ سأله أحدهم عن قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**﴾[3]، ما معنى ﴿**مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**﴾؟ فقال: «**ما ظهر منها الزنا، وما بطن نكاح زوجة الأب**»[4].

وهذا النوع من النكاح كان سائداً في الجاهلية، وهو المسمّى بنكاح المقت. فكان الأب إذا مات وله زوجة يجيء ابنه من الزوجة الثانية فيتزوّجها، أو يلقي رداءه عليها، أو يزوّجها بعد أن يأخذ مهرها. ولذلك نزل

---

(١) انظر حول ذلك: مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠١، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٦، ٤٦: ٥٥، تاريخ الطبري ٥: ٢١٧، الكامل في التاريخ ٣: ٤٥٦.

(٢) كما في دعائه لأهل الثغور المعروف. انظر الصحيفة الكاملة السجاديّة: ١٤١ ـ ١٥٠.

(٣) الأعراف: ٣٣.

(٤) الكافي ٥: ٥٦٧ / ٤٧، وفي الكافي ٦: ٤٠٦ / ١، عن الكاظم.

قوله تعالى: **﴿وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾**[1].

٢ـ وروى يحيى بن المساور الهمداني عن أبيه أنه جاء رجل من أهل الشام إلى علي بن الحسينعليه السلام فقال: أنت علي بن الحسين؟ قال: **«نعم»**. قال: أبوك الذي قتل المؤمنين؟ فبكىعليه السلام ثم مسح عينيه وقال: **«ويلك، كيف قطعت على أبي أنه قتل المؤمنين؟»**. قال: قوله: **«إخواننا قد بغوا علينا، فقاتلناهم على بغيهم»**. فقالعليه السلام: **«ويلك أما تقرأ القرآن؟»**. قال: بلى. قال: **«فقد قال اللّه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾[2]، ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾[3]، فكانوا إخوانهم في دينهم أو في عشيرتهم؟»**. قال له الرجل: لا بل في عشيرتهم؟ فقالعليه السلام: **«فهؤلاء إخوانهم في عشيرتهم، وليسوا إخوانهم في دينهم»**. فقال له ذلك الرجل: فرّجت عني فرّج اللّه عنك[4].

كانعليه السلام هكذا في النهار بين الإجابة عن الأسئلة والدرس، فإن جنّ عليه الليل حمل على ظهره الحقيبة أو الجراب المملوء ببدر الدنانير والدراهم أو صرر الطحين فيمرّ على البيوت فيطرقها باباً باباً فيعطيها لهم. وقبيل الفجر كان يحمل القِرَب فيستقي لضعفة جيرانه.

وقد سئل الإمام الباقرعليه السلام: لماذا كان على ظهر أبيك مجل[5]؟ قالعليه السلام: **«إنه كان يستقي لضعفة جيرانه بالليل»**[6]؛ ذلك أن المدينة المنوّرة ليس فيها أنهار، وإنما كان فيها آبار بعيدة القعر ـ مثل النجف سابقاً ـ فلذا كان الإمامعليه السلام

---

(١) النساء: ٢٢. (٢) الأعراف: ٨٥.
(٣) الأعراف: ٧٣. (٤) تفسير العياشي ٢: ٢٠ / ٥٣.
(٥) المجل: أثر العمل في الكفّ وغيره حينما يعالج بها الإنسان الشيء حتىٰ يغلظ جلدها من المشقة. لسان العرب ١١: ٦١٦ ـ مجل. (٦) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٤.

يستقي لهؤلاء الضعفة من جيرانه من كبار السنّ وغيرهم، فيمتح الماء بالدلو ويحمله على ظهره ثم يعود به إلى بيوتهم.

وكان إذا حلّ وقت المغرب يشرف على القدور فيقول: **«ابعثوا لآل فلان، واغرفوا لآل فلان، واعطوا آل فلان»**(١). ولا يتناول إلا لقيمات يسيرة من طعام يعدّ له. وكان يخرج إلى الصحراء، حتى إنه كان في بعض الأحيان يصلّي الفجر في الصحراء. وكانوا يسمعونه يردّد:

مَن عرفَ الربَّ فلم تُغنِهِ ... معرفةُ الرَّبِّ فذاك الشقي

ما ضرَّ ذا الطاعةِ ما نالهُ ... في طاعةِ الله وماذا لقي

ما يصنعُ العبدُ بغير التُّقى ... والعزُّ كلُّ العزِّ للمتقي(٢)

وأية روضة أكثر عطاء من هذه الروضة؟ أدب وفكر وخلق عالٍ وإنسانية وبطولة ورأفة بالإنسانية، وهذه هي الحياة التي نحرص على أن نأخذ منها زاداً لأجيالنا.

و إلى جانب هذا استأثرت بحياة الإمام﴿ع﴾ ذكريات الطفّ التي ما بارحت ذهنه أبداً، فالحدث كان ضخماً جداً، حتى إنه﴿ع﴾ كان يوضع الماء بين يديه فيطيل النظر إليه ويقول: **«أأشرب وابن رسول الله مات ظمآناً؟ أشرب وابن رسول الله مات عطشاناً؟»**.

مرّ يوماً على الفرات فأطال النظر إليه ثم قال: **«إلى الآن تجري يا فرات وقد قتل عندك ابن بنت رسول الله ظمآناً؟ إلى الآن تجري يا فرات وقد سقط آل رسول الله إلى جانبك؟»**.

---

(١) المحاسن ٢: ٣٩٦ / ٦٧، بحار الأنوار ٩٣: ٣١٧ / ٦.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٨٢، وفيه: بعزّ الغنىٰ، بدل: بغير التقىٰ.

أشــرب لذيـذ المـاي حـاشا ... واهلي كضوا كلّهم عـطاشى

ومرّ يوماً بالمدينة فسمع أحداً يصيح: أنا غريب. فقال له: **«من المنادي؟»**. قال: أنا. قال له: **«إذا جعت تُطعم الطعام؟»**. قال: المسلمون كثيرون وفيهم الغيرة. قال: **«إذا عطشت تُسقى الماء؟»**. قال: الماء مباح للكلاب والخنازير. قال: **«فإن متّ تطرح على الأرض أو تُوارى؟»**. قال: إن المسلمين لا يتركونني دون مواراة. قال: **«إذن لست غريباً»**. قال: فمن الغريب إذن؟ قال: **«الغريب أبو عبد الله، بقي ثلاثة أيام بلا غسل ولا كفن»**.

ومرّ يوماً فسمع أحد القصّابين يقول لغلامه: أسقيت هـذا الكـبش مـاء؟ فلفتت العبارة نظر الإمام، فقال له: **«أنتم معاشر القصّابين لا تذبحون الكبش حتى تسقوه الماء؟»**. قال: بلى سيدي. فأدار وجهه إلى جهة كربلاء وصاح: **«أبه يا أبه، الكبش لا يُذبح حتى يُسقى الماء، وقـد قـتلت إلى جـانب الفـرات ظمآناً»**.

ودخل عليه أبو حمزة يوماً فقال له: سيدي، أما آن لحزنك أن ينقضي؟ وهل مات أحد من آبائك حتف أنفه؟ ألستم تموتون تحت السيوف؟ فقال له: **«يا أبا حمزة هذا صحيح، ولكن والله، ما وقعت عيناي علىٰ أخواتي وعمّاتي إلّا ذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خيمة إلىٰ خيمة ومن خباء إلىٰ خباء والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين»**.

يقول حميد بن مسلم: نظرت إلىٰ امرأة علىٰ باب خباء أوشكت النار أن تأخذها، فدنوت منها وقلت: أمة الله، النار قاربتك. فلم تجبني، فقلت: أمة الله، النار علقت بأطراف ثيابك. فلم تجبني، فقلت في الثالثة بأعلىٰ صوتي: النار أوشكت أن تلتهمك! فأدارت وجهها إليّ قائلة: ياظالم، أنا أرىٰ النار، ولكن لنا عليل في هذه الخيمة، ثمّ دخلت عليه فقالت: يابن أخي ماذا نصنع؟

قال: «فروا علىٰ وجوهكم في البيداء».

وعاش هذه الفترة بعد أبيه يبكي لرؤية الماء وذكر كربلاء إلى أن حضرته الوفاة في مثل هذه الليلة وعنده أهل بيته، يقول المؤرّخون: رفع رأسه إلى السماء وقال: «**رفقاً بي ملائكة ربي، لمثلها فليعمل العاملون**»[1].

ثم سجّاه الإمام الباقر إلى القبلة فأسبل يديه ورجليه وغمض عينيه وقضى نحبه مسموماً، وللقيود على جسمه آثار وآثار، وللسياط على كتفه آثار وآثار:

مالي أراك ودمعُ عينكَ جامدُ ... أوما سمعت بمحنة السجادِ

يقول المؤرخون: أوصى الإمام السجاد ولده الإمام الباقر فقال له: «**إذا أنا قضيت نحبي فأسرجوا في مكاني ضياءً؛ لأن الروح ترجع إلى مكان الجسد فإن رأته مظلماً استوحشت**». وكانت هذه عادة أهل البيت لكن هل أسرجت زينب ليلة الحادي عشر من المحرم سراجاً مكان إخوتها، أم بقيت تلك الليلة بالظلماء؟ كان الأطفال حولها يتصارخون وهي تجول ما بينهم:

يبويه عليّه الليل هوّدْ ... وآنه غريبه وما لي احّدْ

* * *

وإن يبكِ اليتيمُ أباهُ شجواً ... قَرَعْنَ سِياطُهم رأسَ اليَتيمِ

---

(١) لم نعثر عليه عن الإمام السجاد، وهو في وفيات الأيمّة: ٥٨، عن أمير المؤمنين.

﴿٨٢﴾

الحسين﵇ ضمير أُمّة وخلود عقيدة

سكتُّ فلا الأنغامُ تَقرَعُ مَسمَعي
ولا جَمَرَاتُ العِشقِ تَلذعُ أضلعي
وحالَفني همٌ يُلازمُ يَقظَتي
ويمنعُني طيبَ الرُّقادِ بمضجعي
وما عادَ لي إلا حنينٌ لكربلا
يُجَدِّدُ في ذكرى الطُّفوفِ تَوَلُّعي

خليليَّ هل من وقفةٍ لكما معي | على جدثٍ أَسقيه صَيِّبَ أدمُعي
لِيُروَى الثَّرى منهُ بفيضِ مدامعي | فإنَّ الحيا الهطَّال لم يكُ مُقنعي
لأنَّ الحيا يَهمي ويُقلعُ تارةً | وإنّي لعُظمِ الخَطب ما جفَّ مَدمَعي
خليليَّ هبّا فالرُّقادُ مُحرَّمٌ | على كلِّ ذي قلبٍ من الوجدِ مُوجَعِ
هَلُمَّا معي نَعقِرْ هناك قلوبَنا | إذا الحُزنُ أبقاها ولمْ تَتقَطَّعِ
هَلُمَّا نُقِمْ بالغاضريةِ مَأتَماً | لخيرِ كريمٍ بالسُّيوفِ مُوَزَّعِ
فتىً حَلَّقَتْ فيهِ قَوادمُ عِزِّهِ | لأعلى ذُرا المجدِ العظيمِ وأرفعِ
وآسادُ حربٍ غابُها أُجُمُ القَنَا | وكلُّ كَمِيٍّ رابطِ الجأشِ أروعِ
إذا ألقَحَ الهيجاءَ حَتفاً بِرُمحِهِ | فماضي الشبا منه يقول لها ضَعي

إلى أن دعـاهُم ربُّـهم للـقائه فكانوا إلى لُقياهُ أسـرعَ مَـن دُعـي
وخَرُّوا لوجه اللـه تِـلقا وجـوهِهِم فمن سُـجَّدٍ فـوقَ الصَّـعيدِ ورُكَّـعِ

* * *

جـينه نـنشد كـربلا مـضيعينها بـيها زيـنب گـالوا مـيسرينها
يسّـروها ولا لهـا واحـد فـزع شال حادي ظعونها بـليل وگـطع
جينه ننشد وين أبو فـاضل وگـع مـا تـدلونا الشـريعه ويـنها

يقول أحد أُدباء الطفّ:

خُـذ فـي ثـنائِهِمُ الـجميل مُـقرِّضاً فـالقومُ قـد جَـلُّوا عـن التأبين

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: أن الحسين انتزع الخلود من الدنيا

لا نريد في هذه الليلة أن نؤبن الحسين؛ لأن الذي يـؤبَّن هـو الذي يموت، أما الحسين فقد منحه اللّه الخلود، وسنرى كيف انتزع الخلود من الدنيا.

إن الدم الذي أراقه الحسين في كربلاء كان حيّاً وسيبقى، والسرّ فـي ذلك أنه امتداد لدماء النبوات، وقد بقيت دماء الأنبياء المراقة في سبيل اللّه حية لم تمت، وإنما أخذت طريقها إلى الخلود في الحياة؛ لأن دماء الشهداء أصوات تبقى تتردّد في الفضاء، وهي مواقف، والمواقـف لا تـموت، وإنـما الذي يموت الجسد فقط، أما الموقف فيبقى يـعيش ويـعيش إلى أن تـنتهي الدنيا. فالفناء يعتري الدنيا ولا يعتري الموقف؛ لأن اللّه تكفّل بحياة الشهداء:

﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾[1]، فماذا نفهم من حياة الشهداء التي يذكرها القرآن الكريم؟ نفهم منها أن الذي يقاتل في سبيل اللّه ويقتل لابدّ أن يكون حيّاً؛ لأن اللّه قال ذلك، وهو أصدق القائلين.

صحيح أن مظاهر الموت استولت على الأجساد في كربلاء، وأن هذا الجسد الذي وضع في التراب هدأ عن الحركة، لكن الروح لم تهدأ.

الهدف الذي أراد الحسين عليه السلام إبرازه من خلال نهضته المباركة

ونسأل عن الهدف الذي أراده الحسين عليه السلام من وراء طرحه ذلك الدم في طريق الشهادة، فنعرف أن الهدف كان أكبر من الأهداف الرخيصة، فإنْ كان البعض يقاتل من أجل حكم، فالحكم لا يلبث أن يتلاشى في أيام قلائل. ونحن نعرف في تاريخ الخلفاء أن منهم من حكم أربعة عشر يوماً، ومنهم من حكم أسبوعاً، ومنهم من حكم سنة أو سنتين، ثم بمجرد أن ماتوا مات ذكرهم، أما هذا القتيل فما زال يحكم القلوب منذ (١٤٠٠) سنة، وسيبقى يحكمها إلى أن تقوم الساعة.

ثم إن العروش التي تلاشت في أيام قليلة حكمت الظاهر فقط ولم تحكم القلوب، فالعرش الذي يقوم على القهر والجبر والقوّة ليس كالعرش الذي يتربّع على القلوب. فالشهداء يتربّعون على القلوب؛ لأنهم استشهدوا في سبيل إعلاء كلمة الله. وهم لا يموتون؛ لأن كلمة اللّه لا تموت، والتيّار الذي حمل دماء الشهداء أراد اللّه له ألّا يموت، وسيبقى هكذا. ولذلك تبقى

---

(١) البقرة: ١٥٤.

الشهادة اللواء الذي يرفرف على امتداد الدهر، أما الذي وقف في طريق إعلاء كلمة الله فقد تلاشى.

لقد قتل الحسين إذ لم يكن بإمكانه أن يربح المعركة ذلك الربح الذي نعرفه نحن بذلك العدد الذي كان معه، فهل يستطيع أن يقابل ويقاتل بسبعين رجلاً ذلك الجيش الجرّار الذي يبلغ سبعين ألفاً أو ضعف هذا العدد على بعض الروايات[1]؟ يقول أحد أدباء الطفّ:

لو لم تكن جُمِعتْ كلُّ العُلَى فينا	**لكان ما كان يومَ الطف يكفينا**
يومٌ نهضنا كأمثالِ الأسودِ به	**وأصبحت كالدُّبا زحفاً أعادينا**
جاؤوا بسبعين ألفاً سَلْ بقيَّتَهم	**هل قابلونا وقد جِئنا بسبعينا**

فلا يمكن من الناحية الماديّة أن يربح الحسين المعركة بهؤلاء السبعين، لكنه ربح المعركة من جانب آخر، وذلك بالدم الذي أراقه على تراب كربلاء، وظل يتفاعل مع هذا التراب ويبعث بصوته.

نحن نقف الآن في هذه الليلة وما مثلها من الليالي والدوي هناك عند قبر الحسين، ذلك الدوي الذي أراد الظالمون أن يخمدوه ويسكتوه، لكنه بقي على الرغم منهم بتلك الدماء التي أُريقت عليه، وستبقى كربلاء المفاعل الذي يخشى منه الظالمون، وسيبقى هذا الدم الطاهر اللواء الذي يرفعه الأحرار.

فالحسين أراد من هذا الدم أن يبقى الصوت الذي يلعلع على امتداد التاريخ: «**والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أُقرّ إقرار العبيد**»[2]. ذلك

---

(١) استقرب بعض المحققين أنه ثلاثون ألفاً. انظر: أنصار الحسين: ٢٠٢، ٢٣٢، حياة الإمام الحسين: ١١٨.

(٢) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤.

الشعار الذي مازج الدم سيبقى وسيظلّ يصل إلى كلّ أُذن تتسمّع إذا وقفت على قبر الإمام الحسينعليه السلام. فكل من يقف على قبرهعليه السلام يسمع هذا الصوت الهادر الذي لا يمكن أن يتلاشى:

و إلى أن هَويت يَطعنُك الحِقـــ ـــدُ ويلهو بشِلوكَ التنكيلُ

والهديرُ الشّجاعُ عندك ماانفـ ـكَّ وطيعُ عند السيوف الصليلُ

فالحسينعليه السلام عندما أراق هذا الدم أراد منه أن يبقى شعلة حيّة تهدّد الظالمين. وقد كان ذلك، فقد بدأت الثورات، وبدأ هذا الصوت يمتدّ إلى أعماق الثائرين ليدفعهم إلى مقارعة الظلم والباطل، وراحت الثورات تتلاحق ابتداء بالتوّابين ومن بعدها ثورة المختار بن أبي عبيد، ومن بعد ثورة المختار ثورات الطالبيّين التي تلاحقت إلى أن انفلّ العرش الأُموي وجاء العرش العباسي.

لكن هل استطاع العرش العباسي أن يغطّي هذا الدم الكريم وأن يضع عليه تراباً ليُميته؟ أبداً لم يستطع، فقد بقي تراب الحسينعليه السلام يرعب العروش العبّاسيّة، وإلّا فما هو الدافع لأن يرسل الرشيد غلاماً له لينبش قبور هؤلاء الشهداء (رضوان الله عليهم)[١]؟ إن هذه القبور كانت توحي إليه الرعب، وهذا أحد الشعراء يخاطب أحدهم وكأنه يخاطب الإمام الحسينعليه السلام:

وعلى عدوِّك يابنَ عمِّ محمدٍ رَصَدانِ ضوءُ الصبحِ والإظلامُ

فإذا تنبّهَ رُعتَهُ وإذا غفا سلَّت عليه سيوفَك الأحلامُ[٢]

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٣٢٥ / ٦٥١.

(٢) البيتان لأشجع بن عمر، وقيل: لمروان بن أبي حفصة، قالها في المتوكل العباسي. مناقب آل أبي طالب ٣: ١٧، ونسبها البكري وابن عساكر لأشجع بن عمر في الرشيد، معجم ما

وهكذا كان دم الحسين﴿ع﴾ يرعبهم وهم في اليقظة، ويـرعبهم وهـم فـي النوم.

ولم يكن العـباسيون ليسـتهدفوا قـبراً أو حـجارة يـقتلعونها، أو شـجرة يقطعونها كما فعل المتوكل[1] الذي سلط المحاريث على القبر، وأمر بـالماء ففتح عليه ليمحو معالمه[2]. لكن هل استطاع وهو يغطّي معالم القبر أن يغطي معالم الحسين﴿ع﴾؟ كلّا إنما بقيت الآثار وستبقى.

ويخطئ تمام الخطأ من يظن أننا في هذه الليلة نجلس لنمجّد عظاماً، نحن في هذه الليلة نستمع إلى أصداء الموقف الذي وقفه أبو الشهداء﴿ع﴾. إن آذاننا الآن صاغية إلى ديباجة طرحها الحسين﴿ع﴾ على صعيد الطفّ عـندما وقـف ورفع رأسه إلى السماء فقال: **«ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلة، وهيهات منّا مأخذ الذلّة يأبىٰ اللّـه لنـا ذلك ورسـوله والمـؤمنون وحجور طابت وطهرت ونفوس أبية وأُنوف حمية من أن نؤثر طاعة اللئام علىٰ مصارع الكرام»**. ثم رمق السماء بطرفه وقال: **«اللهم إني زاحف بهذه الأُسـرة علىٰ قلّة العدد وخذلان الناصر»**[3].

فنحن عندما نقف على القبر فإنما نتلمّس فيه ذلك الموقف الهادر الذي ما

☚ استعجم ٢: ٥٨٤، تاريخ مدينة دمشق ٩: ١٠٧.

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٤٥، تهذيب الكمال ٦: ٤٤٤، سير أعلام النبلاء ٣: ٣١٧.

(٢) انظر محاولات المتوكل لمنع الزائرين من زيارة القبر الشريف بشـتى الوسـائل: الأمـالي (الطوسي): ٣٢٦ / ٦٥٣، مقاتل الطالبيين: ٣٩٥، وفيهما قـصّة إبـراهـيم الديـزج، وهـي مشهورة، وقد مرّت في ج١ ص٩٧ ـ ٩٨ من كتابنا هذا، إضافة إلىٰ ما ورد فـي الهـامش السـابق.

(٣) الاحتجاج ٢: ٢٥، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٢٤، بحار الأنوار ٤٥: ٨٣.

استطاعت أحداث الطفّ بما فيها أن تأخذ منه. يقول عبد اللّه بن عمار: واللّه لقد رأيت الحسينعليه السلام فما رأيت مكثوراً قطّ أربط جأشاً منه، وقد كانت الخيل والرجال تشدّ عليه فيشدّ عليها فينهزمون بين يديه انهزام المعزى إذا شدّ فيها الذئب، ويرجع إلى مركزه فيتكئ على قائم سيفه ويكثر من قول: **«لا حول ولا قوة إلّا بالله»**[١].

فهذا الدم الطاهر الذي نحتفل به هذه الليلة لا زال يفور، ولم ولن يجفّ، ونخاطبه في الزيارة: **«السلام عليك يا ثار اللّه وابن ثاره»**[٢]. ومعنى ثار اللّه: أن اللّه يطلب بهذا الدم، وهو الذي أراد له البقاء، وأن يجعله علامة تهزّ عروش الظالمين، وأن يبقى شعاراً يعيش على فم الأحرار وفي مشاعرهم. فهذا الدم لن يتلاشى ولن يموت.

إذن هذا هو الدم الذي أراد الحسينعليه السلام أن يخلّده على تراب كربلاء، وأن يرفع منه علماً للأجيال تبقى على امتدادها تأخذ من شعاره.

المبحث الثاني: آليّات الأيمةعليهم السلام لإبقاء شيعتهم على تماسّ مع دمهعليه السلام

والآن لنرَ ما هي وسائل أهل البيتعليهم السلام لإبقاء شيعتهم على تماسّ مع هذا الدم الطاهر؟ نحن نعرف أن أهل البيتعليهم السلام كانوا يدعون إلى إحياء أمرهم، يقول الإمام الحسينعليه السلام يوم الطف في كتابه إلى أهله الباقين في المدينة بعد أن وصل كربلاء: **«بسم اللّه الرحمن الرحيم. أما بعد: فمن لحق بنا منكم استشهد، ومن تخلّف لم يبلغ الفتح»**[٣]. فما هو الفتح الذي أراده الحسينعليه السلام؟

---

(١) مثير الأحزان: ٥٤، البداية والنهاية ٨: ٢٠٤.

(٢) كامل الزيارات: ٣٢٨، مصباح المتهجد: ٧٢٠ / ٨٠٦، ٧٧٤ / ٨٤٧.

(٣) بصائر الدرجات: ٥٠٢، مثير الأحزان: ٢٧.

إنه لم يستولِ على أرض، ولم يفتح بلداً، ولم يستولِ على أموال، الفتح الذي أراده هو أنه أراد أن يرفع مشعل الحقّ والعدالة والحريّة، وبقي هذا المشعل متّقداً إلى الآن. وأقول له: سيدي يا أبا الشهداء، إن كان دمك قد سقط على تراب كربلاء قبل (١٤٠٠) سنة، فإنه لازال حتى الآن يعيش بمشاعرنا وقلوبنا، وسنبقى مشدودين إليه، نستمدّ من عطائه وجذوته.

ونسأل مرة أُخرى: ما هو الطريق الذي سلكه أهل البيت للبقاء على تماس بثورة الحسين ودمه؟ يقول الإمام الصادق **«أحيوا أمرنا، رحم الله من أحيا أمرنا»**[١]. فما هو الأمر الذي طلب منا الإمام الصادق أن نحييه؟ إنه التأمّل في أهداف الطفّ وعدم أخذها من الجانب المأساوي فقط، فلو مرّ أحد بواقعة الطفّ فعليه أن يتأمّل في سبب استشهاد الحسين يوم الطف، وبأي دافع قتل، وليتساءل: لماذا قدّم البراعم من آل محمد حتى طرحوا على وجه الأرض؟ إن الهدف كان إعادة الروح إلى الدين الذي أراد الأُمويّون القضاء عليه، فقد اتّبع الأُمويّون أساليب ووسائل كانت تستهدف القضاء على الدين الحنيف، وإلّا فبم نفسّر أن يصعد خليفة من خلفاء المسلمين على المنبر ويرفع عقيرته بقوله:

أقولُ لصحبٍ ضمتِ الكأسُ شملَهم ... وداعي صَباباتِ الهوى يترنَّمُ

خُذُوا بنصيبٍ من نعيمٍ ولذَّةٍ ... فكلٌّ وإن طالَ المدى يتصرَّمُ[٢]

وهذا ليس نَفَسُ خليفة يؤمن بالله، وليس يؤمن بالله من ينشد:

---

(١) الكافي ٨: ٨٠ / ٢، الخصال: ٢٢ / ٧٧.

(٢) البيتان ليزيد بن معاوية. جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٣٠١.

لعبت هاشمُ بالملك فلا خبرٌ جاء ولا وحي نزل(١)

فلم يكن المستهدف عند هؤلاء الدم واللحم، وإنما المستهدف المضمون مما يحملونه من الرسالة الإسلامية. فالحسين عليه السلام بموقفه يوم الطف كان يريد أن يقف بوجه التيار الأُموي الذي يلاحق الدين الإسلامي ليمحقه من الوجود، وإذا كان كذلك فلابدّ لنا إذن أن نكون على تماسّ مع هذا النبع، ليغذينا دائماً، ويجعلنا نحمل فكرة المحافظة على ديننا وإسلامنا.. ذلك الرافد الذي أرادت له السماء أن يصل إلينا عن طريق نبينا صلى الله عليه وآله وسلم.

أما الآليات التي اتّبعها أيمّة أهل البيت عليهم السلام في المحافظة على هذه النهضة فتتمثّل في جانبين: مادي ومعنوي. غير أن الجانب المعنوي غالباً ما يكون بعيداً عن تصوّرات بعض الأذهان، إذ ليس باستطاعة كلّ واحد منا أن يكون مشدود التفكير إلى الطفّ دائماً، فقد يغفل أو تشغله هموم الحياة، فكيف تمكّن الأيمّة من أهل البيت عليهم السلام من شدّ أذهاننا إلى هذه الثورة؟ لقد استخدموا عليهم السلام مجموعة من الآليات لهذا الغرض منها:

الآلية الأولى: تغذيتنا بالتيّار الأدبي

وهو تيار ترتاح إليه نفوسنا، وذلك من خلال الأبيات المكهربة، ففي الشعر كلمات مكهربة فيها نوع من الحرارة لا توجد في النثر، فأراد الأيمّة عليهم السلام تطويع الشعر وتوظيفه لإبقائنا على صلة بواقعة الطف، فوقف

---

(١) تاريخ الطبري ٨: ١٨٧، ضمن الكتاب الذي أخرجه المعتضد في لعن معاوية وأبيه وابنه، وقد نوّهنا إليه في ج ٢ ص ٨٠ هـ ٤ من كتابنا هذا، بلاغات النساء: ٢١، ٢٢، البداية والنهاية ٨: ٢٠٩، ٢٢٢، ٢٤٦، النصائح الكافية: ٢٣٦، وحول هذا البيت وإنشاد يزيد له انظر ص ٥٥ من هذا المجلّد.

الإمام﵇ يقول: **«من قال فينا بيت شعر بنىٰ اللّه تعالىٰ له بيتاً في الجنة»**[1]، و**«من رثى لنا وتفجّع لمصيبتنا أعطاه اللّه كذا وكذا»**. والهدف من ذلك أن تبقى هذه الآليّة محفّزة لنا ومؤجّجة للجذوة في نفوسنا. فعندما أسمع من يقف على قبر الحسين﵇ ويقول:

وخلتُ وقد طارت الذكرياتُ ... بروحي إلى عالمٍ أرفعِ

كأنَّ يداً من وراء الضريـ ... ـحِ حمراء مقطوعةَ الإصبعِ

تُمَدُّ إلى عالمٍ بالخنو ... عِ والضيمِ ذي شَرَقٍ مُترَعِ

لِتُبدِلَ منهُ جديبَ الضميرِ ... بآخرَ مُعشوشِبٍ مُمرِعِ

عندما أسمع هذا المقطع يأخذ أثره من نفسي وأضعه على مشارف الواقعة، وتتأجّج الجذوة في داخلي، وأسمع من يقول:

تُسامرني والكائناتُ هجوعُ ... بدنياك في قلبِ الظلام شموعُ

سهرتُ عليها الليلَ أستلهمُ الرُؤى ... فألهمني ممّا وهبتَ نجيعُ

نجيعٌ مشى عبر القرونِ بخِصبِهِ ... فلا دهرَ إلّا من حَباهُ ربيعُ

وأرتقي قليلاً إلى بواكير أُدبائنا لأسمع دعبل بن علي الخزاعي وهو يقول:

أفاطمُ لو خلت الحسينَ مجدّلاً ... وقد مات عطشاناً بشطّ فراتِ

إذن للطمتِ الخدّ فاطمُ عنده ... وأجريت دمعَ العين بالوجناتِ

أفاطمُ قومي يا ابنة العزّ واندبي ... نجومَ سماوات بأرض فلاةِ[2]

أو أسمع الكميت وهو يقول:

من لقلبٍ مُتيَّمٍ مُستهامِ ... غيرما صبوةٍ وما أحلامِ

---

(١) عيون أخبار الرضا﵇ ٢: ١٥ / ٢، بشارة المصطفىٰ ﷺ: ٣٢٤ / ٤.

(٢) شرح الأخبار ٣: ١٧٣، بحار الأنوار ٤٥: ٢٥٧، ٤٩: ٢٤٨.

إلى أن يقول:

وقـتيلٍ بـالطفّ غـودرَ مـنهم　　　بـينَ غـوغاءِ أمّـةٍ وطَـغامِ[١]

ويسمعه غيري، فإننا نبقى مشدودين للواقعة، وتبقى تلك الجذوة ملتهبة في نفسه، ويكون على تماسّ مع عطاء الطفّ.

فأهل البيت عليهم السلام جنّدوا الشعر، فكان ذا دور فاعل في الميدان. ولم يكن الهدف رغبة مؤقّتة، وإنما كان لإشعال جذوة الحقّ بالنفوس؛ إذ هم عليهم السلام ما أرادوا دنياً أو كرسيّاً أو حكماً، وإنما أرادوا إعلاء كلمة اللّه في الأرض. يقول أمير المؤمنين عليه السلام في نهجه: «**اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ولا لالتماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك؛ فتُقام المُعَطّلة من حدودك، ويأمن الضعيف من عبادك**»[٢]. وهذا هو الهدف الذي طرحه أهل البيت عليهم السلام، ومن أجله كانت واقعة الطفّ.

الآلية الثانية: التذكير بالتراب الذي أُريق عليه الدم الطاهر

فيجب ألّا ننسى التراب الذي أُريق عليه ذلك الدم وإن كان دم الحسين عليه السلام قد تمرد على التراب فلم يضمّه، لكن الوقوف ميدانياً على التربة له شأن خاصّ. وهذا له شواهد كثيرة، منها علة توجّه المسلمين إلى مكّة؛ إذ أليس بإمكانهم أن يؤدّوا المشاعر والمناسك وهم في بلادهم؟

نعم يمكنهم ذلك، لكن اللّه تعالى إنما يندبهم إلى قطع المسافات والذهاب إلى مكة: **﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾**[٣]؛ لأنه جلّ شأنه يريد أن يوقف المسلم على المهد الأول الذي انطلقت منه كلمة «**لا إله إلّا**

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٣٧.　　(٢) نهج البلاغة / الكلام: ١٣١.

(٣) آل عمران: ٩٧.

الله »، وأن يوقفهم على الكعبة ليقول لهم: هذه هي التي حملت لكم شعار التوحيد. فيجعل المسلم يعيش طيوف الأمس، ويتصوّر كيف كان بلال يصعد على سطح الكعبة ويعلن كلمة التوحيد، وكيف كان يقف النبي و إلى جانبه صحبه الكرام، وهو يحمل رسالة السماء. وهذا الوقوف له أثره الكبير.

فلذا أراد الأيمّة منا أن نقف على كربلاء، وأن نسجد على التربة الحسينيّة. وهناك الكثير من الروايات في فضل السجود على تربة الحسين[1]. فلماذا هذه التربة بالذات، مع أن هناك تربة للنبي وتربة لأمير المؤمنين وكلاهما ثائر مقاتل في سبيل الله؟ إن هذا صحيح، لكن الواقعة التي أعطت دماً أكثر، واستقطبت عواطف المسلمين هي واقعة الطفّ، ولما كان لها هذا الأثر بالنفوس أراد أهل البيت منا ألّا ننسى هذا التراب الذي سقط عليه الدم المقدّس الشريف الطاهر.

إن السجود على تربة الحسين ليس فيه خروج على النص، يقول النبي: **« جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً »**[2].

وهذه التربة الحسينية قطعة من التراب، لا كما يحاول البعض أن يصوّر أن الشيعة يسجدون عليها لأن فيها دماء الحسين، إن الشيء الذي فيه الدم لا يسوغ لنا السجود عليه، وكلّ ما في الأمر أن هذه التربة هي التي احتضنت

---

(١) انظر وسائل الشيعة ٥: ٣٦٥ ـ ٣٦٧ / ب١٦.

(٢) الخلاف ١: ٤٩٦ / المسألة: ٢٣٦، جامع الخلاف والوفاق: ٤٢، وعن أمير المؤمنين في حديث يذكر فيه مناقب رسول الله أنه قال: «أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مسيرة شهر، وعرج به في ملكوت السماوات مسير خمسين ألف عام في أقل من ثلث ليلة»، إلى أن قال عن لسان الله تعالى مخاطباً نبيه: «وقد جعلت الأرض كلّها لأمّتك مسجداً وطهوراً». الاحتجاج ١: ٥٢١ ـ ٥٢٧ / ١٢٧.

الدم الطاهر قبل أربعة عشر قرناً، فهي تشدّنا وتجدّد عندنا الجذوة في داخلنا، فنختصر الزمن لنُطلّ على ذلك الدم الذي تمرّد على السيوف.

وعندما يشدّنا أهل البيت عليهم السلام إلى السجود على هذه التربة المقدّسة فذلك لنكون في ذكر دائم لها. وهذا هو الهدف من السجود على التربة، وإلّا فإنه يسعنا أن نسجد على الأرض وما أنبتت إلّا ما يؤكل أو يلبس كما دلّ عليه الدليل، فيمكننا السجود على ورق الشجر أو القرطاس وغير ذلك، لكن المرء عندما يضع جبهته على تربة الحسين عليه السلام فكأنه يشمّ عبير الحسين عليه السلام، ويلمس في هذا التراب روح النخوة والبطولة والرجولة التي مثّلها (سلام الله عليه) في واقعة الطف، يقول أحد الأدباء:

دأبتُ أزورُك في كلّ عامِ ... وألثمُ تربَكَ يابنَ النبي

ويابنَ عليٍّ ويابنَ البتولِ ... ويابنَ ذُرا المجدِ في يثربِ

أُتـرِّبُ خدّي بعفْرِ ثَراكَ ... بحيثُ دماؤكَ لم تنضُبِ

بحيثُ يُلَعلِعُ ثغرٌ أبى ... بأن يحتسي الذُّلّ في مشرَبِ

وهامٌ أبى للطغاةِ الرُّكوعَ ... وإن فَلَقُوا منه بالمضربِ[1]

فالآليّة الثانية التي شدّ فيها أهل البيت عليهم السلام شيعتهم ليكونوا على ذكر دائم لواقعة الطفّ هي السجود على التربة التي احتضنت هذا الدم الطاهر، والتي مثّل عليها الحسين عليه السلام أروع ما يُمثّل، فقد مثل الصبر، والمفاداة والتضحية والفناء في ذات الله. وقد شوهد وهو في آخر لحظاته يرمق السماء بطرفه ويقول: **«لك العتبىٰ يارب، صبراً علىٰ قضائك، ياغياث المستغيثين، إن كان هذا**

---

(١) ديوان المحاضر ٢: ٢٥ .

يرضيك فخذ حتىٰ ترضىٰ »[١].

الآلية الثالثة: زيارة المشهد المقدّس لسيّد الشهداء﵇

فكتب الحديث حبلى بالروايات التي وردت في فضل زيارته﵇، وكم ملأ أهل البيت﵊ صفحات وصفحات عن جدّهمﷺ في فضل هذه الزيارة! لقد كان أيمّة أهل البيت﵊ يدفعون الناس دفعاً إلى زيارة الحسين﵇. يقول أحدهم: دخلت على الإمام الصادق﵇، فسألني: « **ممّن الرجل؟** ». قلت: سيدي من نواحي الكوفة. قال﵇: « **أتزور جدي الحسين﵇ في كلّ يوم؟** ». قلت: لا يا سيدي إني لا أستطيع ذلك. فقال﵇: « **تزوره في كلّ أسبوع؟** ». قلت: لا. فقال﵇: « **تزوره في كلّ شهر؟** ». قلت لا. فقال﵇: « **ما أجفاكم بالحسين﵇!** ». ثم قال﵇: « **إن زيارة الحسين﵇ تدفع الحرق والغرق وتمحق الذنوب** »[٢].

ولهذا تجد الروايات تختلف باختلاف الزيارات فمنها: « **من أحب أن ينظر إليه الله عز وجل، ويجعله في عداد الشهداء فليزر الحسين﵇ ليلة العاشر من المحرم** »[٣].

---

(١) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين﵇ (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٢: ٨٣.

(٢) لم نعثر علىٰ هذا الحديث، وقد ورد في فضل زيارته﵇ وأنها تحط الذنوب أحاديث كثيرة، انظر: كامل الزيارات: ٢٨٦ ـ ٢٩٠ / ب، بحار الأنوار ج٩٨، فقد خصّصه لزيارته﵇ وما جاء فيها من الفضل.

(٣) لم نعثر علىٰ هذا الحديث فيما بين أيدينا من مصادر حديثيّة، وقد ورد: « من أحب أن يصافحه مئة ألف نبي وأربعة عشرون ألف نبي فليزر الحسين﵇ ليلة النصف من شعبان؛ فإن الملائكة وأرواح النبيين يستأذنون الله تعالىٰ في زيارته فيأذن لهم، فطوبىٰ لمن صافحهم وصافحوه، منهم خمسة أُولو العزم: نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمّد صلوات الله

ومنها زيارة النصف من شعبان[١]، والنصف من رجب[٢]، وزيارة الأربعين[٣] التي تعتبر من علائم الإيمان[٤].

ويكثر التساؤل عن أصل زيارة الأربعين، وسنة الزيارة بها، أي هل إنها كانت في السنة نفسها التي استشهد فيها الإمام الحسين عليه السلام، أو من بعد سنة من استشهاده؟ الأقرب بل الأصح أن هذه الزيارة تعود إلى ما بعد أربعين يوماً من السنة نفسها التي استشهد فيها الإمام الحسين عليه السلام، فقد ساروا بالسبايا الليلَ والنهارَ، ولم يُعطوهم مجالاً للراحة إلّا قليلاً، وهذا الطريق إلى الشام استغرق أربعين يوماً في الذهاب والإياب، ولم يمكثوا طويلاً في الشام لأن وجودهم هناك سبّب حرجاً كبيراً ليزيد وحركة ضده؛ ولذا اضطرّ إلى أن يخرجهم من المجلس إلى خربة، مما تسبّب في موت الطفلة رقيّة بنت الحسين عليه السلام، فقد كابدت وعثاء السفر ولم تستطع أن تحتملها، وكان أن تعرّضت في الخربة إلى الشمس فماتت.

وقد أراد يزيد أن يرمّم قليلاً ممّا حدث، فقال للنعمان بن بشير: أنت صاحب رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وأُريد أن تأخذ معك ثلاثين رجلاً، وترجع بهؤلاء

☚ عليهم أجمعين». الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٣٩.

(١) انظر الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٢٣٧.

(٢) انظر بحار الأنوار ٩٨: ٣٤٥ ـ ٣٤٦ / ١.

(٣) انظر مصباح المتهجد: ٧٨٧ ـ ٧٩٠ / ٨٥٧.

(٤) وذلك بقول الإمام العسكري عليه السلام: «علامات المؤمن خمس: صلاة الإحدى والخمسين، وزيارة الأربعين، والتختّم في اليمين، وتعفير الجبين، والجهر بـ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾». مصباح المتهجّد: ٧٨٧، روضة الواعظين: ١٩٥، الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ١٠٠.

السبايا إلى مأمنهم. ثم جاء إلى الإمام السجادﷺ وطلب منه بعض الأشياء، فلم يستجب له الإمامﷺ. ثم تهيؤوا في هذه السنة نفسها إلى زيارة الإمام الحسينﷺ، فخرج الإمامﷺ من الشام في طريقه إلى العراق، وتحرّك جماعة من بني هاشم والعلويين من المدينة في طريقهم إلى كربلاء.

يقول السيد ابن طاوس وأبو مخنف: إن الإمام زين العابدينﷺ التقى بجماعة من العلويين الذين جاؤوا إلى الزيارة.

وقد روي عن الأعمش عن عطية أنه قال: صحبت جابر بن عبد اللّه الأنصاري في السنة التي قتل فيها الحسينﷺ إلى كربلاء نريد زيارة الحسينﷺ، فأقبلنا نسير بالليل ونكمن بالنهار ـ وهذه العبارة توحي أن السير بالليل كان إمّا تجنّباً للحرّ أو خوفاً؛ لأن الأمويّين وضعوا الرصد كيلا يصل أحد إلى قبر الحسينﷺ ـ إلى أن وصلنا إلى كربلاء، فقال لي جابر: يا عطية، دلّني على الفرات. فأخذت بيده إلى الفرات، فاغتسل، وأخرج صرّة من السعد كانت معه، فنثره على بدنه ولبس ثياباً جدداً، ثم خلع نعليه، وجاء يمشي حافياً على التراب، وقال لي: ألمسني القبر.

يقول عطية: فأتيت به إلى القبر الشريف ووضعت يده عليه، فلما أحسّ ببرد تراب القبر صاح: «يا حسين يا حسين يا حسين»، ثم قال: «حبيب لا يجيب حبيبه، وأنى لك بالجواب وقد شخبت أوداجك على أثباجك، وفُرّق بين رأسك وبدنك؟ أشهد أنك من دعائم الدين وأركان المسلمين، وابن سيّد النبيّين وابن سيّد الوصيّين، وابن سيّد المؤمنين، وابن حليف التقوى وسليل الهدى، وخامس أصحاب الكساء، وابن سيّد النقباء، وابن فاطمة سيّدة النساء. ومالك لا تكون هكذا وقد غذتك كفّ سيّد المرسلين، وربيت في

حجر المتّقين، ورضعت من ثدي الإيمان، وفطمت بالإسلام؟

فطبت حيّاً وطبت ميْتاً غير أن قلوب المؤمنين غير طيّبة لفراقك ولا شاكّة في الخيرة لك، فعليك سلام الله ورضوانه. وأشهد أنك مضيت على ما مضى عليه أخوك يحيى بن زكريا».

ثم جال ببصره حول القبر وقال: «السلام عليكم أيها الأرواح التي حلّت بفِناء الحسين وأناخت برحله، أشهد أنكم أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، وجاهدتم الملحدين، وعبدتم الله حتى أتاكم اليقين. والذي بعث محمداً بالحقّ لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه».

قال عطية: فقلت لجابر: وكيف، ولم نهبط وادياً، ولم نعلُ جبلاً، ولم نضرب بسيف، والقوم قد فُرّق بين رؤوسهم وأبدانهم، وأُيتمت أولادهم، وأُرملت الأزواج؟ فقال لي: يا عطيّة، سمعت حبيبي رسول اللهصلى الله عليه وآله يقول: **«من أحبّ قوماً حشر معهم، ومن أحبّ عمل قوم أُشرك في عملهم»**. والذي بعث محمداً بالحقّ نبياً، إن نيّتي ونيّة أصحابي على ما مضى عليه الحسينعليه السلام وأصحابه.

يقول عطية: وبينما أنا أُحاور جابراً إذ نظرت إلى سوادة أقبلت من ناحية الشام، وكان ذلك الركب الذي جاء به الإمام السجادعليه السلام والسبايا، فصار على مفترق طرق، إما أن يذهب في طريق المدينة أو يرجع إلى الطريق الذي يؤدّي إلى كربلاء، فأدار الإمامعليه السلام وجهه إلى عمّته زينبعليها السلام، فرأى أنها متوجّهة إلى الدليل، ثم قالت للإمامعليه السلام: يابن أخي، قل للدليل فليعرج بنا على كربلاء. فقال له الإمامعليه السلام: **«مِل بالركب إلى كربلاء»**. فأقبل إلى كربلاء. فلما نظر إليه عطيَة كرَّ مهرولاً، وأقبل إلى جابر وقال له: يا جابر، قم واستقبل

حُرَمَ رسول الله، هذا الإمام زين العابدين‏ قد رجع.

يقول أبو مخنف: فقام جابر وقام معه جماعة من العلويين فالتقوا الإمام السجاد‏، فجدّدوا الأحزان وسكبوا الدموع.

ولما وقع بصر الإمام‏ على جابر قال: «جابر هذا؟». قال: نعم. قال: «**يا جابر، هاهنا قتلت رجالنا، يا جابر هاهنا ذبحت أطفالنا، يا جابر هاهنا سبيت نساؤنا، يا جابر هاهنا أُحرقت خيامنا**»[1].

أما الحوراء زينب‏ فقد هرولت إلى قبر الحسين‏، فألقت بنفسها عليه:

خويه من اليسر توني لفيتك ... أربعين ليله فاركيتك

تحت الثرى مرمي لكيتك

احتضنت التراب وهي تنادي: والوعتاه، واحسيناه، واعزيز رسول الله. ثم طافت على القبور بأجمعها، وقامت تقلّب طرفها، فلم تُبقِ قبراً إلّا جالت حوله، ولسان حال الإمام السجاد‏: أنا أعرف عن أي قبر تبحثين. قالت: بلى، دلّني على قبر ابن والدي. فأخذ بيدها إلى نهر العلقمي، عند قبر أبي الفضل‏. فأقبلت إليه:

لونّه اللحد ينكشف بابه ... لجيمن عليه وانكل اترابه

أصِل للولي واسمع جوابه ... أعاتبه واكثر اعتابه

* * *

إلي مناشِده وياك وعتاب ... يمنوّخ الهودج على الباب

---

(١) بشارة المصطفى: ١٢٥ ـ ١٢٦ / ٧٢، بحار الأنوار ٦٥: ١٣٠ ـ ١٣١ / ٦٢، لواعج الأشجان: ٢٤٢.

﴿٨٣﴾

الإخاء ودوره في بناء الأُسرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

قد يُتصوّر أن الإخاء النسَبي محصور بثلاثة أقسام: الأُخوّة لأب وأُمّ، والأُخوّة لأُمّ فقط، والأُخوّة لأب فقط. وهذه الآية تبحث في مجموعة من المضامين لا بدّ من تغطيتها، حيث سنتناول كلّ مضمون في مبحث مستقل:

المبحث الأوّل: أقسام العلاقات بين الأخوة

أوّل ما يمكن ملاحظته في المجتمع أن العلاقات بين الإخوة من أب وأُمّ، هي غير تلك التي تكون ما بين الإخوة من أب فقط. وقد سُئل أحد العلماء يوماً: لماذا نرى أن الصحابة كأنهم أبناء لأُمّ واحدة، وعلي بينهم كأنه ابن

---

(١) يوسف: ٧٧.

عَلة؟ قال: ولم لا يكون كذلك وقد سبقهم سلماً، وتقدّمهم علماً، وفاقهم حلماً، وبزّهم شجاعة؟ والجنس لجنسه أميل[1].

ومن هذا نفهم أن الإنسان يميل عادة إلى أبناء مستوياته القريبة منه، أما علي﵇ فإن ما عنده أوجب أن يُحسد عليه.

وموضع الشاهد هنا أن ابن العَلّة يختلف عن غيره من الإخوة؛ مما يدلّ على أن هذه الظاهرة كانت معروفة من بدء التاريخ. فما السبب في وجودها؟ نحن نلاحظ أن الأواصر التي تكون بين الإخوة من أبوين، أقوى منها بين الإخوة الذين يكونون من أب فقط. فهل هذا آتٍ من كون رحم الأُمّ أكثر تأثيراً من صلب الأب؟

هل تدخل طاعة الوالدين في باب التزاحم؟

ويعالج الفقهاء هذه المسألة في باب التزاحم، فاللّه أمرنا بإطاعة الوالدين، بشرط ألّا تسبّب معصية للّه. فلو فرضنا أن طاعة الأبوين لا يمكن اجتماعها، كأن يقول لي أبي: ادرس في هذه المدرسة، وتقول أُمي: لا. فهنا لا يمكن أن أجمع بين الأمرين، ويحصل التكاذب في أصل الجعل على حدّ تعبير الفقهاء ـ أي أن الدليل الذي يأمرني بطاعة الأبوين يحصل فيه التكاذب ـ فكيف يقول لي اللّه: أطعهما، ثم لا يمكن أن تجتمع طاعتهما؟

في مثل هذه الحالة يقول الفقهاء: إن كان هناك مُرجِّح قدّمناه، فتصبح المسألة من باب التزاحم، وللتزاحم شروط لا مجال لذكرها الآن. ومن

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٦٠٨ ـ ٦٠٩ / ١٢٥٦، بحار الأنوار ٢٩: ٤٨١ / ٣، والمسؤول هو الخليل ابن أحمد الفراهيدي.

الأمثلة على التزاحم والترجيح أنني مثلاً أكون مأموراً بصلاة واجبة وأُخرى استحبابيّة في وقت واحد، وكان وقت الواجبة مضيّقاً، ووقت الاستحبابيّة موسّعاً، واجتمعت الصلاتان في وقت لا يمكنني فيه أن أجمع بينهما، فعندئذ أُقدّم الصلاة الواجبة، لأهمّيّتها. وهنا يتّضح عندنا معنى المرجّح.

وفي مسألة الأُمّ والأب يقول الفقهاء: عند عدم وجود المرجّح فرأي الأمّ أهمّ، وأمرها مقدّم على أمر الأب. وهذا عين الحقيقة، لأنك تلمس بصمات الأمّ واضحة علىٰ أي جيل من الأجيال. ويقسم علماء الاجتماع المجتمع إلى قسمين: مجتمع ينسب إلىٰ الأم ومجتمع ينسب إلىٰ الأب، ففي بعض المجتمعات يطغى الأب على الأسرة وفي بعضها تطغى الأمّ، وفي بعضها يحصل توازن بين الطرفين. فالمشرّع الإسلامي يعطي الأهمّيّة للأمّ حسب القاعدة التي تقول: الغُنم بالغُرم[1]. فمن يخسرْ أكثر يأخذ مقابل خسارته، والأُمّ هي التي تخسر أكثر. فالأب يحمل ابنه خفيفاً ولا يشعر به، والأُمّ تحمله ثقيلاً وكأنها تحمل جبلاً[2] خصوصاً من تصل منهن إلى عشرة أشهر.

---

(١) وقد يعبّر عنها بقاعدة «التلازم بين النماء والدرك»، أو قاعدة «الخراج بالضمان». انظر: القواعد الفقهية ٦: ٣٠٨، مئة قاعدة فقهية: ٢٨٤، المبسوط (السرخسي) ٨: ٨١، ٢٥: ٤٣، القاموس الفقهي: ٢٧٨، المعجم القانوني ٢: ٥٧٦. ومعنىٰ القاعدة هو التلازم بين الخسارة والفائدة؛ فكل من له فائدة المال شرعاً عند الربح كان عليه خسارة ذلك المال أيضاً.

(٢) تنازع رجل يقال له قابس وامرأته هزيلة بنت جديسيان في مولود لهما أراد أبوه أخذه فأبت أُمّه، فارتفعا إلى الملك عمليق، فقالت المرأة: أيها الملك، هذا ابني حملته تسعاً ووضعته رفعاً وأرضعته شبعاً ولم أنل منه نفعاً، حتى إذا تمّت أوصاله واستوفى فصاله أراد بعلي أن يأخذه كرهاً ويتركني ولهىٰ. فقال الرجل: أيها الملك أعطيتها المهر كاملاً ولم أُصب منها طائلاً إلّا ولداً خاملاً، فافعل ما كنت فاعلاً، على أنني حملته قبل أن تحمله، وكفلت أمّه قبل أن تكفله. فقالت: أيها الملك، حمله خفّاً وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة ووضعته كرهاً.

وناهيك عن ساعة الوضع والولادة.

يقول الإمام مالك في رأي يتفرّد به عن المذاهب الإسلاميّة الأُخرى كلها: إذا بلغت الأمّ ستّة أشهر في الحمل لا تنفذ تصرّفاتها المالية. والسبب في ذلك أنها أشبه بالمريض مرض الموت الذي لا يُعطى الحق في التصرّف بأمواله؛ لأن ملكيّته أصبحت متزلزلة فتنتقل لأولاده. وعندما تصل الأُمّ إلى هذا الشهر من الحمل تصبح معرّضة للموت: ﴿**حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً**﴾[1].

وليس الحمل فحسب، وإنما تأتي الولادة والحضانة والرعاية. فيأخذ الولد من أبعاد الأُمّ النفسيّة والجسديّة؛ فيكون بهذا ألصق بأُمّه؛ فلذا يُقدم قولها في حالة التزاحم. فالإخوة لأُمّ يكون بينهم التصاق أكبر عادةً.

منشأ المعرفة عند الإنسان بين العلم والدين

وهنا يرد هذا السؤال: لماذا هذا الالتصاق؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال نستعرض رأي علماء الاجتماع في الطفل المولود حديثاً. فهم فيه قسمان:

قسم يقول: إنه يخرج من بطن أُمّه وليس عنده أيّة مسبقات ذهنيّة مختزنة، وكل ما يحصل عنده بعد ذلك فإنما يتعلّمه من التجربة أو من محيطه.

☚ فلما رأى عمليق متانة حجّتهما، تحيّر فلم يدرِ بم يحكم. معجم البلدان ٥: ٤٤٢. وقد أورد ابن عساكر هذه القصّة بمرافعة أبي الأسود الدؤلي وزوجته لمعاوية. تاريخ مدينة دمشق ٥٢: ٢٠٢، ٧٠: ٢٦٩، وفيهما: حمله خفّاً وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة ووضعته كرهاً، لم أحمله في غبر، ولم أرضعه غيلاً، فبطني له وعاء وحجري له وقاء.

(١) الأحقاف: ١٥.

وقسم يقول: إنه ليس كذلك، وإنما تكون عنده مسبقات ذهنيّة مختزنة أخذها بالوراثة.

ونظرية الإسلام في الموضوع واضحة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١]. فالمولود يولد وهو خالي الذهن من أيّة معلومات، ويأخذ كلّ شيء من المجتمع بواسطة المتلقّيات، وهي السمع والبصر والفؤاد وغيرها. ولكن هذا في الأمور العلميّة، أمّا الغرائزيّات فهي مولودة مع الإنسان.

يقول المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[٢]: إن النجدين هما الثديان[٣]، والنجد هو المرتفع[٤]. والطفل أوّل ولادته يلتقم الشدي، وكأنه مدرّب سابقاً على الرضاعة، فتراه يحرّك فمه حركة رَحوية ويمتصّ اللبن. فمن أين أخذ هذه الدربة والمهارة؟ إنها غريزة توجد وتولد معه. وهناك جملة من الأشياء تولد مع الإنسان، ولها ارتباط بالغرائز والوراثة، ولا علاقة لها بالبيئة.

والأمر المتعلّق بسؤالنا الذي أثرناه حول العلاقة بين الإخوة الأشقّاء وغير الأشقّاء هو أننا نريد أن نسلّط الضوء على إخوة الإمام الحسين عليه السلام الذين خرجوا معه إلى الطفّ، فلم يخرج معه أخ شقيق، إنما كانوا كلّهم إخوة لأب. وبالنتيجة فنحن لا نريد أن نقول: إن هذه الظاهرة من العلاقات المتوتّرة بين

---

(١) النحل: ٧٨.   (٢) البلد: ١٠.

(٣) انظر: التبيان ١٠: ٣٢٥، مجمع البيان ١٠: ٣٦٣، جامع البيان، المجلد: ١٥، ج ٣٠: ٢٥٢ / ٢٨٩٠١ ـ ٢٨٩٠٢، الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ٦٥.

(٤) خصائص الوحي: ٥١، فتح القدير ٥: ٤٤٤.

الإخوة من أب، أو العلاقات الوطيدة بين الأشقّاء، وهي قاعدة حتمية لا يمكن أن تنخرم، بل الذي نريد قوله: إن الغالب فيها كذلك.

علاقات الأشقّاء من وجهة نظر علم الاجتماع

فهل هذه العلاقة آتية من الرحم لأنه مصدر الرحمة باعتبار الدفء العاطفي الذي يسكبه على الأولاد؟ إنها ظاهرة موجودة في المجتمع على كلّ حال، ولعلماء الاجتماع فيها رأيان:

فبعضهم يقول: إنه أمر متأثّر إلى حد ما بالوراثة.

والبعض الآخر يقول: إن علاقة ذلك بالبيئة لا بالوراثة؛ لأن الطفل أوّل ما يولد في الأُسرة تقوم الأُسرة بغلغلة هذا الشعور عنده.

ويأتي هذا الشعور من تزاحم النساء على رجل واحد، وهذا يخلق لوناً من التوتّر العاطفي الذي ينعكس بعد ذلك على الأبناء. ولذا نرى أن المشرّع الإسلامي لما أباح تعدّد الزوجات إلى أربع[1] ترك لنا نحن تقدير الموقف.

المبحث الثاني: آراء المفسّرين في سرقة يوسف

تقول الآية: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، فما هي السرقة المزعومة التي ارتكبها النبي يوسف؟ إن القرآن الكريم عندما يشرح لنا قصّة النبي يوسف يريد منا أن نأخذ العظة والعبرة، ونتأدّب بها ونتربّى عليها، لا أن نتسلّى بالقصّة فقط.

إن إخوة النبي يوسف قالوا في بنيامين أخيه: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، وذلك لمّا أراد يوسف أن يأخذ أخاه بنيامين إلى جانبه،

---

(١) في قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾. النساء: ٣.

فافتعل هذه المسألة بأن وضع الصاع في رحل أخيه.

أما عن سرقة يوسف المنسوبة له من إخوته فإن للمفسّرين آراء متشعّبة فيها، وعادة ما تظهر مذاهب المفسّرين في الأُمور غير المحدّدة. ففي القرآن الكريم أشياء محدّدة معيّنة لا يستطيع المفسّر أن يتلاعب بها أو يُخضعها لرأيه، أما مثل هذه الأُمور القابلة للاجتهاد فإن المفسّر يغدق عليها من آرائه وألوانه.

الرأي الأول: أنه عليه السلام سرق لجائع بيضة من بيت أهله

يقول أحد المفسّرين: إن يوسف عليه السلام في صغره رأى جائعاً يبكي، فسرق له بيضة من بيت أهله وأطعمه إيّاها.

الرأي الثاني: أنه عليه السلام سرق له دجاجة من بيت أهله

ويقول مفسّر آخر: إن المسروق لم يكن بيضة، وإنما كان دجاجة سرقها لذلك الجائع وأطعمه إيّاها.

الرأي الثالث: أنه عليه السلام سرق منطقة جدّه لأمّه

وهناك مفسّر ثالث يقول: إن يوسف عليه السلام في صغره سرق منطقة جدّه لأُمّه، والمنطقة هي الحزام.

وهذه الروايات الثلاثة كلّها لا تشكل عنوان سرقة.

الرأي الرابع: أنه عليه السلام سرق المودّة من قلب أبيه عليه السلام

وقد رأيت من المفسرين من يحمل عليه مع أنه رأي وجيه قريب. وهذا من تفسير الإشارة عند الصوفيين، وهذه المدرسة الصوفية في التفسير فيها جذبات روحية.

وهنا قد يسأل سائل: لم سرق يوسف عليه السلام المودّة من قلب أبيه؟ وما السبب

الذي جعل يعقوب يميل إلى يوسف أكثر من باقي إخوته ممّا سبب أنهم حقدوا عليه؟ وهذا الحقد واضح من تعبير الآية الكريمة، والحاقد يلجأ إلى الاتّهام والافتراء والادّعاءات غير الموضوعيّة؛ لأنه ينطلق من عاطفة لا يمكن له أن يتحكّم بها.

والسبب في ذلك أن يوسف وأخاه بنيامين كانا يتيمين، وقد توفّيت أُمهما «راحيل» وهي في شبابها، ومن المعروف أن اليتيم يستدرّ العطف أكثر من غيره؛ لأنه بحاجة إلى تعويض اليتم الذي يعانيه. وهذا ما حدث ليعقوب الذي كان يرى يوسف وأخاه بلا أمّ، فأراد أن يعوّضهما فقدَ أُمّهما. وإلّا فإنه كان يعرف خطورة تمييز أحد الأولاد على الباقين، فذلك يخلق الهزّة في المجتمع.

قال النعمان بن بشير: سألت أُمّي أبي بعض الموهبة لي من ماله، ثم بدا له فوهبها لي، فقالت: لا أرضى حتى تشهد النبي. فأخذ بيدي وأنا غلام فأتى بي النبي، فقال: إن أُمّه بنت رواحة سألتني بعض الموهبة لهذا. قال: **«ألك ولد سواه؟»**. قال: نعم. قال: **«لا تشهدني على جور»**. وفي رواية: **«ألك بنون سواه؟»**. قال: نعم. قال: **«فكلّهم أعطيت مثل هذا؟»**. قال: لا. قال: **«فلا أشهد على جور»**(١).

ولو كان هناك مبرّر لهذا التمييز لما اعترض النبي لكنه لمّا لم يرَ مبرّراً لذلك اعترض. ثم إنه لو كان عنده مبرّر شرعي لما احتاج إلى شهادة النبي.

---

(١) جامع المقاصد ٩: ١٧١، مسند أحمد ٤: ٢٦٨، صحيح البخاري ٣: ١٥١، صحيح مسلم ٥: ٦٦.

والمبرر الصحيح كأن يكون أحد الأولاد أكثر حزماً من إخوته بأن يدير العمل والبيت والأُسرة، أو أن يكون متّزناً شاطراً ذكياً ذا جوانب علميّة، ومستقيماً صائماً مصلّياً، وصادقاً في معاملته مع الناس، مسالماً؛ فيفضّله الأب في حياته لهذه الصفات الحميدة. وهذا مبرّر معقول، أمّا المبرّر غير المعقول فكأن تكون أُمّه جميلة مثلاً أو شابّة. فهذا التمييز يسبب الحقد، وسوف ينسف بناء الأُسرة.

وهذه من النظريات التي جاءت قبل (١٤٠٠) سنة، ولم يتوصّل إليها علم النفس والاجتماع إلّا في زمن قريب في القرن العشرين، فمن أين جاء النبيﷺ بهذه المعلومات قبل (١٤٠٠) عاماً وهو يعيش في تلك الصحراء؟ لا شك أن ذلك تسديد السماء وتوجيهها.

فالسبب الذي جعل يعقوبعليه السلام يحنو على يوسفعليه السلام وأخيه أنهما يتيمان، ولذا قال إخوة يوسف: **﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾**[1].

الرأي الخامس: أنهعليه السلام سرق صنماً لجدّه لأمّهعليه السلام

ومن الآراء التي يوردها المفسّرون في سرقة يوسفعليه السلام المزعومة أنه سرق صنماً لجدّه لأُمّه، وكان وثنيّاً.

وكل همّ المفسّرين أن يحققّوا معنى السرقة الواردة في الآية. وكل هذه المعاني ليست متّسقة وصائبة.

الرأي السادس: أن عمته ادّعت أنه سرق منطقة جده لتحتفظ به

والرأي الأكثر صواباً أن عمّته التي كانت تحضنه وأخاه بعد وفاة أُمّهما،

---

(١) يوسف: ٨.

اعتزّت به أكثر من أخيه، ولم تعد تستطيع مفارقته، فكان لها بمثابة الابن، فهي لم يكن لها ولد. فلما أراد يعقوب﵇ أخذه منها، ابتدعت طريقة لبقائه عندها، فادّعت أنه سرق منطقة جدّه. وكانت عقوبة السرقة ذلك الزمان نوعين:

العقوبة المدنية عند الفراعنة، وهي السجن لسنوات محدّدة.

والعقوبة الشرعية في شريعة يعقوب﵇، وهي أن من يسرق يُستعبَد: ﴿**قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ**﴾[1]. وإذا ثبت ذلك ليوسف فعقوبته أن يبقى مستعبداً عند عمّته.

المبحث الثالث: ثوابت الشريعة ومتغيّراتها

وأُلفت النظر هنا إلى أن الفقه الجنائي وكذلك الاقتصادي والاجتماعي يتطوّر بتطوّر المجتمع، فهناك في الشريعة ما ندعوه بالثوابت وهناك ما ندعوه بالمتطوّرات أو المتغيّرات التي تتغيّر بتطوّر الزمن.

وقد يقال: لماذا تشدّوننا إلى شريعة مضى عليها أكثر من (١٤٠٠) سنة، وقد تغيّر في الدنيا كلّ شيء حتى تصميم الدور ووسائل النقل والأفكار وكل شيء؟

فيجاب بأن باب الاجتهاد مفتوح في الشريعة، فلا يمكن أن نعتبر عمر الشريعة (١٤٠٠) سنة؛ ذلك أنها متطوّرة متحرّكة مع الزمن. وذلك التطوّر يكون بآراء الفقهاء؛ لأن الفقيه يأخذ النصّ القابل للتطوير فيطوّره، فمثلاً يقول تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾[2]، فيرى الفقيه أرضاً عند شعب

---

(١) يوسف: ٧٥. (٢) النحل: ٨٨.

من الشعوب تعدل قارة كاملة، فلا يرى مانعاً من أن يعطيها لمن يستثمرها. لكنه إذا رأى أن هناك كثافة سكّانية ضخمة، والناس يحتاجون للسكن، فلا يمكنه أن يعطي آلاف الأفدنة للزرع. مع أنه في الحالين ينشد العدل.

فالعدل إذن عنوان متطوّر تختلف تطبيقاته باختلاف الموضوعات. وهكذا كلّ مبدأ في القرآن الكريم يمكن أن ينطبق على الحياة المتطوّرة، حيث يطوّره الفقيه وفق المطلوب. فهناك أُمور أُصوليّة عقليّة وشرعيّة نرجع إليها في كلّ ذلك، كالبراءة العقليّة والبراءة الشرعيّة وغيرهما.

أنواع الإكراه

ومن هنا نرى أن الشرائع السابقة تختلف في كثير من أحكامها عن الشريعة الإسلاميّة، ففي السرقة تدرس الشريعة ظروف الجريمة ودوافعها؛ فهل إن السارق مكرَه، أو غير مكره؟ والإكراه نوعان: مباشر، وغير مباشر. فغير المباشر أن يكون السارق ضحية تربية سيّئة، كأن يولد ولا يجد في الشوارع إلّا العصابات التي تلتقطه فتحتضنه وتدرّبه على الجريمة. أما الإكراه المباشر فكالجوع مثلاً، وذلك بأن يصل الإنسان إلى مرحلة لا يجد قوت نفسه أو عياله، أو أن تحدث مجاعة في البلد. ولذلك لم يقطع عمر بن الخطاب الأيدي في عام المجاعة[1].

مقدار القطع في يد السارق

فإذا دُرست ظروف الجريمة وتقرّر القطع، تقطع اليد؛ قال تعالى:

---

(١) انظر: الخلاف ٥: ٤٣٢ / المسألة: ٢٧، المجموع شرح المهذب ٢٠: ٩٥، وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا قطع في عام مجاعة»، الخلاف ٥: ٤٣٢ / المسألة: ٢٧، وعن الصادق عليه السلام أنه قال: «لا يقطع السارق في عام سنة» أي مجاعة. الكافي ٧: ٢٣١ / ٢.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾[١]، وهنا يختلف الفقهاء في القطع: فمنهم من يقول: إنه من الكتف؛ لأن لفظ اليد ينطبق على ذلك. ومنهم من يقول: من أصل الكف. ومنهم من يقول: أطراف الأصابع؛ لأنها تسمى يداً، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾[٢].

المبحث الرابع: إشكالية اتّهام يوسف﵇ إخوته بالسرقة

وبالعودة إلى الآية نستعرض قصة النبي يوسف﵇ مع أخيه، حيث دعا إخوته إلى وليمة، وجعل كلّ اثنين منهم في حجرة؛ ليبقىٰ أخوه بنيامين وحده؛ كي يضمّه فيما بعد إليه. وهذا عين ما صنعه النبيﷺ مع علي بن أبي طالب﵇، حيث آخى بين الصحابة وتركه، يقول أمير المؤمنين﵇: «**فأقبلت إليه وعيناي تفيضان، قلت: يا رسول الله، أراك آخيت بين أصحابك وتركتني؟ فقال: إنما ادّخرتك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة**»[٣].

---

(١) المائدة: ٣٨. (٢) البقرة: ٧٩.

(٣) ورد هذا الحديث بطرق كثيرة وصيغ مثلها، انظر: الطبقات الكبرىٰ ٣: ٢٢، المعجم الكبير ١١: ٦٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٨، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٩، ٦٠٨ / ٣٢٩٣٩، ٦١٠ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٤٠ / ٣٦٤٤٠.

قال السيد محمد الهندي:

لو رأىٰ مثله النبيّ لآخا ... ه وإلّا فأخطأ الانتقادُ

الأنوار العلوية: ٣٤٠.

وقال عبد الباقي العمري:

يا أبا الأوصياء أنت لطه ... صهره وابنُ عمّه وأخوهُ
إن للّه في معانيك سرّاً ... أكثر العالمين ما عرفوهُ
أنت ثاني الآباء في منتهىٰ الدو ... ر وآباؤه تُعدّ بنوهُ
خلق اللّه آدماً من تراب ... فهُوَ ابنٌ له وأنت أبوهُ

الغدير ٦: ٣٣٨.

ودخل بنيامين على أخيه وهو في حجرته، فقال له: «**هل تحبّ أن أكون أخاك؟**». قال: وأين أجد أخاً مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل. فاعتنقه‌عليه السلام وقال: «**أنا أخوك يوسف**»[١]. فاحتضنه بنيامين.

ولما أراد يوسف أن يبقيه عنده، بعث أحد الخدم ليضع الصواع (المكيال) في رحل بنيامين، ﴿**ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ**﴾[٢].

وهنا يرد هذا السؤال: ما المبرّر لهذا العمل؟ وهل هو عمل مشروع؟

إن وضع المكيال في أوعيتهم لا يحرّم حلالاً، ولا يحلّل حراماً، وليس فيه مشكلة، لكن المشكلة في النداء: ﴿**أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ**﴾[٣]. فكيف ساغ له‌عليه السلام أن يتّهمهم بالسرقة؟

بناء على الرأي القائل في سرقة يوسف‌عليه السلام أنه سرق ودّ أبيه‌عليه السلام منهم، فإن هذه السرقة التي اتّهمهم بها هي سرقة السعادة من قلب يعقوب‌عليه السلام. وقد سرقوها فعلاً، فكان يعقوب‌عليه السلام ينوح من الصباح إلى المساء، ويمرّ به ملك الموت فيسأله: «**هل مرت بك روح يوسف؟**». ويسأل عنه الركبان، حتى وصفه القرآن الكريم بقوله: ﴿**وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ**﴾[٤]، أي أصابه العمى. فكان الاتّهام صادقاً، وليس ادعاءً باطلاً؛ لأنهم سرقوا السعادة فعلاً من قلب يعقوب‌عليه السلام.

المبحث الخامس: أسباب زجّ الحسين‌عليه السلام إخوته في المعركة

دعونا الآن نعِش شيئاً من أجواء واقعة الطفّ، فقد أخرج الحسين‌عليه السلام إخوته، ولم يكن فيهم شقيق له أبداً، وكانوا تسعة كلّهم لأبيه، وقتلوا كلّهم معه.

---

(١) بحار الأنوار ١٢: ٢٩٠ / ٧١.
(٢) يوسف: ٧٠.
(٣) يوسف: ٧٠.
(٤) يوسف: ٨٤.

والسؤال هنا: ما هذا الإصرار من الحسين﵇ على إخراج هذه المجاميع من أهله مع علمه بأنهم سوف يقتلون، وقد أخبره النبيﷺ بذلك؟ وهل إن هذا انتحار جماعي؟ إنه﵇ يعلم أن هؤلاء لن يغيّروا في المعادلة شيئاً؛ لأن عدد الجيش في الطف كان ثلاثين ألفاً على أقل الروايات، وإلّا فهناك روايات تقول: إنه كان سبعين ألفاً أو مئة ألف أو أكثر. فما هي دوافع الحسين﵇ لهذا الإصرار على أن يُقتل أهلُ بيته عن بكرة أبيهم؟ هناك عدّة أسباب منها:

السبب الأوّل: أنه﵇ أراد لجذوة التضحية الهاشمية ألا تنطفئ

فالمعروف أن أكثر الأُسر تضحية لهذه الرسالة هم الهاشميون، وقد حمل التيّار الهاشمي عبء الدعوة، وقدّم لها القرابين والتضحيات. وقد أراد الحسين﵇ أن يبقى رافد التضحية فيهم مستمراً: «والحمل الثقيل أهله أحقّ بحمله». كما أنه﵇ أراد لهذه الجذوة التي أشعلها النبيﷺ ألّا تنطفئ.

وقد لمّحت لهذا المعنى في قصيدتي التي قلتها في رثاء ضحايا مدينة قانا التي حدثت فيها مجزرة على يد اليهود. ونحن نعرف أن في مدينة قانا أولاد أبي ذرّ الغفاري، وهو يشكّل رافداً من تيّار علي بن أبي طالب﵇، حيث قلت:

يا بنتَ جندبَ يا أعناقُ ما برحت	مع المُدى منذ ألف وهي تنتصبُ
تنشّأت في وعاء داف تربته	أبو ترابٍ الذي للصاعدات أبُ
توشّحت بالإباء المرّ واعتجرت	بالحقّ واعتقدت هذا هو الغلبُ
كم سامها الضغط والإغراء لوّح بالـ	ـنعمى فما لان يوماً عودها الصلبُ
سجيّة من فرات الطفّ يحملها الـ	ـثوّار فهي على أخلافهم لقبُ

إنه تيار التضحية والعطاء الذي تركه رسول اللّهﷺ وأهل بيتهعليهم السلام، وأراد الحسينعليه السلام أن يقول لغيره: لا تقولوا إن الحسين نحّى أولاده وأهل بيته عن الخطر والقتل وقدّم غيرهم. إنني سوف أُقدّم أهلي قبل غيرهم.

وهذا عين ما لاحظناه في المباهلة؛ حيث أخرج النبيﷺ أغلى ما عنده من أهل بيته، وهم علي وفاطمة والحسنانعليهم السلام، فإن وقع مكروه وقع على هؤلاء.

السبب الثاني: تضميخ هذه الجذوة بخصائص أهل البيتعليهم السلام

فالحسينعليه السلام أراد أن يقدّم في التضحية نماذج فيها خصائص أهل البيتعليهم السلام. ونحن نعرف أن هناك من يقاتل بدافع الحميّة ـ كأن يكون في موقف يستحي فيه أن يتراجع ـ فيموت، وهناك من يقاتل بظروف خارجيّة مفروضة عليه، أما أهل بيت النبيﷺ فهم مندفعون بذاتهم، يقول العباس:

واللّه إن قطعتمُ يميني … إني أحامي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليقينِ … نجل الإمام الطاهر الأمينِ(١)

إنهعليه السلام يدافع عن دينه وعقيدته وفكرة الإمامة المتجسّدة في هذا الشخص الشريف. فأراد الحسينعليه السلام أن يقدّم نموذجاً واضحاً يمثّل خصائص الرسالة التي بُعث بها النبيﷺ في دفع الظالم ومقاومة العدوان.

السبب الثالث: البرهنة على أن الإيمان يقهر الطبع والتطبّع

فالحال السائد في مجتمعاتنا أن الأبناء غير الأشقّاء يكونون عادة غير منسجمين بشكل كامل مع بعضهم، أما الحسينعليه السلام فأراد بذلك أن يضرب

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٦، ينابيع المودة ٣: ٦٨.

هذه القاعدة التي اعتدنا عليها؛ ويوضّح لنا أن هؤلاء إن تربّوا على الإيمان، واشتركوا في حمل الرسالة، وانخرطوا في تيّار موحّد، فإن كلّ العقبات ستتلاشى.

وقد بلغت المودّة والتلاحم بين أهل البيت﵈ في الطفّ أشدّها، وهذا دليل على أن الإيمان يمكن أن يسيطر على التربية والغرائز والأساسيّات كلّها.

لقد أخرج الحسين﵇ يوم الطفّ تسعة من إخوته كلّهم لعلي:

أربعة لأُمّ البنين (رضي الله عنها)، وهم العباس وجعفر وعبد اللّه وأبو بكر.

وعمر الأطرف وأُمّه الصهباء التغلبية، الذي تقول جملة من الروايات عنه: إنه قتل يوم الطفّ.

ومحمد الأصغر وأخوه، وأُمّهما ليلى بنت مسعود الدارميّة النهشليّة التميميّة.

والثامن عون، وأُمّه أسماء بنت عميس الخثعميّة.

والتاسع محمد الأوسط، وأمه أُمامة بنت أبي العاص بن الربيع التي تزوجها أمير المؤمنين بعد وفاة الزهراء﵆ مباشرة بوصيّة منها (سلام الله عليها)، فقد قالت له: **«يا علي، لا بدّ للرجال من النساء، فإن أردت أن تتزوّج بعدي فعليك بابنة أختي أُمامة؛ فإنها تكون لولدي مثلي، ومع ذلك اجعل لها يوماً وليلة وللحسنين يوماً وليلة، ولا تصِح في وجهيهما، ولا تنهرهما فإنهما يصبحان يتيمين منكسرين، بالأمس فقدا جدّهما واليوم يفقدان أُمّهما»**[1]. وتزوّجها فعلاً

(١) معاني الأخبار: ٣٥٦ / ١، السقيفة وفدك: ١٤٧، شرح الأخبار ٢: ١٦٠ / ٤٩٢.

فولدت له محمداً الأوسط الذي قتل مع الحسين عليه السلام.

فهؤلاء تسعة من ولد علي عليه السلام قتلوا مع الحسين عليه السلام يوم الطفّ.

لكن هؤلاء لم يأخذ مصرعهم أثراً منه يوم الطفّ كما أخذ العبّاس عليه السلام ذلك الأثر منه في مصرعه، يقول المؤرّخون: لما سقط العبّاس بان الانكسار في وجه الحسين عليه السلام(١).

ولما سقط صريعاً وقف عليه الحسين عليه السلام، ولم يكن العباس يرى؛ لأن إحدى عينيه جمد عليها الدم، والأُخرى نبت بها السهم، ولا يدَ عنده فيمسح بها الدم عن وجهه، فأحسّ بحركة رجل عنده وهو في لحظاته الأخيرة، فقال: من هذا الجالس؟ قال الحسين: **«لماذا؟»**. قال: يا هذا أُقسم عليك بمن تعبد أن تمهلني فواق ناقة. قال: **«ما تصنع بها؟»**. قال: حتى يأتي إليّ أخي وابن والدي أُودّعه ويودّعني، وأشمّه ويشمني. فقال الحسين عليه السلام: **«أنا أخوك»**. قال: إذن ادنُ مني أُقبّلك وأشمّك. فوضع فمه على فمه وراح يقبّله إلى أن فاضت روحه الطاهرة، ورحم اللّه السيد جعفراً إذ يقول:

قد رام يلثمه فلم يرَ موضعاً ... لم يدمِه حرّ السلاح فيلثمُ

أأخي يهنيك النعيمُ ولم أخَل ... ترضى بأن أشقى وأنت منعّمُ

ولما لفظ أنفاسه الطاهرة، قام عنه وهو يمسح دموعه بمنديله. ولم يتفق مرّة أن عاد إلى الخيمة وليس معه العبّاس عليه السلام إلّا هذه المرّة، فاستقبلته الحوراء بباب الخيمة، قالت: أبا عبد اللّه، أراك رجعت وحدك؟ فاختنق عليه السلام بعبرته وقال: **«أُخيّة، عظّم اللّه لك الأجر بأبي الفضل؛ لقد خلّفته على المشرعة**

---

(١) شجرة طوبىٰ ٢: ٢٩٩، فقال عليه السلام: «الآن انكسر ظهري».

دامي الوريدين». فوضعت يدها على صدرها وصاحت: وا أخاه.. وا عبّاساه.

وأرادت أن تخرج من الخيمة، فأرجعها الحسين عليه السلام إليها وقال: «أُخية، تعزّي بعزاء الله، لايذهبن بحلمك الشيطان ولا تُشمتي بنا الأعداء»[1].

وبقيت في نفسها لوعة، فخرجت إليه بعدُ، حتّى وصلت إلى نهر العلقمي:

إلي مناشده ويّاك واعتاب   يمنوّخ الهودج على الباب

اسبعّطش يبرون له احساب   أشوف الرجا وذاك الأمل خاب

* * *

أحمى الضائعات بعدك ضعنا[2]

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٢٢١، الإرشاد ٢: ٩١ ٩٢، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٩١، تاريخ الطبري ٤: ٣١٤ ٣١٩، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، البداية والنهاية ٨: ١٩٠ ١٩٢، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٤، مقتل الحسين (الخوارزمي) ١: ٣٤٩، وقد مرّ مفصّلاً في ج ٢ ص ٩١ من كتابنا هذا.

(٢) صدر بيت وتمامه: في يدِ النائبات حسرىٰ بوادِ.

انظر وفيات الأئمّة عليهم السلام: ١٦٢.

﴿ ٨٤ ﴾

في رحاب أمير المؤمنين

يا إمامَ الهدىٰ رويـداً فـما ضـرَّ

ك قــــولٌ للــحاقدين يــؤولُ

ناب عنه سيفُ ابنِ ملجم فـاغتيـ

ـــل إمـامٌ عـلىٰ التـقىٰ مـجبولُ

فـتلقّىٰ المـحرابُ حَـبراً شـهيداً ... فــالمصلّىٰ تـفجُّعٌ وذهــولُ

لا فمٌ مـلؤه الصـلاةُ ولا المـحـ ... ـرابُ في فاحمِ الدجىٰ مأهـولُ

راهبٌ أجّــج المــناجاةَ صـمتٌ ... وحســامٌ قــاد الفـتوحَ فـلولُ

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: في عطائه ومنشئه

نحن نعيش الآن في رحاب أمير المؤمنين، ونأمل من اللّه عزّ وجلّ أن نكون في رحابه دوماً. وليكن في الحسبان أن الولوج إلى بابه للتعرّف على هذه الشخصيّة يترك الإنسان حائراً في اختيار أي الأبواب يمكنه أن يلج منه ليتعرف علىٰ علي بن أبي طالب، وهو كلّه وجه، فمن أي باب ولجت إليه تجد عنده عطاءً متدفّقاً.

والشيء الذي نريد أن نسلّط الضوء عليه في هٰذه الليلة هو أن هذا الرجل مع امتلاكه لجميع المؤهّلات، واجتماعها عنده، فإن المجتمع الذي عاصره لم

يتفاعل معه التفاعل المطلوب، حتى انتهى به الأمر إلى الشهادة، فما هو السبب في ذلك؟ إن هذا الرجل منذ ولج الحياة وهو يتدفّق عطاءً، وهذا العطاء نوعان: نوع حباه اللّه تعالى به، والنوع الآخر ما كان للكسب فيه دخل وإن كان في النتيجة هو من عطاء اللّه تعالى أيضاً.

المبحث الثاني: جملة من خصائصه﴿﴾ ذات المنشأ الإلهي

وهذا القسم ـ كما قلنا ـ قد اتصف﴿﴾ به بتدخّل من الله تعالى، ومن دون أن يكون لكسبه﴿﴾ ـ أو لكسب أي شخص بشكل عام ـ أي دخل فيه. ويندرج تحته أُمور عديدة، منها:

الخصيصة الأولى: أنه﴿﴾ يتحدَّر من أُسرة كريمة

فأمير المؤمنين﴿﴾ يتحدَّر من أُسرة وصفها الشاعر الشيخ هاشم الكعبي في داليته بقوله:

نسبٌ كأنَّ عليه من شمس الضحى ... ألقاً ومن فلق الصباح عمودا[1]

وهذا النسب الطاهر يبتدئ من الأصلاب الشامخة إلى الأرحام المطهّرة[2]، فهو من القبيلة والنسب اللذين تحدّر منهما رسول اللّه﴿﴾، دون أن تعرّق فيهما أصلاب غير طاهرة، ولا أرحام غير مطهّرة. وهذه الميزة تعطي الإمام علياً﴿﴾ حجماً غير اعتيادي؛ لأن الأُسرة تتدخّل تدخّلاً مباشراً

(١) البيت من قصيدته التي نظمها في رثاء أبي عبد اللّه، ومطلعها:

أرأيت يوم تحمّلتك القودا ... من كان منّا المثقل المجهودا

ديوان الشيخ هاشم الكعبي: ٣٩، لكن هذا البيت غير مذكور ضمن هذه القصيدة في ديوانه هذا.

(٢) ورد في الزيارة الشريفة: «أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة». انظر: كامل الزيارات: ٤٠٣ / ٦٣٩، مصباح المتهجّد: ٧٢١ / ٨٠٦.

في تحديد حجم الشخص، فهو عليه السلام ممّن اختار اللّه تعالى قومه وأُسرته، ففي الحديث: «**اختار اللّه عزّ وجلّ من الناس العرب، واختار من العرب قريشاً، واختار من قريش كنانة، واختار من كنانة بني هاشم، واختار من بني هاشم هذا البيت**»[١].

وعلي عليه السلام من هذا البيت الذي ما ولج الشرك عموده الأساس، فآباء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام ما مر بهم الشرك، ورحم اللّه البوصيري حيث قال في همزيته في رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم:

لم تزل في ضمائرِ الكونِ تُختا	رُ لك الأمّهاتُ والآباءُ
وبدا للأنامِ منك كريمُ	من كريمٍ آباؤه كرماءُ
نسبٌ تحسبُ العلا بحلاهُ	قلّدتْها نجومَها الجوزاءُ
حبذا عقدُ سؤددٍ وخمارٍ	أنت فيه اليتيمة العصماءُ[٢]

وقد شاء اللّه تعالى أن يتسلسل هذا الرجل ليستقرّ في رحمٍ مؤمن هو رحم فاطمة بنت أسد، هذه المرأة المجاهدة المهاجرة في سبيل اللّه، التي أُفعمت إيماناً، والتي رأينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يُعبّر عنها بأنها أُمه[٣] وينزل في قبرها عند وفاتها، فيضطجع فيه ويخلع رداءه ليكفنها به[٤].

الخصيصة الثانية: أن الله تعالى كرمه بأن جعله وليد الكعبة

ثم شاء اللّه له أن ينتقل من بيت طاهر في رحم طاهر إلى أن يولد في بيت طاهر، وهو أشرف بيت تتّجه إليه القلوب، وتنزع إليه الأفئدة، وترمقه

---

(١) ورد هذا الحديث بألفاظ عدة، انظر: شرح الأخبار ٢: ٤٨٣ / ٨٥١، المجموع شرح المهذب ١٦: ١٨٧.

(٢) ديوان البوصيري: ٩.

(٣) خصائص الأيمّة: ٦٦، المعجم الكبير ٢٤: ٣٥١، كنز العمّال ١٣: ٢٣٥ ـ ٢٣٦ / ٣٧٦٠٧.

(٤) المصدر نفسه.

الأبصار، ويصلّي له المسلمون. وكما يقول الآلوسي صاحب التفسير: «سبحان من يضع الأشياء في مواضعها، لقد وضع علياً في هذا المكان».
يقول المرحوم السيد رضا الهندي:

لما دعاك اللّه قدماً لأن   تولد في البيت فلبيتَهْ
جزيته بين قريش بأن   طهّرت من أصنامهم بيتَهْ[1]

ولا يضير علياً ألّا يشار إلى موضع مولده وإن أطبق المؤرّخون على قولهم هذا. ولكن قد يتحسّس البعض من هذه الناحية فيقول: لماذا لا توضع علامة على المكان الذي ولد فيه علي في حين أنه مفخرة من مفاخر المسلمين؟ أليس من الوفاء أن يشير المسلمون إلى مكان ولد فيه هذا الرجل وهو جندي من جنود الإسلام حمل السلاح مدافعاً عنهم؟

في واقع الحال إن علياً لا يضرّه ولا يضيره ألّا يشار إلى موضع ولادته؛ لأنه يولد في كلّ نفس حرّة كلّ يوم ولحظة.

لقد اعتاد بعض المؤرّخين عند ترجمته لأحد الخلفاء أن يذكر بوّابه وشاعره وغير ذلك، ولقد رأيت أحدهم ممّن ترجم لعلي يقول: «بوابُه سلمان الفارسي وشاعره حسّان بن ثابت». كأنه يشير بذلك إلى أبيات حسّان التي أنشدها يوم الغدير:

يناديهمُ يوم الغدير نبيُّهم   بخمٍّ وأسمِعْ بالنبي مناديا[2]

ثم يعلّق هذا المؤرّخ على ذلك فيقول: «لا يقال لعلي: إن شاعره حسان، إنما علي شاعره الدنيا بأكملها».

---

(١) ديوان السيد رضا الهندي: ٢٤.
(٢) مناقب أمير المؤمنين (الكوفي) ١: ١١٩، مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٣٠.

نعم، لا يمر بعلي عليه السلام بعد من أبعاد الحياة إلّا وجدناه يغرّد باسمه إلّا أن يكون قلباً مريضاً أو نفساً مدخولة. وإلّا فأي جانب من جوانب حياته لا يستوجب الإشادة؟ وأية ناحية من نواحيه نمرّ بها ولا تستوجب الثناء والتغريد؟

آلاؤك البيضاءُ طوّقت الدُّنى ... فلها على ذِممِ الزمانِ ديونُ

ما عدتُ ألحو في هواك مُتَيَّماً ... وصفاتُك البيضاءُ حورٌ عينُ

فبحيث تحتشد الورودُ فراشةٌ ... وبحيث ليلى يوجد المجنونُ(١)

فهذا الرجل شاعره الدنيا؛ لأنها احتضنت منه شخصاً تفجّر بالعطاء والمواهب، فلا غَرو إن غرّدت الدنيا به، ولن يضيره عليه السلام ألّا يشار إلى موضع ولادته، وإنما ينبغي أن نفهم أن لهذا الرجل في كلّ قلب بيتاً، وفي كلّ روح مكاناً. وهذا هو الكرسي الذي لا يفقده الإنسان وإن ذهب عنه، فهو الكرسي الذي يتمركز في الأرواح والقلوب، وهذا الرجل عنده في كلّ قلب عرش وكرسي.

الخصيصة الثالثة: أنه تعالى قدَّر أن يتربّى في قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم

ثم شاء اللّه تعالى لعلي عليه السلام أن ينتقل إلى الحجر الطاهر الذي احتضنه، ألا وهو قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد كان من سعادته ألّا يفارق هذا الحجر الكَريم، وهذا الصدر الذي حمل رسالة السماء، فكان مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في غار حراء، وسمع رنة الوحي، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **«يا علي إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلّا إنك لست بنبي، ولكنك وزير، وإنك على خير»**(٢).

---

(١) ديوان المحاضر ١: ١٩.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ١٩٢.

ورأينا فمه يحمل كلمة التوحيد ويخرج تابعاً لرسول اللهﷺ، ثم تبدأ كلمة التوحيد من إطار كونها لفظة في الفم إلى الواقع بتجسّدها عزماً بيد علي بن أبي طالبعليه السلام، يترك يده قابضة علىٰ قائم سيفه يذبّ عن التوحيد وعن كلمة التوحيد، ولم يكن يبارح النبيﷺ ليلاً ولانهاراً، وكانت الحجارة تأتي النبيﷺ فيأخذعليه السلام نصيبه منها، وكانت النبال تأتيه ويأخذعليه السلام نصيبه منها أيضاً، ثم لا يكاد يفارق النبيﷺ.

حتىٰ إذا أراد اللّه تعالى لهذه الدنيا أن تزدهر بنور الإسلام رأيناهعليه السلام وهو يتحمل العبء بنصّ رسول اللهﷺ عندما أمسكه من عنقه وقال: **«هذا أخي ووصيّي وخليفتي من بعدي»**[1]. كلّ ذلك يقوله النبيﷺ لعليعليه السلام ليؤهّله كي يأخذ مكانته من بعده في هذه الدنيا.

ورأيناهعليه السلام يمشي قُدماً بهذه المسيرة؛ فلا يكاد يمرّ علىٰ فضيلة إلّا ويأخذ منها، ولا يكاد يمرّ علىٰ منقبة إلّا ويحملها، حتىٰ تحوّل إلى كتلة مناقب، وحتىٰ قال فيه رسول اللّهﷺ: **«يا علي، إن فيك شبهاً من عيسىٰ بن مريم، ولولا أن تقول فيك طوائف من اُمّتي ما قالته النصارىٰ في المسيح عيسىٰ بن مريم لقلت فيك قولاً لا تمرّ بملأ من الناس إلّا أخذوا التراب من تحت قدميك يلتمسون**

(١) شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٤٤، كنز العمّال ١٣: ١١٤ / ٣٦٣٧١، وقد نقل ترك أحد رواته، ١٣: ١٣٣ / ٣٦٤١٩. وقد ورد هذا الحديث بألفاظ اُخر منها قولهﷺ: «إن وصيّي وخليفتي في أهلي علي بن أبي طالب»، وقولهﷺ: «من أراد أن يدخل الجنة بغير حساب فليتولّ وليّي ووصيّي وصاحبي وخليفتي ...». وقولهﷺ: «إن وصيي وخليفتي وخير من أترك بعدي ينجز موعدي ويقضي ديني علي بن أبي طالب»، وغيرها، انظر: شواهد التنزيل: ٧٦، ٩٨ـ ٩٩، ٤٨٦ ـ ٤٨٩، ٥٤٣، ٥٤٥، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٣، ٤٩ ـ ٥٠، ٥٦ ـ ٥٧.

بذلك البركة»[1]. وقد حدث هذا فعلاً[2].

يقول المرحوم العقّاد في (عبقريّة علي): «ما اتّسعت مساحة للأخذ والردّ كما اتّسعت مساحة علي بن أبي طالب عليه السلام، فهناك من يعبده ويرىٰ أنـه إله، وهناك من يقول: إنه كافر مطرود من رحمة الله».

وهكذا يكون العظماء، وهذا هو شأنهم فهم بين الإفراط والتفريط:

تُجفىٰ وتُعبد والضغائنُ تَغتلي ... والدهــر يـقسو تـارةً ويـلينُ

وتـظل أنت كـما عـهدتك نـغمةً ... للآن لا يــرقىٰ لهـا تـلحينُ[3]

المبحث الثالث: عوامل عدم تفاعل المجتمع مع أمير المؤمنين عليه السلام

وهكذا كان ولم يبرح الفضائل والمناقب حتىٰ النفس الأخير من حياته، لكن السؤال الذي يُطرح هو: لماذا لم يتفاعل المجتمع معه عليه السلام ذلك التـفاعل المطلوب مع ما له من هذه الميزات والمكانة، ومع هذا الحشد من المـناقب والإضمامات؟ ولماذا وجد عليه السلام في طريقه أكثر من عثرة وعثرة؟ ما السبب في كل ذلك؟ هناك عوامل عديدة أدّت إلى حصول مثل هذا، نذكر منها:

العامل الأوّل: الحسد

فأول عقبه اصطدم بها أمير المؤمنين علي عليه السلام هي عقبة الحسد، فقد كان

---

(١) الكافي ٨: ٥٧ / ١٨، الخصال: ٥٥٧، وتمامه: فغضب الحاضرون وقالوا: مـا رضـي أن يضرب لابن عمّه مثلاً إلّا عيسىٰ بن مريم. فنزل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ الزخرف: ٥٧.

(٢) كما في قصة النفر الذين أحرقهم (صلوات الله وسلامه عليه) بالنار بعد أن خاطبوه بنعت الإلوهية، وقد مرّ في ص ٤٧ ـ ٤٨ من هذا المجلد.

(٣) ديوان المحاضر ١: ١٩.

محسوداً حسداً لا حدود له، والحقّ أن الحسد في بعض الأحيان يخدم المحسود، يقول الشاعر:

عداي لهم فضلٌ عليّ ومنّةٌ فلا أبعدَ الرحمٰنُ عني الأعاديا

هُمُ بحثوا عن زلّتي فاجتنبتها وهم نافسوني فارتقيت المعاليا[1]

حُسد هذا الرجل لأن اللّه تعالىٰ أعطاه من صفات الكمال ما لم يُعطِ أحداً غيره، فقد كان وهو طفل صغير إذا أخذ بيد الرجل أخذ بنَفَسه، وكان إذا جاء الفرس بعنفوانه ووضع يده علىٰ صدره فإنه يردّه.

يصفه المؤرّخون بأنه كان كالأسد، غلظ منه ما استغلظ، دقّ منه ما استدقّ، كان يحمل ساعداً يُعبَّر عنه بالحاطم والقاضم[2]. يقول صاحب (لسان العرب) في مادة قضم: «كان علي بن أبي طالب إذا نزل إلى الحرب تَنادىٰ الجيش وصاحوا: احذروا الحطم، احذروا القضم»[3]؛ لأن ضربات علي كانت بكراً؛ إذا علا قدّ، وإذا توسّط قطّ[4]، فكانت العرب تعتبر الفرار من الزحف عاراً إلّا من سيف علي.

ثلاث وثمانون غزوة ما تخلّف فيها عن نصرة المسلمين وما تأخّر إلّا في غزوة تبوك حيث خلّفه رسول اللّه لحفظ الأمن والدولة في المدينة، وكان حسامه هو الحسام الأوّل الذي يدافع عن المسلمين، وقد أُعطي من

---

(١) البيتان لأبي حيان الأندلسي. الكنىٰ والألقاب ١: ٦١.

(٢) شرح الأخبار ٢: ٤٢٨، مناقب آل أبي طالب ٣: ٩١، وقد نقلاه عن المغيرة.

(٣) لسان العرب ١٢ ـ ٤٨٨ ـ قضم، ومثله في النهاية في غريب الحديث والأثر ٤: ٧٨ ـ قضم.

(٤) الخرائج والجرائح ٢: ٥٤٢ / ٣، النهاية في غريب الحديث والأثر ٤: ٨١ ـ قط.

كمالات الرجولة والبطولة ما كانت معه الأُمم تتفأل بكتابة اسمه على سيوفها، وأُعطي من القوّة والضراوة والشجاعة والبسالة في سبيل اللّه ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت. وما وضع تلك الشجاعة في طريق البغي، وما اعتدى يوماً على ضعيف أو منهزم أبداً، بل كانت شجاعته الشجاعةَ التي تتّسم بالرجولة الحقّة والنبل والكرم، وما قاتل إلّا في سبيل الله، ما قاتل لحقد أو هدف شخصي[1]، بل ترفّع عن أن يقابل الضعيف أو المنهزم نفسيّاً.

ولقد رأيناه يترفّع عن أن يقتل عمرو بن العاص عندما استلقىٰ بين يديه، أو أن يقتل بسر بن أرطاة[2].

ولو رجعنا إلى تاريخ عمرو بن العاص وبسر بن أرطاة لعلمنا أن من الصعوبة بمكان أن يغضّ الإنسان طرفه عنهما؛ لأنهما كانا مثالاً للخسّة والاعتداء.

وقف عمرو بن العاص ليبيع دينه وهو يعلم من هو علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم في لحظة من لحظات يقظة الضمير كتب إلى معاوية، وذلك لمّا أخذ معاوية منه مصر وأعطاها لعبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز، كتب إليه قصيدته الجلجليّة المشهورة:

معاويةُ الفضلَ لا تنسَ لي	وعن موطن الحقّ لا تعدلِ
نسيتَ محاورةَ الأشعري	ونحنُ علىٰ دومةِ الجندلِ
ولولاي كنت كمثل النساء	تخاف الخروج من المنزلِ
تبعناك من جهلنا يابن هند	علىٰ البطلِ الأعظمِ الأفضلِ

---

(١) كما تمهّل في قتل عمرو بن ودّ حينما بصق عليه؛ حتى لا يداخل قتله غضبُه لنفسه عليه السلام.
(٢) انظر ج١ ص٣٨٩، ج٣ ص٨ من كتابنا هذا.

وحيث تركناك أعلى النفوس ... نـزلنا إلى أسفلِ الأرجلِ
وإن كان بينكما نسبةٌ ... فأين الحُسامُ من المنجلِ
وأين الثريا وأين الثرىٰ ... وأين معاوية من علي

إلى أن يقول:

وأعطيت مصر لعبد العزيز ... وأعطيتني زِنة الخردلِ[١]

هذا هو موضع الشاهد.

وعمرو بن العاص هذا كان يوماً ما يصف علياً﵇ بأنه تلعابة يداعس ويعافس، وأن فيه دعابة[٢]. وما ترك سيفاً إلّا شهره في وجه هذا البيت الطاهر. ولكنها نفس علي الكبيرة التي تأبىٰ أن تنحطّ إلى هذا الدرك، أو تنزل إلى هذا المستوىٰ المنهزم. لقد كان علي﵇ بطلاً يقارع الأبطال ويعفّ عن المنهزمين والجبناء.

أما بسر بن أرطاة فقد ملأ الأرض من دماء المسلمين، وقتل حَمَلةَ القرآن الكريم، وأشبع البلدان التي مرّ بها قتلاً وتنكيلاً، وقد أراق الدم في بيت علي﵇، فقد قتل طفلين لعبيد اللّه بن العباس حتىٰ جُنّت أُمهما[٣]. وبسرٌ هذا هو الذي ملأ اليمن دماً، وقد سقط بين يدي علي بن أبي طالب﵇ فعاد بعورته، وأدار علي﵇ وجهه عنه، ووقف شاعر من الشعراء يصف فعلته وفعلة عمرو بن العاص قائلاً:

---

(١) انظر: الغدير ٢: ١١٧ ـ ١١٨، شرح نهج البلاغة ١٠: ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) وردت علىٰ لسان عمر بن الخطاب كما في الإيضاح (ابن شاذان): ١٦٣، ١٦٤، ٢٦٣، ٢٣٧، تاريخ المدينة ٣: ٨٨٢، أنساب الأشراف ٥: ١٦، منتخب كنز العمّال ٥: ١٨٩. وعلىٰ لسان عمر بن العاص كما في المصدر نفسه: ٤٩٨، أو كما نقلها عنه أمير المؤمنين﵇ في نهج البلاغة / الخطبة: ٨٤.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ٣: ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

أفي كلّ يومٍ فارسٌ تندبونه ... له عورةٌ وسط العجاجة بادية
يكفّ بها عنه علي سنانَهُ ... ويضحك منها بالخلاء معاويةُ[(١)]

لقد وقف أول ما وقف في طريقه الحسد؛ لأن هذا السيف يحسد علىٰ ما فيه من قوّة وفتوّة، وفتك وبطولة، وهذا الجسد المتكامل الذي يأخذ صفة الأسد، وهذه الروح القويّة التي ما انهزمت، وهذا التوجّه الصلب الذي يقول: **«ما لقيت أحداً إلّا أعانني علىٰ نفسه»**[(٢)]. هذه كلّها جديرةٌ بأن تحسد.

ولمَ لا تحسد مثل هٰذه الروح، ولقد رأينا علياً عليه السلام يأبى أن يقابل بالمثل من يقابله بأشدّ أنواع الحقد، بل يترفّع تماماً عن ذلك؟

وأي واقعة لم نرَ فيها السمو عند علي عليه السلام؟ رأيناه بعد واقعة البصرة والقتلىٰ خمسة وثلاثون ألفاً تقريباً، ولكنه عليه السلام يبقىٰ تلك النفس المطمئنّة، وذلك الجأش الرابط والثابت، وتلك الروح الكبيرة لينادي: **«لا تجهزوا علىٰ جريح، ولا تتبعوا مدبراً، ولا تهيجوا النساء بأذىٰ»**، ولينادي: **«لا يصلن لزوجة رسول الله صلى الله عليه وآله منكم أذىٰ»**. ويأتي ليقف علىٰ رأس المرأة ليقول: **«ما أنصفك الذين أخرجوك من بيتك إذ صانوا حلائلهم وأبرزوك»**[(٣)].

لله أنت يابن أبي طالب، ليتك تسمع استشهادها بهذا البيت في مثل هٰذه الليلة وهي تقول:

وإن يكُ نائياً فلقد نعاهُ ... نعِيٌّ ليس في فيه الترابُ[(٤)]

---

(١) الفصول المهمة (ابن الصباغ المالكي): ٩٠، النصائح الكافية: ٩٣.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ٣١٨.

(٣) شجرة طوبىٰ ٢: ٣٢٤، وقعة الجمل (ضامر بن شدقم): ١٤٦.

(٤) الجمل: ٨٤، تاريخ الطبري ٤: ١١٥. حيث إن العرب يقولون لمن جاء ينعى عزيزاً

هذه الروح التي تحنو علىٰ من أشبعها طعناً لتغمره بالعطاء والرحـمة. لا شك أنه يحسد عليها، فعلي عليه السلام يحسد علىٰ كلّ صفة منحتها السماء إيّاه؛ سواءً في الروح أو في الجسد.

يقول الحاكم في (المستدرك): «قال عمر بن الخطاب: ثلاث خصال لعلي بن أبي طالب لو أن لي واحدة منها لكان أحبّ إليّ من حمر النعم. قيل له: ما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: إن علي بن أبي طالب أخذ الراية يوم خيبر، وإنه تزوج فاطمة، وإنه سكن المسجد مع النبي صلى الله عليه وآله يحلّ له ما يحل لرسول الله صلى الله عليه وآله»[1].

فعلي عليه السلام حُسد على مكانته من النبي صلى الله عليه وآله، وحسد على ما حباه اللّه من المزايا، وحسد على هذا الخطّ الناصع الذي لم تدنّسه نقطة سوداء من بدايته إلى نهايته، وحسد على الجبين الذي ما سجد لصنم، وعلى الروح التي ما استكانت إلّا لله، وعلى الجسد الذي فنيت كلّ ذرّة فيه في الدفاع عن الإسلام والمسلمين.

ومن هنا سئل الخليل بن أحمد الفراهيدي: ما بال الناس هجروا علياً عليه السلام مع قرباه من النبي صلى الله عليه وآله وموضعه من المسلمين، وغناه في الدفاع عن المسلمين؟ فقال: واللّه لقد غلب نوره أنوارهم، وغلبهم على كلّ فضل فهجروه، والشكل إلى أشكاله أميل[2].

نعم، بان عن مجتمعه بالمزايا التي رفعته وميّزته، فحُسد، ولمّا حُسد وقف

☚ عليهم: ملأ اللّه فمك تراباً، وهي هنا تقول: لا ملأ اللّه فمه تراباً.

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ١٣٥، ورواه أحمد عن ابن عمر، انظر مسند أحمد ٢: ٢٦.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٦٠٨ـ٦٠٩ / ١٢٥٦، بحار الأنوار ٢٩: ٤٨١ / ٣، باختلاف.

الحسد في طريقه، ولمَ لا يحسد وكلّ جوانبه جديرة بأن تحسد، سيما من ذوي النفوس الضعيفة؟

العامل الثاني: الحقد

فلقد تعرّض علي عليه السلام لحقد بلغ به من الأمر أن تقف إحداهن لتقول:

لاهُمَّ فاعقر بعلي جمله   ولا تبارك ببعير حمله[١]

وهذا هو الحقد عينه الذي بلغ بالبعض حدّاً أنه يتقرب إلىٰ اللّه تعالىٰ بشتمه كلّ يوم سبعين مرة لما يقارب القرن من الزمان، ورحم اللّه الشاعر حيث يقول:

شتمته بالشام سبعين عاماً   لعن اللـه كهلها وفتاها[٢]

فكانت منابر المسلمين لا تفتتح إلّا بشتم علي عليه السلام، ولكن، هل ضرّه ذلك الشتم؟ كلا، بل إن الحقائق تبقى كما هي لا ينالها التشويه الأعمى، ويبقىٰ ذلك الشتم عطراً ينثر على تاريخ الإمام علي عليه السلام[٣].

ومن شواهد الحقد الذي تعرض له علي عليه السلام أن علي بن عبد اللّه بن عباس كان يكنّىٰ أبا الحسن، فدخل يوماً على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: أنت علي أبو الحسن؟ قال: نعم. فقال عبد الملك: واللّه لا أجمعهما

---

(١) القائلة هي أُخت علي بن عدي من بني عبد العزّىٰ بن عبد شمس. تاريخ الطبري ٣: ٤٩٣، الإصابة ٥: ٥٣ / ٦٢٧٧.   (٢) دراسات في التاريخ الإسلامي: ٢٣٠.

(٣) انتقص ابن لحمزة بن عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين عليه السلام فقال له أبوه: يا بني، إنه والله ما بنت الدنيا شيئاً إلّا هدمه الدين، وما بنى الدين شيئاً فهدمته الدنيا، أما ترى علياً وما يُظهر بعض الناس من بغضه ولعنه على المنابر فكأنما والله يأخذون بناصيته رفعاً إلى السماء، وما ترى بني مروان وما يندبون به موتاهم من المدح بين الناس فكأنما يكشفون عن الجيف؟ جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٢٢٩، وقريب منه ما في المحاسن والمساوئ: ٤٠، البيان والتبيين ٢: ١٧٣.

لك، عليٌ وأبو الحسن؟ إما أن تغيّر اسمك أو أن تغيّر كنيتك. فاضطر إلى أن يغيّر كنيته[١].

فلم يكن عبد الملك بالذي يطيق أن يسمع اسم علي﵇ و كنيته مجتمعتين، بل ولا منفردتين.

ويرسل الرشيد وهو ابن عم علي﵇ خلف أحد العلماء، وقد أعطى رأياً لعلي﵇ في مسألة فقهيّة، فيقول له: ألم تعلم أنّا نهينا أن يذكر لهذا الرجل رأي؟ إياك أن أسمع ذلك منك مرّة أُخرى.

هكذا بلغ الحقد بالناس الذين عاصروه والذين جاؤوا من بعده، فالذين عاصروه ما شكروا له مواقفه بل حقدوا عليه، والذين جاؤوا من بعده ما اعترفوا بما أسداه لهم من خير، بل وقفوا يأكلهم الحقد عليه. وهكذا أخذ الحقد طريقه حتى إلى تاريخه (صلوات الله وسلامه عليه).

ومن الغريب أنك ترى أن التاريخ إذا مرّ بهذا الرجل فقد توازنه، والحال أنه﵇ ليس له ذنب، فما ذنبه إذا أمره النبيﷺ عن اللّه تعالىٰ بالقتال[٢]؟ وما ذنبه إذا كان عدد القتلىٰ في بدر سبعين وكان نصفهم أو أكثر بسيفه؟ وما من شكّ أن هذه الدماء لعبت دوراً كبيراً في تحديد مكانته، وقد اختزنت له قريش هذا الحقد.

العامل الثالث: منهجه﵇ في تقديم العامّة على الخاصّة

وهذا المعنى واضح في عهده لمالك الأشتر﵁، وفي تصرّفه أيّامَ حكمه. فقد كان يؤثر رضا العامّة علىٰ رضا الخاصّة. فليس عند علي﵇ أن يأخذ

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٤٥، وفيه أنه أغراه بمئة ألف كي يغيّر كنيته أوّلاً.

(٢) في الخندق مثلاً.

القوي أو صاحب الرئاسة حقّه ولا يأخذ الضعيف حقّه، وكان‏ﷺ يقول: **«القوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه، والضعيف عندي قوي حتى آخذ الحق له»**[١]. لقد آثر رضا عامّة الناس؛ فتحوّل إلى أنة عند كلّ مريض، وألم عند كلّ جائع.. سمعناه وهو على منبره يقول: **«والله لو شئت لاهتديت الطريق إلىٰ مصفىٰ هذا العسل ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يقودني هواي، أو يغلبني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع، أأبيت مبطاناً وحولي بطون غرثىٰ وأكباد حرّى؟»**[٢].

فكان علي‏ﷺ دمعةً في عين كلّ يتيم، وحسرة عند كلّ محروم، وسيفاً يُنتضى ليجلب الحقّ لمن أُخذ منه، وليقف في وجه الباطل. فعلي‏ﷺ آثر العامّة على الخاصّة فحقدت عليه الخاصّة.. عمد إلى الرؤوس الكبيرة التي كانت تصول على الرؤوس الصغيرة لتسلبها رغيفها أو تأخذ ثوبها فذادها عنها، وأعاد الحقّ إلى نصابه، وكان في أوّل خطبة له على المنبر عندما انتهت إليه الخلافة يقول: **«والله لو وجدتها مهرت بها النساء لرددتها، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق»**[٣].

لقد أعاد (صلوات الله وسلامه عليه) للمسحوقين مكانتهم، وللمغصوب حقّهم حقوقهم، ولليتامى حقّهم من الرعاية والعناية والعطف؛ فحملت الخاصّة

---

(١) ورد أنه‏ﷺ لمّا حضرته الوفات جاء الخضر ووقف علىٰ باب الدار مسلّماً بسلام طويل منه: «القوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتىٰ تأخذ منه الحق». انظر: كمال الدين: ٢١٨ ـ ٢١٩، بحار الأنوار ٤٢: ٣٠٣ ـ ٣٠٥.   (٢) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

(٣) نهج البلاغة /الكلام: ١٥.

السيوف في وجهه وحقدت عليه.

العامل الرابع: التسوية بالعطاء بين الناس

وهذه إحدى العقبات التي وضعت في طريقه (صلوات الله وسلامه عليه) واصطدم بها، وقد ألّبت عليه هذه التسوية الخاصّة من المجتمع. فعن الحرث قال: كنت عند علي فأتته امرأتان فقالتا: يا أمير المؤمنين: إننا امرأتان فقيرتان مسكينتان. فقال: **«قد وجب حقّكما علينا وعلى كل ذي سعة من المسلمين إن كنتما صادقتين»**. ثم أمر رجلاً فقال: **«انطلق بهما إلى سوقنا فاشترِ لكل واحدة منهما كرّاً من طعام وثلاثة أثواب وأعط كلّ واحدة منهما من عطائي مئة درهم»**. فلما ولّتا سفرت إحداهما وقالت: يا أمير المؤمنين، فضّلني بما فضّلك الله به وشرّفك. قال: **«وبماذا فضّلني الله وشرّفني؟»**. قالت: برسول الله﴿ص﴾. قال: **«صدقت، وما أنت؟»**. قالت: امرأة من العرب، وهذه من الموالي .قال: فتناول أمير المؤمنين﴿ع﴾ شيئاً من الأرض ثم قال: **«قد قرأت ما بين اللوحين فما رأيت لولد إسماعيل على ولد إسحاق﴿ع﴾ فضلاً ولا جناح بعوضة»**[1].

ثم قال: **«كلّكم لآدم وآدم من تراب»**[2].

لذلك ترك علي﴿ع﴾ القلوب تشتجر عليه حقداً، وتأبى أن تخضع لهذا اللون من التصرّف.

لمَ لا يحقد عليه عمرو بن العاص؟ وقد دخل عليه بعد البيعة مباشرةً، وعلي﴿ع﴾ مشغول بأمور المسلمين، فأوعز علي﴿ع﴾ إلى غلامه بأن يطفئ السراج، ويحضر سراجاً آخر فسأله: لماذا؟ فقال: **«كان زيته من بيت المسلمين**

---

(١) أنساب الأشراف: ١٤١.

(٢) تحف العقول: ٢٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدرّ المنثور ٦: ٩٨.

ولا ينبغي أن نصاحبك في ضوئه»[١].

فعلي عليه السلام يأبى أن يميّز هذا الرجل عن غيره وهو يعلم من هو في تأثيره وخطره، ومن هو إذا أراد أن يعيث أو يعبث.

أمّا هو عليه السلام فلم يكن يتميّز في عطائه عن غلامه قنبر[٢]، فيأكل كما يأكل، وكان عليه السلام يضع على الموضع الممزّق من ثوبه قطعة من الليف وينتظر حتى يخرج عطاؤه ليشتري به ثوباً[٣]، ويأبى أن يمدّ يده إلى بيت مال المسلمين ليشتري له به ذلك الثوب.

وكان إذا أراد أن يشتري ثوباً ذهب إلى السوق فاشترى ثوباً من الكرابيس بثلاثة دراهم وآخر بدرهمين، ثم يقول لقنبر: **«يا قنبر خذ الذي بثلاثة دراهم»**[٤]. وكان يجول في سوق الكوفة وهو يصيح: **«من يشتري مني هذا السيف؟ والله لو كان عندي ثمن إزار ما بعته»**[٥]. فيقول له رجل من أهل السوق: أنا أُسلفك إلى أن يخرج عطاؤك. فيجزيه خيراً، ويستلف منه ثمن الثوب حتى يخرج عطاؤه فيعطيه. وكان الإمام الصادق عليه السلام يقول عن أمير المؤمنين عليه السلام: **«إنه ليعمل عمل رجل كان وجهه بين الجنة والنار، يرجو هذه**

---

(١) المناقب المرتضوية (المولىٰ صالح الحنفي): ٤٥، وفيه أن الداخل عليه طلحة والزبير.

(٢) وقد رأينا أنه عليه السلام لم يميّز حتى أخاه عقيلاً، وذلك حينما جاءه يحمل صبيانه وهم جياع، أو كما يقول عنهم أمير المؤمنين: «فرأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم، كأنما سوّدت وجوههم بالعظلم». نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤.

(٣) فهو عليه السلام القائل: «ولقد رقعت مدرعتي حتىٰ استحييت من راقعها، وحتىٰ قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت اعزب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ». نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٠، عيون المواعظ والحكم: ٤٠٥.

(٤) روضة الواعظين: ١٠٧، وقد مرّ في ص ٨٢، ١١٤ من هذا المجلّد.

(٥) الغارات ١: ٦٣، مكارم الأخلاق: ١١٤.

ويخاف عقاب هذه»(١).

العامل الخامس: أنه سبق زمانه بمئات السنين

فهو ﷺ لم يتّسع له وعاء عصره لا لنقص فيه، وإنما لنقص في عصره، فقد ضاق به مجتمع الكوفة؛ لأن حجمه ﷺ يحتاج إلى وسط أكبر من هذا الوسط؛ فلم يتفاعل معه عصره. ولذا نراه يصعد المنبر فيقول: **«اللهم إني قد مللتهم وملّوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم من هو خير لي منهم، وأبدلهم بي من هو شرّ لهم مني. اللهم مثّ قلوبهم ميث الملح في الماء»**(٢).

ثم يرى النبي ﷺ في المنام فيقول: «يا رسول الله، ما رأيت من أُمّتك من الأود واللدد؟». فيقول له ﷺ: «ادعُ عليهم». فيقول: «اللهم أبدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شراً مني»(٣).

وكان يدعو أن يلحق بأحبائه. فكان يقول: **«أين إخواني الذي ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ واين ذو الشهادتين؟ ... أوّه على إخواني الذي تلوا القرآن ...»**(٤).

نعم، لقد ضاق به عصره، وكانت قريش تتربّص به الدوائر، ثم وجد الحقد طريقه إليه في مثل هذه الليلة. وهذا الحقد مهّدت له قريش وجعلت السيف المباشر الذي حمله هو سيف الخوارج.. الخوارج الذين كان منهم ثلاثة في

---

(١) شرح الأخبار ٣: ٢٧١ / ١٧٥، الإرشاد ٢: ١٤٢.
(٢) الغارات ٢: ٦٣٦، تاريخ مدينة دمشق ١: ٣٦١.
(٣) شرح الأخبار ٢: ٤٣٠ / ٧٧٩، مقاتل الطالبيين: ٢٥، الطبقات الكبرى ٣: ٣٦، شرح نهج البلاغة ٩: ١١٨ ـ ١١٩، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ١٢٨ / ٢٨٥٠.
(٤) نهج البلاغة / الخطبة: ١٨٢.

أداء العمرة وقد اجتمعوا في مكّة وتذاكروا الأُمراء فعابوهم وعابوا أعمالهم، فقالوا: لو أننا شرينا أنفسنا لله فأرحنا البلاد والعباد من هؤلاء: معاوية، وعمرو بن العاص، وعلي بن أبي طالب! فقال عبد الرحمن بن ملجم: أنا أكفيكم علياً. وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص. وقال البرك: أنا أكفيكم معاوية.

فتعاهدوا على ذلك وتفرقوا، وكان الموعد في شهر رمضان في الليلة التاسعة عشرة، وطرحوا الأمر للأشعث بن قيس. ويبدو أنه كان على علم بالواقعة[1].

وقد نقل بعض المؤرّخين أن عدم خروج عمرو بن العاص في تلك الليلة لم يكن لمرض، وإنما أُبلغ بأنه سيتعرّض للقتل.

ويقول أحد المؤرّخين: إن معاوية خرج إلى المحراب هذه الليلة وقد كفّر درعه تحت ثيابه، وإن الضربة التي وقعت عليه لم يكن يقصد بها القتل. وظروف الأحوال تساعد على هذا المعنى.

أما عبد الرحمن بن ملجم فقد سقى سيفه السمّ وكمن لعلي عليه السلام في مثل هذه الليلة، يقول ابن عبدون:

وليتها إذ فدت عمراً بخارجةٍ ... فدت علياً بمن شاءت من البشر[2]

يقول المؤرخون: عندما دخل هذا الشهر المبارك كان علي عليه السلام يوزّع إفطاره بين بيت عبد اللّه بن جعفر وبيت ابنه الحسن عليه السلام وبيت ابنه

---

(١) تهذيب التهذيب ٣: ٦٥.

(٢) كشف الغمة ٢: ٦٦، سبل السلام (العسقلاني) ٢: ١١.

الحسين، فكان كلّ ليلة يفطر عند أحدهم على شيء من الخبز والملح، وإن زاد فبشيء من اللبن، وكان يكرر هذين البيتين:

تلكم قريش تمنّاني لتقتلني — فلا وربّك ما ضرّوا وما ظفروا
إن يقتلوني فرهن ذمّتي لهمُ — بذاتِ ودقينِ لا يعفو لها أثرُ[1]

حتى قالت أُمّ كلثوم: «يا أبتاه، مالي أراك هذه الليلة لا تذوق طعم الرقاد؟». فقال: **«لا يا بنيتي، إن أباك قتل الأبطال وخاض الأهوال، فما دخل الجوف له خوف، وما دخل في قلبي رعب، وليس منا من يتطيّر، ولكن للموت علامات ودلالات يتبع بعضها بعضاً»**[2].

تقول أُمّ كلثوم: عندما حان وقت الإفطار ليلة التاسعة عشرة من رمضان، رفعت لأبي أمير المؤمنين طبقاً فيه إفطاره، وكان فيه إدامان، فالتفت إلي قائلاً: **«بنية، ارفعي أحد الإدامين، أما علمت أن من طاب طعامه وشرابه طال وقوفه بين يدي الله؟»**.

تقول أُمّ كلثوم: فلما أردت أن أرفع بعض النباتات التي كانت في الطبق قال: **«لا، ارفعي اللبن»**.

فهو الذي كان حينما يأكل رغيف خبز أو تمرة يمسح بيده على بطنه ويقول: **«من أدخله بطنه النار فأبعده الله»**[3]. وكان يقوم ويقلّب طرفه في

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٩٦، الفائق في غريب الحديث ٢: ٦٦ ـ روق، النهاية في غريب الحديث والأثر ٢: ٢٧٩ ـ روق، ٥: ١٦٨ ـ ودق.

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ٢٧٧، باختلاف.

(٣) الدعوات: ١٣٧ ـ ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠؛ كنز العمال ٣:

السماء ويقول: **«هي هي واللّه الليلة التي وُعدت بها، واللّه ما كَذبت ولا كُذبت»**. ثم يدخل إلى الحجرة ويخرج ليقلّب طرفه في النجوم. وكان هكذا ليلته كلّها، إلى أن انبلج عمود الفجر، فقام عليه السلام وجدّد وضوءه ونزل إلى الدار، وكان في الدار طيور من الإوزّ أُهديت للإمام الحسن عليه السلام، فرفرفن في وجهه، فذدت عنه تلك الطيور فقال: **«دعيهن فإنهن صوائح ونوائح»**. ثم فتح باب الدار فتعلّق مئزره بالباب، فأخذ يشدّه ويقول: «**اشدد**..

حيازيمَك للموتِ	**فإن الموتَ لاقيكا**
ولا تغترّ بالدهر	**إذا كان يواسيكا**
كما أضحكك الدهرُ	**كذاك الدهرُ يبكيكا»**

تقول أُمّ كلثوم: فرجعت إلى الحسن عليه السلام فقلت له: يا أخي، لقد سمعت أبي يقول كذا وكذا، فتبعه الحسن والحسين عليهما السلام فقال لهما: **«أقسمت عليكما بجدّكما إلّا ما رجعتما»**. فرجعا، ثم دخل المسجد يوقظ الناس إلى الصلاة، ثم وصل المئذنة فأذّن، وكان إذا أذّن اضطربت حيطان المسجد، ثم نزل وأقبل نحو المحراب، ووقف فيه ثم رفع رأسه إلى السماء ورمقها بطرفه، ثم رفع يديه حيال أُذنيه مكبّراً، ثم قرأ وانحنى للركوع، وما كاد يسجد السجدة الأُولى حتى سمع الناس قائلاً يقول: الحكم لله لا لك يا علي. وإذا بالسيف يهوي على هامة أمير المؤمنين عليه السلام، فسقط إلى الأرض وهو يقول: **«فزت وربّ الكعبة، لا يفوتنّكم ابن اليهودية؛ فقد قتلني»**. وإذا بالصوت بين السماء والأرض: **«تهدّمت واللّه أركان الهدى، وانفصمت العروة الوثقى، قتل أتقى**

☚ ٧٨٢ / ٨٧٤١

الأتقياء، قتله أشقى الأشقياء»[1]:

بعيد البله يا داحي الباب	**يا سور عزنه يبن الاطياب**
مطروح بويه على المحراب	**وتلوج من حر الصواب**

* * *

هذي المحاريب أين القائمون بها[2]

---

(١) انظر بحار الأنوار ٤٢: ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٨٦.

(٢) صدر بيت من قصيدة للشيخ كاظم سبتي الذاكر النجفي، وتمامه:

والليل مرخٍ من الظلماء أستارا

الأنوار العلوية: ٣٩٦. ومن جملة أبيات القصيدة:

فأي حادثة في الدين قد وقعت	فألبسته من الأشجان أطمارا
جار الزمان عليهم كم بهم ملأ الـ	ـدنيا مصاباً وكم أخلىٰ لهم دارا
هذي منازلهم بعد الأنيس فلا	ترىٰ بها غير وحش القفر زوّارا

﴿ ٨٥ ﴾

دور الصلاة في بناء المجتمع الرصين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمْ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

مقدّمة حول ماهية حكمة لقمان عليه السلام

هذه الصورة الإرشاديّة التي رسمها القرآن الكريم حكاية عن لقمان مع ولده فيها مجموعة من المضامين، منها أن الحكمة التي عرف بها لقمان هي عبارة عن النضج في التجارب. فالمؤشّرات التي في سلوكه، وما يرسمه عنه المؤرّخون تشير إلى أنه كان يستعمل أساليب دقيقة في الرياضة النفسيّة، إضافة إلى احتكاكه بمختلف الطبقات. فكان يستفيد من هذه التجارب على قدر ما يتّسع له عقله حتى عرف بالدقّة في تعبيره وفي سلوكه.

المبحث الأوّل: في مسؤوليّة الآباء تجاه الأبناء

ثم إن هذه الوصايا التي ذكرها عنه القرآن الكريم تتضمّن أُموراً كثيرة،

(١) لقمان: ١٧.

وأول ما يلفت النظر فيها تعبير القرآن الكريم بقوله: ﴿يَابُنَيَّ﴾، ونحن نعرف أن التصغير يأتي إمّا للتحقير، أو للتعظيم، أو للرقّة والشفقة. وهذه الأُمور تحدّدها القرائن. فلقمان﵇ حينما يقول لابنه: ﴿يَابُنَيَّ﴾، فالقرينة هنا تعيّن المراد من التصغير، وهو الشفقة.

ونفهم من هذه المحاورة أن القرآن الكريم يريد أن يحدّد لنا مسؤوليّة الآباء تجاه الأبناء؛ لأن بين الآباء والأبناء مسؤولية متبادلة؛ فالأب والأُمّ ـ باعتبارهما السبب الطبيعي في تكوين الولد ـ لابدّ أن يرسما له الطريق الطبيعي في الحياة كيلا يتعثّر. فالولد في أوّل حياته قليل التجارب، وإدراكه ليس عميقاً. لأن الإدراك لون من ألوان المهارة، وهو مهارة فكريّة، والتجارب تعمّق هذه المهارة.

فالأب يعتبر مجرّباً، وعليه أن يضع خلاصة تجاربه أمام الأبناء باعتبار أنهم وجدوا بسبب الآباء، وبلحاظ أنهم السبب الطبيعي في وجودهم، فيفترض بهذا السبب الطبيعي أن يلعب دوره في التوجيه كما لعب دوره في الإيجاد. فالأب والأمّ سبب في نعمة الوجود على الابن، ولكن إلى جانب نعمة الوجود هناك نعمة التربية. فليست مسؤوليّة الآباء أن يتسبّبوا في وجود الأبناء أو إخراجهم إلى عالم الوجود، وإنما تكمن حقيقة مسؤوليتهم في أن يجنّبوا أولادهم المصير المظلم والاعوجاج في السلوك. والقرآن يريد أن يبيّن لنا هذه المسؤولية.

وقد عرف عن الاسكندر أنه كان يحترم معلّمه أكثر من احترامه لأبيه، فقيل له: لماذا؟ فقال ما حاصله: لأن أبي أخرجني جسداً من دم ولحم، وهذا ليس وجوداً مشرّفاً لأنني أُشارك فيه حتى الحشرات، أما المعلّم فقد أنشأني

فكراً، والإنسان إنسان بفكره لا بدمه ولحمه ؛ ولذا يقول ابن الشبلي البغدادي:

صحةُ المرءِ للسقامِ طريقٌ ... وطريقُ الفناءِ هذا البقاءُ

بالذي نغتذي نموت ونحيا ... أقتَلُ الداءِ للنفوسِ الدواءُ

قبّح اللّهُ لذّةً لأذانا ... نالها الأمّهاتُ والآباءُ

نحن لولا الوجودُ لم نألمِ الفقـ ... ـرَ فإيجادُه علينا بلاءُ

فنحن نتألّم لأننا وُجدنا وسوف نفارق هذا الوجود، ولو لم نوجد لم يوجد الألم. وهذه نظرة تشاؤمية، لكنها تكشف عن أن الأبوين عليهما مسؤوليّة كبيرة تجاه الولد، فالمفروض بالأب أن يضع خلاصة تجاربه وخلاصة عقائده وأفكاره أمام ابنه. ونحن لا نطالب الأب بأن ينقل لابنه ما يحمل من موروثات أو قضايا خرافيّة أو خلفيّات غير مطلوبة، وإنما نطالبه بأن ينقل له عقيدته الصحيحة وخُلُقه، ويعلّمه تجارب الحياة بقدر حدود معرفته: **﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وسعها﴾**[١]. فلا يمكن أن نطلب من أب عامي أن يهذب ابنه غاية التهذيب، وإنما عليه أن يزوّده بخلاصة التجارب التي مرّ بها في الحياة؛ لأن اللّه قد حمّله مسؤوليّة ذلك.

نعم، إن التهاون الذي نراه عند الآباء ناتج من عدم الاهتمام بعظم المسؤوليّة، أو من ضعف الاعتقاد بالحياة بعد الموت. في حين أن أمير المؤمنين عليه السلام يقول: **«عجبت لمن أنكر النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى، وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء»**[٢].

---

(١) البقرة: ٢٨٦.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ١٢٦.

وأول ما يلفت النظر فيها تعبير القرآن الكريم بقوله: ﴿يَابُنَيَّ﴾، ونحن نعرف أن التصغير يأتي إمّا للتحقير، أو للتعظيم، أو للرقّة والشفقة. وهذه الأُمور تحدّدها القرائن، فلقمان﵇ حينما يقول لابنه: ﴿يَابُنَيَّ﴾، فالقرينة هنا تعيّن المراد من التصغير، وهو الشفقة.

ونفهم من هذه المحاورة أن القرآن الكريم يريد أن يحدّد لنا مسؤوليّة الآباء تجاه الأبناء؛ لأن بين الآباء والأبناء مسؤولية متبادلة؛ فالأب والأُمّ ـ باعتبارهما السبب الطبيعي في تكوين الولد ـ لابدّ أن يرسما له الطريق الطبيعي في الحياة كيلا يتعثّر. فالولد في أوّل حياته قليل التجارب، وإدراكه ليس عميقاً. لأن الإدراك لون من ألوان المهارة، وهو مهارة فكريّة، والتجارب تعمّق هذه المهارة.

فالأب يعتبر مجرّباً، وعليه أن يضع خلاصة تجاربه أمام الأبناء باعتبار أنهم وجدوا بسبب الآباء، وبلحاظ أنهم السبب الطبيعي في وجودهم، فيفترض بهذا السبب الطبيعي أن يلعب دوره في التوجيه كما لعب دوره في الإيجاد. فالأب والأُمّ سبب في نعمة الوجود على الابن، ولكن إلى جانب نعمة الوجود هناك نعمة التربية. فليست مسؤوليّة الآباء أن يتسبّبوا في وجود الأبناء أو إخراجهم إلى عالم الوجود، وإنما تكمن حقيقة مسؤوليتهم في أن يجنّبوا أولادهم المصير المظلم والاعوجاج في السلوك. والقرآن يريد أن يبيّن لنا هذه المسؤولية.

وقد عرف عن الاسكندر أنه كان يحترم معلّمه أكثر من احترامه لأبيه، فقيل له: لماذا؟ فقال ما حاصله: لأن أبي أخرجني جسداً من دم ولحم، وهذا ليس وجوداً مشرّفاً لأنني أشارك فيه حتى الحشرات، أما المعلّم فقد أنشأني

فكراً، والإنسان إنسان بفكره لا بدمه ولحمه؛ ولذا يقول ابن الشبلي البغدادي:

صحةُ المرءِ للسقامِ طريقٌ   وطريقُ الفناءِ هذا البقاءُ
بالذي نغتذي نموت ونحيا   أقتلُ الداءِ للنفوسِ الدواءُ
قبّح اللّهُ لذةً لأذانا   نالها الأمّهاتُ والآباءُ
نحن لولا الوجودُ لم نألمِ الفقـ   ـرَ فإيجادُه علينا بلاءُ

فنحن نتألّم لأننا وُجدنا وسوف نفارق هذا الوجود، ولو لم نوجد لم يوجد الألم. وهذه نظرة تشاؤمية، لكنها تكشف عن أن الأبوين عليهما مسؤوليّة كبيرة تجاه الولد، فالمفروض بالأب أن يضع خلاصة تجاربه وخلاصة عقائده وأفكاره أمام ابنه. ونحن لا نطالب الأب بأن ينقل لابنه ما يحمل من موروثات أو قضايا خرافيّة أو خلفيّات غير مطلوبة، وإنما نطالبه بأن ينقل له عقيدته الصحيحة وخُلُقه، ويعلّمه تجارب الحياة بقدر حدود معرفته: **﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفساً إلاَّ وسعها﴾**[1]. فلا يمكن أن نطلب من أب عامي أن يهذب ابنه غاية التهذيب، وإنما عليه أن يزوّده بخلاصة التجارب التي مرّ بها في الحياة؛ لأن اللّه قد حمّله مسؤوليّة ذلك.

نعم، إن التهاون الذي نراه عند الآباء ناتج من عدم الاهتمام بعظم المسؤوليّة، أو من ضعف الاعتقاد بالحياة بعد الموت. في حين أن أمير المؤمنين عليه السلام يقول: **«عجبت لمن أنكر النشأة الأخرى وهو يرىٰ النشأة الأولىٰ، وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء»**[2].

---

(١) البقرة: ٢٨٦.   (٢) نهج البلاغة / الحكمة: ١٢٦.

فالنشأة الأُخرى ليست غريبة؛ لأن الإنسان يعيش في مثلها، فالمعاد هو أن يُبعث الإنسان بعد أن يصير تراباً فيأتي إلى عالم مثل هذا العالم. فالذي أوجد الناس من التراب وجاء بهم إلى هذا العالم قادر على إعادتهم مرّة أُخرى، وهو أهون عليه. ولو أنك توّجهت بالسؤال إلى مهندس فرغ توّاً من بناء بيت: هل صحيح أنك تستطيع أن تبني بيتاً؟ فماذا سيكون ردّه عليك؟

المبحث الثاني: ماهيّة الصلاة وأن إصلاح النفس بها

من بعد هذه المقدمة أعود للآية فقد افتتحت بقوله: ﴿يَابُنَيَّ أَقِمْ الصَّلاَةَ﴾، والصلاة في عهد لقمان﷤ يقصد بها الدعاء، أي الوسيلة التي تصل الفرد بربّه. وهذا هو مضمون الصلاة، وكذلك صلاتنا الآن وما فيها من ركوع وسجود وغيره فإن وظيفتها توجيه الإنسان للاتّصال باللّه جلّ وعلا، فهي كالسيّارة التي تنقل الإنسان من بلد إلى آخر، مهما كان حجم هذه السيارة وشكلها وتصميمها، فالشيء الهامّ أن وظيفتها أن تنقلك من هذا المكان إلى ذاك. فمضمون الصلاة أنها توصل الإنسان بربه؛ لأن اللّه واهب الخير والجمال والنعمة والاستقامة، فعندما نتّصل به تعالىٰ نستوحي كلّ الأُمور الحسنة من هذا الاتصال.

ومن هنا نستدلّ على أن الشرائع السابقة كانت عندها روح الصلاة، وليست هي من مبتكرات الإسلام وإن كانت بأشكال أُخرى لكن المضمون واحد. ومن هنا ندرك الحاجة الملحّة والضرورة عند الإنسان لأن يتّصل باللّه حتى يحسّن سلوكه.

وقد يقول قائل: إن الوسائل الأُخرى كافية، وجوهر الدين كلّه هو الاتّصال باللّه، فمن الممكن أن تهذّبنا الثقافة أو الوسائل التي توصّل إليها الإنسان؛

فتخلق من الإنسان إنساناً طيّباً يستفيد منه الناس ويعيشون معه في أمان.

والجواب: أن الثابت عكس هذا. فالثابت أن وسائل الثقافة كلّها تعجز عن خلق الضمير المرهف، والثابت أيضاً أن العلم بكلّ أقسامه تحوّل إلى وسائل دمار لا إلى أدوات سلميّة منتجة مهمّتها خدمة الإنسان أو بنائه. فالإنسانيّة الآن على كفّ عفريت، ويمكن أن يحلّ بها الدمار في ساعات قليلة نتيجة خطأ ما؛ فليس أكثر من أن تتعرّض البلدان إلى أربع أو خمس من القنابل الذرية.

فالإنسان بقدر ما يقطع من طريق طويل في مسيرته العلميّة تبقى غرائزه تتحكم فيه، فإلى الآن نجد الشعوب التي قطعت طرقاً طويلة في المضامير العلميّة تعيش بغرائز حيوان الغابة. فالإنسان الأول الذي كان يعيش في الغابة لا زال حيّاً إلى الآن بغرائزه ولم يستطع العلم أن يغيّر منها شيئاً أبداً. وما زال هذا الذي اخترع ذلك الاختراع مستعدّاً لتدمير البشريّة إذا لم تستجب لرغباته. فهو إما أن يستعمر الناس ويسلب خيراتهم أو أن يحرقهم ويدمّرهم.

فغريزة الذئب لا زالت كما هي لم تتغيّر، ولا يستطيع أن يغيّر ذلك إلّا الدين وحده؛ لأن الدين يصل أعمق المشاعر عند الإنسان فيهذّبها، ويشعره بالمسؤوليّة وأنه جزء من البشريّة، وأن الضرر الذي ينال المجتمع يناله.

وهو لا يشعره بالمسؤوليّة في الدنيا فقط وإنما يحمّله إيّاها غداً في العالم الآخر، أمّا العلم فإنه إن أراد أن يحمّله المسؤولية فإنما يحمّله إيّاها في الحياة فقط، وتكون بشكل سطحي. فالدين يخلق عنده الضمير المرهف الذي يبعده عن فعل الأذى للآخرين، ويصوغه كياناً مهذّباً يتعايش مع الناس تعايشاً مثاليّاً؛ ولذا نلاحظ أن فكرة الصلاة كانت قبل الإسلام؛ وذلك

لحاجة البشريّة إليها.

وقد يسأل سائل: إن الكثير من المصلّين لا يعرف من الصلاة أكثر من أنها ضريبة مفروضة عليه، فلا يفهم من معناها ومحتواها شيئاً.

والجواب: أنه حتى مع التسليم بوجود هذا اللون تبقى الصلاة وسيلة تهذيب يمكن أن ترقى بمشاعره يوماً فتجعله يفهم معناها. فالصلاة أداة قابلة لأن يتطوّر الإنسان لفهمها فهماً صحيحاً. والأصل في الصلاة أن تهيمن على تفكير الإنسان وأعصابه وسلوكه وتخلق منه المواطن الذي يريده الدين؛ ولذا فإن اللّه تعالى أولى الصلاة أهمّيّة على لسان نبيّه، يقول﴿﴾ عن الصلاة: **«إنها نور الوجه، وهي الأنيس في الوحشة، وهي الخديم في الوحدة»**.

و **«اذا دخل الإنسان في قبره كانت الصلاة عن يمينه، والزكاة عن شماله»**[1].

وليس هناك من صلة بين العبد وربّه أعظم من الصلاة بمعناها الذي يريده الإسلام.

والملاحظ في الآية أن لقمان﴿﴾ يقول لابنه: ﴿يَابُنَيَّ أَقِمْ الصَّلاَةَ﴾، ومعنى القيام بالأمر التهيّؤ له، مثل أن يهيئ الإنسان نفسه لتحمّل مسؤوليّة كبيرة، يقال: قام فلان بالأمر، أي استطاع أن يكون بمستوى المسؤوليّة. فهو﴿﴾ يقول لابنه: حاول أن تنهض بمسؤوليّة الصلاة، وأن تفهمها فهماً صحيحاً، لا أن تتعامل معها على أنها مجرّد حركة شفاه أو غير ذلك، وإنما عليك أن تفهمها على أنها وسيلة لصقل مشاعرك وتهذيب سلوكك وأنها تبيّن الطريق الصحيح لك.

---

(١) مشكاة الأنوار: ٦٣، مسكن الفؤاد: ٥٠.

ومن المؤكّد أن الإنسان يستطيع تربية وتهذيب غيره، ولكن من الصعب عليه أن ينهض في تربية وتهذيب نفسه، والسبب أن نفسه تريه العيوب حسنات. فإذا رأى سيّئة عند غيره فإنه يضخّمها وإن كانت صغيرة، لكنه إذا رأى في نفسه سيّئة فإنه يصغّرها بل ينساها ولا يراها وإن كانت كبيرة، وذلك بسبب حبه لنفسه. ولكنه إذا روّض نفسه للنهوض بهذا العبء الثقيل استطاع أن يربّيها ويهذّبها؛ ولذا عبّر القرآن الكريم بهذا التعبير: ﴿يَابُنَيَّ أَقِمْ الصَّلاَةَ﴾.

المبحث الثالث: المرحلة الثانية من مراحل الإصلاح

ثم قال تعالى على لسان لقمان‌عليه‌السلام: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾، فالآية الكريمة بيّنت لنا أولاً أن الإصلاح يبدأ من النفس فذكرت الصلاة، ثم انتقلت إلى الأمر بالمعروف وهو إصلاح الغير. فالإنسان عندما يقيم الصلاة ويوجد عنده الشعور بالرادع النفسي يتمكّن عندها من أن ينتقل إلى إصلاح غيره.

ويظهر أن المعروف مرحلة سابقة على الشرع، أي أنها مرحلة يحدّدها العقل. في حين أن البعض من الناس يقول: إن الأديان تلغي العقول، وتطلب من الإنسان أن يتعبّد بأشياء دون أن يسأل عنها. غير أن الأمر ليس كذلك، فالآية تبيّن أن المعروف قبل أن يؤمر به يكون معروفاً عند الناس أنه معروف.

لكن ما هو هذا المعروف؟ المعروف هو ما تسالم عليه العقل البشري أنه حسن. فأنت لو سألت أياً من الناس عن الخيانة لقال لك: إنها مذمومة، وليس من الضروري أن يقول عنها القانون أو الشرع: إنها كذلك، وإنما هي

مذمومة عقلاً قبل ذلك. ولو سألت أياً من الناس عن الصدق لقال لك: إنه ممدوح، وهو فضيلة كبيرة، والإنسان إذا تحلّى بالصدق كملت إنسانيّته، ولا حاجة إلى أن يمدح اللّه الصدق ليكون ممدوحاً. فهذه مسلمات تسالم عليها العقل البشري، والشرع سيّد العقلاء، فإن حكم العقل بشيء حكم به الشرع؛ فعندما يقول القرآن: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فالظاهر من ذلك أن المعروف موجود قبل الأمر به.

حول التحسين والتقبيح العقليّين

وفي هذه المسألة نزاع بين المعتزلة والأشاعرة والإمامية، وهي مسألة الحسن والقبح العقليّين، فهل إن الأشياء القبيحة أو الحسنة قبّحها وحسّنها الشرع، أو إنها في العقل قبيحة أو حسنة؟ يقول الأشاعرة ـ وهم المذاهب الأربعة ـ: «إن الحُسن والقُبح من الشارع، فليس هناك شيء قبيح أو شيء حسن إلّا إذا قبّحه أو حسّنه الشرع، فلو أراد اللّه أن يعذّب المطيع يوم القيامة فلا يعتبر عندهم قبيحاً. وكذلك إذا أراد أن يدخل العاصي الجنة. وهذا إنكار لبديهيّات العقل كما هو واضح.

أمّا المعتزلة والإمامية، فيختلفون معهم في هذه المسألة؛ فالحسن والقبح عندهما عقليّان وليسا شرعيّين، ودور الشرع هو إيجاد بعض الأحكام التي ترشد إلى حكم العقل، فهي أحكام إرشادية لا أنها تؤسّس له. فاللّه تعالى حينما يقول: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ﴾[1]، فإنه يرشد إلى القاعدة العقليّة لا أنه يؤسّس لها. وعندما يقول: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾، فهو إنما يعني أن

---

(١) الرحمن: ٦٠.

المعروف قد كان معروفاً قبل أن يأمر به .

الهدف من عملية الأمر بالمعروف

هنا يمكن أن تثار عدّة نِقاط في هذا الموضوع، منها:

الأولى: العمل على إيجاد روح جماعيّة لمعالجة النواقص

فالسؤال الذي يُطرح هنا هو: ما هو الهدف من الأمر بالمعروف؟ إن الهدف منه هو العمل على إيجاد روح جماعيّة لمعالجة النواقص، فلو أن محلّة سكنيّة فيها شخص منحرف في سلوكه فيكفي للمحلّة أن تقاطعه فقط، فتُشعره بحقارته. وهذا اللون من السلوك الأدبي يكفي في خلق الضمير. ذكر لي أحد الأشخاص قائلاً: إنني كنت أرى الناس في أوروپا لا يلقون الأوساخ على الأرض، أما أنا فلم أستطع أن أُحاكيهم أو أن أفعل مثلهم تماماً، فكنت بين الفترة والأُخرى أرمي الأوساخ على الأرض وأطؤها بقدمي.

إن هذا الإنسان رُبي في مجتمع مختلف، وهو يريد أن يفلت من رقابة المحيط، ولكنه لو بقي في هذا البلد سنة واحدة لانسجم معه؛ لأنه سوف يحس بأن رقابة المحيط تلاحقه أدبيّاً. وهذا هو الذي يريده الإسلام من الأمر بالمعروف، فرقابة المحيط تصوغ شخصيّته، وسوف يتفاعل مع المجتمع عن طريق عمليّتي التأثير والتأثّر التبادليّتين. فعندما يرى أحدنا المجتمع نظيفاً فسيكون مثله حتماً.

فالقرآن الكريم يريد أن يخلق فينا هذه الرقابة الاجتماعية وأن يؤكّد عليها ويرسّخها في نفوسنا.

الثانية: أنه يجب أن يتجاوز إلى الجانب العملي

وهنا مسألة يجب أن نؤكّد عليها، وهي أن الأمر بالمعروف هل يقتصر

على الجانب اللفظي، أم أنه يجب أن يتعدّى إلى الجانب العملي الاجتماعي في الحياة؟ فالإنسان تارة يطلب من ابنه أن يميط الأذى عن طريق المسلمين دون أن يريه أنه يقوم بذلك بنفسه، وتارة يقوم بذلك بنفسه فيميطه عن طريقهم. فهذا الفعل حتماً سيؤثّر فيه أكثر من الكلام. فالمرحلة العمليّة تدخل ضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشكل أكثر فاعلية.

الثالثة: أنه يحتاج إلى جهاد حقيقي ليتحقّق الهدف منه

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يحتاج إلى أكثر من هذا العمل البسيط كي يحقق هدفه. فعندما يطلب الآمر بالمعروف من بعض الناس ألّا يغشّوا ولا يسرقوا وأن يكونوا أُمناء في البيع والشراء، فإن هذا لا ينفع ولا يؤثّر فيما إذا كان الإطار الاقتصادي الذي يعيش فيه مبنيّاً على الغش والسرقة؛ لعوز أو ليقال عن ذلك السارق أو الذي يغش: إنه ذكي، وذلك فيما إذا غشّ غيره في البيع أو الشراء مثلاً. فلا تكون عنده حينئذٍ حسّاسية إزاء الفعل الشنيع.

فنحن مثلاً عندما نرى اللص ونمدحه بأنه «زلمة ليل» ـ أي رجل ليل ـ فهذا المدح بحدّ ذاته يكون مصنعاً لتخريج اللصوص. أما لو قلنا عنه: إنه وحش معتدٍ، فإننا نؤدّبه حينها.

وعليه فإن الإطار الحضاري أو الاجتماعي أو الاقتصادي يكون أحياناً سبباً في صياغة الشخصيّة. فعندما نريد أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر فلا بدّ أن نغيّر هذه الأُطر التي يعيش الناس بداخلها، فإن تغيّرت تغيّر الأفراد الذين يعيشون بداخلها. أما إذا تركّزت المحاولة على الفرد لوحده وعلى انتشاله من هذا الواقع، فلا فائدة من ذلك. وهذا الأمر أشبه بما لو أن طبيباً

حاول معالجة مريض بالملاريا بزرقه أُبرة ضدّ المرض دون أن ينتشله من المستنقع الذي يعيش فيه والذي يمدّه بأسباب المرض. أما إذا قام بتجفيف ذلك المستنقع فإنه حينها سيمنع عنه المرض بشكل نهائي.

فالقرآن الكريم عندما يقول: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾، فإن من لوازمهما أن المعروف معروف في العقل، والمنكر كذلك منكر في العقل، قبل أن ينصّ الشرع على كونهما معروفاً أو منكراً.

وهذا مانستفيده من سلوك بعض المجتمعات التي ليس فيها دين، فإنها تسمي بعض الأشياء منكرةً، أو أنها عيب، وهذا ناتج من الفطرة النظيفة التي يسلّح اللّه بها الإنسان. وهذه نقطة مهمة فاللّه تعالى يخلق الإنسان صحيفة بيضاء ذا فطرة نظيفة، لكن المجتمع هو الذي يلوثه. فالإنسان في أول الخلق مجموعة من المشاعر النظيفة والذهن الخالي والنفسية التي لا عقد فيها، لكنه عندما يأتي إلى المجتمع تبدأ نفسيته بالتغيّر.

فالمنكر تدركه المجتمعات بفطرتها، ثمّ تأتي الأديان لتؤكّد أحكام الفطرة، فتطلب من الإنسان أن يتمسّك بما فطره اللّه عليه؛ فإن تمسّك به حفظ بنيته.

لقد لاحظت هذه السنة في أوروبا أن كل واحدة من العجائز تصطحب معها كلباً، ومن النادر جدّاً أن تجد من لا تصحب معها كلباً، فسألت أحد الأوروبّيّين قائلاً: إن الكثير منكم يعرف خطر الكلب وما به من أضرار، فما هذه الظاهرة التي أراها؟ قال: إن هذه الظاهرة ضروريّة؛ لأن الولد هنا إذا بلغ الخامسة عشرة أو أكثر انفصل عن الأبوين وخرج منهما، وكذلك البنت؛ فيبقى هذا الأب أو الأمّ في سنّ الشيخوخة حبيسي الدار وحدهما ليلاً

ونهاراً، فلا جليس ولا أنيس؛ فيضطرّ لاتّخاذ أنيس مثل الكلب. فالأُسرة هنا منهدمة انهداماً مروعاً؛ فليس للأب سيطرة على ولد ولا على بنت.

فشكرت اللّه تعالى من أعماق قلبي، وقلت: يا ربّ، نشكرك على هـذه البقية الباقية من أخلاقنا؛ نحن نأنس بأبنائنا وهم يأنسون بنا. يـا ربّ أدم علينا هذا الجوّ الأُسري من الشعور المتبادل بالعطف، وهذا الجوّ الإنسـاني الجميل. أهذا هو الرقيّ؟ وهل معناه أن يترك الإنسان الذي خلقت الدنيا كلّها من أجله بهذا الشكل في هذا العمر؟

إن الإنسان بطبعه حتى البدائي يميل إلى الأُسرة بفطرته؛ ولذا فإن النـظم الاجتماعيّة والعقائد التي حاربت الأُسرة لم تستطع القضاء عليها، بل فشلت في اقتلاعها من النفس. صحيح أنها استطاعت إجـبارها عـلىٰ ذلك بـدافـع العمل، فاستطاعت أن تمزّقها إلى حدّ ما، لكنها لم تستطع اقتلاعها من نفس الإنسان. فلا يزال الأب يحنّ للولد، والولد يحنّ إلى نـظام الأُسـرة. فـنظام الأُسرة نظام طبيعي تحنّ إليه النفس بفطرتها. فالنهي عن المنكر رجوع إلى الفطرة السليمة.

المبحث الرابع: في معنى الصبر على المصيبة

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾، وللمفسّرين في الصـبر في هذا المقطع رأيان:

الرأي الأوّل: أنه انتظار المكروه بعد الأمر بالمعروف

ومعنى ذلك أنك إذا تعرّضت للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فانتظر أن يصيبك المكروه بسببه. فأنت تنتظر من يشتمك وينبزك؛ فهناك مثلاً فئة من الناس تعمل بالربا وتعتاش به، فعندما تنهاهم وتدفعهم عنه وتشتم الربا فإن

هؤلاء ـ دفاعاً عن أنفسهم ـ لا يقولون: إن هذا يشتم الربا، وإنما يخترعون لك رذيلة ما، ويلصقونها بك من أجل المحافظة على كيانهم. وكذلك عندما تعارض وتحارب الرذيلة والطغيان، فإن هناك من يعيش عليهما، فيخلقون لك ألف طريق وطريق لانتقاصك وسبّك محاولين بذلك أن يصموك به. فالآية الكريمة إذن تقول لك: اصبر على ذلك.

ولو رجعنا إلى قريش لوجدناها لم تترك شيئاً إلّا اخترعته للنبي ﷺ حينما أعلن رسالة السماء، فقد قالوا عنه: ساحر ومجنون وكذاب، حتى إنه ﷺ كان يوماً يمشي ومعه عمّته صفيّة بنت عبد المطلب، فمرّ به بعض الصحابة، فقال ﷺ لهم: **«قفوا، إن هذه عمتي صفية»**. فقالوا: وما ذلك يا رسول اللّه؟ وهل نتّهمك أنت؟ فقال ﷺ: **«إنني أعرف أن هناك من يقول غداً: رأيت النبي ومعه امرأة يريد أن يفجر بها»**. وقد حدث منهم مثل ذلك فعلاً[1].

إن هذا جاء من كون النبي جابههم في أُمور يعتاشون عليها فأراد إصلاحهم. فلما جابههم حاولوا أن يصموه بما لا يليق به، وهذا هو درب المصلحين. فالقرآن يريد من النبي ﷺ والأنبياء عليهم السلام كافّة أن يصبروا على

---

(١) ومنه فرية إهداء الخمر إليه ﷺ، فعن عبد الرحمن بن غنم أن الداري كان يهدي لرسول الله ﷺ كل عام راوية من خمر، فلما كان عام حرّمت جاء براوية، فلما نظر إليه نبي الله ﷺ قال: «هل شعرت أنها قد حرّمت بعدك». مسند أحمد ٤: ٢٢٧.
ورووا عن نافع بن كيسان أنه قال: إن أباه كيسان أخبره أنه كان يتجر في الخمر في زمن النبي ﷺ، وإنه أقبل من الشام ومعه خمر في الزقاق يريد بها التجارة، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، جئتك بشراب جيّد. فقال رسول الله ﷺ: «يا كيسان، إنها حرّمت بعدك». مسند أحمد ٤: ٣٣٥، فتح الباري ٨: ٢٠٩، نصب الراية ٤: ٥٤٨، كنز العمّال ٥: ٤٩٥ / ٢٣٧٢٢.

الشتم وعلى ما ينالهم في طريق الخير؛ لأن هذا جهاد، وهو ما أكّد عليه لقمان في وصيّته لابنه.

الرأي الثاني: أنه الصبر على مشاكل الحياة

أي اصبر على ما أصابك من مشاكل الحياة بشكل عامّ، فالدنيا ليست بدار رخاء، يقول تعالى فيما أوحىٰ إلىٰ داود: **«إني وضعت خمسة في خمسة، والناس يطلبونها في خمسة غيرها فلا يجدونها: وضعت العلم في الجوع والجهد وهم يطلبونه في الشبع والراحة فلا يجدونه، ووضعت العزّ في طاعتي فهم يطلبونه في خدمة السلطان فلا يجدونه، ووضعت الغنىٰ في القناعة[1] وهم يطلبونه في كثرة المال فلا يجدونه، ووضعت رضاي في سخط النفس وهم يطلبونه في رضا النفس فلا يجدونه، ووضعت الراحة في الجنة والناس يطلبونها في الدنيا فلا يجدونها»**[2].

---

(١) قال أبو ذؤيب:

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا تردّ إلى قليل تقنع

الجامع لأحكام القرآن ٥: ٣٣٨، أسد الغابة ٥: ١٩٠، الإصابة ٧: ١١٠، ١١١.

وقال آخر:

فيغنىٰ غني النفس إن قلّ ماله ... ويغنىٰ فقير النفس وهو ذليلُ

تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ١٠.

وقال الشيخ كاشف الغطاء:

يا طالب الدنيا الدنيّة إنها ... كأس الردىٰ وقرارة الأقذارِ

وقال أبو الفرج الساوي:

هي الدنيا تقول بملء فيها ... حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي

فلا يغرركُمُ مني ابتسام ... فقولي مُضحك والفعل مبكي

شجرة طوبىٰ ١: ١٣٧، شرح نهج البلاغة ٣: ٣٣٥.

(٢) عدّة الداعي: ١٦٦، عوالي اللآلي ٤: ٦٢ / ١١.

فأنت لا تجد راحة في كلّ شيء، فحتّى ما تتصوّره نعيماً فهو ليس راحة، بل هو ليس هو أكثر من دفع أذى، ونحن نسميه لذّة، وإلّا فإن الدنيا ليس فيها لذّة واقعيّة.

فالقرآن يقول: إن الدنيا محيط سوف تنزلون إليه، وسوف تتعرّضون فيه إلى مصائب وآلام ومشاكل، فإيّاكم أن تنهاروا أمام هذه المشاكل، بل عليكم أن تصبروا أمامها، وألّا تتّبعوا ما يسخط اللّه في تعاملكم معها.

كان ربعي بن خراش أحد الأبرار من بني عبس وكان يعيش في الكوفة، فخرج اثنان من أولاده يقاتلون الحجّاج مع عبد الرحمن بن الأشعث في خروجه عليه، فلما انهزم بعد ذلك انهزم معه هذان الولدان، فطلبهما الحجّاج وسأل عنهما فقيل له: أبوهما يعرف مكانهما، وهو رجل لا يكذب، فابعث خلفه واسأله. فأحضره الحجّاج، فقال له: أين ولداك؟ قال: ماذا تريد منهما؟ قال: أُريدهما. قال: إنهما عندي في البيت. قال له الحجّاج: تقول ذلك وأنت تعلم أني سوف أضرب عنقيهما؟ قال: واللّه هما أحقر في عيني من أن أعصي اللّه من أجلهما. فأكبر الحجّاج هذا الموقف واهتزّ من أعماقه، وقال: واللّه لا يضرّك الصدق عندي، اذهب وأخبرهما أنهما آمنان.

وهذا أُنموذج مشرّف من الخلق العالي والتربية التي يصبّر نفسه عليها، وهناك نماذج أُخرى تندرج تحت هذا النوع من الخلق في الصبر عند المصيبة والتصبّر عليها؛ فتمرّ عليه المصيبة فيصمد أمامها. يقول أحدهم: مررت بمقبرة فرأيت امرأة تبكي وحولها أربعة قبور، فسألتها: من هؤلاء؟ قالت: أولادي الثلاثة وأبوهم صرعوا في ساعة واحدة. ثم وقفت على القبور وراحت تنشد:

صبرتُ وكانَ الصبرُ خيرَ وسيلةٍ ... وهل جزعٌ مني يؤدّي فأجزعُ
صبرت على ما لو تحمّل بعضَه ... جبالٌ برضوى أصبحت تتصدّعُ
وفاضت دموعي حسرةً فرددتها ... إلى ناظري فالعينُ بالقلبِ تدمعُ[1]

هذه المرأة أنموذج رائع في الصبر، وهناك شَبَه كبير بينها وبين أمّ البنين (سلام الله عليها)؛ لأن أم البنين وقفت موقفاً نبيلاً يعسر على الألفاظ أن تصفه. وقد كانت كذلك في حياتها، فقد كرّستها كلّها لخدمة الحسنين﵉، ولم تكن تُعنىٰ بأولادها. وقد كان عند الإمام أمير المؤمنين﵇ الكثير من الأولاد، وقد تأخّر قسم منهم عن الطفّ ولم يلتحقوا بالحسين﵇، ولم يكن لهم شأن به، لكن أولاد أمّ البنين (سلام الله عليها) قدّمهم العباس﵇ يوم الطفّ واحداً بعد واحد. ويأتي أحد المؤرّخين التافهين فيقول: إن العباس قال لإخوته: تقدّموا حتى أرثكم[2]. وهل كان العباس يرغب في أن يعيش بعدهم حتى يرثهم؟ إنه﵇ إنما قال لهم: «تقدّموا حتى أُرزأ بكم فأحتسبكم»[3].

فهو (سلام اللّه عليه) قدّمهم حتى يحصل على اللوعة في فراقهم من ناحية، والأجر عليه من ناحية أُخرى، وقد صرع هؤلاء الأربعة، ولم تذكر أُم البنين (سلام الله عليها) واحداً منهم إطلاقاً. يقول بشر: مررت بالمدينة وأنا أقول:

يا أهل يثربَ لا مقامَ لكم بها ... قتل الحسينُ فأدمعي مدرارُ
الجسمُ منه بكربلاءَ مضرجٌ ... والرأسُ منه على القناةِ يدارُ

(١) مسكّن الفؤاد: ٧٧ ـ ٧٨.
(٢) انظر تاريخ الطبري ٤: ٣٤٢، الكامل في التاريخ ٤: ٧٦.
(٣) مقاتل الطالبين: ٨٢، مقتل الحسين﵇ (أبو مخنف): ١٨٤.

فامتلأت المدينة عويلاً ونحيباً، فانفتح باب بيت، وخرجت منه امرأة وقور وعلى كتفها طفل، فأقبلت تشقّ طريقها وهي تقول: أيّها الناعي، قف لي قليلاً حتى أسألك. أخبرني عن الحسين، هل هو حي أم لا؟ فعجبت من ذلك؛ لأنني كنت أنعى الحسين عليه السلام، فكيف لم تدرك هذا؟

ثمّ رجعت إلىٰ البيت، وطرقت الباب علىٰ زينب عليها السلام فقالت لجاريتها: ويحك افتحي الباب لشريكتنا في العزاء. فدخلت أُمّ البنين، ولما وقع بصرها علىٰ زينب صاحت: واولداه وا حسيناه. فأجابتها زينب: وا أخاه وا عباساه:

صاحت صوت يا فكد الاطياب	واللّه شموع يا دار الاحباب
هناك وتسمع الصرخة على الباب	أنا ام عباس جيتچ لا تفترين

* * *

بچت زينب وصاحت تلگنها	باللّه وياي گومن ساعدنها
هاي ام البنين الراح منها	أولاد أربعة خوتي الميامين



﴿ ٨٦ ﴾

وراثة الأنبياء عليهم السلام وقضيّة فدك

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

توطئة

نبي الله سليمان عليه السلام يعتبر الملك الثاني لبني إسرائيل؛ حيث كان الملك الأول «طالوت». وهو عليه السلام جمع إلى جانب الملك النبوّة، أي أنه كان يمسك بزمام السلطة الدينية والسلطة الدنيوية، وكانت فترة ملكه مع أبيه داود عليهما السلام (٧٠) سنة. وخلال هذا الحكم استقرّت أُمور الدولة إلى حدّ ما، ثم حدث بعد ذلك صراع وانقسمت الدولة إلى قسمين: مملكة يهوذا، ومملكة إسرائيل، وكانت بينهما حرب طاحنة، إلى أن جاء نبوخذ نصّر فقضى عليهما معاً، وشتتهما فلم تقم لهما قائمة إلى سنة (١٩٤٨)م حيث أسّسوا دولتهم الجديدة.

---

(١) النمل: ١٦.

يقول المؤرّخون: إن نبي الله داودعليه السلام أثناء حكمه كان يقوم بجولات بين الناس ويسألهم، حيث إنه يسمع مايقال فيه، و«ألسنة الناس أقلام الحقّ»، فأراد أن يتعرّف مبلغ رضاهم عنه، فسأل أحدهم: **«ماتعرف عن داود؟»**. فقال له: نعم الرجل؛ يقول ويعمل بالحقّ. وأثنىٰ عليه ثناء حسناً. فقال له: **«هل ترىٰ به عيباً؟»**. قال: بلىٰ. قال‏عليه السلام: **«ماهو؟»**. قال: إنه يأكل من بيت المال، إن خير الناس من يأكل من كسبه .

فرجع النبي داودعليه السلام متألّماً، ووقف في محرابه، وقال: **«أي رب، علّمني كسباً تغنيني به عن بيت المال»**. فألان اللّه تعالى له الحديد[1]. فأخذ يصنع من الحديد دروعاً ويبيعها، ثم يأخذ ثمنها ويقسمه أثلاثاً؛ فيعطي ثلثه لبيت المال، ويتصدق بثلثه الثاني، والثلث الآخر يعيش به. قال تعالى: **﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**[2]، فكان يتناول طعامه من كدّ يده.

فأكل الإنسان من عمله ومن كدّ يده يعدّ من أعظم المقرّبات إلى اللّه عزّ وجل؛ لأن الإنسان بالعمل يشعر بالكرامة والاعتزاز بالنفس، وهذا هو الذي دفع بالإمام علي‏عليه السلام إلى أن يعمل ويأخذ مسحاته ويردّد هذه الآية: **﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾**[3]، وكان عرقه يمتزج بالتراب. وكان لايميّز نفسه الشريفة بالعطاء من بيت المال حتىٰ عن قنبر[4]، لكن الجماعة الذين

---

(١) المبسوط (السرخسي) ٣٠: ٢٤٦، تفسير القرآن العظيم ٣: ٥٣٥.

(٢) سبأ: ١٠ ـ ١١. (٣) الحاقة: ١٨.

(٤) وقد مرّ بنا قصة الثوبين اللذين اشتراهما وأعطىٰ غلامه قنبراً أحسنهما. انظر ص ٨٢، ١١٤، ٢٣٧ من هذا المجلد.

عاصروه لم يدركوا أسرار عظمته ونبله وحقيقة شخصيّته.

وهذه الآية يصنّفها المفسّرون ضمن الآيات المختصّة بالفقة السياسي، حيث إنه قد أُثير صراع حول أن النص إما أن يفهم موضوعيّاً ـ أي بما يحمله اللفظ من معنىً، فقط ـ فالماء يدل على السائل الذي نشربه، وإما أن يُفهم منه شيء آخر يؤوّل إليه.

المبحث الأول: هل يورّث الأنبياء عليهم السلام؟

إن قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ هو في الميراث المألوف بين الناس؛ لأن الآية بضميمة آيات[1] وروايات أُخرى[2] تؤكّد أن الأنبياء عليهم السلام كباقي الناس يرثون بعضهم بعضاً. فالمسألة إذن عامة ولايتميّز بها الأنبياء عليهم السلام عن غيرهم من سائر الناس، فكما أن الناس يأكلون ويشربون ويعملون ويتزوّجون فكذلك هم عليهم السلام يفعلون مثلهم. لكن هناك أشياء يختصّ بها النبي صلى الله عليه وآله؛ منها أنه يستطيع أن يتزوّج من أكثر من أربع نساء.

ونظرية الميراث ترتبط بالقابليّات الفطريّة، فعندما يموت الأب فإنّ الابن يرث جسداً ضخماً وذلك حسب الجينات الوراثية، فهم كما يعطون الخواصّ الوراثيّة، فكذلك عليهم أن يعطوا الخواصّ الماديّة. هذا من ناحية، ومن

---

(١) انظر: النساء: ١٧٦، مريم: ٦، الأنبياء: ٨٩.

(٢) انظر: جامع البيان، المجلد: ١١، ج ١٩: ١٧٢ حيث قال في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾: «ورث سليمان أباه داود العلم الذي كان أتاه اللّه في حياته، والملك الذي كان خصّه به علىٰ سائر قومه»، معاني القرآن ٥: ١٩٩ / ١٥، قوله: ويروىٰ أن سليمان ورثه النبوة والملك، زاد المسير ٦: ٦٠، وقد ذهب القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٣: ١٦٩ إلىٰ أن الملك غير المال. وليس بشيء؛ لأن المال من لوازم الملك يورث معه.

ناحية أُخرىٰ إن الآباء إنما يلدون الأبناء لتبقىٰ مسيرة الإنسانيّة ـ أي ليستمرّ النوع ـ وكذلك المادّة يحب أن تستمرّ، حيث إن الأب يعطي ماله لأبنائه هكذا.

وكذلك فإنّ هذه المسألة ترتبط بمبدأ من مبادئ الاقتصاد الإسلامي في تفتيت الثروة، فالثروة إذا تضخّمت عند الأب، فإن الميراث يجزّئها على الأولاد، وإن كانت الثروة لاتضخّم في الإسلام، لكنها ربما كانت من رباً أو غشّ أو استغلال.

قضيّة فدك ودعوى «لا نورّث»

فنظريّة الميراث يتساوىٰ بها الناس جميعاً، ولهذا وقع خلاف بين السيدة فاطمة الزهراء﵀ وبين الخلافة، حيث استشهد الخليفة بهذه الرواية: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورّث، ماتركناه صدقة**». وقال: إن هذه الرواية تخصّص العمومات في القرآن؛ حيث إن القرآن يقول: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ**﴾، و﴿**فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ**﴾[1]، ﴿**وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ**﴾[2] وذلك بعد أن ادّعت (سلام الله عليها) أنها قد ورثت فدكاً من أبيها رسول اللهﷺ.

وحديث «**لا نورّث**» لم يروِه إلّا الخليفة أبو بكر، وقد انفرد بروايته. هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإنّ التكليف عادة عندما ينزل فإنه يبلّغ لأهل الشأن والاختصاص أوّلاً. فمثلاً حينما امتنع ثعلبة عن أداء الحقّ الشرعي

---

(١) مريم: ٥ ـ ٦.	(٢) الأنفال: ٧٥.

نزلت به آية، فبلّغه النبيصلى الله عليه وآله بذلك[١]. وكذلك خولة بنت خويلد لما ظاهر منها زوجها نزلت بها آية، فبلّغها النبيصلى الله عليه وآله بذلك[٢]. أي أن الذي تنزل فيه آية يبلّغ بها أوّلاً وقبل أي أحد[٣].

فنظرية الميراث عامّة. وحينها فنحن إما أن نقول: إن النبيصلى الله عليه وآله لايدري ماذا سيحدث بعده بما أنه لم يبيّن ذلك للزهراءعليها السلام، أو أنهصلى الله عليه وآله كان يدري لكنه سكت. لكن من حقنا هنا أن نتساءل: لماذا سكت ولم يستدعِ فاطمة ويقل لها: «**نحن معاشر الأنبياء لانورِّث، ماتركناه صدقة**»، فلا تطالبي بالميراث؟ وهذه الفكرة خطرت على شاعر أهل البيتعليهم السلام في هائيّته؛ حيث قال:

بضعةٌ من محمدٍ خالفت ما	**قال حاشا مولاتنا حاشاها**
سمعته يقول ذاك وجاءت	**تطلبُ الإرثَ ضلّة وسفاها**
هي كانت للّهِ أتقىٰ وكانت	**أفضلَ الناسِ عفّةً ونزاها**
ولكان الجميلُ أن يُقطِعاها	**فدكاً ما الجميلُ أن يَقطَعاها**
كان إكرامَ خاتمِ الرسِل الها	**دي البشيرِ النذير لو أكرماها**[٤]

ومن ناحية أُخرى كيف يمكن أن تكون الزهراءعليها السلام قد جهلت آية نزلت في بيتها؟ فحيث توجد قرائن نذعن إليها فإننا نقول بذلك، لكن المسألة التي تأخذ هذا المنحى لم تكن بالشكل الطبيعي.

---

(١) انظر مستدرك وسائل الشيعة ٣١: ٢٥٦ / ١٥٢٨٩.

(٢) انظر: مجمع البيان ٩: ٤٠٨، تفسير القرآن العظيم ٤: ٣٤١.

(٣) ومن ذلك حديث إسطوانة التوبة، أو إسطوانة أبي لبابة، وستأتي آخر البحث إن شاء الله.

(٤) الأبيات للسيّد الجذوعي. بيت الأحزان (القمي): ١٦٢.

فالإمام علي جمع القرآن، وقد كتبه وشرح غامضه، حيث كان يسمع الشرح من النبي ، فليس من المعقول أن تجهل الزهراء معاني آياته. وإلّا كيف يعقل أن أوس بن ملك الذي يتطهّر ببوله ويعيش في الصحراء يفهم القرآن[1]، والزهراء لا تفهم معناه؟ إن هذا مخالف للفطرة، وعناد للواقع.

وعليه فالميراث نظام شامل ليس له علاقة بفرد دون فرد، والأنبياء كسائر الناس يرثون ويورّثون.

ثم إن الإسلام نظّم الثروة وأساليب انتقالها، وميراث النبي لم يكن بذلك القدر الكبير الذي يستحق أن تحدث حوله هذه الضجة، فلماذا أُثيرت هذه الضجّة إذن؟

الزهراء استدلّت بعمومات القرآن: **﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾**[2]، فهذه الآية الشريفة شاملة للنبي وغيره، لكن أبا بكر ادّعى أن حديث: **«نحن معاشر الأنبياء لا نورِّث، ماتركناه صدقة»** قد خصّص العموم.

دعوى النحلة

وذلك بعد أن فشلت دعوى الميراث التي كانت الزهراء قد رفعتها، ومفادها أن فدكاً كانت نِحلة دفعها إليها النبي ، حينما نزلت الآية

(١) ذلك أنه جاء أوس بن ملك وعائشة وحفصة وشهدوا عند أبي بكر أن النبي قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث». انظر: الإيضاح: ٢٥٧ ـ ٢٦٢، المسترشد في الإمامة: ٥٠٨، بحار الأنوار ٣١: ٢٩٥.

(٢) النساء: ١١.

الكريمة: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾[1]. فسأل النبي صلى الله عليه وآله من جبرئيل عليه السلام مستفسراً: «**من هم ذوو القربى؟**». فقال جبرئيل عليه السلام: «**إن الله يأمرك أن تعطي فدكاً بُلغة لفاطمة، عوضاً عما أنفقته أمّها في سبيل الإسلام**». والإنفاق الذي كان من خديجة يفوق الوصف، فقد ذكر المؤرّخون أنه ما من بيت من بيوت مكّة إلّا كان يضارب بأموال خديجة[2]؛ فقد كان مجتمع قريش بأجمعه يتاجر بأموالها ويضارب بها. وقد ساقت هذه الأموال كلّها إلىٰ بيت النبي صلى الله عليه وآله، وانتهى الأمر بها أن تنام مع النبي صلى الله عليه وآله على جلد كبش.

فنادى النبي صلى الله عليه وآله فاطمة وأعطاها فدكاً بحضور الشهود على أنه نحلة لها. وقد كانت يد الزهراء عليها السلام على فدك ستّ سنوات تتصرّف به، والمسلمون يرونها، والنبي صلى الله عليه وآله أقرّها، فلو كان خاضعاً للملكيّة العامّة لكان النبي صلى الله عليه وآله انتزعه منها، أو نصّ على أنه ملّكها المنفعة فقط لا الأصل. ولكن لم يوجد من ذلك شيء.

ثم إن فدكاً كان للنبي خاصّة؛ لأنه ممّا لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ـ أي لم يأخذه المسلمون بقتال ـ وإنما أُخذ بصلح[3]، فقد تنازل أهلها عنه للنبي صلى الله عليه وآله وصالحوه مصالحة، وقالوا له: نصالحك على نصف أموالنا مقابل أن تقرّنا على هذه الأرض[4]. فاستدعى النبي صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام وأنحلها فدكاً.

---

(١) الإسراء: ٢٦.

(٢) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ١٢٣، شواهد التنزيل ١: ٤٣٨ ـ ٤٤٤ / ٤٦٧ ـ ٤٧٣، ٥٧٠ / ٦٠٨ الدر المنثور ٤: ١٧٧.

(٣) يوجف عليه: يسرع إليه، أو تُحثّ الخيل علىٰ الإسراع إليه. لسان العرب ٩: ٣٥٢ ـ وجف.

(٤) سنن أبي داود ٢: ٣٧ / ٣٠١٦، تاريخ الطبري ٢: ٣٠٦، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٦:

وقد جرت هذه الهبة في بيت أُمّ أيمن (رضي الله عنها) بحضورها وبحضور أمير المؤمنين والحسن والحسين[١]. ولذا ادّعت فاطمة عليه بدعوى النحلة.

وقد ردّها أبو بكر قائلاً: إن هذه ثروة، والمسلمون بحاجة إليها، ثم قال لها: نعطيك طعاماً وكساء فلا تحتاجين لشيء. فقالت: **«إن هذا نحلة أنحلنيه أبي»**. فقال: إن النبي حسب علمي لا يعطيكم هذا بأجمعه، بل يعطيكم حاجتكم، وما تبقّى يودعه في بيت المال.

دعوى الخمس

فقالت له: **«اذن أعطني سهم ذوي القربى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[٢] إن اليتامى يتامانا، والمساكين مساكيننا، وابن السبيل منا، واسم الله ذكر للبركة، وسهم النبي وسهم ذوي القربى كلّه يعود لنا، فأعطنا حقّنا من خمس الغنائم وما يحصل للمسلمين من مواردهم»**. فقال: إن مبلغ علمي أن النبي لم يكن يعطيكم هذا كلّه، وإنما كان يسدّ حاجتكم فقط، ونحن نعطيكم بهذا القدر، فمن لم يكن له طعام أعطيناه، ومن كان يحتاج اللباس كسوناه، ومن أراد التزويج زوّجناه، وما زاد على ذلك يعود إلى بيت المال.

ثمّ قال لها: أتراني أُعطي الأحمر والأبيض حقّه وأظلمك حقك، وأنت ابنة رسول الله؟ إن هذا المال لم يكن للنبي، وإنما كان مالاً من أموال

☚ ٣١٧، شرح نهج البلاغة ١: ١٩٨، ١٦: ٢١٠.

(١) تفسير القمي ٢: ١٥٥، بحار الأنوار ٢٩: ١٢٨.

(٢) الأنفال: ٤١.

المسلمين يحمل النبي به الرجال، وينفقه في سبيل اللّه، فلمّا توفّي رسول اللهﷺ وليتُه كما كان يليه[١]. فهو يريد أن يقول لها: أنا أسدّ حاجتك، لكن لا أُعطيك سهم ذي القربىٰ كلّه.

وهذه النقطة مازالت مثار تشنّج وخلاف. وليعلم بأن التاريخ لايعود، ولكن ينبغي على الباحث عندما يتناول آية من القرآن أن يذكر معناها بغضّ النظر عن ارتباطها بالتاريخ، فليفسّر تفسيراً موضوعيّاً وليخرج من أغلال التبعيّة. فنحن نأخذ من عطاء القرآن، فلنملك تفكيراً عملاقاً ولنتبع الدليل في تفسيرنا له.

فعلى المفسّر أن يتساءل ويقول: لماذا لايورث الأنبياء؟ فالمسلمون يروون قصة أبي لبابة، حيث تخلّف عن القتال مع اثنين، ثم ندموا وشدّوا أنفسهم على السواري في المسجد، وقالوا: لانبرح حتىٰ ينزل الأمر من اللّه بالرضا عنا. فنزلت آيات تبرّئهم وتعفو عنهم، وكانت فاطمةعليها السلام قادمة للمسجد، فقال النبيﷺ لها: **«افتحي عنه وثاقه»**. فأرادت أن تفتح الوثاق من الإسطوانة فقال لها أبو لبابة: أنا أُريد رسول اللّهﷺ أن يفتح لي بنفسه الحبل. فقال له النبيﷺ: **«دعها تفتح؛ فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها ويرضيني مايرضيها»**[٢].

---

(١) السقيفة وفدك (الجوهري): ١٠٤.

(٢) انظر: الروض الأُنف ٢: ١٩٦، وقال الإمام السهيلي صاحب (الروض الأُنف) بعد ذكر هذا الحديث: «فصلّىٰ اللّه عليه وعلىٰ فاطمة، فهذا حديث يدلّ علىٰ أن من سبّها فقد كفر، وأن من صلّىٰ عليها فقد صلّىٰ علىٰ أبيهاﷺ»، سبل الهدىٰ والرشاد (الصالحي الشامي) ١٠: ٣٣٨، ١٢: ٣٩٢.

وهذه الواقعة يرويها تاريخ المسلمين، فألمها ألم رسول اللهﷺ وهي جزء منه. فهذه شهادة علىٰ أنها لاتعرف الكذب في أقوالها، فلماذا لم يؤخذ بقولها هنا؟

نرجع للآية الكريمة، فهي تقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾، أي أنها تقرّر أن مسألة الميراث عامّة لكل البشر، فوراثة سليمان أباه تكون انسجاماً مع نظرية الميراث وفق العادة.

المبحث الثاني: في نعم الله تعالى على سليمان

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾، وهذا من جملة ما أعطىٰ الله تعالى نبيّه سليمان من مزايا، حيث أعطاه ملكاً لم ينبغِ لأحد من بعده. كان الحجاج يقول: ثلاثة لو ظفرت بهم لعاقبتهم، ومن جملتهم النبي سليمان، وكان يقول: ماهذه الأنانية حيث إنه يقول: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[1]. وكأن الحجّاج قد نسي نفسه، فهو يرىٰ القذىٰ في عين غيره أمّا ما في عينه فلا يراه. والحجّاج هذا هو من كان يأمر بالمسجونين فتنشدّ أيديهم ويلقى بهم في المستنقعات، فيأكل بهم البقّ حتى يموتوا، فيمر بهم وهم يصيحون: اللّه اللّه أيها الأمير، القيود أكلت لحومنا. فيقول لهم: اخسؤوا فيها ولا تكلّمون[2]، أي يخاطبهم بخطاب اللّه تعالى لأهل النار[3]، وهذه ليست أنانية

(١) ص: ٣٥.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٢: ١٩٢، البداية والنهاية ٩: ١٥٧.

(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾. المؤمنون:

فقط، بل هي منطق جيفة عبر التاريخ .

فالنبي سليمانعليه السلام قد علّمه اللّه منطق الطير، وهـذا ليس بـغريب، إذ أن عندنا الآن بعض الكوادر العلمية التي تطور أنفسها لتتعلّم لغة الحـيوانـات. والأكثر من ذلك أنه حتى النبات له لغة. ولغة الحيوان إما أن تكون حـركيّة أو إيقاعيّة. فهناك الكثير من العلماء مـمّن يـحسن لغـة بـعض الحـيوانـات وإشاراتها .

النبي سليمانعليه السلام يفسّر لغة الطير

يروي المؤرّخون أنه مرّ سليمانعليه السلام على طائر الورشان، وقد وقف علىٰ شجرة، فرآه يحرّك ذيله وعنقه. فقالعليه السلام لأصحابه: «**أتـعرفون مـايقول هـذا الطائر؟**». قالوا: لايانبي اللّه. قالعليه السلام: «**إنه يقول: إني أكلت نصف ثمرة، فعلىٰ الدنيا العفا**»[1]. أي أنه لا تهمّني الدنيا مادمت شبعاناً. وهذه الكـلمة عـلىٰ وجازتها فيها عبرة، أي أنهعليه السلام يريد أن يقول لأصحابه: إن الدنيا لاينبغي أن تستبدّ بكم؛ فإنّ الإنسان تملأ بطنه قطعة من الخبز. كـان الإمـام عـليعليه السلام يخرج من بيته ويمرّ بميثم التمّار ويشتري منه قوصرّة ويجلبها معه إلى البيت وهو يرتجز :

« أفلح من كانت له قوصرّهْ يأكل منها كلّ يوم مرّهْ »[2]

☚ ١٠٦ ـ ١٠٨.

(١) جوامع الجامع ٢: ٧٠٣، الجامع لأحكام القرآن ١٣: ١٦٥، فيض القـدير شـرح الجـامع الصغير ١: ١١٥ .

(٢) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٧٧، الفائق في غريب الحديث والأثر ٣: ٨٦ ـ القوصرّة، البداية والنهاية ٨: ٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٨٠. والقوصرّة: الوعاء الذي يكنز فيه التمر من البواري. الصحاح ٢: ٧٩٢ ـ قصر .

وكان يمدّ يده إلىٰ بطنه ويمسح عليها ويقول: «**من أدخله بطنه النار فأبعده الله**»[1]:

أأبا الحسينِ وتلكَ أروعُ كنيةٍ	وكِلاكُما بالرّائعات قَمِينُ
لكَ في خيال الدّهرِ أيُّ ملامحٍ	تروي السّنا ويُترجِمُ الدّسرينُ
في الصبحِ أنت المُستجِمُ منَ الطّوىٰ	والليل في المحرابِ أنتَ أنينُ
تكسو وأنتَ قطيفةٌ مرقوعةٌ	وتموتُ من جوعٍ وأنت بَطينُ
آلاؤك البيضاءُ طوّقتِ الدُّنا	فلها علىٰ ذِممِ الأنامِ دُيونُ[2]

ومرّ النبي سليمان﴿ع﴾ ذات يوم بطائر الهدهد، فرأىٰ صبيّاً يريد أن يصيده، فقال له: «**أيها الهدهد، احذر الفخّ**». وذهب، فقال له: إن هذا صبي لاعقل له فسأغالطه، فلا يستطيع أن يصيدني. فلما رجع وجده واقعاً في الفخّ، فقال له: «**ما الذي أوقعك في الفخّ وأنت تنظر الماء تحت الأرض؟**». قال: إذا جاء القدر عمي البصر[3].

أي أن الإنسان إذا أتاه قدره أُعمي بصره.

وهناك حادثة ثالثة، وهي أن النبي سليمان﴿ع﴾ مرّ بصرد (جراد الزرع) وكان له صوت قوي، فقال﴿ع﴾ لأصحابه: «**إن هذا الصرد يقول: يانبي الله استغفروا الله**».

ويعقّب أبو هريرة على هذه الرواية بقوله: ولذلك نهىٰ النبي﴿ص﴾ عن قتل

---

(١) الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين﴿ع﴾ (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠.

(٢) ديوان المحاضر ١: ١٩.

(٣) قريب منه ما في الجامع لأحكام القرآن ١٣: ١٧٨، تفسير القرآن العظيم ٣: ١٧٣.

الصرد؛ لأنه صوّام، وهو أول من صام يوم عاشوراء[1].

حول صيام عاشوراء

إن مسألة صوم عاشوراء وقع فيها اختلاف، وإن الرواية التي تروى عن النبي صلى الله عليه وآله هي أن اليهود كانوا يصومون هذا اليوم، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «**ما هذا من الصوم؟**» فقالوا: هذا اليوم الذي نجّىٰ اللّه فيه موسىٰ وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون فصامه موسىٰ شكراً. فقال صلى الله عليه وآله: «**أنا أحقّ بموسىٰ وأحق بصوم هذا اليوم**»[2].

وهذه الرواية قد اخترعت من بعد الفاطميين، والهدف هو إشغال الناس عن ذكر واقعة الطف فلا يستعيدون ذكراها، فقد أرادوا لهذه الواقعة أن تنطمس معالمها ويقضى عليها.

إننا نلتمس طريقنا إلى الحسين عليه السلام في كلّ حال وكلّ حين؛ لأنه طريقنا إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله؛ فهو عليه السلام قد جسد تعاليم الإسلام، وبهذا فنحن لا نمجّد لحماً، وإنما نمجّد موقفاً بطوليّاً خالداً في حقيقته هو كرامة للإسلام. فلماذا إذن هذا الموقف من تعظيمه؟

نرجع للرواية حيث عقّب أبو هريرة بقوله: إن النبي صلى الله عليه وآله نهىٰ عن قتل الصرد من أجل هذا، أي لأنه يدعو الناس للاستغفار من الذنوب.

فالذي يدعو الناس للاستغفار لايقتل، وأمّا الذي يدعو إلى كلمة «**لا إله إلّا اللّه**» فإنه يقتل، دخل رجل على عبد اللّه بن عمر وقال له: إن البق يصير علىٰ يدي فأضربها ويخرج الدم، فهل هو حرام أم لا؟ فقال: من أين أنت؟ قال: من

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧: ٢٧٠، وليس فيه: يوم عاشوراء.
(٢) مسند أحمد ٢: ٣٥٩، باختلاف.

الكوفة. فقال له: أنتم قد قتلتم الحسين ولم تستشكلوا. وهذه المفارقات نجدها كثيراً في تاريخنا.

المبحث الثالث: في مخصّصات العموم

ثم قالت الآية: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، وهنا نقطة هامّة أُحبّ أن أُنبّه إليها هي أن لسان الآية فيه عموم، ويقول المفسّرون: إن هذا العموم مخصّص بالحسّ.

التخصيص بالعقل

فهناك بعض العمومات مخصّصة بالعقل، فمثلاً نحن نعرف أن كل واحد معرّض للمسؤوليّة والأمر بالأحكام والتكاليف يتوجّه إليه، لكن إذا كان هذا المكلّف جاهلاً قاصراً كأن يعيش في غابات أفريقيا، فهل يدخل ضمن هذا العموم؟ طبعاً لايدخل ضمن هذا العموم؛ لأنه لايكلّف ما لم يصله التكليف، فلايعاقبه اللّه حيث لم يأتِه رسول ولم ينبهه إليه أحد. وببالغ الأسف نحن نعيش ضمن أجواء لا تعرف الدين؛ تقصيراً لا قصوراً. فالعموم مخصّص بالعقل، واللّه تعالى لايعاقب؛ لقبح العقاب بلا بيان.

التخصيص بالإجماع

وهناك حالات يكون العموم فيها مخصّصاً بالإجماع، مثل «**لا صلاة لجار المسجد إلّا في المسجد**»[1]، فحديث النبي ﷺ هنا منصب على الكمال، أي لاصلاة كاملة إلّا في المسجد حيث إن ثوابها في غيره أقل؛ فهذه الرواية تؤكّد علىٰ المسلم أن يكرم بيت اللّه؛ لأن الجلوس في المسجد خير من

(١) تهذيب الأحكام ١: ٩٢ / ٢٤٤، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٣: ٥٧.

الجلوس في الجنة حسبما يقول أمير المؤمنين عليه السلام، فقد قال: «**الجلسة في الجامع خير لي من الجلسة في الجنة؛ لأن الجنة فيها رضا نفسي، والجامع فيه رضا ربي**»[١] ورضا الرب خير من رضا النفس.

فلماذا لا يمكث الناس في المساجد؟ إنهم سرعان ماينفضون منه بعد الصلاة، فلماذا لا نذكر اللّه فيه ولا نقرأ القرآن؟ إنه بيت اللّه.

كان الإمام الحسن عليه السلام إذا دخل المسجد ردّد هذه العبارة: «**إلهي مسكينك بفِنائك، عُبيدك بفِنائك، فقيرك نزل بساحتك**»[٢]. أي أنا في بيتك: «**أنت المحسن ونحن المسيئون، فتجاوز يا رب عن قبيح ما عندنا بجميل ما عندك**»[٣].

فهذا العموم مخصّص بالإجماع.

التخصيص بالحسّ

وكذلك هناك عموم مخصّص بالحسّ، فنحن نقرأ في القرآن: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ**﴾[٤] حيث يقول البعض: إن الإسلام أسّس علم الميكانيك وعلم الذرّة، وتناول تحليل الهيدروجين. وهذا الكلام لامعنىً له، وإلّا ما هي علاقة القرآن بهذه الأشياء؟ فإن ﴿**تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ**﴾ ليس على نحو الاستيعاب، بل هذا عموم مخصّص بالحسّ.

فقوله تعالى: ﴿**وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ من قبيل العموم المخصّص بالحسّ، أي لم يخلق نعمة ليست في متناولنا وقدراتنا أو أننا قد حرمنا منها.

---

(١) إرشاد القلوب: ٢١٨، وسائل الشيعة ٥: ١٩٩ / ٦٣٢٥.

(٢) كمال الدين: ٤٧١ / ٢٤، الفقه المنسوب للإمام الرضا عليه السلام: ٢١٩.

(٣) مصباح المتهجّد: ٥٨٥، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ١٦١.

(٤) النحل: ٨٩.

المبحث الرابع: في كيفية شكر نعم الله تعالى

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ فلم يفت النبي ﷺ أن يشكر اللّه؛ لأن الشكر إما أن يكون بالقلب أو باللسان، فإنه ﷺ اعترف بأنه فضل من اللّه، واعتقد ذلك، وكان النبي سليمان ﷺ يطعم، أي أنه طبّق الأقسام الثلاثة من الشكر، يقول الشاعر:

أفادتكُمُ النعماءُ مني ثلاثة ... يدي ولساني والضميرَ المحجّبا[1]

فلساني يلهج بذكركم، ويدي تساهم في إيصال النعمة إليكم، وقلبي يعتقد بأنكم محسنون. فالشكر أن تعطي ممّا منحك اللّه، والإنفاق أن تعطي للّه مايحقّق رضاه. وقد وقف أبو الشهداء ﷺ يوم الطفّ ليؤدّي للّه شكرَه، وشكرُه مختلف، حيث قدّم القرابين له تعالى؛ لأن شريان الحياة يحتاج أحياناً إلى أن يُصلح بالدم:

أبا الشهداء الواهبين وجوههم ... نجوماً لها عند القتامِ طلوعُ

زرعت بهم أرضَ الطفوفِ فبرعموا ... وهاهُمُ قد جدّ الزمان فروعُ

توحّدهم دنيا الفداءِ فيستوي ... بها طاعنٌ في سنّه ورضيعُ

حيث قدّم الضحايا الواحد تلو الآخر، ولم يبقَ إلّا رضيعه، حيث نادى أُخته زينب: «**عليّ بالطفل الرضيع**» فلما قتل رجع به للخيمة:

ولو تراه حاملاً طفله ... رأيت بدراً يحمل الفرقدا

مُخضّباً من فيض أوداجه ... ألبسه سهم الردى مجسدا[2]

---

(١) لم ينسب لقائل معين. تفسير القرآن العظيم ١: ٢٤، ٣: ٥٣٦، البداية والنهاية ١: ١٣٥.

(٢) المجسد: الثوب الملامس للجسد، يريد: أن السهم ألبسه ثوباً من دم. انظر المعجم الوسيط: ١٢٢ ـ جسد.

﴿ ٨٧ ﴾

دور العلم
في بناء الحضارة وضرورة تعليم المرأة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

المباحث العامة للنص الشريف

مقدمة

هذا البحث يتعلّق بالمرأة بشكل عام من حيث وجوب تعليمها ؛ لكن بعد ذلك سنختمه بدور السيدة زينب عليها السلام التي شاركت الحسين عليه السلام في مأساة كربلاء. ولنذكر قبل ذلك مقدّمة وهي أننا نعرف أن آدم عليه السلام هو أول الأنبياء، وعندما نزل للأرض لم ينزل وحده، وإنما كانت معه امرأته حواء. وكلاهما تقاسما عبء الأُسرة، وكذلك خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم تفارقه المرأة، حيث كانت معه خديجة التي وقفت لتؤدي رسالتها أيضاً. وهذا البحث يهمنا ؛ لأنه يرتبط بزينب عليها السلام ودورها في واقعة الطف.

(١) العلق: ٣ ـ ٥.

المبحث الأوّل: في أُمّية الرسول ﷺ

نرجع للآية الكريمة فنقول: مامعنىٰ أن يقول اللّه تعالىٰ: ﴿**اقرأ**﴾، والمفروض أن النبي ﷺ أُمّي، والأُميّ لا يعرف القراءة؟ ونحن نعرف من جهة ثانية أن الاستطاعة شرط من شروط التكليف: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفساً إلا وُسْعَهَا**﴾[1]، فكيف نوجه الآية إذن علىٰ ضوء هذه القاعدة؟ الأُمية التي ينعت بها النبي ﷺ لا تعني أنه ﷺ لا يقدر أن يقرأ أو يكتب، لأن القدرة علىٰ القراءة والكتابة من صفات الكمال، ولا يمكن سلب هذه الصفة من النبي ﷺ ؛ لأن النبي ﷺ خاتم الأنبياء وحامل رسالة السماء إلىٰ الأرض؛ فلابد أن يتصف بكل الكمالات وأن يتنزّه عن كل نقص.

فتوجيه الآية إذن أن النبي ﷺ لو أراد أن يقرأ ويكتب لقرأ وكتب، لكنه ﷺ لم يمارسها، فهو ﷺ عنده الملكة لذلك لكن عنده معها فقدان الممارسة؛ وذلك حتّىٰ لا يُرمىٰ بأن القرآن من عنده[2]، فهو ﷺ لم يسلم من هذا الادعاء والافتراء حيث إن البعض من المستشرقين يقول: إن محمداً اخترع القرآن من عنده، وهو ليس من السماء. وهناك الكثير من الناس ممّن يقول: إن المرأة لها حقوق محترمة في الإسلام، فلماذا يعطىٰ الرجل المسلم حق الزواج من المرأة المسيحية ولا تعطىٰ المرأة المسلمة ذلك الحق؟ نحن نترسّم ما رسم لنا القرآن الكريم من أحكام: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**﴾[3] .

---

(١) البقرة: ٢٨٦ .

(٢) وهذا ما أكده اللّه تعالىٰ بقوله: ﴿وَما كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَرْتابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ . العنكبوت: ٤٨ . (٣) البقرة: ٢٨٥ .

فنحن نؤمن بالأنبياء كافة، وإذا مررنا بعيسىٰ﷣ نعطيه حقّه من التعظيم، وكذلك موسىٰ﷣ وما له من الكرامة، أما المسيحيون فإنهم يشتمون النبي ﷺ شتماً ذريعاً. ولو اطّلعنا على كتاباتهم لوجدنا حقداً لا حدود له. ومع أننا نحن نعيش في القرن العشرين لكن المسلم موضع نقمة من هؤلاء، فعندما يتزوج المسلم من المسيحية فهو يعترف بدينها ولا يجرح مشاعرها بل يكرم عقيدتها، أما الرجل المسيحي فهو لا يؤمن بالإسلام؛ ولذا فإنه سيؤثر حتماً على بيته وأبنائه، ولهذا جاز للمسلم الزواج من المسيحية دون العكس.

فدعوىٰ أن القرآن من كتابة النبي ﷺ ومن عنده لا قيمة لها؛ لأن المعلومات الضخمة الموجودة في القرآن ما كان يتّسع لها عصر النبي، فالقرآن له قابلية المماشاة مع الإنسانية مهما تقدمت علمياً، فإنه يغطّيها، وهذا يتضح لها يوماً بعد يوم.

المبحث الثاني: لماذا وصف الله نفسه بـ ﴿الْأَكْرَمُ﴾؟

ثم قالت: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾، (أكرم) أفعل التفضيل، وهو يعني أنه تعالىٰ أكرم الأكرمين، فلماذا؟ ذلك يعود لعدة أسباب منها:

السبب الأوّل: أنه منح قابلية الاقتدار علىٰ الكتابة

فمن كرمه تعالىٰ أنه رزقك الاقتدار على الكتابة، فتلاحظ أن الحيوان له مخ، ومكوّناته هي مكونات مخ الإنسان عينها، لكن الحيوان ليس له قدرة على اختزان المعرفة، فكل ما عنده هو غريزة تسيره، ونسبة ضئيلة من الفكر. وبين علماء الحيوان نزاع مفاده: هل إن الحيوان له عقل أم غريزة؟

فالفسيولوجيون يذهبون إلىٰ أن الحيوان له نسبة من الفكر والعقل بسيطة جداً، وهذا ما نبحثه في التكليف الخاصّ به، فنحمّله مسؤولية جنائيّة في الآخرة بنسبة مايحمل من فكر.

فمن نعم اللّه تعالىٰ علىٰ الإنسان أنه عندما خلقه أعطاه القدرة على التعلم والكتابة، وهذا أعظم كرم، فهو سيّد الأرض؛ حيث اكتشف المعادلات الرياضية وأسهم في بناء وتشييد الحضارة، فاللّه جلّ وعلا أعطىٰ قيادة العالم للإنسان.

السبب الثاني: أنه تعالىٰ لا ينتظر عوضاً علىٰ كرمه

إن كل كريم من الكرماء ينتظر منفعة من المنافع لكرمه، ويريد عوضاً؛ فهو يريد إمّا ثواباً من اللّه أو ثناء من الإنسانية، فحاتم بن عبد اللّه الطائي يخاطب زوجته بقوله:

أماويُّ ما يغني الثراءُ عن الفتىٰ إذا حشرجت نفسٌ وضاق بها الصدرُ

أماويُّ إن المال غادٍ ورائحٌ ويبقىٰ من المالِ الأحاديثُ والذكرُ[1]

فهو يقول لها: أنا أُريد أحاديث وذكراً من بعدي. فالبعض إذن يريد عوضاً ماديّاً أو اجتماعيّاً، كأن يمدحه الناس من بعده، أو عوضاً نفسيّاً كأن يرىٰ فقيراً فيتألم له، فيعطيه المال كيلا يتألّم. وهو تارة يريد العوض من اللّه تعالىٰ.

فكل كريم إذن يريد عوضاً إلّا اللّه عزّ وجلّ فإن اللّه تعالىٰ إذا أعطىٰ لم ينتظر عوضاً، فما قيمة هذا العبد البسيط حتىٰ تنتظر منه العوض؟ وها هو

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ١١: ٣٧٦، لسان العرب ٤: ٥٤٨.

الإنسان قد اكتشف مجموعة شمسية بقدر مجموعتنا الشمسية، وكلما تقدمت الدنيا ازدادت الاكتشافات، حيث اكتشف وجود (١٥٠٠) مليار مجموعة شمسية، فما مكاننا من هذا العالم؟

وإننا لانستطيع أن نعرف عظمة اللّه إلّا بالرجوع إلىٰ أدعية المعصومين عليهم السلام **«الحمد للّه الذي من خشيته ترعد السماء وسكانها، وترجف الأرض وعمّارها، وتموج البحار ومن يسبح في غمراتها»**[1] فنبذة بسيطة تفتح نافذة على العظمة اللامتناهية عند الخالق عزّ وجلّ.

وعليه فإن معنى ﴿**الْأَكْرَمُ**﴾: الذي أعطانا العلم وأقدرنا عليه، ولم يرد منّا الجزاء.

السبب الثالث: أن كل كرم هو من كرمه تعالىٰ

فكل ذي عطاء فعطاؤه مبدئياً من اللّه، فنحن عندما نكرم فإنما نكرم بالأشياء التي خلقها اللّه، فاللّه قد خلق الحيوان والنبات والمعادن، وهي كلها من نعمه تعالى وكرمه وتكرمّه؛ لذلك عُبّر عنه بـ﴿**الْأَكْرَمُ**﴾.

---

(١) مصباح المتهجد: ٥٨٠، وقال الإمام السجاد عليه السلام في تسبيحه: «سبحانك ترى ما في قعر الماء، سبحانك تسمع أنفاس الحيتان في قعور البحار، سبحانك تعلم وزن السماوات، سبحانك تعلم وزن الأرضين، سبحانك تعلم وزن الشمس والقمر، سبحانك تعلم وزن الظلمة والنور، سبحانك تعلم وزن الفيء والهواء».

اختيار معرفة الرجال ١: ٣٣٤، الصحيفة الكاملة السجادية: ٢٣.

وفي قوله عليه السلام: «والنور»، إشارة إلىٰ جسيمات الضوء الافتراضية المسماة بـ«الفوتونات»، وهي الجسيمات المسؤولة عن نقل القوّة الكهرومغناطيسية، أمّا قوله عليه السلام: «والظلمة»، فلعلّ فيه إشارة إلىٰ ما يسمىٰ حديثاً بـ«المادّة المظلمة» أو المادّة المضادّة التي يقدّر العلماء وجودها، وهي تلعب دوراً رئيساً في نظريتي الانفجار الكبير والانهيار الكبير (ولادة الكون وتكوّره أو موته).

المبحث الثالث: حول أهمية العلم وتعلّمه

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، إن نعمة القلم ونعمة العلم في تعليم القراءة والكتابة لا سبيل إلىٰ تحديدها؛ حيث إنه لا تقوم حضارة ولا دين، ولا يصمد فكر، ولا تتقدم الدنيا بدون الكتابة التي هي نافذة علىٰ عالم المعرفة والإنسانية؛ ولذلك أراد اللّه عزّ وجلّ منّا أن نتعلّم، وهو ما حثّ عليه النبي ﷺ بقوله: «**طلب العلم فريضة علىٰ كلّ مسلم ومسلمة**»[١]، وقد بعث النبي ﷺ للشفاء بنت عبد اللّه العدويّة وكلفها بتعليم زوجته حفصة القراءة والكتابة[٢]. فهو ﷺ يأمر بتعلّم الكتابة، ويروىٰ أن عبد اللّه بن عمر قال: دخلت على النبي ﷺ وقلت: نروي عنك أحاديث، فهل تأمرني بأن أكتب ما يصدر عنك منها؟ فقال النبي ﷺ: «**بلىٰ اكتب، إن اللّه علم بالقلم**»[٣].

وهناك روايات كثيرة في هذا الباب حيث روي عن عبد اللّه بن عمر أيضاً أنه قال: رآني جماعة أكتب أحاديث النبي ﷺ فقالوا: لا تكتب، ونهوني. فقلت: لماذا؟ فقالوا: إن النبي بشر قد يصدر منه كلام بحالة غضب أو حالة رضا، وربما كتبت عنه أشياء لا يرضى بها. فجئت النبي ﷺ وقلت له: إن قريشاً تنهاني عن الكتابة. فقال ﷺ: «**اكتب، والذي بعثني بالحق، لا يخرج من بين هاتين الشفتين إلّا الحق ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾**[٤]».

فالراصد لتأريخنا يجد أن فيه ثغرات عجيبة، فيمكن أن يتساءل: كيف

---

(١) مصباح الشريعة: ٢٢، مشكاة الأنوار: ٢٢٦، عوالي اللآلي ٤: ٧٠ / ٣٦، شرح مسند أبي حنيفة: ٥٢٧، المبسوط (السرخسي) ١: ٢.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤: ٥٧، المعجم الكبير ٢٤: ٣١٦، الطبقات الكبرىٰ ٨: ٨٤.

(٣) تفسير أبي الفتوح ٥: ٥٥٦، الجامع لأحكام القرآن ٢: ١٢٠.

(٤) النجم: ٣.

ينهى النبيﷺ عن كتابة السنة؟ فيقول التاريخ مجيباً: حتى لا تختلط بالقرآن. فأين أُسلوب القرآن من أُسلوب السنة. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية إن القرآن الكريم كان مكتوباً في عهد النبيﷺ، وكتبه أربعة من الأنصار، والإمام عليعليه السلام لم يخرج من البيت حتى أكمل القرآن، فالقرآن مكتوب، وغاية ما في الأمر أنهم كانوا يكتبون بوسائل بسيطة كدفة كتف الحيوانات أو كربة سعف النخل، ثم جمعت بعد ذلك وأُخذت منها الآيات وكتبت. فكيف يمكن أن يختلط بالحديث؟ فسوره (١١٤) وآياته معروفة وعددها معروف، وكل شيء كامل.

فمن المستحيل أن ينهىٰ الرسول الأكرمﷺ عن تدوين الحديث الشريف وكتابته؛ فهو مِن القرآن مقام المبيِّن، فالقرآن فيه إجمال وليس فيه تفصيلات، فهو مثلاً يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾[1]، لكن لم يبيّن متى وكيف الخروج، وماهي شروط الإحرام وغير ذلك، وهذه كلها توضَّح في السنة الشريفة، فكيف ينهى النبيﷺ عن السنة وتدوينها؟ فإنها بذلك ستدرُس وتُنسىٰ.

ومحاولة النهي هذه استمرت عشرات السنين، فذهب الكثير من الأحاديث، ولذلك يستغرب البعض عندما نروي حديثاً عن أيمّة أهل البيتعليهم السلام، ووجه الاستغراب أن هذا الحديث غير موجود في الصحاح ولا في الكتب. وجواب هذا المستغرب بأن نقول له: إن السنة لم تمنع عندنا، فإن أيمّتنا كتبوها، وجملة من أصحابهمعليهم السلام كتبوها أيضاً فلم يضِع شيء منها.

---

(١) آل عمران: ٩٧.

فنحن نأخذ الرواية من عدل الكتاب[1].. من آل الرسول ﷺ. يقول الإمام الباقر﵇: **«يا أبا محمد، اذهب أنت وسلمة وأبو المقداد يميناً وشمالاً، فوالله لا تجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبرائيل»**[2].

فالواقع أننا لم نهمل السنة؛ فالروايات موجودة عندنا، أما البعض فينهىٰ عن تدوين السنة، أو يحرق كتاباً فيه أحاديث من السنة، ويقول أحدهم: جلبت كتباً من اليمن لأحد الصحابة، فوضعها في طست فيه ماء دون أن يقرأها؛ لأن فيها روايات في فضل علي بن أبي طالب.

فلا يمكن إذن القبول بالروايات التي تقول: إن النبي ﷺ نهىٰ عن كتابة السنة؛ لأن السنّة توضّح الأحكام في القرآن؛ فإنها تقيّد المطلق، وتخصّص العام، وتبيّن المجمل، وتشرح الأحكام المختصرة بالتفصيل.

فالسنة لا يمكن أن نستغني عنها أبداً.

ولقد أمر الرسول ﷺ بكتابتها، لكن ذهب الكثير منها بعد ذلك؛ ولذلك قال النبي ﷺ: **«قيدوا العلم بالكتابة»**[3]؛ لأن العلم يهرب من الذهن.

مأساة الفكر ومحاربته

فالكتاب هو النافذة المطلة على العالم، وهو الذي يرعىٰ الإنسانية في

---

(١) الذين قال فيهم النبي الأكرم ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلىٰ الأرض وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً ولقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض». فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها كثير.

(٢) رجال النجاشي: ٣٦٠ / ٩٦٦، وأبو محمد هو الحكم بن عتيبة.

(٣) المجازات النبوية: ١٧٩، المستدرك علىٰ الصحيحين ١: ١٠٦، مسند الشهاب ١: ٣٧٠ / ٦٣٦، ٦٣٧.

مسيرتها، ويجب أن ترعاه الإنسانية في مسيرتها أيضاً، وأن تكرمه. ونحن للأسف الشديد أُمّة قليلة القراءة، ولو قرأ بعضنا تراث البعض لزالت الكثير من المشاكل، ولو اطلع أحدنا على مافي المذاهب الأُخرىٰ، واطّلعت المذاهب الأُخرى على تراثنا الفكري فإن كثيراً من العقبات ستزول. لكن بعضنا يحذر من قراءة بعض الكتب، ويمنع فكر آل محمدﷺ أن يصل إلىٰ الناس، مع أن آل محمدﷺ من الجزيرة العربية، وهم سادة العرب، وبيوت النبيﷺ وعدله وعدل كتابه، فلماذا نحاربهم؟ هل لأن فكرهم لا يهادن الظالمين ولا يتحول إلىٰ أبله، ولا يقول: سيدنا معاوية قتل سيدنا حجراً (رضوان اللّه عليهما)؟ نعم توجد حدّية في الفكر.

لذلك فالكتاب يجب أن ترعاه الإنسانية كما ترعىٰ نفسها لكن ببالغ الأسف نجد الكتاب أحياناً عدوّاً لنا، كيف؟ ليعلم بأن كثيراً من المكتبات قد أُحرقت لأنها تحمل فكراً معيناً، فمكتبة «أردشير بن نصر ساپور» أُحرقت وهي من أضخم المكتبات في بغداد، ومثلها مكتبة الشيخ الطوسي، وقد رمىٰ التتر كتبها في نهر دجلة، وأصبح الماء أسود من كثرة المداد، وضاعت علينا الكثير من المعارف، والكثير من مجاميع المخطوطات، وكذلك مكتبة الأزهر الشريف التي أسّسها الفاطميون، وهي مكتبة فخمة أحرقها الأيوبيون بقيادة صلاح الدين.

وهذه نقطة سوداء في تاريخنا. فالكتاب يجب ألّا يحرق حتى لو كان كتاب ضلال، فقد ينتفع به الغير في مرحلة الردّ عليه وعلىٰ ما فيه من أفكار ضلال.

وقد تقول: إن فيه أفكاراً خطرة.

فأقول: لماذا لا نلقّح أنفسنا ضد الأفكار الخطرة. ونثقّفها لندفع الفكر الخطر؟ إن إزالة الخطر عن القارئ تأتي من التعليم، فقد أمرنا اللّه تعالىٰ بأن نقرأ وأن نطالع ونطّلع علىٰ أفكار الآخرين، وأن نوسّع مداركنا. ومن المستحيل أن ينهانا عن التطّلع إلىٰ الحياة، فلا حياة بدون معرفة. فكيف إذن ينهانا النبي عن الكتابة؟ فعلىٰ البشرية أن تحتضن الكتاب، وإذا رأينا أي كتاب فيه نظرية ناهضة من أي مذهب إسلامي، فالذي ينبغي علينا هو أن نعتزّ بها؛ لأنها تصبّ في جدول **«لا إله إلّا اللّه»** وأن نعتبرها رصيداً لنا؛ فالمسلم إذا كان لديه عطاء فهو غذاء له ولباقي المسلمين، ولذلك يقول القرآن الكريم: **﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾**.

هناك رواية تقول: **«خلق اللّه أربعة بيده: العرش وعدن والقلم وآدم، ثمّ قال لكل شيء: كن فكان»**[١].

وهذه الروايات تروىٰ في الصحاح، وهي لا تصمد أمام النقد؛ فلا يوجد فرق بين أن يخلق اللّه تعالىٰ شيئاً بيده أو بأمره، فكلّها مخلوقات بأمره، وإذا أراد خلق شيء قال له: كن، فيكون، كيف؟ بالأسباب الطبيعية، فالولد يقول له: كن، فيكون، وهذا كتاب اللّه التكويني وليس التدويني، وذلك عن طريق التزاوج؛ حيث يضع قابلية في البويضة وتأثيراً في الحويمن، فيلتقيان وينشأ الجنين.

والبعض من الناس يقول: عندي مريض وأنا أدعو اللّه له منذ عشرين سنة فلا يشافيه، فلماذا؟ ونقول له: هناك دعاء تدويني (مكتوب)، ودعاء تكويني

---

(١) جامع البيان، المجلد: ١٢، ج٢٣: ٢٢١ / ٢٣١٠٢.

جعله الله في بعض الحشائش أو الأعشاب أو الأدوية. فهذه قوانينه التكوينية، وقال النبيﷺ ـ وقد سئل: يا رسول اللّه، أنتداوىٰ؟ ـ: **«تداووا»**[(١)]. فداوِه بالدواء، ثم إذا عجزت فارجع إلىٰ كتاب اللّه التدويني وادعُ اللّه له.

نرجع للرواية: فعندما نأتي للرواية: **«خلق اللّه أربعة...»**، فنقول: لا فرق بين أن يخلق اللّه بيده أو بأمره، فلماذا فُضّل هؤلاء على غيرهم، فهذه الرواية لا تصمد أمام النقد.

دور السبب الطبيعي في الحياة

فاللّه تعالىٰ كرم الإنسان بالقلم، والكتاب نافذة على المعرفة: **﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾**، فما الذي علّمه إيانا بالقلم؟ إنه تعالىٰ علّم بالقلم أن السبب الطبيعي له أثر، فبعض الناس يظن أن هذا غرق لأن اللّه أراد أن يغرقه، والبعض إذا كان عنده مبلغ من المال فإنه يبذّره ثمّ يقول: إن اللّه إذا أراد أن يعطيني فهو يعطيني «اصرف ما في الجيب يأتك ما في الغيب». إن اللّه نظّم الأشياء، وعلمنا على النظام، وأن نتصرف التصرف العقلائي، فينبغي أن نتعلم مما علمنا اللّه، فكل سبب طبيعي له دخل، وتترتّب عليه فائدة.

فإذا كان اللّه تعالىٰ قد وفر لنا الزرع لنأكل منه، ووفر لنا الكهرباء للتدفئة والاستصباح فيجب ألّا نقول: لماذا نعمل؟ لأن اللّه تعالىٰ أمرنا أن نستخرج خيرات الأرض، ونوظف طاقاتنا وما عندنا من قدرات. فالسبب الطبيعي له

---

(١) قرب الإسناد: ٥٢، طب الأيمّة: ٦٧، وسائل الشيعة ٢٥: ٢٢٤ / ٣١٧٤٥، مسند أحمد ٣: ١٥٦، سنن أبي داود ٢: ٢٢٣ / ٣٨٧٦.

دخل: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، أي بواسطة القلم، لكي ينبهنا إلىٰ أهمية السبب الطبيعي.

وهناك صراع بين المذاهب الإسلامية حول أن السبب الطبيعي له أثر أم لا؟ فالكثير يذهب إلىٰ أن النار لا تحرق وإنما الله هو الذي يحرق، ولكن جرت العادة على أن الذي يحرق هو النار. وهذا دخول من الباب وخروج من الشبّاك. فإن الله جعل النار تحرق بطبيعتها، فلماذا ننكر السبب الطبيعي إذن؟ فهؤلاء غاية ما يريدون قوله أن المعصية ليست بسبب الإنسان، وإنما من الله: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[1]، حتى لا يقال: إن مروان عاصٍ. وهذا ظلم، والله تعالىٰ لا يظلم أحداً، وإنما سلّحنا وأعطانا قدرة عقلية، وأمرنا، فنحن نمتثل لأمره.

المبحث الرابع: وجوب التعلّم علىٰ الجنسين

ثم قال: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، والإنسان هو الذكر والأُنثىٰ، أي علّم الرجل والمرأة، فكلاهما له حصّة من العلم؛ ولذلك ساوىٰ الإسلام بينهما وقال: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**»[2]، فإن الله أمرنا أن نتعلم رجالاً ونساءً. ومع هذا فإننا نجد أن القرطبي في تفسيره يذهب إلىٰ خلاف ذلك فهو يروي بسنده إلىٰ عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ: «**لا تسكنوا نساءكم الغرف، ولا تعلّموهن الكتابة**». ويعلّلها القرطبي بقوله: إنها إذا سكنت الغرفة (الحجرة العلويّة) فإنها سترى الرجل، أمّا الكتابة فلنمنعها من أن

---

(١) النحل: ٩٣، فاطر: ٨.

(٢) مصباح الشريعة: ٢٢، مشكاة الأنوار: ٢٢٦، عوالي اللآلي ٤: ٧٠ / ٣٦، شرح مسند أبي حنيفة: ٥٢٧، المبسوط (السرخسي) ١: ٢.

تكتب لمن تحب[١].

وهذا من باب «سد الذريعة» أي ذريعة الفساد، فهل نقطع قدميها لأنها ربما خرجت إلى السوق؟ أو هل سنقطع يدها لأنها ربما سرقت؟ وهل نمنعها من المشي؛ لأنها إن أحبّت فستمشي لمن تحبّ، أو تقيّد كي لا تذهب إليه؟ مع أن القرآن الكريم يقول: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ والإنسان: الذكر والأنثىٰ، والرسولﷺ يشترط على الأسرىٰ أن يعلّم كلّ أسير عشرة من المسلمين لقاء حرّيّته من دون فرق بين الذكر والأُنثىٰ[٢].

يروىٰ أن أحد الصلحاء جاء يوماً للمسجد فسرقوا حذاءه، فلم يشترِ حذاء بعدها، معلّلاً تصرّفه هذا بقوله: إذا اشتريت حذاء فربما سرقه أحد المسلمين، فيتحمل وزراً بسببي.. وهذا الفكر عجيب؛ لأن هذا لا يمنع عن الوقوع في المعصية المنظورة إذا لم تُربَّ الفتاة تربية طيّبة، فربِّها كذلك، وعففها ولا تهملها، فهي شريكة الرجل: **«النساء شقائق الرجال»**[٣]. فلا تفرط فيهن وفي تربيتهن، فتكون كمن يُسقط أحداً في المستنقع ثمّ يقول له: لا يقرصك البقّ؛ فإنه يسبب لك الحمىٰ. ولذلك المرأة فإن تحتاج إلىٰ توجيه نحو طريق الخير.

إن الإسلام كفل حق التعلم للمرأة في وقت كان العرب يرون أن للرجل الحق في قتل ابنته، وبعضهم يرىٰ أن المرأة ليست كفؤاً للرجل حتى تقاد به، فإذا قتل رجل امرأة لا يقتل بها، لماذا؟ لأن المرأة كائن منحط وأدنىٰ رتبة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤: ٢٩، ٢٠: ١٢١، وانظر كنز العمّال ١٦: ٣٨٠ / ٤٤٩٩٩، وفيه: ولا تعلّموهن الكتاب.
(٢) أوائل المقالات: ٢٢٦.
(٣) مسند أحمد ٦: ٢٥٦، سنن أبي داود ١: ٥٩ / ٢٣٦.

منه. وعندنا في الفقه أن الرجل يعطي نصف الدية، وإذا أرادوا قتله قتلوه بها. فأمّا أوروبا المسيحية فتقول: إن المرأة يجب أن يكمّ كمّها كما يكم البعير، حتى لا تضحك؛ لأن ضحكتها فيها إغراء، والمرأة لا روح إنسانيّاً لها، ولا تقرب من ملكوت السماء. وغاية ما صدر بحقّها آنذاك كان سنة (١٥٧١)م حيث صدر قانون في فرنسا اعتبر بمقتضاه أن المرأة لها روح، ولكن خلقت لخدمة الرجل. أمّا الإسلام فقد جاء ليعطي المرأة تلك الحقوق الفخمة، فأعطاها حق التعلّم، والذمّة المستقلّة، وساواها مع الرجل؛ لأنها شقيقته، وقد تلعب دوراً في أداء رسالتها لا يقل عن دور الرجل.

البحث الخامس: حول دور عالمة أهل البيت في واقعة الطف وبعدها

ولننتقل الآن إلى عقيلة الطالبيّين زينب، فالحسين عندما أراد أن يخرج كان عارفاً بمصيره، ولذا قال (سلام الله عليه) لأصحابه: **«خُطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه. كأني بأوصالي هذه تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً[1]، لا محيص عن يوم خطّ بالقلم»**[2]. فهو كان يعرف مصيره، فلماذا أخذ العائلة معه؟ فقد أخذ زينب وأخواته. قد يقال: لرعاية الرجال. ونقول: لا لأن الرجال من الممكن أن يرعوا أنفسهم. فلماذا إذن؟ ذلك أن الحسين أراد ألّا يحرم الساحة من الدور الذي ستلعبه زينب، وفعلاً لعبت دوراً ضخماً؛

---

(١) السغب: الجوع. مختار الصحاح: ١٦١ ـ سغب.

(٢) مثير الأحزان: ٢٩، بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٦.

حيث شرحت أهداف الدعوة والنهضة. والإمام الحسين عليه السلام خطط لذلك الدور معها، وشرح كل تفاصيله قبل أن يخرج من المدينة، وبيّن لها الأدوار التي ستقوم بها ومقدار رعايتها. وهكذا وقفت هذه المرأة لتجسد وراثتها الضخمة من جدّها وأبيها (صلّىٰ اللّه عليهما وعلىٰ آلهما) في واقعة الطف، ورحم اللّه صاحب هذه الأبيات التي علقت على الضريح:

هل بالضريحِ عقيلةٌ تتوسدُ ... أم صارمٌ تحت الثرىٰ يتمرّدُ

جلّىٰ بزينبَ رملةُ والأرض كم ... تشقىٰ بمن حلّوا بها أو تسعدُ

خُلُقٌ به فيما تألّق حيدر ... وشمائلٌ يبدو بهن محمّدُ

جمعتهُمُ الزهراءُ فيك فأنت ما ... بين النبوّةِ والإمامةِ معقِدُ

ولقد رأيتك والمصائبُ والأسىٰ ... جِممٌ وحقدُ الظالمين يعربدُ

تتوكّفين حصافةً وصلابةً ... وتحذّرين اليومَ ما يأتي الغدُ

وفعلاً وقفت بوجه يزيد وقالت له: «كِد كيدك واسعَ سعيك وناصب جهدك، فواللّه لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا، وهل رأيك إلّا فند وصحبك إلّا بدد وأيّامك إلّا عدد يوم ينادي المنادي: ألا لعنة اللّه على الظالمين؟». وهو لا يملك شيئاً أمامها فيقول: لعمري، إنها لسجّاعة. قالت: «إن لي عن السجاعة شغلاً»[1]. فما كان منه إلّا راح يسبّها ويشتمها، ورحم اللّه أحد أدبائنا حيث يقول:

وإن من أدهى الرزايا السودِ ... وقوفها بين يدي يزيدِ

---

(١) الاحتجاج ٢: ٣٧، مثير الأحزان: ٧١، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٥، ١٦٠، بلاغات النساء (ابن طيفور): ٢٣.

أتوقف المرأة من آل العبا ... بين يدي طليقها واعجبا

وبالفعل وقف الحسين‌ﷺ في مثل هذه الأيام بعد أن بيّن لزينب (سلام اللّه عليها) دورها ما بعد مرحلة النهضة وأثناءها، ليتأهب للخروج إلىٰ مكّة ومنها إلىٰ الكوفة .. خرج من مدينة جده بعد أن خطّط، وأخرج النساء، فدخل عليه عبد اللّه بن عباس فقال: أنت قد مررت بتجارب وكذلك أبوك وجدك، فما معنىٰ حملك النساء؟ فقال الحسين‌ﷺ: «**قد شاء اللّه أن يراهن سبايا**»[1]. والواقع أن زينب‌ﷺ كانت تمرّغ جبهة من سباها كما قال الشاعر علىٰ لسانها:

تقول له اسعَ فمهما سعيت ... وناصبْ بمالك من منصبِ

ستفنىٰ ويفنىٰ دوي النفيرِ ... وما حشد الزيفُ من موكبِ[2]

وتبقىٰ مراقد آل الرسول‌ﷺ تعانق أبواب السماء شموخاً ورفعة، وها نحن الآن نرىٰ مرقد السيّدة زينب‌ﷺ في دمشق، وهي تقول للظلمة: هنا الحق. وقفت هذه المرأة إلىٰ جانب الحسين‌ﷺ بكل صلابة وتحدٍّ، وهذا الموقف ليس عن كلالة وإنما هو عن وراثة، يقول الشاعر يمدح الهاشميين:

يادارَ منتجعِ الرسا ... لة بيتَ مختلف الملائكْ

ياابن الترائك والأرائك ... والفواطم والعواتكْ

فحملت تراث أُمّها وجدتها (صلوات اللّه عليها)، وخرجت إلىٰ عرصة

(١) مختصر بصائر الدرجات: ١٣٢، المحتضر: ٤١، اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ٤٠، بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٤، ينابيع المودة ٣: ٦٠. (٢) ديوان المحاضر ٢: ٢٥.

كربلاء مسلّحة بالسلاح الضخم الذي غذّاها به الحسين، ومتزوّدة بهذا التراث الضخم، إضافة إلىٰ الإيمان، فهي لا تكاد تفارق الحسين حتى ليلة العاشر من المحرم، يقول الشيخ الصدوق: كان الحسين في خيمته يقرأ القرآن، فدخلت عليه أُخته زينب، فوضع القرآن في المحراب، وقام إجلالاً لها، وكان إلى جانبه جون مولى أبي ذرّ يُصلح السيف والحسين يقول:

«يادهرُ أُفٍّ لك من خليلِ ... كم لك بالإشراق والأصيلِ

من طالبٍ بحقِّه قتيلِ ... والدهرُ لا يقنعُ بالبديلِ

وإنّما الأمرُ إلى الجليلِ ... وكلُّ حيٍّ سالكٌ سبيلي»

يقول الإمام السجاد: «**فأعادها مرّتين أو ثلاثاً حتى فهمتها وعرفت ما أراد، فخنقتني العبرة فردّدتها ولزمت السكوت، وعلمت أن البلاء قد نزل، وأمّا عمّتي فإنها سمعت ما سمعت وهي امرأة، ومن شأن النساء الرقّة والجزع، فلم تملك نفسها أن وثبت تجرّ ثوبها حتى انتهت إليه فقالت: واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت أمّي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن، يا خليفة الماضي وثمال الباقي. فنظر إليها الحسين وقال لها: يا أُخية، تعزّي بعزاء الله، لايذهبن بحلمك الشيطان. وترقرقت عيناه بالدموع وقال: ولو ترك القطا ليلاً لناما**»[1]. فقالت له: «كيف تطلب مني أن أهدأ وأنت غداً تفارقني؟».

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٢٢١، وانظر: الإرشاد ٢: ٩١ ٩٢، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٩١، تاريخ الطبري ٤: ٣١٤ ـ ٣١٩، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، البداية والنهاية ٨: ١٩٠ ـ ١٩٢، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٤، مقتل الحسين (الخوارزمي) ١: ٣٤٩، وقد مرّ مفصّلاً في ج ٢ ص ٩١ من

لقد كانت علاقتها بالحسين عجيبة، فهي لم تكن علاقة أُخت بأخٍ لها فقط، بل كانت علاقة أُخت وأُمّ وابنة، فلا تكاد تفارقه أو يفارقها، وكان يحمل لها الإجلال والتكريم. فهي تقول له: كيف تريد مني أن أسكت وأنت موشك على مفارقتي؟

انچان تريدني أنسى وبطل النوح وونيني
إخذ ذكراك من گلبي وخذ صورتك من عيني
أيام الچنت ويّاك أناغيك و تناغيني
شبيدي عايشه ويّاي من ذيج الايام اشباح

* * *

عمر ما فارگيتك بيه تذكر يوم واحنه صغار
من حضن امّي الزهره لجوانح حيدر الكرار
عيني تبخّر بوجهك وروحي وياك ليل انهار

ويقول لها الحسين: أُخية البكاء أمامك، فلا تدعيني الآن ألمح في عينيك دمعة، دعيني أخرج من الدنيا وأنا واثق من أنني تركتك مثل ما أُحب.

وفعلاً ادّخرت الدمع إلى أن سقط، وخرجت إليه في الليالي المدلهمة، وكانت تناجي طيفه طول الليل، وهكذا كانت في السبا وفي أثناء الطريق وفي الخربة، فإن جنّ عليها الليل تراءى لها شبح الحسين:

بعد هيهات دهري بيكم يعود أردّ اشيل راسي بيكم ردود

وعند ذلك غالبتها دموعها فتوجّهت إليه:

☚ كتابنا هذا، وقد مرّت الإشارة إلىٰ قوله « لناما » في ص ٢٢ من هذا المجلّد.

وصيت من يحسين بينه		من تجبل الغارة علينه
لا تعتذر يابو سكينه		حريم وغُرب شنهو حچينه

وقد حانت التفاتة من الحسينعليه السلام فرأى ابنته سكينة مطرقة، فقال لها: «بنية، ارفعي رأسك، مالي أراك مطرقة؟»، قالت: أبه، وبمن أرفع رأسي وأنت غداً تفارقني؟

وصوا بنه كبلن ترحلون		كبلن على الغبره تنامون
يحسين منته نور العيون



﴿ ٨٨ ﴾

التضحية بالأولاد في سبيل العقيدة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

مقدّمة حول علاقة الدنيا بالآخرة وأنها ليست استقطاباً

هذه الآية الكريمة فيها عدّة مضامين ومعانٍ سأعرض لها إن شاء اللّه تعالى بعد ذكر هذه المقدمة. فقد لا يعرف الكثير من الناس حقيقة العلاقة الموجودة بين الدنيا والآخرة من وجهة نظر التفكير الإسلامي، فقد يتصوّر البعض أن في المسألة استقطاباً، بمعنى أن الذي يتّجه للدنيا لابدّ أن يترك الآخرة، ومن يتّجه للآخرة لابدّ أن يترك الدنيا، وأن الدنيا والآخرة خطّان متوازيان لا يلتقيان. والأمر ليس كذلك، فإن التفكير الإسلامي ليس تفكيراً طوباويّاً أو خياليّاً، وإنما هو منبثق من صميم الواقع.

فالدنيا والآخرة مرحلتان من المراحل التي تمرّ فيها الروح في مسيرتها،

---

(١) الكهف: ٤٦.

وكلّ مرحلة يمرّ فيها الإنسان تتكيّف روحه وفقها؛ فهناك مرحلة الدنيا ومرحلة البرزخ ومرحلة الآخرة. هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإن الإنسان وُضع في هذه الدنيا من دون اختيار منه. يقول الخَيَّام في إحدى رباعيّاته:

لبستُ ثوبَ العيشِ لم أُستَشَرْ ... وحِرتُ فيه بين شتَّى الفِكَرْ

وسوف أنضي الثوبَ عنّي ولم ... أعلمْ لماذا جئتُ أين المقرْ

فهو يقول: إنني عندما لبست هذه الروح وهذا الجسد لم يكن ذلك باختياري، وإنما فتحت عيني على الدنيا فوجدت نفسي مخلوقاً فيها، وسوف أُواجه الحياة بخيرها وشرّها.

لقد ألقتنا الأقدار في خضمّ هذه الأمواج، ولكن علينا ألّا نقف موقفاً سلبيّاً من هذه الأمواج، وإنما علينا أن نتفاعل معها؛ إذ لا يسعنا ألّا نتفاعل معها؛ فالكل يحتاج إلى الرغيف فلابدّ أن يتفاعل إذن مع الدنيا لكي يحصل على الرغيف، فيبيع ويشتري ويعمل ويكدّ للحصول عليه. وكذلك يحتاج إلى اللباس، فلابد أن يعمل للحصول عليه، ويحتاج إلى العلاقة الاجتماعيّة فيندمج في المجتمع ولا يسعه أن يجلس في غرفة منعزلاً عن الناس. فهو يتفاعل مع كل أبعاد الحياة شاء أم أبى.

فلا يمكن للدين أن يقول للإنسان: انعزل عن الناس، وعطّل طاقاتك ولا تعمل، وسمِّ هذا اللون من الانعزال زهداً. فهذا فرار من الحياة وانطوائيّة لا يقرّها الدين بحال من الأحوال، فالله تعالى خلق الإنسان وشدّه إلى أبعاد مختلفة.. إلى الجانب الفكري والجسدي والاجتماعي، وأراد منه أن يشتغل بهذه الأبعاد كلّها. وقد تدخّل التشريع الإسلامي بكلّ صغيرة وكبيرة.

وربما تستغرب أن تجد آراء لبعض الفقهاء تعالج قضايا لا تخطر على البال إطلاقاً، فأنا أقرأ مثلاً للعلّامة الأشتياني كثيراً من أفكاره، فهو عملاق فكري ضخم، وأقرأ كذلك آراء الملّا صدرا هذا العملاق الذي لا زال يمد الفكر العالمي برافد ضخم من نظرياته، فأجد أنهما عندما يمرّان بعلاقة الإنسان بالحياة يفتحان لنا آفاقاً تُنبئك كيف أن الإنسان يجب أن يعطي للحياة كلّ ما عنده من طاقات، فتعرف سرّ الكلمة: **«اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً»**[1]، وكذلك هو شأن غيرهم من علمائنا ومفكرينا.

ونحن عندما نقرأ الآية الكريمة المذكورة قد نفهم من جوّ ها أنها تذمّ الاعتناء بالأموال والأولاد، والواقع أن الأمر ليس كذلك، فليس في الآية أي لون من ألوان الدلالة على وجود استقطاب أو تنافر بين الدنيا والآخرة، بل على العكس فكلّ واحدة منهما متمِّمة للأُخرى.

المبحث الأول: في معنى المال

بعد هذه المقدّمة نأتي إلى الآية فنسأل: ما هو المراد من المال؟ المال مأخوذ من التموّل، وهو الاقتناء[2]، فالمال ما يُتموّل به أي ما يقتنىٰ به ويشترىٰ. وفي التعبير الاقتصادي يقال عن المال: إنه كلّ ما فيه إشباع. فكلّ ما فيه إشباع مباشر أو غير مباشر يسمى عند الاقتصاديين مالاً. فما فيه إشباع مباشر مثل الخبز والثوب اللذين يسدّان حاجات مباشرة، أمّا ما فيه إشباع غير مباشر فمثل الماكنة التي تصنع النسيج أو التي تطحن الحبوب، فهذه فيها إشباع غير مباشر، وهكذا وسائل الإنتاج الأُخرىٰ.

---

(١) الفقيه ٣: ١٥٦ / ٣٥٦٩، ورویٰ في النهاية في غريب الحديث والأثر ١: ٣٤٦ ـ حرث: «احرث لدنياك».

(٢) لسان العرب ١١: ٦٣٥ ـ مول.

فإذن كلّ ما فيه إشباع مباشر كالخبز والثوب أو إشباع غير مباشر كالماكنة يسمى مالاً. أمّا النقد فهو ثمن للمال وليس مالاً، أي أنه وسيط في عملية التبادل، فلو أراد أحد أن يشتري بيتاً وعنده كمية من الحنطة فلا يستطيع حمل هذه الحنطة معه لشراء البيت، وإنما يقوم ببيعها وقبض ثمنها لدفعه للبائع في شرائه البيت منه.

والمال لا يمكن أن يشبع إلّا إذا دخل به عمل الإنسان، فرغيف الخبز لا يمكن أن يشبع مالم يتدخّل الإنسان في زرع الحنطة وطحنها وتهيئتهابهذا الشكل الذي نسميه رغيفاً. ولذا فإن أقدس شيء يكرّمه الإسلام هو العمل، فهو يريد من الإنسان أن يأكل من عمله وعرقه وكدّ يده[1].

وهذا العمل ينبغي أن تكون فيه فائدة للإنسانية، فلو كان في العمل استغلال إنسان مغفّل والعيش على كدّه، فهو ليس عملاً من وجهة نظر الإسلام بل هو دجل، والإسلام يحارب الدجل بكلّ أشكاله ويعتبره خطراً على الإنسانيّة. فأي لون من ألوان استحصال المال بعمل ليس منتجاً للإنسانيّة لا يعتبر عملاً من وجهة نظر الإسلام.

وقد يسأل سائل فيقول: هل إن عملكم هذا[2] منتج ومفيد للإنسانية؟

وهذا سؤال معقول جدّاً، فأقول: لولا أنني أعتقد أن عملي منتج للإنسانية لتركته وعشت من مصدر آخر. والإنتاج الذي أُريده من عملي هو أننا اليوم نحتاج الإنسان الأمين في الدكّان والمعمل والوظيفة، وفي كلّ بعد من أبعاد الحياة، ولا يصنع الأمين إلّا الدين، فلا الثقافة ولا التطوّر ولا الآلة يمكنها أن

---

(١) يقول الحديث الشريف: «ما أكل ابن آدم طعاماً أفضل من كدّ يده». سير أعلام النبلاء ٢: ٥٧٠.

(٢) أي مزاولة الخطابة الحسينيّة الشريفة.

تصنع من الإنسان إنساناً أميناً. وأنا في عقيدتي أنني أنقل تعاليم الدين كما هي خالية من الخرافات والتهريج والدجل، وهذا اللون من العمل أستحقّ به الرغيف الذي آكله.

صنمية المال

ثم إن هذا المال تارة ينظر إليه الإنسان على أساس أنه غاية، فهو يريد أن تكون لديه قوّة ماليّة يستطيع أن يحرّك بها السوق، وأن يبدو في نظر الناس غنيّاً محترماً، وهذا نوع من الصنميّة، فهو يعبد صنميّة الذهب كما يسميها كارل ماركس. فهذا الشخص تكون الأموال غاية عنده.

وتارة ينظر إليه على أساس أنه واسطة يكرّم فيها نفسه. فيأكل الطعام الطيّب ويلبس اللباس الأنيق ويوسّع على عياله[1]، ويؤدّي النفقات المفروضة عليه إلى المجتمع وإلى العشيرة والعائلة، وفي أبواب البِر. فهو يتّخذ من الأموال واسطة للوصول إلى رضوان الله. وهذا من أوضح ألوان الاندماج بين العمليّة الدنيويّة والعمليّة الأُخرويّة. فالمال هنا وسيلة للوصول إلى هذه الغاية. دخل الإمام عليّ عليه السلام على الزهراء عليها السلام فوجد الحسن والحسين عليهما السلام يرتعشان من الجوع، وكان قد خرج ثلاثة أيام إلى ضيعة عنده، فسأل الزهراء عليها السلام: **«هل عندكم شيء تغذّينيه؟»**. فقالت عليها السلام: **«والذي أكرم أبي بالنبوّة وأكرمك بالوصية، ما أصبح عندي شيء أُغذّيكه، ولا أطعمنا منذ يومين»**.

---

(١) أو ليدفع أذى وسبّة كما حصل مع الإمام الحسن عليه السلام إذ دخل عليه يوماً شاعر فأمر له بخمسين ألف درهم، فقال له أحد جلسائه: أتعطي من يقول البهتان ويعصي الرحمن خمسين ألف درهم؟ فقال له عليه السلام: «إن خير ما بذلت من مالك ما وقيت به عرضك، وإن من ابتغاءِ الخير اتقاءَ الشرّ». بحار الأنوار ٤٢: ٣٥٨ / ٣٥، شرح نهج البلاغة ١٦: ١٠.

فقال﷣: **«يا فاطمة، ألا كنت أعلمتني لأبيع لكم شيئاً؟»**. قالت: **«إن أبيﷺ نهاني أن أكلّفك شططاً، وأستحي من ربي من أن تكلف نفسك ما لا تقدر عليه»**.

فخرج﷣ واقترض ديناراً، فمرّ في الطريق فرآه المقداد ولم يكلّمه، فناداه أمير المؤمنين﷣ وسأله: **«ما أراك تكلمني اليوم! ما أزعجك هذه الساعة عن أهلك؟»**. قال: واللّه خرجت من البيت ولا أعلم أين أضع قدميَّ من الأرض، فقد دخلت على أطفالي فوجدتهم جياعاً. فقال﷣: **«ما أزعجني من رحلي غير الذي أزعجك من رحلك، ولقد اقترضت ديناراً فهاكه»**(١).

فهل كان هذا العمل من أمير المؤمنين﷣ بدافع دنيوي؟ كلّا إنه كان لنيل رضوان اللّه تعالى بواسطة التصدّق بالمال. فالمال وسيلة يمكن أن يحصل فيها الإنسان على نتائج طيّبة في الآخرة.

وهو في الوقت نفسه زينة؛ لأن كلّ طاقة عند الإنسان تعزّزه في نظر الناس، فلو كانت عنده طاقة علميّة لاحترمه الناس لها، ولو كانت عنده طاقة ماليّة فإنهم يحترمونه أيضاً لأجلها. وهكذا في كلّ طاقة عند الإنسان؛ لأن الناس ينظرون إلى صاحب الطاقة ليس على أنه إنسان عادي، وإنما ينظرون إليه على أنه إنسان ذو طاقة علميّة أو ماليّة أو مركز اجتماعي؛ فتكون نظرتهم إليه مبتنية على هذا الأساس. وهذه كلّها تعزّزه في نظر الناس.

فالمال إذن زينة إذا أخذ طريقه المشروع، أما إذا لم يأخذ طريقه المشروع فإنه يتحوّل إلى مأساة. وكثير من الأموال تحوّلت إلى مأساة لأصحابها وأنزلتهم من العلوّ والارتفاع إلى الحضيض؛ فمنهم من خرج من نادٍ للسكر

---

(١) مناقب أمير المؤمنين﷣ (محمد بن سليمان) ١: ٢٠١ ـ ٢٠٢ / ١٢٤، شرح الأخبار ٢: ٤٠٢ / ٧٤٦، باختلاف.

وراح يعربد فهان في نظر الناس، ومنهم من دفعته أمواله إلى أن يتتبع المحتاجين ويلاحقهم، فيأخذ منهم الربا، فراحت نفسه تهبط به إلى هذا المستوى من الانحطاط. فأصبح المال هنا بلاء ووباء ومأساة على الإنسان.

المبحث الثاني: في أن الولد نعمة ونقمة

ثم انتقلت الآية إلى البنين، وهم زينة الحياة الدنيا؛ لأن الولد ينمّ عن أنه كيان ثانٍ لأبيه، فبدلاً من أن يكون الأب لوحده أصبح مع ابنه اثنين، **وهو** بهذا أصبح أكثر قابليّة على العمل والإنتاج، فيكون الابن مساعداً لأبيه في تأدية الواجبات الحياتيّة.

ثم إن الابن امتداد لأبيه في الحياة، فعندما يخرج الأب منها فإنه يخرج قرير العين؛ لأنه ترك امتداده فيها، والدنيا لا تنساه؛ لأنه ترك فيها مؤشّراً يدلّ عليه وهو هذا الولد؛ ولذا يقول الحديث الشريف: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصدقة جارية، وعلم ينتفع به**»[1].

فالولد من أسباب الزينة، لكنه لا يكون كذلك إلّا إذا كان في نطاق العمل الصالح، أمّا إذا خرج من نطاق العمل الصالح إلى العمل السيّئ فإنه يتحول إلى مصيبة لا إلى زينة. كان للإمام مالك بن أنس بنت تجلس وراءه إذا جلس في مجلس بحثه في كتاب (الموطّأ) أو غيره، فكان إذا أخطأ أو قصّر في فكرة ضربت بعصاً لها على الأرض لتنبّهه، وكان عنده ولد شغله الصيد واللعب بالصقور، فكان إذا بدأ أبوه مجلس بحثه جاء بصقوره وفهوده وجماعته إلى

---

(١) عوالي اللآلي ١: ٩٧ / ١٠، السنن الكبرىٰ (النسائي) ٦: ٢٥١، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٦: ٢٧٨.

البيت وأخذ يزعج أباه، فكان مالك يقول لتلاميذه: الأدب أدب الله، فهذان كلاهما من بطن واحدة، وكلّ له طريق[1].

فمثل هذا الولد كارثة وليس زينة؛ لأنه إذا ألهى أباه عن طاعة اللّه أصبح كارثة، فإن من الآباء من يعصي اللّه من أجل ولده، فيكون مدداً لولده في طريق الانحراف.

ومثال الولد الزينة ما يروى من أنه كان عند ربعي بن خراش العبسي ولدان خرجا إلى قتال الحجّاج مع عبد الرحمن بن الأشعث، فلما فشلت النهضة ضد الحجّاج رجعا إلى البيت، وكان أبوهما متديّناً ملازماً للمسجد، فطلب الحجّاج ولديه فلم يعرف مكانهما، فقيل له: إنك إن بعثت لأبيهما وسألته أجابك؛ لأنه لا يكذب. فبعث وراءه الحجّاج فأحضره، وكانت الأجواء الإرهابية التي تملأ مجلس الحجّاج لا توصف، فقال له الحجّاج: أين ولداك؟ قال: ماذا تريد منهما؟ قال: أريدهما. قال: إنهما عندي في البيت. فقال له الحجّاج: تقول ذلك وأنت تعلم أني سوف أضرب عنقيهما؟ فقال: واللّه، هما أحقر في عيني من أن أعصي اللّه من أجلهما. فأكبر الحجّاج هذا الموقف وقال له: واللّه لا يضرّك الصدق عندي، اذهب وأخبرهما أنهما آمنان.

فالولد يجب أن يتابَع ولا يشجَّع على المعصية، فهناك من يرى ابنته تشترك في السباقات ويفرح لذلك ويستبشر، ثم يجادل في ذلك ويقول: إن ذلك ليس عيباً. ومثل هذا لا ينفع معه الكلام؛ لأن مقاييسه تختلف عن مقاييسنا التي هي مقاييس الإسلام بعينها.

---

(١) انظر: الحدّ الفاصل (الرامهرمزي): ٢٤٢، الجامع لأحكام القرآن ٩: ٤٧.

فنحن بدل أن نصوغ الولد صياغة جيّدة ونعطي البنت حقوقها التي أعطتها إياها الرسالة السماويّة، نعطيها الحقوق التي تفسد فطرتها، فلم نعطِها حقوقها في اختيار الزوج والعمل وباقي الحقوق الشرعية، وإنما أعطيناها ما يحوّلها من امرأة فاضلة إلى كيان فاسد سوف يُكوِّن أُسرة فاسدة تنخر في جسد الأُمة.

فالابن زينة إذا اتّخذ منه الأب وسيلة لرضوان اللّه تعالى، فيسخّره في ميادين الخير، ويعلّمه على حب الفضيلة والعمل بها، ويجعله عضواً نافعاً منتجاً في مجتمعه يحسّ به ويتفاعل معه.

فليس هناك استقطاب بين الدنيا والآخرة من هذه الجهة أيضاً.

المبحث الثالث: المراد من الباقيات الصالحات

ثم انتقلت الآية الكريمة إلى قوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾، والباقيات الصالحات هي التضحية بالمال والتضحية بالولد من أجل هدف أنبل وأسمى. فالقرآن الكريم يريد أن يرسم لنا خطّين نستطيع أن نوصل بينهما عندما نتّخذ من الأموال والأولاد وسيلة لما هو أكبر من هدف إنجاب الأولاد وجمع الأموال. فالأموال والأولاد تُعلي شأنك إذا وضعتها في طريق اللّه، وأول طريق لوضع الأولاد في طريق اللّه هو التضحية في سبيل الله. فالولد ينبغي أن ينشأ وعنده حسّاسية ضدّ الباطل، وأن يكون عنده اتجاه إلى الحق وتذوّق للقيم. وهذه الأُمور يعرفها الجميع، وبوسع أي إنسان أن يدلّ ابنه على طريق الخير ويجنّبه طريق الشرّ. وكذلك الحال مع الأموال؛ فيمكنه أن يضعها هنا أو هناك وفق ما فيه رضا الله تعالى.

ولفظة ﴿خَيْرٌ﴾ في الآية هنا أفعل تفضيل، أي أكثر جدوى عند الله من

المال والولد، مع أن المال والولد يمكن أن يسبّبا مكانة للإنسان في الآخرة أعظم ممّن لم يكن عنده أولاد أو أموال[١]. فهذه الأموال التي يكدّ فيها الإنسان ويتعب ثم يضعها في سبيل الله لا شكّ أن الله سوف يثيبه عليها. كان عند أبي طلحة ـ أحد أصحاب النبي ـ ولدٌ واحد، وكان يحبّه كثيراً، فلمّا أصاب المرض الولدَ جلس أبوه يمرّضه، حتى ترك الصلاة خلف النبي بسبب ذلك، فالتفتت إليه زوجته يوماً قائلة: أيلهيك مرض ابنك عن حضور الصلاة خلف النبي؟ اذهب وصلِّ خلف النبي. فذهب أبو طلحة واعتذر إلى النبي، وأخبره بما كان من أمره وأمر زوجته أُمّ طلحة، فقال: **«الحمد لله الذي جعل في أُمّتي أمثال هذه المرأة»**.

وكان ولده قد مات ساعة خروجه من البيت إلى النبي، فسجّته أُمّه ووضعت عليه إزاراً، ولبست أجمل ما عندها من الثياب وتزيّنت وتعطّرت، فلما رجع زوجها سألها: كيف حال الولد؟ قالت: هدأ واستراح، ففهم من كلامها أنه قد برؤ من مرضه، وكانت تعني أنه مات. فدنا إليها فلاطفها ولاطفته وضاجعها وكأن شيئاً لم يكن، ثم جلست إلى جانبه تضاحكه ثم قالت له: أنت نعم الرجل لولا خصلة فيك. قال: ما هي؟ قالت: إذا استودعت أمانة تأبى أن تردّ الأمانة إلى أهلها. قال: معاذ الله. قالت: بلى، إن اللّه استودع عندك هذا الصبي وقد شاء أن يستردّه. قال: وهل مات؟ قالت: نعم. فسجد لله شكراً، فكان أن رزقهما الله خلفاً له[٢].

---

(١) كما في حديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث...» المارّ قبل قليل.

(٢) انظر: مسكّن الفؤاد: ٦٩، بحار الأنوار ٧٩: ١٥١، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٤: ٦٦، تاريخ مدينة دمشق ١٩: ٤٠٢.

عوض الله تعالى لعبده على المصيبة

وهنا يرد تساؤل، وهو لو أن اللّه تعالى أخذ أحد أولاد الناس أو إخوانهم أو أعزائهم، فهل يعطيهم عليه عوضاً أو لا؟ وإن أعطى فهل يعطيهم عليه أجراً أقل من ذلك وهذا ظلم، أم أنه يعطيهم أجراً مساوياً لما أخذ منهم وهذا عبث، أم يعطيهم أكثر منه؟ نعم لا بدّ أن يعطيهم أفضل وأكثر منه، وهذا هو المعنى الصحيح للعوض؛ لكي يخرج فعلُ اللّه تعالى عن الظلم والعبثيّة.

فلا شك إذن أن الأموال والأولاد إذا وضعت في طريق اللّه فإن اللّه يعوّض عنها غاية التعويض؛ ولذا فإن الحسينعليه السلام لمّا وهب اللّه كل شيء ووضعه في سبيله أعطاه اللّه هذا العوض. فهوعليه السلام في مثل هذا اليوم أخرج أمواله وأولاده فوضعها في سبيل اللّه وحاول إحلال أصحابه من بيعته، فقد وصل الخبر إلى محمد بن بشير الحضرمي وهو من أصحاب الحسينعليه السلام أن ابنه أُسر بثغر الري فقال: عند اللّه أحتسبه، واللّه ما أحب أن يؤسر وأبقى من بعده. فسمعه الحسينعليه السلام فقال له: **«أنت في حلّ من بيعتي»**. ثم أخرج له من الخيمة خمسة ثياب، وقال له: **«اعمل على فكاك ابنك»**. فقال له: أكلتني السّباع حيّاً إن فارقتك يابن رسول اللّه، أأخرج وأسأل عنك الركبان؟[1].

فأعطىعليه السلام الثياب لأخيه، وأمره بأن يفكّ أخاه من الأسر، فكان أن باعها وفكّ بها أسره.

لقد أخرج الحسين عليه السلام معه إلى المعركة كل ما عنده من أموال وأنفقها في سبيل اللّه على أصحابه، فقد موّنهم بالسلاح والأموال منذ خروجهم معه من

(١) الإرشاد ٢: ٩٢، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٨، البداية والنهاية ٨: ١٩١.

مكّة. أما أولاده فقد ذهبوا كلّهم في مثل هذا اليوم في سبيل الله. وقد ذهب له خمسة من الولد: ذهب أحدهم في طريق السبا حيث ألقته أُمه من بطنها في جبل الجوشن في طريقهم إلى الشام، ولا زال قبره إلى الآن في ذلك المكان. وذهب الثاني عندما سقط الحسين‌ﷺ في المعركة حيث انفلت من الخيمة وكان له من العمر سبع سنوات، فجلس في حجر أبيه، فأهوى أبجر بن كعب ليضرب الحسين‌ﷺ، فرفع الصبي يده ليتّقي بها الضربة عن أبيه‌ﷺ، فأطنها أبجر من المرفق، وبقيت معلّقة بالجلد، فصبر الصبي واحتوى المأساة، ولله دره. يقول السيد حيدر:

فلِله مفطورٌ من الصبرِ قلبُه ولو كان من صُمِّ الصَّفا لتفطرا

نعم، أدناه (سلام الله عليه) إليه ثم قال: **«صبراً ولدي، صبراً بني الكرام، والله لا لقيتم هواناً بعد هذا اليوم، إن الموت قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّ إلىٰ جنان الله الواسعة والنعم الدائمة. فأيكم يكره أنه ينتقل من سجن إلىٰ قصر؟ وهؤلاء أعداؤكم كمن ينتقل من قصر إلىٰ سجن وعذاب أليم. إن أبي حدّثني عن رسول الله‌ﷺ من أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»**[1]. فاضطرب الصبي في حجره إلى أن مات.

أما الولد الثالث فهو جعفر بن الحسين الذي ينص أكثر من مؤرخ على أنه قتل، مع أن بعضهم يقول: إن الذي قتل في حجر الحسين‌ﷺ هو جعفر هذا.

وللحسين‌ﷺ طفل قتل وعمره يوم واحد، خرجت به أُمه أُمّ إسحاق بنت طلحة تحمله، فقالت: يا آل محمد، خذوا رضيعكم، لقد جف ثديي من

---

(١) تصحيح اعتقادات الصدوق: ٥٢، بحار الأنوار ٤٤: ٢٩٧ / ٢.

اللبن. فأخذه الحسين عليه السلام فأطال النظر في وجهه وقال: **«تعساً لقوم يكون جدك رسول الله صلى الله عليه وآله خصمهم يوم القيامة»**. فأقبل إليه سهم ذبحه من الوريد إلى الوريد. وهذا هو الولد الثالث على الرواية الثانية.

أما الولد الرابع فهو عبد اللّه الرضيع، وأمه الرباب الذي كان عمره ستة أشهر، وهو الذي حمله الحسين عليه السلام في آخر رجعة رجعها إلى المخيم، فعاد به مذبوحاً من الوريد إلى الوريد أيضاً. والولد الخامس هو علي الأكبر.

لقد وضع الحسين عليه السلام الأموال والأولاد على طريق الشهادة. وغني عن البيان كيف أن اللّه عوضه عن ذلك من الباقيات الصالحات، فأنت تسمع اليوم نشيد الأحرار «يا حسين» يسري على شفاه الناس، وأي عطاء أكبر من هذا العطاء؟

قيل للمأمون يوماً: ماذا بقي في نفسك من اللذائذ؟ قال: سكنت القصور حتى ما أميز بين الكوخ والقصر، وأكلت الطعام حتى ما أميز بين الرديء والجيد، ولبست الملابس حتى ما أميز بين الحرير والخشن، وأخذت الأموال حتى ما أميز بين التراب والنقد، وما تركت لذة في الحياة لم أذقها وما بقي في نفسي سوى رنة شكر من نفسٍ تُسدي إليها خيراً.

فهذا هو الخلود الحقيقي، وإذا كان هذا هو الخلود فللحسين عليه السلام منه النصيب الأوفر؛ فالدنيا كلها تشدو اليوم باسمه؛ فقد أعطى المال والولد لله فأعطاه اللّه ذلك النصيب الأوفر. وقد مرّ عليهم مثل هذا اليوم وهم صرعى على الأرض، ولما جن الليل:

وسجى الليلُ والرِّجالُ ضحايا ... والنِّساء المُخدَّراتُ ذهولُ

واليتامى تَشَرُّدٌ وضياعٌ ... والثكالى مدامعٌ وعويلُ

وزْنـــودٌ تــقسو عـليها سـياطٌ	وجســومٌ يَـضرى بـها الـتنكيلُ
ودمٌ شاطئُ الفـراتِ سـيبقى الـ	ـدهر يرويه والربى والنخيلُ[1]

وهنا نادت زينبﷺ أُختها أُمّ كلثوم: أُخية كلّ ليلة تحرسنا الأبطال، وهذه الليلة بقينا بلا محام ولا كفيل، أُخيّة قفي أنت عن يمين الخـيمة وأنـا عـن شمالها، فإن رأيت سوادة فأبعديها ؛ لئلا يتسرّب الرعب إلى قلوب الأطفال.

وبينما هي على هذه الحالة إذا بفارس يدور حول الخيمة، فصاحت به: من أنت؟ قال: سيدتي أنا من معسكر عمر بن سعد، أمرني أن أحـرسكم هـذه الليلة. فاختنقت بعبرتها، وقالت: أبعد عـين أبـي الفـضل أنت الذي تـتولى حراستنا؟ ثم دخلت إلى الخباء فـوجدت مـجموعة مـن الصـبية تـتلاعى، وصورة الحسينﷺ ماثلة أمام عينيها:

أناديك مـا يشـجيلك انـداي	ولا تسمع عـتابي ونـخواي
إلمـن بـعد يـحسين مـنواي	ظني انكطع وانكطع رجواي

يقول بعض المؤرخين: خـرجت مـنتصف الليـل إلى نـهر العـلقمي؛ لأن الحسين منعها من الخروج إلى العباسﷺ لما حاولت أن تـخرج إليـه فـي النهار، فجلست إلى جانب جسم أخيها العباسﷺ:

إلي مـــناشده ويـــاك وعـــتاب	يـمنوّخ الهـودج عـلى الباب
وسبعطعش يبرونِ اله حسـاب	أشوف الرجا وذاك الأمل خـاب

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٤٠.

﴿ ٨٩ ﴾

أبغض الحلال إلى الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾[1].

المباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: الآثار السلبيّة للطلاق

لقد عالج الإسلام موضوع الطلاق باعتباره إيّاه حالة من الحالات التي يلجأ إليها الإنسان عند الضرورة، بمعنى أن الإنسان أحياناً قد يلجأ إلى عمليّة من العمليّات التي يجريها لبدنه، ولا يقوم بهذه العملية إلّا عند الاضطرار. وموضوع الطلاق موضوع خطر؛ ولذلك يعتبره المشرّع الإسلامي مثل موضوع إجراء العمليّة الجراحيّة. ولهذا فإننا نسمع الحديث الشريف الذي يقول: **«تزوّجوا ولا تطلّقوا؛ فإن الطلاق يهتزّ له العرش»**[2]، وهو **«أبغض**

---

(١) الطلاق: ١.

(٢) مكارم الأخلاق: ١٩٧، وسائل الشيعة ٢٢: ٨ ـ ٩ / ٢٧٨٨٠.

الحلال عند الله »[١].

والملاحِظ لأمر الروايات يجد أنها تهوّل أمر الطلاق، بما تعبّر عنه من تعبير مرعب؛ فمن هذه الروايات: **« أيّما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة »**[٢].

ومنها: **« ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلّا منافق »**[٣].

فالروايات ذات العلاقة بموضوع الطلاق فيها جوّ من التحذير والتخويف والترهيب. والسبب فيه هو ذلك الجيل الضحيّة من الأبناء الذي سيفتح عينيه على الدنيا ولا يجد أُسرته حوله، فمن النادر أن تجد امرأة تطلق وليس عندها طفل، وهذا الطفل هو الذي سيكون الضحيّة الأُولى والأخيرة في المجتمع، ومن بعده تكون المرأة هي الضحيّة، فهي ستحرم من فرصة الزواج ثانية، وسيُنظَر إليها نظرة غير مريحة، فتؤدّي إلى انعكاسات اجتماعيّة سيّئة.

والذي يعنينا بالدرجة الأُولى الأولاد، فهناك طرق إحصائية تنتهجها بعض المؤسسات الاجتماعية والدراسات ذات العلاقة، التي تتّخذ مجتمعاً ما ميداناً لدراستها. وهذه الدراسات حينما تتناول مجتمع الجزيرة العربيّة مثلاً، فإنها تحدّد بوضوح مقدار ارتباط الجريمة بموضوع الطلاق، وتقرّر أن نسبة الجريمة فيه تخضع لهذا المعيار، وذلك بدراسة أحوال المجرمين وأوضاعهم؛ لتحديد نسبة أولاد المطلقات بينهم. وبهذا نعرف هل أن هناك ارتباطاً بين الجريمة وبين هؤلاء، أم لا.

---

(١) سنن ابن ماجة ١: ٦٥٠ / ٢٠١٨، سنن أبي داود ١: ٤٨٤ / ٢١٧٨.

(٢) روضة الواعظين: ٣٧٦، مسند أحمد ٥: ٢٧٧، ٢٨٣.

(٣) عوالي اللآلي ٢: ١٣٩ / ٣٩٠، الجامع الصغير ٢: ٤٩٤ / ٧٨٩٤.

وقد يسأل سائل: ما العلاقة بين هؤلاء وبين الجريمة؟ إن العلاقة تتمحور حول مبدأ هو أن الطفل عندما يولد ويتربّى في البيت فإنه تكون عنده نزعة حبّ الاستطلاع، فهو يريد أن يرى ماهيّة هؤلاء الناس الذين يعيش معهم، وهل هم طيّبون عطوفون ذوو أخلاق، أم لا؟ فالوسيلة التي يتعرّف بها الطفل على المجتمع هي الأبوان. وذلك كصاحب البصر الضعيف الذي يستعمل نظّارة يرى فيها الحروف، فيتمكن من القراءة من خلالها. وكذلك الطفل حيث إنه يتعرف على المجتمع من خلال الأبوين، فيأخذ صورة عن المجتمع من خلالهما؛ فإن كان الأبوان ملتزمَين ومنسجمين فإنه سيشعر بالرحمة والحنان والجوّ الطبيعي في البيت ويحصل عنده الاطمئنان النفسي، أما إذا رأى أبويه غير منسجمين، فإنه سيضيع.

وزيادة على ذلك سيخيّم على الأُسرة شبح الطلاق، فإن حصلت حالة الطلاق هذه فالوالد حتماً سيتزوّج، وكذلك الأمّ، فيضيع الطفل بينهما؛ فهو إن تبع أُمّه عاش في بيت زوجها الجديد الذي قد يسأمه، ويحسّ بأنه يقيّد حريته، وإن تبع الأب لاقى من زوجة أبيه ما كان من الممكن أن يلاقيه من زوج أُمّه. فيبدأ الطفل يشعر بأن جوّ البيت تسوده الكراهية، فيخرج باحثاً عن الحبّ والحنان والعطف في الشارع. فإن صار إلى الشارع تلاقفته أيدي المجرمين المتسيّبين فتنمحق أخلاقه. وما إن ينشأ ويترعرع ويكبر على هذا الحال حتى ينتقم من مجتمعه هذا انتقاماً مرعباً؛ إذ أنه يعتبر أن المجتمع الذي لم يوفّر له المحبّة والأمان والعطف والحياة الكريمة مجتمع ذئاب يستحقّ الانتقام.

ولهذا يقول أحد علماء الاجتماع: اليتيم مشروع جريمة. أي أن له

استعداداً للوقوع في الجريمة، وكذلك ابن المطلّقة. ومن النادر أن تجد ابن مطلّقة يتوفر له مجتمع ينجيه من هذه المشكلة، وإلّا فغالباً ما يكون هناك ارتباط بين هؤلاء والجريمة.

إذا عرفت هذا فلا تستكثر على لسان الرواية قوله: **«لا تطلقوا؛ فإن الطلاق يهتز منه العرش»**.

فالمشرع الإسلامي اعتبر الطلاق حالة ضرورية، وهي فيما إذا تعذّرت الحياة وأصبحت جحيماً، فلا انسجام بين الزوجين، وأصبح البيت لا ينطوي إلّا على جوّ من الشجار والكراهية، فبدلاً من هذا ﴿**فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾[1]، فهذه إلى طريقها وهذا إلى طريقه. وإذا أراد اللّه أن يرحم أحداً في مثل هذه الحالة لم يرزقه أطفالاً، وإلّا فإذا كان له طفل فإنه سيقع في المحذور؛ لأن الطفل هو الضحيّة الأُولى والأخيرة في المجتمع.

وفي الوقت نفسه فإن الزوج والزوجة إن كانا لا يزالان في ريعان الشباب فإنهما لا يقدّران فظاعة هذا الموقف، ذلك أن الزوج يتصوّر أن الموضوع سهل، وبما أنه يمتلك الأموال فيمكن أن يطلّق ثم يتزوج. وهذا من الجهل وانعدام الثقافة الأُسرية؛ حيث إنه يتصوّر أن موضوع الانتقال إلى أُسرة جديدة هو عملية بسيطة، أو أن موضوع الأطفال أمر هين. في حين أنها عملية مرعبة؛ ولذا فإن الحديث الشريف يقرّر أن هذه المرأة التي تسأل من زوجها الطلاق من غير بأس تحرم عليها رائحة الجنة. وقد وضع المشرّع الإسلامي قيوداً مشدّدة على الطلاق؛ ليبعد هذا الشبح المرعب عن البيت.

---

(١) التوبة: ٢٨.

لماذا لم تعطَ المرأة حقّ التطليق؟

وهناك سؤال يتردّد بكثرة، هو: لماذا لا يعطي اللّه المرأة حقّ التطليق كما أعطى الرجل ذلك الحق؟ أليس الرجل والمرأة متساويين في الإسلام؟

والجواب هو أن اللّه تعالى ساوى بين الرجل والمرأة فيما لا يتسبّب بالفساد، وليس في كلّ الأشياء. فهناك أشياء تتعلّق بتكوين الرجل، وأُخرى تتعلّق بتكوين المرأة، فمثلاً المرأة هي التي تحمل الولد، فإذا أردنا أن نقول بالمساواة بين الرجل والمرأة، فهل يمكن أن نسمح للمرأة أن تتزوّج من اثنين أو أكثر؟ بالتأكيد لا؛ لأن الطفل سوف يضيع باختلاط ماء أزواجها فلا يعرف من هو أبوه.

هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإن ولاء الطفل سيتوزّع، والأُسرة ستتمزّق. فلا يمكن إذن أن تكون المساواة في كلّ شيء.

كما أنه لا يمكن أن يتحقّق أمر المساواة دائماً، وكمثال على ذلك لو أننا نتعامل مع شخصين؛ أحدهما متديّن من أهل العلم والأخلاق والفضل، والآخر فاسق، فهل نتعامل معهما على قدم المساواة؟ إن العقل بالتأكيد يأمر بالتعامل مع الفاسق بحذر؛ لأنه لا يؤمن جانبه من أن يسرق من أحسن إليه، أما المؤمن فلا؛ لأن المحسن إليه يبيت آمناً منه، ولا يخشى بوادره؛ ذلك أنه صاحب دين وأخلاق وقيم. فلا يمكن إذن أن يساوى بينهما بالمعاملة البتّة. فليست التسوية هي ما يحقّق العدل دائماً. وهؤلاء الذين ينادون بالمساواة ويظنّون أن العدل هو التسوية بين الشيئين هم واهمون. فالعدل هو وضع الشيء في موضعه.

وكذلك الحال في الرجل والمرأة، فهما لا يمكن أن يُساوى بينهما في كل

شيء بأن تعطي حق الطلاق للمرأة مثلاً، فهذا ليس من العدالة. ويمكن تقريب ذلك بما لو أنك مثلاً حنوت على ابنك، وغذوته من الحبّ والعطف والحدب عليه أربعاً وعشرين ساعة يومياً فإنك لن تستطيع أن تعطيه في كلّ تلك الساعات بقدر ما تعطيه الأمّ له في ربع ساعة.

والسرّ في ذلك هو أن اللّه تعالى خلق الولد مرتبطاً بالأُم أكثر، فهو أولاً يترعرع في بطنها تسعة أشهر، ثم تحضنه سنتين. وبالإضافة إلى ذلك فهو مشدود إليها شدّاً عنيفاً، فأكثر جسمه يتكون منها، وغذاؤه من دمها ولبنها، ويمتد به دور الحضانة فيأخذ من حنانها وعطفها.

وهناك نظرية عند بعض فقهاء المسلمين تقول: إن دَور الحضانة يمتد إلى (١٨) سنة حتى يبلغ الولد ويتزوج[١]، فهو ينتقل مباشرة إلى الزواج من حضن أُمّه؛ لأنه لا ينفصل عنها عاطفياً.

وهذه نظرية ضخمة، يبرهن عليها العلم الآن. فالولد مشدود إلى أُمّه أكثر؛ فإذا حملت المرأة فهناك غدد في جسمها تفرز موادّ معيّنة، ومن هذه الغدد غدة «البرولاكتين» التي تفرِز ما يسمى بهرمون الأُمومة. فبمجرّد أن تفرَز هذه المادة يبدأ الثدي بالتضخّم إلى أن تضع فيدرّ لبناً. وهذه الغدّة ترفع عند الأُم نسبة الحنان والمودّة إلى ١٠٠٪؛ دون أن يكون شيء من ذلك للأب، فإن كان له منه شيء فهو ضئيل لا يكاد يذكر قياساً بتلك النسبة التي رأيناها عند الأُم.

ومن هنا نجد أن الأب إذا أزعجه ولده الرضيع بصراخه في بعض

---

(١) انظر: إرشاد الأذهان ٢: ٤٠، رسائل الكركي ٣: ٩٦ / المسألة: ٣٣، مغني المحتاج ٣: ٤٥٢، مواهب الجليل ٥: ٥٩٤.

اللحظات التي تمرّ عليه ربما صاح في وجهه، أمّا الأمّ فلا؛ إذ لديها من الصبر والطاقة والاحتمال ما يثير الاستغراب معه؛ فهي تسهر معه حتى الصباح ملتذّة بمناغاته، وتداعبه بحب وعاطفة كبيرين. والسبب في ذلك كما قلنا هو ذلك التغيّر الجسدي والنفسي الذي يحصل لها، واختلاف تركيبتها الفسيولوجية.

فالأب تكون عنده نسبة العقل أكبر من نسبة العاطفة؛ لأنه لم يخلق للبيت، وإنما خلق للعمل ومصارعة الحياة والجدّية فيها، وذلك يحتاج إلى نسبة عقلية أكبر. ومن هنا تكون المرأة أغزر عاطفة، وعاطفتها بنسبة كيانها العقلي، فالعقل والعاطفة عندها على حدّ سواء، فهي مخلوقة للأُسرة، والأُسرة تحتاج إلى نسبة عاطفيّة أكثر من النسبة العقليّة، فهي تحتاج إلى جوّ ناعم يسيطر عليه الحنان والدفء والعاطفة والمودّة والشفقة على الأطفال؛ ولذا خلقت المرأة أغزر عاطفة. ولما كانت المرأة كذلك ـ أي أنها تتأثّر عاطفيّاً أكثر من الرجل ـ فإنها لو وضع الطلاق بيدها فربما هدمت الأُسرة في لحظة من لحظات الانفعال العاطفي.

وقد يسأل سائل: إن بعض الرجال ضعيف وعاطفي هكذا.

فأقول: هذا من جهله، وهو شاذّ، ونحن نتكلّم عن القاعدة، وهي أن الرجل يتعامل مع الواقع في السوق وغيره، ويتفاعل مع دنيا خشنة، ومع مختلف الطبقات من المجتمع، فتكون نسبته الإراديّة أكبر من المرأة. وهذه الجنبة هي التي لحظها الشارع المقدّس، فوضع الطلاق بيد الرجل، لا أنه أراد تفضيل الرجل على المرأة.

فكل ما في الأمر أن الرجل يدرك أخطار الطلاق أكثر، فلا يقدم عليه.

وهذا أشبه بما لو كان لديك أَخَوان أحدهما أكثر نضجاً من الثاني، فأنت تسلّم المسؤوليّة للناضج أكثر. وهذا ليس تفضيلاً له على الثاني، وإنما هو تصنيف طبيعي.

ومع ذلك فإن المرأة إذا اشترطت في صلب العقد أن تكون العصمة بيدها، ووافق الزوج فإن الشرط يلزم. ولكن ليس هناك زوج يحترم رجولته فيسمح أن يكون الطلاق بيد المرأة، فتصبح الأُسرة ريشة في مهب الريح. هذا لا يكون إلّا عند من لا يحترم نفسه.

المبحث الثاني: الالتفات في الخطاب القرآني

تقول الآية الكريمة: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

وقد يسأل سائل: إن الآية تخاطب النبي ﷺ، ثم تنتقل بالخطاب من الحضور إلى الغيبة ومن الإفراد إلى الجمع فتقول: ﴿طَلَّقْتُمُ﴾، فما سر ذلك؟

السياق في آية التطهير وحجّيّته

الجواب: أن أسلوب القرآن هكذا، فقد يأتي بحكمين في الآية الواحدة. وأرجو أن تنتبه لذلك، فإن عرفته فعد إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[1]، فقد انتقل من خطاب أزواج النبي إلى الأيمّة عليهم السلام في آية التطهير هذه. وهذا أسلوب القرآن الكريم، وذكرنا هذا كيلا يقول أحد: إن السياق لا يساعد على أن آية التطهير نازلة في أهل البيت عليهم السلام؛ لأن ما قبلها يتحدّث عن أزواج النبي. إن هذه الآية منصوص عليها في كتب المذاهب

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

الإسلامية كافّة أنها في أهل البيتﷺ[١]. والسياق هنا ليس بحجّة، فقد ينتقل القرآن من الخطاب إلى الغيبة، فيكون في الآية الواحدة حكمان. وهذا من الأساليب البليغة عند العرب. ومنه قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[٢].

المبحث الثالث: تعريف الطلاق وأحكامه

فالآية تقول: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، والطلاق كما يعبّر عنه فقهاء المسلمين هو إزالة قيد النكاح[٣]. يعني أن هذا الارتباط بالزواج يُفكّ، ويقع الطلاق بألفاظ وشروط توقيفية معينة.

صيغة الطلاق

إن صيغة الطلاق عند الإمامية هي أن يقع باللفظ المعيّن[٤]، حيث يجب أن تكون الصيغة دالّة على الطلاق بالمواطأة. أي أن لفظ الطلاق لابدّ أن يكون موضوعاً ١٠٠٪ للطلاق، لا بغيره من الألفاظ. أما عند المذاهب الأُخرى فإن الطلاق يقع بكل لفظ، فلو قال: أنت بريّة أو خليّة وقع الطلاق[٥]. أو قال: أنت طلاق، صارت مطلقة[٦]. حتى إنهم يقولون: لو أنه غلط في كلامه فأراد أن

---

(١) انظر: مسند أحمد ١: ٣٣١، ٣: ٢٥٩، ٢٨٥، ٤: ١٠٧، ٦: ٢٩٢، صحيح مسلم ٧: ١٣٠، جامع البيان، المجلد: ١٢، ج٢٢: ٤ / ٢١٧١١ وغيرها كثير، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢٥٩/٣١، معاني القرآن ٥: ٣٤٨ / ٤٥، وغير ذلك كثير.

(٢) يوسف: ٢٩.

(٣) انظر: تذكرة الفقهاء ٢: ٦٥٧ (حجري)، المهذّب البارع ٣: ٤٣٨، المجموع شرح المهذّب ١٧: ٣٥١، مغني المحتاج ٣: ٢٧٨.

(٤) انظر شرائع الإسلام ٣: ٥٨٣ ـ ٥٨٧.

(٥) انظر: الأُم ٥: ٢٧٨، رسالة أبي زيد القيرواني: ٤٦٨، المبسوط (السرخسي) ٦: ٨٠.

(٦) انظر: المجموع شرح المهذب ١٧: ١٠٥، ونسبه لمالك وأبي حنيفة.

يقول: أنت طاهر فقال: أنت طالق، فقد وقع الطلاق، وغير ذلك[1].

شروط الطلاق

وشروط الطلاق التي ينصّ عليها فقهاؤنا[2] هي أنه لا يجوز أن يقع ويصدر إلّا من بالغ عاقل قاصد غير مكره. فهذه شروط أربعة:

الأول: أن يكون بالغاً

ومعنى البلوغ هنا: النضوج، أي البلوغ العقلي، لا البلوغ البايولوجي. فهناك بلوغ بايولوجي، وبلوغ عقلي. فالبلوغ البايولوجي هو القدرة على الإنجاب، أو ما يسمى بالبلوغ الجنسي. وهذا ليس هو المقصود في هذا الشرط، وإنما المقصود هنا هو النضوج العقلي.

الثاني: العقل

أي ألّا يكون فاقد العقل مجنوناً، فلو طلّق والحال كذلك لم يقع، ويحكم ببطلانه.

الثالث: الاختيار

أي ألّا يكون مجبراً، كأن تكون اُمّه قد ألحّت عليه كي يطلّق زوجته لأنها

---

(١) كما لو أن رجلاً كانت له امرأتان، فنادى الأُولى باسمها ليطلّقها فأجابته الثانية: فقال: أنت طالق فإنها تطلق. انظر المغني ٨: ٢٨١.

وكما لو نوى رجل أن يطلّق امرأته فإنها تصبح مطلّقة، انظر: الاُم ٥: ١٢٩، ٧: ١٦٦، مختصر المزني: ١٩١، روضة الطالبين ٦: ٢٨، فتح المعين ٤: ٢١.

وكما لو أن رجلاً قال لزوجته: يدك أو قدمك أو إصبعك طالق، فقد طلقت منه. مواهب الجليل ٥: ٣٤٥.

وقال بعض: لو طلّق السكران صح طلاقه ووقع، انظر: مختصر المزني: ١٩٤، عن الشافعي، روضة الطالبين ٦: ٢٣، فتح الوهاب ٢: ١٢٤.

(٢) انظر شرائع الإسلام ٣: ٥٧٩ ـ ٥٩٣.

اختلفت معها. والمأسوف عليه أن بعض الأُمّهات لا يهتممن بأسر أبنائهن؛ لأنهن يرين أن الابن قد رُبي في أحضانهن، ثم هاهو يفارقهن فجأة ويتزوج امرأة ويبتعد عنهن. فكل واحدة منهن ترى أن هذه المرأة قدأخذت ابنها منها. وعند بعضهن من العقليّات ما لا يتعدّى عقليّة العصفور. فهذا اللون من الإكراه لا يُلتفت إليه. فإنه إن كان مكرهاً لم يقع طلاقه.

وقد حدث ذلك في التاريخ مع الأسف من بعض الصحابة، فقد أمر معاوية عن طريق أحد عمّاله أحدَهم أن يطلّق زوجته فامتنع، فضربه وسجنه وأجبره على أن يطلّقها، وهذا ما نصّ عليه ابن كثير في تاريخه[1] فراجع إن شئت. فهذا اللون من الطلاق لا يقع.

الرابع: القصد

أي أن يكون قاصداً للطلاق، لا أنه كان يمزح أو يهزل، أو أنه لم يكن يعني الطلاق. ومنه طلاق السكران، فهل يعدّ السكران قاصداً أم لا؟ فإن شرب الخمرة وبدأت تؤثّر على مداركه، وراحت تسلب من ذهنه الشعور المنتظم، فإنه يصبح معدوم القصد وفاقد العقل لا يعي ما يقول، أو على حد تعبير أبي حنيفة: لا يميّز الأرض من السماء، ولا الرجل من المرأة[2]. وعند مالك أن السكران هو الذي لا يعقل ما يقول وما يفعل، وعند الشافعي أنه الذي يتكلّم ويخبط على غير العادة[3]. فهل يقع طلاقه عند فقهاء القانون

---

(١) لم نعثر عليه، لكن قريب منه ما فعله مروان مع أحد بني عذرة. انظر: المستجاد من فعلات الأجواد: ٢٤٠، تاريخ مدينة دمشق ٦٨: ١٤٣ ـ ١٤٦. وفيها محاولة معاوية أخذ زوجته منه.

(٢) انظر: البحر الرائق ٣: ٤٣١، ٥: ٤٦، ونسبه في الأخير إلى المذهب، حاشية رد المحتار ٢: ٣٢٢.

(٣) انظر جواهر العقود ٢: ١٠٢.

والشريعة، أم لا؟

وهذا السكران إن كان لا يعرف الأرض من السماء على حد قولهم، فكيف يجيزون طلاقه[١]؟ وهنا يعلّلون ذلك بقولهم: إننا إنما أجزنا طلاقه كي يتأدّب ولا يكرّر ألفاظ الطلاق دائماً. لكن يرد عليهم أن هذا السكران لا يعي ما يقول، فهو يهدم الأُسرة بعمله هذا هدماً، فكيف تؤدّبه بهدم أُسرة[٢]؟ إن هذا السكران يصل إلى درجة أنه يصبح مهزلة، وهو أحد أسباب تحريم الخمرة؛ فهي تسلب الإنسان أعزّ ما عنده وهو عقله ومداركه. فكيف نصحّح طلاقه، والقصد غير متحقّق عنده؟

وهذا السكران مثلاً لو صدم بسيارته شخصاً فلا يؤاخذ إلّا من جهة أنه يعرف أن شربه الخمر سوف يسبب له الحوادث ومع ذلك شربها؛ فهو لم يتحقّق عنده القصد الجنائي إلّا من هذه الجهة. وهذا محلّ تأمل أيضاً، وفيه رأي آخر للفقهاء.

ولذا فإن السكران لا تترتّب عليه الآثار كلّها، فلا يقبل اعترافه، ولا يعتبر إقراره شرعياً؛ لأنه إنسان لا يعقل ما يقول، ومناط التكليف هو العقل. فاللّه لا يكلف بالأحكام إلّا العاقل. فالعقل هو الذي به يثيب اللّه وبه يعاقب. دخل إسحاق بن عمّار على الإمام الصادق ﷺ فقال له: جعلت فداك، إن لي جاراً كثير الصلاة، كثير الصدقة، كثير الحجّ لا بأس به. فقال الإمام ﷺ: **«كيف عقله؟»**. قال: جعلت فداك، ليس له عقل. فقال ﷺ: **«لا يرتفع ذلك منه»**[٣].

---

(١) انظر ص ٣٢٠ / الهامش: ١.

(٢) أي أنه تطبيق لمفهوم (الغاية تبرّر الوسيلة)، وعلاج للخطأ بما هو أشدّ خطأً منه، وأعظم عند اللّه.

(٣) الكافي ١: ٢٤ / ١٩.

إذ ربما لا يكون هذا الجار قاصداً ما يفعل، فهو يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً.

وأنا لا أدري لمَ يُصحَّحُ طلاقُ السكران وهو كما عرفت، ولا أدري لم هذا الحرص على هدم العائلة. فهو إن قال لها: برية أو خلية أو أنت طلاق صارت طالقاً، أو سبق لسانه فبدل أن يقول: «طاهر» قال: طالق، صارت طالقاً. فلم هذا الحرص على هدم العائلة؟

في طلاق الثلاث

هناك نقطة أُخرى أيضاً، هي أن الزوج إذا طلق ثلاثاً في مجلس واحد اعتبر طلقة واحدة[1]. وقد أخذ القانون المصري برأي الإمامية في هذا الشأن، فصار يعتبر طلاق الثلاث واحدة. أما المذاهب الأُخرى فيعتبرونه ثلاثاً، ولا تحل له من بعد ذلك حتى تنكح زوجاً غيره[2].

ويتراءى لك من هذا التساهل بموضوع الطلاق أن هذا في غير محلّه، لأنه يؤدّي إلى هدم الأُسرة. والغريب أننا عندما نضع في حسابنا أن المذاهب الإسلامية كلّها مصدرها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فلماذا لا نأخذ منها بالرأي الذي يتناسبُ مع حاجة الدنيا؟ لم لا نأخذ برأي عدل الكتاب آل محمدﷺ الذين لا يضلّ من تمسك بهم؟

كما أننا نشترط الإشهاد على الطلاق، فلا بدّ عندنا من حضور شاهدين عدلين[3]. والسبب هو عسى أن يأتي هذان الشاهدان فيلطّفا الجوّ ويصلحا ما

---

(١) انظر: الناصريات: ٣٤٨، الخلاف ٤: ٤٥٦ / المسألة: ٩، جواهر الفقه: ١٧٩ / المسألة: ٦٣٦، شرائع الإسلام ٣: ٥٨٦.

(٢) انظر: الأم ٥: ١٩٤، مغني المحتاج ٣: ٢٧٥.

(٣) انظر: المقنع: ٣٤٣، شرائع الإسلام ٣: ٥٨٦، الجامع للشرائع: ٤٦٨.

بينهما، ويجعلاهما يتجنبان هذه الخطورة، فيحفظا الأُسرة.

المبحث الرابع: الزمان الذي يصحّ وقوع الطلاق فيه

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، وهذه اللام تسمى «لام التوقيت»، يعني أن الطلاق لايقع إلّا في زمان العدّة، وهو الأقراء. وسمي القرء بهذا الاسم لأن الدم يُقرأ فيه أي أنه يجتمع ولاينزل[1]. ويكون ذلك في الفترة التي تكون فيها المرأة في غير العادة الشهرية. فلابدّ أن يقع الطلاق في طهر لم يلاقِ فيه الإنسان زوجته. أما في الحيض فيكون الطلاق نافذاً عند المذاهب الإسلامية إذا وقع فيه، لكن المطلق يكون عمل محرماً[2]؛ لأن النهي عند بعضهم لا يستوجب الفساد[3]. أما عند الإمامية فيستوجب الفساد، ويعتبر الطلاق باطلاً في الحيض[4]. ودليلهم على ذلك ما روي في صحيح مسلم[5] وغيره[6] من أن عبد الله بن عمر طلق زوجته وهي حائض، فجاء أبوه إلى النبي ﷺ فقال له: إن عبد الله طلّق زوجته وهي حائض. فقال ﷺ: **«مره فليراجعها، ثمّ ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، فإن أراد أن يطلّقها فليطلقها»**.

---

(١) لسان العرب ١: ١٣١ ـ قرء.

(٢) المجموع شرح المهذب ٢: ٥١٤، ١٧: ٧٤، ١٨: ١٣٨، الإقناع ٢: ١٠٤.

(٣) انظر: المستصفىٰ في علم الأُصول: ٢٢١ ـ ٢٢٤، المحصول في علم الأُصول ٢: ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٤) انظر: الذريعة إلىٰ أُصول الشريعة ١: ١٧٩ ـ ١٩٦، مبادئ الوصول: ١١٧.

(٥) صحيح مسلم ٤: ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢.

(٦) انظر: سنن ابن ماجة ١: ٦٥١ / ٢٠١٩، ٢٠٢٣، سنن أبي داود ١: ٤٨٥ / ٢١٧٩، ٢١٨١ ـ ٢١٨٢، ٢١٨٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٢: ٣٢١، السنن الكبرىٰ (النسائي) ١: ١٣٨، ١٤١، ٢١٣.

والمقصود بالمراجعة هنا أن يتمسّك بالعقد؛ لأنه لا زال باقياً لفساد الطلاق، لا أن معنى قول النبيﷺ: **«مره فليراجعها»**، أن تلك التطليقة كانت صحيحة كما فهمته المذاهب الإسلامية.

ونحن عندما نجد أن للحكم دليلاً ومنشأً فإننا لا نناقش فيه، وإنما نقول: إن هذا فقيه مسلم وقد أخذ هذا المعنى من الآية، وليس لنا أن نحجر على عقله ولا أن يحجر هو على عقولنا. فهذا الفقيه يفهم من قول النبي: **«مره فليراجعها»** أن الطلاق كان صحيحاً، وبما أنها بالعدّة فليراجعها. أما فقهاؤنا، ففهموا من ذلك أن يتمسّك ببقاء العقد؛ لأن العقد لا زال باقياً والطلاق فاسد لم ينفذ.

المبحث الخامس: في فترة العدّة والحقوق المترتّبة فيها

ثم قالت الآية: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾، أي أن هذه المدّة التي تعتدّ بها المرأة المطلقة ـ وهي ثلاثة أشهر لغير الحامل، أو أبعد الأجلين من الثلاثة الأشهر أو وضع الحمل إن كانت حاملاً ـ فيها حقوق للزوج وللزوجة.

حقوق الزوجة خلال العدّة

فمن حقوق الزوجة خلال العدّة النفقة؛ لأنها لا تزال في حكم زوجته، فعليه أن ينفق عليها فيها كما كان ينفق عليها أيام الزواج.

ومن حقوقها السكنى، وعندنا أن المطلقة حتى البائنة غير الرجعية تكون لها النفقة والسكنى إذا كانت حاملاً[1]. أما إذا كانت حائلاً فلا سكنى ولا

---

(١) الخلاف ٥: ٦٩/المسألة: ٢٢، المهذب (ابن البرّاج) ٢: ٢٤٨، الوسيلة إلى نيل الفضيلة: ٢٨٦.

نفقة. أما الرجعيّة فلها السكنى والنفقة في كل حال[1].

حقوق الزوج خلال العدّة

أمّا حق الزوج فأن يمنعها من الزواج خلال فترة العدّة، وحتى الخطبة في هذه الفترة لا تصحّ من أي أحد ومهما كانت الظروف. وللزوج حقّ الدخول عليها والخروج. ويستحبّ لها هي إظهار الزينة أمامه؛ لعلّ هذا الجليد المتراكم بينهما يذوب، فتعود الأُمور إلى نصابها والمياه إلى مجاريها. وإذا كانت حاملاً، وجاءه ولد في هذه الفترة فإن الولد ينسب له إذا أمكن أن يصحّ ذلك النسب. فمثلاً، إذا طلقها وكانت حاملاً لستة أشهر، وبعد ثلاثة أشهر من الطلاق وضعت، فالولد يمكن أن ينسب له.

أما نظريات الحمل من غير هذه ممّا عند المذاهب الإسلامية الأُخرى فهي غير معقولة ولا يمكن الأخذ بها، من قبيل ما يقال: إن الجنين يمكن أن يبقى في بطن أُمّه خمس سنوات[2]. ولو أن «إحسان إلهي ظهير» الذي جاءنا اليوم بكتاب لا نعرف من وراءه، نظر في مثل هذه النظريات لكان أولى له من أن يتعلّق بروايات ضعيفة يفرّق بها بين المسلمين. فلو قرأت كتاب (المغني) لابن قدامة لوجدت أن هناك نظريات عندهم تقول: إن الجنين يمكن أن يبقى في بطن أُمّه ثماني عشرة سنة[3]. وهذا لا يمكن أن نسميه فقهاً؛ لأن الفقيه لا يُعطى الحقّ إلّا في الأحكام، أما الموضوعات فليست من شأنه. فمثلاً يقول الفقيه: الكحول حرام لأنه مسكر، ولكن ليس من شأنه أن

---

(١) المهذب (ابن البراج) ٢: ١٣١٨، الوسيلة إلى نيل الفضيلة: ٢٨٦، المجموع شرح المهذب ١٨: ١٦٤. وسوف يأتي مفصّلاً في محاضرة (من مسائل فقه الأُسرة) في ج٦ من كتابنا هذا.

(٢) انظر الهامش التالي.

(٣) المغني ٩: ١١٧، وفيه أربع سنين.

يقول إن هذا الشراب فيه كحول أو لا، بل إن هذا من اختصاص الكيمياوي العامل في هذا المجال. وكذلك هنا، فإن الفقيه من حقّه أن يقول: الولد يلحق بالوالد في الظرف الطبيعي الذي يمكن أن تقع فيه الولادة، أما فترة ظرف الولادة فلا شأن له فيها، وليس هذا من تحقيقه، بل نرجع في هذا إلى الطبيب ونسأله عن مقدار تأخّر الجنين حتى في الحالات الشاذّة، ونطبق الحكم علىٰ قوله.

إذن في مثل هذا المورد من حق الزوج أن يلحق به الولد إذا كان في هذه المدّة بالذات، والتي مما يصحّ أن ينسب له هذا الحمل فيها؛ ولذلك قال القرآن الكريم: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾؛ حتى لا يذهب حقّ المرأة ولا حقّ الرجل ولا حقّ الولد.

المبحث السادس: في معنى الإضافة في: ﴿بُيُوتِهِنَّ﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ﴾، ومعنى هذا أن زوج المرأة خلال العدّة ليس له الحق في أن يخرجها من بيت السكنى. وهذه الإضافة في قوله تعالى: ﴿بُيُوتِهِنَّ﴾ هي إضافة اختصاص لا إضافة تمليك، أي بيوتهن التي يسكنَّ بها لا البيوت التي يملكنها. فليس للرجل حقّ في أن يخرجها من البيت خلال فترة العدّة، وليس لها هي الحق في أن تخرج إلّا في حالات ضروريّة يذكرها الفقهاء[١]، فيحقّ لها أن تخرج في الليل شرط أن ترجع قبل انتهائه، وكلّ ذلك من أجل حفظ حقّ الزوج كي يطمئن إلى أن زوجته تسير في المسار الصحيح.

---

(١) انظر: المقنعة: ٥٣٥، قواعد الأحكام ٣: ١٥٢، المبسوط (السرخسي) ٦: ٣٢.

احتجاج عثمان على عائشة وحفصة

وهذه المسألة ـ الملكية ـ مما يمكن أن يشار إليها في النزاع الذي وقع بينه وبين زوجتَي النبيﷺ عائشة وحفصة. وهذا النزاع يتلخّص في أنهما دخلتا عليه مطالبتين بالميراث من رسول اللهﷺ، فقال: ما هو ميراثكما؟ قالتا: الحجر التي خلّفها النبيﷺ. فأجابهما بأن سألهما: هل تردن الميراث؟ قالت عائشة: نعم. قال: وهل النبيﷺ يورّث؟ قالت: نعم. وكان متّكئاً، فاستوى جالساً وقال: ستعلم فاطمة أي ابن عم أنا لها اليوم. ثم قال: إذا كان يورّث فلمَ مُنعت الزهراء الميراث؟ وإذا كان لا يورّث فأي حقّ جئتما تطالبان به؟ أولستِ أنت (يعني عائشة) وهذه الجالسة جئتما معكما بأعرابي يتطهّر ببوله[1]، وشهدتم عند أبيك أن النبيﷺ قال: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث**»؟ قالت: بلى. قال: فأي ميراث تطالبان به؟ فإن كنتما شهدتما بحق فقد أجزت شهادتكما علىٰ أنفسكما، وإن كنتما شهدتما بالباطل فعلىٰ من شهد بالباطل لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فخرجت ورفعت قميص النبيﷺ وهي تقول: هذا قميص النبي لم يبلَ وقد أبلى عثمان سنته[2].

وما أردنا ذكره هنا هو أن الإضافة في قوله تعالىٰ ﴿**فِي بُيُوتِكُنَّ**﴾[3] هي للاختصاص لا للملك[4].

واستفحل الأمر وتفاقم إلى أن قتل الخليفة، فلما قتل سألت: من تولّى

---

(١) هو أوس بن ملك، وقيل: مالك بن الحويرث.

(٢) انظر: الإيضاح: ٢٥٧ ـ ٢٦٠، المسترشد في الإمامة: ٥٠٨، بحار الأنوار ٣١: ٢٩٥.

(٣) الأحزاب: ٣٣.

(٤) وقد يرد في هذا الخصوص خروج عائشة وحفصة من بيتهما وهما من أمهات المؤمنين اللاتي أكرمهن الله وأمرن بأن يكنّ جليسات بيوتهن حتىٰ بعد وفاة الرسول الأكرمﷺ.

بعده؟ قالوا: علي بن أبي طالب. فقالت: لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد تاب عثمان، ولما تاب قتلوه، والله لقد قتلوه مظلوماً وسأخرج فأُطالب بدمه[١].

ثم بعد ذلك خرجت مطالبة بدمه، فاستقبلها أحد بني أخوالها ـ وهو ابن أمّ كلاب من بني ليث ـ فقال لها: ولم؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلاً. ثم أنشد:

فمنكِ البداءُ ومنكِ الغيرْ ومنكِ الرياحُ ومنكِ المَطرْ

وأنتِ أمرتِ بقتلِ الإمامِ وقلتِ لنا إنَّه قد كفرْ

فهَبنا أطَعناكِ في قتلهِ وقاتِلُه عندَنا مَنْ أمَرْ

وقد بايعَ الناسُ ذا تدرَإٍ يزيل الشبا ويقيم الصعَرْ

ويلبسُ للحربِ أثوابَها وما من وفى مثلُ من قد غدرْ[٢]

فكان أن حدثت واقعة الجمل، تلك الواقعة المرعبة التي أدّت إلى مذبحة غريبة. وكانت إحدى النساء قد فقدت أربعة من ولدها في الجمل، فكانت تقول: لماذا هذه الحرب؟ ولماذا يقتل هؤلاء الناس بعشرات الآلاف؟ هل هو بسبب رغبة في نفس امرأة؟ أم بسبب أُناس عقولهم هكذا؟ وراحت تجول على مصرع أولادها وتقول:

شهدتُ الحروبَ فشيّبْنَنِي فلمْ أرَ يوماً كيومِ الجَملْ

أضرُّ على مؤمنٍ فِتنةً وأقتَلَه لشجاعٍ بطلْ

فليتَ الظُّعينةَ في بيتِها وليتكَ عسكرُ لمْ ترتحلْ[٣]

---

(١) تاريخ الطبري ٣: ٤٧٦، الإمامة والسياسة ١: ٥١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) هي امرأة من بني عبد القيس. الجمل (ابن شدقم): ١٤٨، مروج الذهب ٢: ٣٦٩، ونسبها

وانتهى الأمر بالمعركة أن أصبحت الأشلاء كالتلول، ووصل الأمر حدّاً نادى معه الإمام: «**اعقروه**». فجاءه مالك فضربه عدة ضربات فلم يتمكن منه، فجاء إليه الإمام فضربه ضربة عرقب بها يديه ورجليه فسقط، فانهزم الناس.

ولما راح الليل يرخي سدوله وقف أمير المؤمنين، وصاح بمحمد بن أبي بكر فقال له: «**اذهب لأُختك وتولَّ أنت حراستها، ولا تترك أحداً من الأجانب يقرب إلى خبائها؛ لئلّا يتسرّب إليها الرعب. وهذه عشرون امرأة معك يتولّين حراستها وخدمتها**»[1]. كل هذا، ولمّا جاءها نعي أمير المؤمنين علي قالت:

فإن يكُ نائياً فلقد نعاهُ ... نعِيٌّ ليس في فيه الترابُ[2]

فقد كان العرب يقولون لمن جاء ينعى عزيزاً عليهم: ملأ اللّه فمك تراباً. وهذه تقول: لا ملأ اللّه فمك تراباً؛ لأنك نعيت علي بن أبي طالب. وهذا هو إناء علي، وهذا معدنه الذي ينبغي أن يكون عليه؛ لأنه سيد النُّبل، فهو يوعز إلى أخيها محمد بن أبي بكر بأن يتولّىٰ حراستها مع عشرين امرأة يخدمنها كيلا يتسرّب الرعب إليها، وهي تقول لناعيه: لا ملأ اللّه فمك تراباً.

وليتك يا أمير المؤمنين ترى عائلتك ليلة الحادي عشر من المحرم حينما جن عليها الليل، ليتك يا من أبَيت إلّا أن يحرس أخ أُخته ترى بناتك حينما جن عليهن ذلك الليل مع مجموعة من النساء والأطفال، وقد وقفت ابنتك

☚ بعضهم لعثمان بن حنيف، انظر مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٧٤.

(١) تاريخ الطبري ٥: ٢٠٤ ـ ٢٠٥، الفتوح (ابن أعثم) ٢: ٣٤١، الفتنة ووقعة الجمل: ١٨٢.

(٢) الجمل: ٨٤، تاريخ الطبري ٤: ١١٥.

زينب الكبرىٰ وأوقفت أُختها عن يمين الخيمة. قالت: أخية، كلّ ليلة يحرسنا الأبطال، وهذه الليلة بقينا بلا محامٍ ولا كفيل. أُخية، أنت قفي عن يمين الخيمة وأنا أقف عن شمالها. ووقفت ترعى العيال حتى الصباح:

إن عَسعسَ الليلُ وارى ذلّ أوجُهِنا ... وإنْ تَنَفَّسَ وجهُ الصُّبحِ أبدانا

قُمْ يا عَليُّ فما هذا القُعودُ وما ... عَهدي تغضُّ على الأقذاءِ أجفانا

انهَض لعلَّكَ من أسْرٍ ألمَّ بِنا ... تفُكُّنا وتَولّى دَفنَ قَتلانا

وبقيت على هذه الحالة إلى أن تناصف عليها الليل، فنزلت إلى مصرع أخيها الحسين:

إلك جيت خويه بهدوة الليل ... أشرب دمع واكبع بالعويل



﴿ ٩٠ ﴾

التكافل الأُسري في المجتمع الإسلامي الحسين عليه السلام والأكبر أُنموذجاً

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: الشريعة الإسلامية ونظام التكافل

تكفّلت الشريعة الإسلامية بإيجاد كل أنماط التكافل وأقسامه في محيط الأُسرة لتوفير ما يمكن أن تفتقر إليه. فالأُسرة هي اللبنة الأُولى والأساس في بناء المجتمع؛ لأنه ـ كما هو معروف ـ عبارة عن مجموعة من الأُسر. ونظام الأُسرة هو النظام الطبيعي الفطري.

وقد حدثت محاولات عدّة للقضاء على نظام الأُسرة. فقد دعا أفلاطون في جمهوريته إلى الزواج المُشاع، وأن يصبح المجتمع إباحياً. وكذلك دعا

---

(١) الأحقاف: ١٥.

لينين في تشريعه إلى إشاعة الأُسرة. لكن الدعوتين ـ وغيرهما ممّا سبقهما أو جاء بعدهما من الدعوات ـ لم تنجحا في ذلك؛ لأن نظام الأُسرة نظام فطري كما قلنا.

وقد استعرضتُ قبل حوالي سنتين أو ثلاث سنوات، أقسام الزواج السائدة في العالم، وذكرت رأي المشرّع الإسلامي في نظام الأُسرة، وأنه يعتبر أمثل النظُم عند دراسته دراسة موضوعية بغض النظر عن كوننا مسلمين. وأنا الآن أغتنم فرصة العلاقة بين علي الأكبر وأبيه الحسين﵇ لأدرس بعض ملامح الأُسرة الإسلامية، فنَطَّلع على الأجواء القرآنية التي عاش فيها أيـمّة أهـل البيت﵈، وكيف أن هذه الأجواء القرآنية ترسم لنا نظام الأُسـرة المسـتقرّة القائمة علىٰ أُسس التعامل الصحيح بين أبنائها.

فالأُسرة إذن كيان فطري طبيعي لا يستغني عنه المجتمع، ولا يمكن أن نعوّض عنها بأية مؤسسة من المؤسسات.

وقد يتصوّر البعض أن دور الحضانة يمكن أن تحلّ المشكلة، فـلن نـعود محتاجين إلى إشغال المرأة بتربية الطفل في البيت، فكلّ خمسين طفلاً فـي دار الحضانة مثلاً تُشرف على تربيتهم امرأة واحدة.

وهذاكلام بعيد عن الواقع، بل فيه الكثير من التَّجَنِّي على الحقيقة؛ لأن دور الحضانة لا يمكن أن توفّر العناية اللازمة للطفل كما تـوفرها الأُم؛ ذلك أن الأُم الوالدة نفسها قد لا تستطيع أن توفر ما يلزم لابنها الوحيد، فكيف بامرأة أجنبية تشرف على تربية مجموعة من الأطفال؟ وهل تحنو هذه المرأة على الطفل كما يحنو عليه قلب الأم؟ هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإن المرأة في دور الحضانة لو فرضنا أنها استطاعت أن توفّر للطفل حاجاته الجسديّة،

فهل يمكن أن توفّر له الحاجة النفسيّة؟ كلا، لا يستطيع ذلك أحد غير الأُم، والصحّة النفسيّة للطفل تتوقّف على رائحة الأم.

وقد ثبت علميّاً أن مداعبة الأم للطفل، وتقبيلها إيّاه، وما شابه ذلك هو الذي يوفّر له الصحّة النفسيّة، وبدون ذلك ينشأ الطفل ناقصاً من هذه الناحية.

المبحث الثاني: مفهوم التكافل وأقسامه

إذن فالتشريع الإسلامي يحاول أن يحفظ التكافل في محيط الأُسرة. فما هي أقسام التكافل التي حرص الإسلام على توفيرها في هذا المحيط؟ هناك ثلاثة أقسام روعيت في هذا الباب، هي:

١ ـ التكافل الماديّ.

٢ ـ التكافل الأخلاقي.

٣ ـ التكافل الاجتماعي.

وهذه الأقسام الثلاثة يحرص المشرّع الإسلامي على توفيرها في جوّ الأُسرة، والآية الكريمة تنظر إلىٰ ذلك حينما تقول: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ﴾؛ إذ يرد هنا سؤال هو: ما نوع الألف واللام في كلمة ﴿الإِنسَانَ﴾؟ هل هي للعهد أو للجنس أو للطبيعة؟ ذلك أن الألف واللام لها في اللغة العربية هذه المعاني الثلاثة، فأيها الذي يتناسب مع جوّ الآية؟ والداعي لهذا السؤال هو أن البعض قال: إنها للعهد، والإنسان المعني في الآية إما أن يكون الحسين عليه السلام أو الخليفة الأول. ولكن جو الآية جوٌ عام، والألف واللام لاستغراق الجنس، أي جنس الإنسان. ونفهم من هذا أن العلاقات الأُسرية ليس من الضروري أن ترتبط بعقيدة وإن كان الإسلام قد عالجها عن طريق الشريعة. فهي علاقة إنسانيّة

قبل أن تكون علاقة يُحتِّمها الشرع، فلو كان لأحد الناس أُم مشركة، أو أب مشرك، فيجب عليه برّهما والإحسان إليهما[1].

يقول الأُصوليّون: كلّ حكم يتعلّق على وصف يصبح الوصف علة له، أي لذلك الحكم. فمثلاً عندما أقول: أكرم العلماء، فالحكم مرتبط بقيد العلم الذي وصفتُهم به، فيصبح العلم علّة للإكرام. وهنا في الآية تكون الوالديّة علّة للمعاملة بالإحسان، بغضّ النظر عن كون الأبوين مسلمين أو مشركين أو ملحدين أو يهوديين، أو غير ذلك. والمناط في ذلك أنها مسألةٌ إنسانيةٌ لها علاقة ببناء وربط أُسرة، والأُسرة ليست لبنة إسلامية فقط وإنما هي لبنة إنسانية.

والمشرّع الإسلامي ما جاء ليحتكر الحياة والمجتمعات لنفسه، وإنما جاء باباً لتنظيمهما، وأحبَّ أن يدخل الناس إلى المجتمع عن طريق هذا الباب، وإلاّ فالإسلام ليس عنده تأزّم أو نظرة ضيّقة. ولذلك نلاحظ أن الإسلام لا يقف في تشريعاته من العقائد الأُخرى موقفاً سلبيّاً إلّا من المشركين؛ لأن المشرك لا يلتزم بقيم أو مبادئ أبداً.

إذن بدأت الآية بقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾، وهذه اللفظة تفيد الحكم الوجوبي الذي لا اختيار فيه، أي أمرنا الإنسان بالإحسان إلى الوالدين.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ لقمان: ١٤ ـ ١٥.
وقال الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ﴾ ـ الرحمن: ٦٠ ـ: إنها «جرت في الكافر والمؤمن والبرّ والفاجر». تفسير نور الثقلين ٥: ١٩٩ / ٥٨. فهي مع الأبوين من باب أولى.

حقوق الولد في الإسلام

ويفترض المشرّع الإسلامي حقوقاً للولد قبل هذا الواجب، فيقول: **«يلزم الوالدين من العقوق لولدهما ما يلزم الولد لهما من عقوقهما»**[١]، فكيف نتصوّر أن الولد يُعَقّ؟ إن هذا الأمر يتعلق بمعرفة الحقوق المترتبة للولد، والتي منها:

١ـ **اختيار الرحم الطاهر**. فأول ما يُعَقّ به الولد اختيار الأُمّ غير الطيّبة، فينبغي أن نختار له الحجر النظيف الطاهر؛ لكي ينشأ نظيفاً طاهراً.

٢ـ **اختيار الاسم الحسن**. فللولد أن تحسن تسميته[٢].

٣ـ **أن تُحسَن تربيته**. وتبدو الصعوبة هنا أكثر، فمسألة التربية هامّة، فالأب اليوم يخرج من الصباح ولا يعود حتى المساء، فلا يتّسع وقته لتربية الولد. ولكن علينا على الأقلّ أن نأتي من هذا الأمر ما نستطيعه؛ عملاً بقوله ﷺ: **«إذا أمرتكم بشيء، فائتوا منه ما استطعم»**[٣].

مراحل تربية الولد

وهناك مراحل حدّدها الإسلام لتربية الولد، يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«احمل صبيّك حتىٰ يأتي عليه ستّ سنين، ثمّ أدّبه في الكتاب ستّ سنين، ثمّ ضمّه إليك سبع سنين فأدّبه بأدبك، فإن قبل وصلح، وإلّا فخلّ عنه»**[٤].

---

(١) الكافي ٦: ٥/٤٨، الفقيه ٣: ٤٧٠٥/٤٨٣، ٤: ٥٧٦٢/٣٧٢، تهذيب الأحكام ٨: ٣٨٦/١١٢، كنز العمّال ١٦: ٤٤٤ / ٤٥٣٤٤.

(٢) قال ﷺ: «سمّوا أولادكم أسماء الأنبياء، وأحسن الأسماء عبد الله وعبد الرحمن».
وقال ﷺ: «من حقّ الولد علىٰ والده ثلاثة: يحسن اسمه، ويعلّمه الكتابة، ويزوّجه إذا بلغ». انظر مكارم الأخلاق: ٢٢٠.

(٣) رسائل الشريف المرتضىٰ ٢: ٢٤٤، بحار الأنوار ٢٢: ٣١، مسند أحمد ٢: ٢٤٧، ٢٨٥، ٤٢٨، ٥٠٨، صحيح البخاري ٨: ١٤٢.

(٤) مكارم الأخلاق: ٢٢٢، بحار الأنوار ١٠١: ٩٥ / ٤١.

وهذه النظرية هي الأقرب لأحدث النظريات العلمية.

إن وجوه المحيط اليوم هي التي تربّي الولد، وأول هذه الوجوه الأبوان، ثمّ المدرسة، فهي تنشئ أخلاقه وتبني صفاته ومعارفه ومعلوماته، ثم المجتمع الذي يعيش به الولد، ثم وسائل الإعلام التي يعيش معها كالتلفزيون والراديو والكتاب. وكلّها تغذّيه، وتغلغل عنده ألواناً من المعارف والمهارات والأفكار، فيصبح موقف الأب موقفاً بسيطاً جدّاً، خصوصاً الأب والأُم المشغولين دائماً. فالمسؤولية هذه الأيام تتّجه بالدرجة الأُولى للدولة، ولا قيمة لكلامنا ولو ملأنا الدنيا به، فالناس يلفّها العمل آباءً وأُمّهاتٍ، وليس للولد من يقوم على تربيته.

والمشكلة الكبرى أن المعارف الإسلاميّة قد أصبحت اليوم في كثير من البلدان الإسلاميّة نمطاً غير مرغوب فيه، أو معاقباً عليه، وكأن القرآن الكريم لم ينزل بين أظهرنا. هذا من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فالمصيبة أعظم، فالأحكام الإسلاميّة غريبة في بلدان المسلمين؛ فالاقتصاد الإسلامي يسير وفق النمط الأوروبي، والعلاقات الاجتماعية تسير على أنماط مستوردة. فأصبح الإسلام غريباً كما عبر عنه النبي ﷺ بهذه الجملة الموجزة: «**إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً**»[1].

أقسام التكافل في الإسلام

نعود الآن إلى أقسام التكافل التي ضمنها الإسلام: وهي:

الأول: التكافل المادّي

فإن كان الأب والأُمّ لا يملكان شيئاً والابن يملك فإن نفقتهما تتعيّن عليه.

---

(١) المجازات النبوية: ٣٢ / ١٣، مسند أحمد ٤: ١٧٣، صحيح مسلم ١: ٩٠.

وانظر إلى تعبير القرآن الكريم حيث استخدم لفظة الإحسان الذي يتعدّى الكفاية في النفقة، فالابن الذي يلبس اللباس الفاخر عليه أن يراعي ما يلبس أبواه.

كانت أم الإمام السجّاد؈ قد توفيت في نفاسها به، فربّته جارية للحسين؈، فكان يجلس معها على مائدة الطعام فلا يمدّ يده إلى الطعام وهي تأكل، وكان يسأل: أليس من البر أن تؤاكلها؟ فيقول: **«إني أكره أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه، فأكون قد عققتها»**[1].

فالإحسان إذن هو النفقة الحسنة.

وإن كان الابن لا يملك والأبوان يملكان، فهما مسؤولان أيضاً عن النفقة عليه. فالإسلام رسم للتكافل المادي في نطاق الأُسرة حدوده، وضع له قوانينه ونظمه وضوابطه.

الثاني: التكافل الأخلاقي

ونظُمه في محيط الأُسرة يبيّنها قوله تعالى: **﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾**[2].

حبس الرشيد الفضل بن يحيى البرمكي وأباه خالد بن يحيى في وقت الشتاء البارد، ووضعهما في مطبق[3] مظلم بارد، وكان خالد كبيراً في السن، ويحتاج إلى الماء الساخن للوضوء، ولم يكن عنده في السجن سوى قمقم من نحاس فيه ماء للشرب، فكان ابنه الفضل يضع هذا القمقم على ضوء الشمعة من أول الليل حتى الصباح ليتوضأ به أبوه. وهذا الفعل يعدّ من الصور

---

(١) الخصال: ٥١٨ / ٤، مكارم الأخلاق: ٢٢١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٠.

(٢) الإسراء: ٢٤.

(٣) سجن مظلم، أو زنزانة.

المشرّفة في الإحسان والبر.

أما الأمّ فمهما حاول الإنسان أن يقابلها خلقيّاً فلن يتمكن من أن يقابل لحظة من اللحظات التي بعثت فيها في نفسه الشعور بالرقّة والعطف، وملأتها محبّة ومودّة. يقول أحدهم:

أمّي تجعّد وجهي وانقضى العُمُرُ — ولم يزلْ مِلءَ أنفي جيبُك العَطِرُ
عليه من لبنِ الثديين باقيةٌ — ومن شفاهي ومن أقذائها أثرُ
أمّاهُ إن كانت الجنّاتُ مصدرها — من تحت رجليك فيما يذكر الخبرُ
فما بصدرك من خيرٍ ومن كرمٍ — يظلّ أكبر مما تحدس الفِكَرُ[1]

إذن مهما يعمل الإنسان مع الأُم لتجسيد التكافل الخلقي فلن يستطيع أن يؤدّي ذلك اللون من العطف والحنان. فلا تتصوّر أن القرآن الكريم يكلّفنا بما لا يطاق عندما يقول لنا: ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ**﴾[2]، فحينما يكلّفنا بأن نُبدي نوعاً من الآداب ونحن نجلس بين يديهما؛ فلأن هذا المعنى يغذّي عند الإنسان نوعاً من الكرامة، وسوف يغذّيها هو لأولاده أيضاً.

ومن التكافل الخُلقي ألّا يحدَّ النظر إليهما[3]، وأن يكون رقيقاً في عباراته معهما بأن يستخدم العبارات التي تتّسم بالذوق والأدب والخلق. والإسلام يحرص على التكافل الخلقي من الطرفين، يقول النبي ﷺ: «**أحبّوا الصبيان وارحموهم، وإذا وعدتموهم شيئاً ففوا لهم؛ فإنهم لا يدرون إلّا أنكم ترزقونهم**»[4].

---

(١) ديوان المحاضر ٢: ٦٦. (٢) الإسراء: ٢٤.

(٣) قال الصادق عليه السلام: «ومن العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه يحدّ النظر إليهما». مشكاة الأنوار: ٢٨٤.

(٤) الكافي ٦: ٤٩ / ٤، الفقيه ٣: ٤٨٣ / ٤٧٠٢، تهذيب الأحكام ٨: ١١٣ / ٣٨٩.

ورأى ﷺ شخصاً يقبّل أحد أولاده فيما ترك الآخر وهو ينظر إليه، فقال له ﷺ: **«فهلّا ساويت بينهما»**(١).

وجاء أحد الأشخاص إلى النبي ﷺ يحمل وصيّته وقد أوصى لأولاده ولم يساوِ بينهم، فنبذ له النبي ﷺ وصيته وقال: **«خذها، ولا تُشهدني على جور»**(٢).

فالتكافل الخلقي ينبغي أن يكون سائداً في الأسرة، وإلّا فإن الأُسرة إذا لم يكن فيها تبادل في العامل الخلقي فإنها ستتحوّل إلى جحيم، خصوصاً إذا استخدمت فيها العبارات النابية من الأب أو الأُم أو الأبناء. ولذلك يحرص القرآن الكريم على تأكيد جانب البرّ والرعاية للوالدين. والروايات في هذا المورد لا حدود لها، حتى إن بعضها يقول حكاية عن الحديث القدسي: **«مَن بَرَّ والديه وعقّني كتبته بارّاً»**(٣).

فالجانب الخلقي إذن فوق الحدود الدنيا للتعامل، وهو أن تُشعر الأب بأُبوّته، وأن يخرج من الدنيا وهو يشعر أنه قرير العين، وأنه لم يمت؛ إذ بقي في الدنيا امتداده الطبيعي، وهو الولد البارّ.

---

(١) مكارم الأخلاق: ٢٢٠، وقال ﷺ: «قبلوا أولادكم؛ فإنه لكم بكل قبلة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين خمسمئة عام». وقبل ﷺ الحسين عليه السلام، فقال الأقرع بن حابس: إن لي عشرة من الأولاد ما قبلت واحداً منهم. فقال له ﷺ: «ما عليّ إن نزع اللّه الرحمة منك!». انظر مكارم الأخلاق: ٢٢٠.

(٢) مرّ أنه بشير أبو النعمان بن بشير، انظر: ج١ ص١٥٩ ـ ١٦٠، ج٢ ص٣٠٠ من كتابنا هذا.

(٣) لم نعثر عليه، لكن وردت أحاديث كثيرة في الحث على برّ الوالدين، منها قوله ﷺ: «من بر والديه زاد الله في عمره». روضة الواعظين: ٣٦٨، مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ٦٩/ ١٧٩٢٥، الأدب المفرد: ١٦، المستدرك على الصحيحين ٤: ١٥٤.

الثالث: التكافل الاجتماعي

ثم يأتي بعد ذلك التكافل الاجتماعي، وهو النصرة والرعاية، والصلة والعيادة عند المرض، وأنماط السلوك الاجتماعي كافّة التي يفترض الإسلام أن تتوفر داخل الأُسرة. وهي كثيرة إلى حدّ أنها تستطيع أن تخلق مجتمعاً متوازناً قائماً على أساس التوادّ والتعاطف والتراحم[1].

المبحث الثالث: في أحوال وآلام الحمل والوضع ومدّتهما

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً﴾، وقد يسأل سائل فيقول: كيف حملته أُمّه كرهاً، ونحن نعرف أن الولد يتكوّن والأبوان في أحسن ساعاتهما؟ يقول المفسرون: إن هذا من باب تسمية الشيء باسم صيرورته، أي ما يؤول إليه. فمن أقسام الحركةِ الحركةُ من القوّة للفعل، فمن يملك بيضة ملقّحة يستطع أن يقول: إنني أملك فرخ دجاج؛ لأن هذه البيضة ستؤول إلى ذلك وتصير إليه.

وهذا أشبه بقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾[2]، ونحن نعلم أن الصور لم ينفخ فيه بعد لكنه تعالى أنزل المضارع بمنزلة الماضي لأنه متحقّق الوقوع، أي أن الصيرورة ستنتهي إلى أن الصور في ذلك اليوم سوف ينفخ فيه دون إخلاف.

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين فيما بينهم كمثل البنيان يمسك بعضه بعضاً ويشدّ بعضه بعضاً». عوالي اللآلي ١: ٣٧٧ / ١٠٧.
وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى». مسند أحمد ٤: ٢٧٠.

(٢) الكهف: ٩٩، يس: ٥١، الزمر: ٦٨، ق: ٢٠.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً﴾ فإن الأمر سينتهي إلى أن تحمله أمّه كرهاً، وأنه سوف يحرمها في يوم من الأيام من الاستقرار والنوم والراحة والهدوء، وسوف تعتريها ألوان من مشاكل الحمل وآلامه. دخل أحدهم يوماً على النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله إن أمّي كانت سيئة الخلق. فتأذّى النبي ﷺ منه وغضب، وقال: «**أكانت سيئة الخلق حين حملتك؟ أكانت سيئة الخلق حين أرضعتك حولين؟**» إلى أن قال الرجل: أرأيت لو حملتها على عاتقي وحججت بها، أكنت قاضياً حقّها؟ فقال ﷺ: «**لا، ولا طلقة**»[1].

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً﴾، أي ولدته. وليس يخفى عليك ما لساعة الولادة من ألم، حتى إن بعض الفقهاء يذكر أن لها أجر الشهيدة إن ماتت ساعة الوضع[2]، أي ثوابه وليس حكمه؛ لأن الشهيد يقاتل في ساحة الحرب دفاعاً عن المجتمع وهذه تجاهد في ساحة أخرى دفاعاً عن المجتمع، فهي تُدخل للمجتمع امتدادَ النوع، وتزوّده بمن سيحمل السلاح ويدافع عنه وربما يستشهد دونه. ولذلك أراد الإسلام من الولد أن تشكّل هذه اللحظات العصيبة مساحة من حساباته، ويحاول أن يذكّره بما مرّ على الأمّ من ساعات الحمل والوضع.

المبحث الرابع: نظريّة تأثّر الولد بأمّه

ثم قال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً﴾، وهذه هي سنوات الرضاعة التي يبقى فيها الطفل ملتصقاً بصدر أمّه تغذوه وترضعه وتغدق عليه من عطفها

---

(١) المبسوط (السرخسي) ١٠: ١٥٠ ـ ١٥١.

(٢) انظر صراط النجاة ٢: ٦٠ ـ ٦١ / السؤال: ١٧٢.

وحنانها. وعندما جاء الإسلام يحمل هذه النظرية فإنه قد صدم بها موروثات العرب؛ فقد كانوا يتصوّرون أن المرأة ليس لها أثر في عملية تكوّن الجنين، وإنما هي كالصندوق، تحمل الطفل وتضعه فقط، والولد ابن أبـيه[1]. فـجاء القرآن الكريم وصحّح هذه النظريات المخطوءة. دخل الحجّاج يوماً إلى بيته فسمع هنداً إحدى نسائه تقول:

ومـــا هـــندُ إلا مُـــهرةٌ عـــربيّةٌ ... ســـليلةُ أفـــراسٍ تَـــحلَّلَها بَـــغلُ

فـــإن وَلَـــدتْ مُـــهراً فـــلِلَّهِ دَرُّهـــا ... وإن جاءَ إقرافاً فما أنجبَ الفحلُ[2]

ويقول المأمون:

لا تَـــزدَرِينَ فـــتىً مـــن أن تكـونَ لهُ ... أمٌّ مـــن الرومِ أو ســـوداءُ عـــجماءُ

فـــإنَّما أمَّـــهاتُ النّـــاسِ أوعـــيةٌ ... مُـــستودَعاتٌ وللأنســـاب آبـــاءُ[3]

وهذا التصوّر عن المرأة غير صحيح تماماً؛ لأنه يلغي دورها في عــملية تكوين الجنين، فهي عندهم وعــاء مســتودع لا أكــثر، والحــال أن الأمــر بالعكس، فالولد يأخذ من اُمّه أكثر ممّا يأخذ من أبيه، والآية تشير إلى هذا الجانب، فقالت أولاً: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ على الإجمال، ثم فصّلت قائلة: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾، فأشارت بهذا إلى أهمّية الاُم.

---

(١) وقد تنبّهت أعرابية لهذا المعنى، فكانت ترقّص ولدها وتقول:

ما لأبي حمزةَ لا يأتينا ... يظلّ بالبيتِ الذي يلينا

غضبانَ ألّا نـلدَ البـنينا ... وإنما نأخذُ مـا اُعـطينا

ونحن كالأرضِ لزارعينا ... نُعطيهُمُ ما بـذروه فـينا

الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٧٠.

(٢) انظر: كمال الدين: ٢٤٩، الجامع لأحكام القرآن ١٢: ١٠٩.

(٣) السيَر الكبير (الشيباني) ١: ٣٢٧ / ٤٦٦.

وهذه المسألة يبحثها الفقهاء في باب تزاحم المهم والأهم، فلو فرضنا أن الأب أمر بشيء والأم نهت عنه، وكان ذلك في حدود المشروع ـ وإلّا فإنه إن كان حراماً أو واجباً لم يجرِ هذا التزاحم هنا؛ لأن الحرمة والوجوب خارجان عن سلطة الأبوين، وعلى الابن أن يتبع التكليف الشرعي ـ وفي المباحات، فإن أكثر الفقهاء يقول: إن حقّ الأمّ أهمّ من حق الأب. ومن جملة أدلّتهم هذه الآية.

فالقرآن الكريم أعطاها هذه المنزلة، والروايات أعطتها هذه المنزلة: **«لأمّك ثلاثة أرباع الحق فيك»**؛ لأنها تتحمّل في تربية الولد من الآلام ما لا يتحمّله الأب، والغُنْمُ بالغُرم.

أهل البيت عليهم السلام وتجسيد أجواء القرآن الكريم

وأول من يجسّد هذا الجوّ الذي يرسمه القرآن الكريم للأُسرة هم حملة الشريعة، فممّا يذكر هنا أن الشريف الرضي رحمه الله الذي كان نقيب الطالبيين في أيّامه كان إذا جيء إليه بأحد العلويّين قد ارتكب ذنباً فإنه يُضاعف له العقوبة؛ فإن كان يستحق عشرين سوطاً ضربه أربعين، ولمّا سُئل عن ذلك قال: إن هذا العلوي ابن من حمل الشريعة، وهو أولى الناس بصيانتها وحمايتها، والتأدّب بآدابها.

فأول من يطبق الشريعة إذن بيوت آل محمد صلى الله عليه وآله، تلك البيوت التي نزل فيها الإسلام، والتي قال عنها الإمام الحسن عليه السلام لما لقيه أحد الشاميّين فشتم أمير المؤمنين عليه السلام: **«على رسلك يا هذا، لو أخذت بيدك إلى بيتنا لأريتك زغب جناح جبرئيل»**[1]. يقول أحد الشعراء:

---

(١) ورد أن للحسن والحسين عليهما السلام تعويذين حشوهما من زغب جناح جبرئيل. انظر مناقب

وعفَّرتُ خدِّي في ثرىً مسَّ عفرهُ ... لجبريلَ من جنحيه ريشٌ مزغّبُ
وفيه محاريبٌ لآل محمدٍ ... بهنَّ ضراعاتٌ إلى الله تُنصبُ
وآثارُ أقدامٍ صغارٍ ومهجعٌ ... إلى الحسنينِ الزاكيينِ وملعبُ
وصوتُ رَحى الزهراءِ تطحنُ قُوتَها ... إلى جلدِ كبشٍ حيث تجلسُ زينبُ
رؤىً سوف يبقى الدهرُ يروي جلالَها ... وتبقى على رَغم البساطةِ تأشبُ[1]

فهذا البيت هو مهبط جبرئيل ومو ضع تعاليم السماء المقدّسة، وليس كثيراً عليه أن نرى فيه إنساناً مثل علي الأكبر الذي يقول عنه المؤرخون: إنه لم يقل للحسين: «يا أبه» منذ ولادته حتى استشهد إلّا مرّة واحدة، وهي عندما هوى من على ظهر جواده صريعاً، فقد كان يقول له: يابن رسول الله، أو يابن أمير المؤمنين أو يابن فاطمة. ومن ذلك أن الحسين في طريقه إلى كربلاء لمّا هوَّمت عيناه ونام، جلس وهو يقول: **«لا حول ولا قوة إلّا بالله، إنّا لله وإنا إليه راجعون»**. فجاءه الأكبر وهو يقول: فداك نفسي يابن رسول اللّه، لماذا استرجعت؟ قال: **«يابني رأيت في منامي قائلاً يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم، فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا»**. فقال الأكبر: ألسنا على الحق؟ قال: **«بلىٰ والذي إليه مرجع العباد»**. قال: إذن لا نبالي أن نموت محقّين.

فاحتضنه الحسين وقال: **«جزاك الله من ولد خيراً»**. ثم أخذ يقبّله ويلثمه[2].

آل أبي طالب ٣: ١٦٢، بحار الأنوار ٤٣: ٢٦٣ / ٩، ترجمة الإمام الحسن (ابن عساكر): ١١٣، ١١٤، ترجمة الإمام الحسين (ابن عساكر): ١٩٢.

(١) ديوان المحاضر ١: ١٥، وتأشب: تجتمع. لسان العرب ١: ٢١٤ ـ أشب.

(٢) الإرشاد ٢: ٨٢، روضة الواعظين: ١٨٠.

وقد كانت له عليه السلام بهذا الشاب علاقة لا حدود لها، ونستطيع أن نفهم طبيعة هذه العلاقة أكثر من تصرّف الحسين عليه السلام معه عندما أراد علي الأكبر أن ينزل إلى ساحة القتال، يقول المؤرّخون: إنه عندما أراد أن يبرز إلى القتال احتضنه الإمام الحسين عليه السلام وشخص ببصره إلى السماء.. الحسين عليه السلام ذلك الإنسان الصلب الذي لا تهزّه المواقف مهما بلغت أخذ منه التأثر لبروز الأكبر للقتال أكبر مأخذ، وهو الذي يصفه عبد الله بن عمار بقوله: والله لقد رأيت الحسين عليه السلام فما رأيت مكثوراً قطّ أربط جأشاً منه، وقد كانت الخيل والرجال يشدّون عليه فيشدّ عليهم، فينهزمون بين يديه انهزام المعزى إذا شدّ فيها الذئب، ويرجع إلى مركزه فيتكئ على قائم سيفه ويكثر من قول: **«لا حول ولا قوة إلّا بالله»**[1].

وكان عليه السلام قد قال يوم برز الأكبر للقتال: **«اللهمّ اشهد على هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك، وكنّا إذا اشتقنا إلى نبيّك نظرنا إلى وجهه. اللهم امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضِ الولاة عنهم أبداً؛ فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدَوا علينا يقتلوننا»**[2].

فصوته وخلقه صوت النبي صلى الله عليه وآله وخلقه، وكذا في كلّ صفاته صلى الله عليه وآله؛ وهذا هو الذي زاد من مأساة الإمام الحسين عليه السلام وآلمه أشدّ الألم وأخذ منه مأخذاً عظيماً، وذلك حينما برز للقتال.

ثم قال له: **«بني ادنُ إليّ حتى أُودّعك»**. فجمع يديه فوق عنقه، واستدناه

---

(١) مثير الأحزان: ٥٤، البداية والنهاية ٨: ٢٠٤.

(٢) بحار الأنوار ٤٥: ٤٢.

إليه يقبّله ويشمّه إلى أن سقطا إلى الأرض معاً، ثم قال له: «**ابرز بني**».

فبرز علي الأكبر﴿ع﴾ وعينا الإمام (صلوات الله وسلامه عليه) تلاحقانه ولا يكاد يرفع بصره عنه، وفجأة مرّت كتيبة واعصوصبت عليه، ثمّ برز إليه بكر ابن غانم، فتغيّر وجه الحسين﴿ع﴾، فهرولت إليه ليلى قائلة: أبا عبد الله أرىٰ وجهك قد تغيّر، فهل أُصيب ولدي بشيء؟ وهذا علىٰ رواية أنها كانت موجودة في الطفّ، فقال﴿ع﴾: «**لا، ولكن برز إليه من يُخاف منه عليه، ادعي لولدك**»:

ردّت الخيمتها الغريبه   تبچي وعلى ابنيها بريبه
اتوسلت لله بحبيبه   بالحسين وشما بيه مصيبه
ياراد يوسف من مغيبه   ليعگوب ومسچن نحيبه
أريدك علي سالم تجيبه

ويرجع علي الأكبر يحمل رأس بكر، فيقول له الحسين﴿ع﴾: «**بني بادر إلى أمّك قبل أن تموت**». فأقبل إليها فأخذ رأسها، ونضحها بدموع عينيه، ففتحت عينيها واحتضنته وصاحت: بني علي! وآبت معه إلى الخيمة. ولكنه لما سقط في المرة الثانية ما استطاعت أن تصل إليه، فقد منعها الحسين﴿ع﴾ هي وعمته زينب﴿ع﴾، وراح بنفسه إلى علي الأكبر وأقبل به إلى الخباء، فطرحه ما بين النساء، وجلسن عند رأسه:

شالفايده وياك يبني   أنا الوالده وهيّن تذبني
ردتك عليه البيت تبني
يبني علي يا فتشة العين   يبني صواب الضاهدك وين
يا ثمر كلبي ويا ضيا العين

عـمود الوسـط يـالشايل البـيت　　　آنـه بـيش اجـيت وبـيش ردّيت

يا واحدي عندي شخلّيت

* * *

ومـحاْ الردى يـا قـاتل الله الردىٰ　　　مـنه هـلال دجـىً وغـرة فـرقدِ

يـا نـجعة الحـيّين هـاشم والنـدىٰ　　　وحـمى الذمـارين العُـلا والسـؤددِ



﴿ ٩١ ﴾

الملازمة بين العلم والعمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَـمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[١].

المباحث العامة للآية الكريمة

المبحث الأول: في العلاقة بين العلم والعمل

من الأولويّات المعتمدة في الحضارة الإسلاميّة أن كلّ عمل لابد أن يصدر عن علم، وإلّا فإنه سيكون وصاحبه عرضة لأخطاء عدّة؛ حيث إن العمل الذي يصدر عن علم يكون أقرب إلىٰ الصواب عادة؛ ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[٢]، أي لا تتّبع الشيء الذي لا علم لك فيه. وقد جعل اللّه تعالىٰ لكل عمل يصدر من الإنسان قواعد ومقاييس؛ حتىٰ يكون تصرّف الإنسان فيه علمياً موجّهاً ومقنّناً، وليس عشوائياً. فالآية تقول: ﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ أي أن هؤلاء كذبوا بمضامين القرآن وبمضامين الوحي؛

---

(١) يونس: ٣٩.

(٢) الإسراء: ٣٦.

لأنهم لم يحيطوا بعلمه ولم يعرفوه.

ونستفيد من المقطع عدّة أمور، منها:

أولاً: أنهم لم يحيطوا بعلمه؛ لأنهم ليس لهم قدرة على الاجتهاد، ولم يرجعوا إلى المجتهد لأخذ رأيه. فالإنسان إما عالم، أو مقلّد للعالم[1]؛ فالعالم هو الذي له القدرة على الاجتهاد والاستنباط، أي أنه يفهم الأدلّة والأُصول، ثم يستخرج الفروع منها، أما الآخر فليس له تلك القدرة على فهم الأدلّة واستنباط الأحكام الشرعيّة؛ ولذلك نراه يضطّر إلى تقليد العالم؛ حتىٰ يكون فعله صادراً عن علم. فأي تصرف من التصرّفات كالصلاة والصوم والزكاة بدون علم فهو باطل.

الاجتهاد؛ تعريفه وأقسامه؟

ولنعطِ نبذة بسيطة عن اجتهاد المجتهد، ولنبدأه بتعريف الاجتهاد، فما هو الاجتهاد؟ الاجتهاد هو بذل الوسع لاستنباط الحكم الشرعي من مداركه المقرّرة من الكتاب والسنّة والعقل. وهو تارة يكون مقابل النص، أي مقابل آية ذات دلالة يقينية، أي دليل قطعي الصدور مثل: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ**﴾[2]، فهذه الآية واضحة الدلالة في الفرائض؛ حيث تقول: إن ميراث الذكر حصتان، وميراث الأُنثىٰ حصّة. فهنا لا يمكن لأحد أن يجتهد، بل يتّبع النص، وأي اجتهاد يعتبر اجتهاداً مقابل النص. وهذا ممنوع عند كل المذاهب الإسلامية.

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلّم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كلّ ناعق، يميلون مع كلّ ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق». نهج البلاغة / الكلام: ١٤٧

(٢) النساء: ١١.

وهناك قسم آخر من الاجتهاد، ويكون بحيث لا يوجد نص صريح من القرآن ولا من السنّة، وليس فيه إجماع، فيأتي المجتهد ليجتهد فيه فيضع الحكم الشرعي.

فهنا عندنا نوعان من الاجتهاد:

الأوّل: الاستحسان والقياس

وذلك كأن يكون اجتهاده استحساناً وظنّاً أو قياساً على موضوع قد نصّ عليه الشارع، ومثال ذلك شخص يبيع الثياب، فيقول للمشتري: بعتك الثوب بدينارين. وهذا بيع صحيح، أما إذا قال: بعتك الثوب. دون أن يذكر الثمن، فهذا باطل. ثم يعمد البعض إلى قياس هذا على المهر في العقد، فيقرّر أن المهر إذا لم يذكر في العقد بطل الزواج، بتقريب أن البيع يبطل إذا لم يذكر في العقد الثمن مقابل المبيع، فكذلك المهر إذا لم يذكر مقابل البضع فإن العقد حينئذٍ يكون غير صحيح؛ قياساً عليه. وهذا خطأ؛ لأنه لون من الأقيسة الظنّية؛ إذ كلاهما حكم مستقلّ؛ فالمهر ليس ركناً في العقد؛ لأن الشارع يريد أن يسهّل عمليّة الزواج ولا يريد أن يضع عقبة في طريقه. فهذا الاجتهاد باطل؛ لأنه من الاستحسانات والأُقيسة الظنّيّة.

الثاني: المستند إلى الأدلّة المعتبرة

وذلك أن يكون الاجتهاد حيث لا يوجد نصّ من القرآن ولا من السنّة، وليس هناك إجماع في المقام، ولكن توجد قواعد ومبادئ يعتبرها العقل صحيحة، فيرجع إليها الفقيه في استنباط الحكم الشرعي، فمثلاً مسألة ما لا يتم الواجب إلّا به، فهنا يحكم المجتهد بأنه واجب، لأن المكلّف يعرف أنه لا يمكن أن يصلي بغير طهارة؛ ولذلك فإنه يحكم بكون الطهارة واجبة؛ لأنها

مقدمة للواجب، وهو لا يتم إلّا بها.

ومثال آخر أنه إذا تزاحم الأهمّ مع المهمّ في التطبيق فإنه يقدم الأهم، كما لو أنك رأيت أن الشمس ستغيب ولم تكن قد صليت، فإن الواجب هنا يقتضي عليك أن تسارع إلى الصلاة، لكن لو رأيت شخصاً يحترق، فهنا يختلف الأمر حيث إن الواجب يحتّم عليك أن تقدم الأهم وهو إنقاذ الشخص من الحريق. وهذا ممّا يقرره العقل؛ لأن الصلاة لها بديل آخر وهو قضاؤها خارج الوقت، أمّا روح الإنسان فلا بديل لها؛ ولذا فهي أهم. وهذا مبدأ عقلائي صحيح.

ومثال ذلك قاعدة «دفع المفسدة أولى من جلب المصلحة»، وهي قاعدة لها تطبيقات كثيرة.

فها هنا يتوقف الحكم على مبادئ يقرّها العقل، والله تعبّدنا بالعقل، وأمرنا أن نستدل على وجوده بالعقل، ومنعنا من التقليد في بعض الأُمور. فإذا كان وجود الله يُستدل عليه بالعقل، فهل يعقل ألّا نصل إلى حكم الله عن طريق العقل؟ فهذا الاجتهاد هو المقبول.

الثالث: الاجتهاد في النص

وهناك نوع من الاجتهاد يسمى الاجتهاد في النص، أي في نصٍّ ليس قطعيّ الدلالة، وإنما هو ظنّيّها، مثل خبر الواحد، والآية التي تحتمل أكثر من معنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَالمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾[1]، فالقرء: الحيض عند العرب، وكذلك الطهر عندهم؛ فهو من الألفاظ المشتركة،

---

(١) البقرة: ٢٢٨.

مثل لفظة عين التي هي للعين الناظرة وللركبة وللجاسوس ونبع الماء وللشريف وغير ذلك، وهذه المعاني تحددها القرائن.

فإذا لم تكن هناك قرينة علىٰ تعيين المراد كما في الآية، فهل يعتبر هنا ثلاثة أطهار أو ثلاث حيضات. وهذا الإشكال مبتنٍ علىٰ وجود فرق في المقام حيث إنه إذا اعتبر القرء حيضاً فمعناه أنه بمجرد أن تنتهي الحيضة الثالثة تنتهي عدتها، أما إذا كان القرء طهراً فإنها يجب أن تنتظر حتىٰ ينتهي الحيض وتتطهر وحينها ستنتهي عدتها.

فالفقيه إذا ترجّح عنده دليل أخذ به وإن خالفه الآخرون، وهذا الاجتهاد مقبول أيضاً. لكن للأسف أن المذاهب الإسلامية الأُخرىٰ أغلقت باب الاجتهاد، أي حرمت المسلمين من نبع ضخم وإن كان قد عاد العمل به من أيام الشيخ محمد عبده حيث بدأ الأزهر الشريف ومجموعة من المؤسسات الإسلامية ينادون بضرورة فتح باب الاجتهاد، وخصوصاً في أيام الشيخ محمود شلتوت الذي كان من الدعاة إلى فتح هذا الباب.

فإذا أغلقنا باب الاجتهاد فإننا نغلق باب الحياة؛ لأن الفقه يغطّي كلّ أبعاد الحياة؛ حيث إنه ما من واقعة إلّا ولله فيها حكم، فإغلاق باب الاجتهاد، معناه وضع الناس في حرج، وهو حَجْر على الفكر الإسلامي. لكن ـ كما قلنا ـ تنادت الأصوات في الأيام الأخيرة، وارتفعت بضرورة فتح باب الاجتهاد ثانية.

هذا عند أهل السنة، أما نحن فعندنا رافد لا يخطئ، وهو ما يتمثّل بأهل البيت عليهم السلام، فلم يغلق باب الاجتهاد حتىٰ الآن، فما نملكه هو ينابيع متدفّقة على مرّ التاريخ، ولكن نحن ـ المسلمين ـ لا يقرأ بعضنا بعضاً وهذا ممّا

يؤسف له؛ فالمسلم عليه أن يطلع على روافد المسلم الآخر حتى يزول الكثير من سوء الفهم الناشئ في أذهانهم عن إخوانهم نتيجة خلفيات وموروثات ومقروءات وأحكام اعتباطية مسبقة. فنحن عندما نطّلع على فقه المذاهب الأُخرى فإنّ عليهم أن يطلعوا على فقه أهل البيت سواء كان الفرع الزيدي أو الإمامي، وكذلك الإباضية حيث إنهم يملكون ثروة علمية من آثار الإمام علي، غاية الأمر أنه حصل خلاف فيما بينهم.

لكن الأمر المؤسف أن البعض قد فتحوا متاجر للتفرقة ليحاربوا الوحدة الإسلامية. فالمذاهب الإسلامية ليست غايات وإنما وسائل للحكم الشرعي، فإذا كان ذلك كذلك فمن الضروري أن يطّلع المسلمون على فقه بعضهم البعض.

المبحث الثاني: حديث العلم والجهل

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾، نفهم من هذا أن الجهل رزية وأن العلم نور؛ لذلك فإن المشرع الإسلامي كان يقول على امتداد الدعوة والرسالة: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**»[1]؛ لأنه يريد مجتمعاً متعلماً ليس فقط علم الفقه والأُصول، وإنما كلّ العلوم، فما من علم من العلوم إلّا وكان الإنسان مندوباً إلى معرفته. ولكننا ببالغ الأسف انغلقنا على علمي الفقه والأُصول، في حين أن العالم يحتاج إلى علم الطب والهندسة والزراعة وغيرها من العلوم.

يقول الإمام الصادق: «**ليت السياط على رؤوس أصحابي حتى**

(١) مصباح الشريعة: ٢٢، مشكاة الأنوار: ٢٢٦، عوالي اللآلي ٤: ٧٠ / ٣٦، شرح مسند أبي حنيفة: ٥٢٧، المبسوط (السرخسي) ١: ٢.

يتفقهوا»[1]. فالعلم طريق للوصول إلى الكمال النسبي، فأي عالم في أي مجال من مجالات العلوم هو في رعاية الله. يقول الحديث النبوي الشريف: «**إذا مشى طالب العلم بسطت له الملائكة أجنحتها**»[2]. أي أن الطالب للعلم ـ كما نستطيع أن نقول ـ إذا مشىٰ فإنه يستخدم كل الطاقات والقوىٰ التي منحه إياها العلم وجعلته عالماً. فالعالم تحمله الدنيا، أما الجاهل فإنه عبء عليها، وقد يضرّ ولا ينفع.

كما أن الأُمم تقاس عظمتها بما عندها من علماء، فنحن نحتاج للعلوم الأُخرىٰ مثل الهندسة الوراثية التي بمعرفتها يمكن زيادة إنتاج الأرض في البلاد الإسلامية بدل من أن تتصدق بها الكفرة علينا. ونحن نرىٰ الصحابة في عهد الرسولﷺ قد استثمروا الطاقات كلّها، فنزلوا إلى الأرض وأخذوا يعملون، حتى أنتجوا.

فالعلم لم يقتصر على جانب واحد، ونحن بحاجة لكل مجال من مجالاته الحيوية. كان أحد طلاب العلم قد وقف على باب عالم، وقال: أعطني ممّا لا يؤلم نفساً ولا يتعب ضرساً. فأمر له بدراهم، فقال: أنا لم آتِ لطلب دراهم، وإنما جئت لأطلب هدىٰ، أنا طالب هدىٰ لا طالب ندى. فأدخله بيته واجابه عن مسألته، فخرج وهو يقول: إن علماً أزال لبساً خير من غنىً أسعد نفساً[3].

فالأموال تذهب، أمّا العلم فيبقىٰ عندي مَلَكَة أعيش بها طول الدهر،

---

(١) المحاسن ١: ٢٢٩ / ١٦٥.

(٢) الجامع الصحيح (سنن الترمذيّ) ٥: ٤٨-٤٩ / ٢٦٨٢.

(٣) تاريخ مدينة دمشق ٥١: ٣٩٠، وفيه أن العالم هو محمد بن إدريس الشافعي.

ويمكن لهذه المَلَكَة أن تمدّني بالأموال وتجبيَها إليّ. فالعلم يجيء بالمال، أمّا المال فلا يأتي بالعلم إلّا إذا استخدم وسيلة لذلك.

كان للمأمون العباسي مجلس ليلي في مرو (خراسان)، فيأتي إليه خواصّ ندمائه من علماء وأُدباء؛ لأنه كان على مركز علمي كبير، فكان أن دخل عليه النضر بن شميل المازني، وهو رجل ضليع في التاريخ واللغة والنحو، وكان عليه قميص مرقوع، فسأله المأمون: ماهذا الذي تلبسه؟ قال: قميص أتبرّد به عن حرّ مرو. فقد كانت مرو منطقة حارة، فهو يقول له: هذا قميص من قطن لأجل حرارة الجو. فقال المأمون: لا، ولكنك امرؤ قشف، أي أنت متقشف.

فجلسا يتحدّثان إلىٰ أن وصل الأمر إلى ذكر الزواج والنساء، فروىٰ المأمون حديثاً عن هشام عن عروة عن النبي: أن الرجل إذا تزوج المرأه لمالها وجمالها كانت سداداً (وفتح السين) من عوز. فقال النضر: صدق هذا الراوي، ولكن أنا حدتني عوف عن علي بن أبي طالب أن الرجل إذا تزوج امرأة لمالها وجمالها كانت سِداداً (وكسر السين) من عوز. فقال المأمون: ما الفرق؟ فقال له: الفرق كبير؛ لأنها بفتح السين بمعنىٰ الاعتدال والقصد، فقولنا: فلان مسدد، أي معتدل أي ليس ذا إفراط ولا تفريط، وأمّا إذا كانت بكسر السين فهي بمعنىٰ البلغة، أي مثل المسافر يأخذ كمية قليلة من الطعام تبلغّه ـ أي توصله ـ إلى أن يحصل علىٰ مقصده. فالنبي يقول: إذا تزوج رجل امرأة لأجل مالها وجمالها فإنها تسدّ حاجة لديه، أمّا إذا تزوجها لأجل دينها فالأمر يختلف. فالتفت المأمون وقال له: قبّح الله من لا أدب له، فهل أنت تُلحنني (أي تحرّك الكلمة لي) وتريد تخطئتي؟ قال: لا، أنت لم تلحن، وإنما

أنت قد رويت عن هشام، وهشام كان لحّانة، فأنت حفظتها كما رواها. فقال: قبح الله من لا أدب له. وأمر له بثمانين ألف دينار.

يقول النضر: فخرجت واستلمت المبلغ، فسألني الفضل كيف أمر لك الخليفة بثمانين ألف دينار؟ فحكيت له القصة، فقال الفضل: سأعطيك أنا أيضاً ثمانين ألف إلّا قليلاً؛ حتىٰ لا أُساوي الخليفة في العطاء.

يقول: فخرجت بمبلغ (١٦٠) ألف دينار تقريباً من أجل حرف واحد.

فقطعاً أن العلم هو الذي يأتي بالمال وبالرقي، وكان أرسطو معلم الإسكندر ذي القرنين، فكان الإسكندر يحترم أبويه احتراماً عادياً، لكن إذا دخل عليه أُستاذه أرسطو فإنه يكنّ له احتراماً عجيباً، فيستقبله ويودّعه، فقالوا له: أنت لاتحترم أباك بقدر ما تحترم مؤدّبك ومدرسك؟ فقال: أبي أخرجني إلى كون المصائب، أمّا هذا الرجل فقد أخرجني إلى عالم النور. فهذا جدير بأن أُقدّره أكثر، فمنزلة العلم لا يعادلها شيء. فالحياة بدون علم ظلام دامس.

المبحث الثالث: مسؤوليّة العالم تجاه الجاهل

تقول الآية: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾، ونستفيد أيضاً من هذا المقطع أن الجاهل عدو العلم والعلماء، فـ«**الناس أعداء ماجهلوا**»[١]، فأكثر الناس لو كان عنده علم ما حارب غيره، فهو بسبب الجهل يعادي غيره ويحاربه. وأُلفت نظرك إلى نقطتين، كان ثمامة بن أشرس من العلماء والأدباء، وكان من ندماء هارون الرشيد وكان الرشيد يحترمه، فغضب عليه هارون الرشيد

---

(١) نهج البلاغة /الحكمة: ١٧٢.

يوماً فأمر به إلىٰ السجن، وكان السجان يوماً يقرأ القرآن فسمعه يقرأ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَـئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[1] ـ بفتح ذال المكذبين، أي الأنبياء ـ أي الويل والنار لهم، وهذا كفر. فقال له: إن قراءتك غير صحيحة، فالصحيح أن تقول: للمكذِّبين، فالمكذِّبون هم الذين كذبوا الأنبياء. فقال له: ياعدوّ الله، قيل لي: إنك قدري، فلم أُصدّق. ثم أوجعه ضرباً.

فلما خرج من السجن ـ وكان الرشيد قد رضي عنه ـ قال له الرشيد: حدثني عن أعظم مايمرّ بالإنسان ويؤذيه . فقال: أعظم شيء يمرّ به أن يجري حكم الجاهل على العالم؟ فظن الرشيد أنه تعريض به، فقال: إنه ليس تعريض بك ولكن وقع لي حادث، ثم حكى له قصته مع السجّان، فضحك الرشيد ضحكاً شديداً[2].

فتعايش العالم بين الجهّال أمر صعب، لكن على عاتق العالم رسالة، وهي أن يبصّر الجاهل، والمشكلة هنا كبيرة حيث توجد قضايا ومعتقدات عند العوام لو تكلمنا فيها لأعطت ردوداً معكوسة. وهذا بلاء كبير؛ حيث إن هناك قضايا كثيرة ليس من السهل على العالم أن يعالجها، ولا يمكنه تركها؛ ولذا كتب الإمام علي﵇ إلى قضاته: **«اقضوا كما كنتم تقضون؛ فإني أكره الاختلاف، حتى تكون للناس جماعة أو أموت كما مات أصحابي»**[3].

فهناك أشياء تحتاج لزمن طويل لمعالجتها. وهذه القضايا التي توجد عند

---

(١) المرسلات: ١٥.

(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ١: ٦٦٩.

(٣) تهذيب الأحكام ٩: ٢٥٩ / ٩٧٠، صحيح البخاري ٤: ٢٠٨ ـ ٢٠٩، المصنّف (الصنعاني) ١١: ٣٢٩ / ٢٠٦٧٧، الإحكام (الآمدي) ٤: ٩، شرح نهج البلاغة ٧: ٧٢، ١٤: ٢٩، ١٩: ١٦١.

العوام إنما لا يستطيع العالم تصحيحها ؛ لأنه مفتقر إليهم من ناحية، ومن ناحية أُخرى إن هذه الأُمور قد تعطي ردود فعل معكوسة وإلّا فإنّ هناك مسؤولية على العالم هي أن ينير الطريق للجاهل مهما كلف الأمر.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾، فهؤلاء لو لم يكونوا جهالاً لما كذبوا بذلك، أما الذي عنده علم فلا يكذّب بالرسالات. وهناك فرق بين منطق الجاهل ومنطق العالم حتى لو كان ملحداً. فمثلاً عندما تكلّم شخصاً في أوروبّا بأن الدليل على وجود الله كذا وكذا. فإنه يقول: هذا صحيح، ولكني إلى الآن لم أقتنع بهذه النظرية، وسأبقى هكذا إلى أن تثبت عندي. أما إذا أتيت إلى شخص في الشرق وتقول له ذلك الكلام، فإنه يقول: اذهب، وإلّا فأرني اللّه حتىٰ أُصدّقك. وهذا هو الفرق بين المنطقين وهو فرق شاسع وكبير.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ فهؤلاء لو ذهبوا للنبي ﷺ أو للعلماء وسألوا لخفّت المشكلة، ونحن الآن نريد أن يدق علينا العالم أبواب بيوتنا ليعلمنا، فلماذا نأنف من حضور جلسة العلم. لقد كان الأوّلون يقطعون آلاف الأميال ليسمعوا حديثاً عن الرسول ﷺ، أما الآن فعندنا مكتبات ومجالس للذكر ووسائل للإعلام، ومع ذلك هي متروكة.

فالإنسان أهل لحمل العلم والمعرفة، وعنده طاقات فكيف يضيعها؟ فالواجب عليه أن يحضر مجالس العلم و الأخلاق ؛ لأنه ليس جسماً وغزيرة فقط بل هو عقل وروح، وكلاهما يحتاج لغذاء، والعظماء يقصدون دار الذكر ويجلسون في طرف المجلس إلى جانب (الأحذية) من أجل التزوّد بالعلم :

كـنْ عـالماً وارضَ بـصفِّ النـعالْ ولا تكـن صـدراً بـغيرِ الكـمالْ
فـإن تـصدّرت بـلا آلةٍ صيّرت ذاك الصدرَ صفَّ النعالْ[1]

فعلى الإنسان ألّا يأنف من حضور مجالس العلم أينما كانت .

المبحث الرابع: علم النبي ﷺ وسعة صدره

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ، فالآية الكريمة تسلّي النبي ﷺ حيث تقول له : إن الذين قبلك من الأنبياء ﵈ قد تعرضوا لهذا المصير نفسه ، فلا تذهب نفسك علىٰ هذا الأمر حسرات ؛ حيث إن النبي ﷺ كان في بعض الأحيان يتألّم ؛ لأنه يرى في هؤلاء جفوة وغلظة ، فهو ﷺ يحاول أن يرشدهم في الكعبة ، وبدلاً من أن يصغوا إليه كانوا يبعثون جواريهم بالفرث والدم والكرش ليقذفنه على ظهره ﷺ وهو ساجد ، وكان الرسول ﷺ يمسح ذلك عن جسده ويقول: **«اللهم اغفر لقومي ؛ إنهم لا يعلمون»**[2] .

وبهذا الصبر والعطاء استطاع رسول الله ﷺ أن يحوّل هذا الجو إلىٰ ألق وعطاء وعلم ، وذلك بفضل خلقه الكريم العظيم .

فالآية تقول له: لا تتألم فإنّ الأنبياء من قبلك تعرضوا للمصير نفسه ، فالنبي نوح ﵇ كان يشتغل بالسفينة نهاراً ، فإذا جاء الليل راح قومه المكذّبون به يحدثون بالسفينة فيملؤونها قذارة ، ومع ذلك فإنه ﵇ صبر إلى أن أكمل مهمّته ، وقد تعرض إلى الاستهزاء والحجارة والاعتداء . فالآية تقول للنبي: إن طريق الإصلاح لابدّ أن تدمىٰ فيه رجلك بالحجارة ، وأن تُشتم بما لا ترضاه

---

(١) المستطرف من كل فن مستظرف ١: ٥٤ .

(٢) الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٣٨٤ ، بحار الأنوار ٩٥: ١٦٧ .

وتسمع مالا ترتضيه. وفعلاً فقد قابلوه بعبارات نابية، بحيث إنه لما أراد إرشادهم جاءه عبد الله بن أبي فقال له: لقد آذيتنا بنتنِ حمارك يا محمد. أي رائحة حمارك (اليعفور)، والنبي ﷺ يسمع ويسكت، فهذا طريق الأنبياء.

فمن عنده رسالة لابدّ أن يتحمل جميع مايمكن أن يمر به من متاعب؛ لأن له هدفاً يحاول أن يصل إليه.

المبحث الخامس: في حسن العاقبة وسوئها

ثم قالت الآية الشريفة: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾، فالذين قابلوك بالأذىٰ ووقفوا بوجه رسالتك وحجبوها عن الناس هم ظالمون، وعاقبتهم الهلاك، أما رسالتك فعاقبتها الخلود. فأين الذين وقفوا بوجه النبي ﷺ، أين قريش وكبرياؤها وغطرستها؟ أليس الذي خُلّد الآن هو النبي ﷺ ورسالته حيث تسمع الشهادة للنبي ﷺ على المآذن عند أوقات الصلاة؟

فالذي يقود المجتمع عقيدته، وإلّا ما الذي يدفعني لأُعطي أموالي إلى غيري، سوىٰ أن الله تعالىٰ أمرني بذلك؟ كما أنه تعالىٰ أمرني بأن أُقيم الصلاة وآتي الزكاة.

فديني يحكمني من الداخل، فأُقدّم ما عندي زكاة لوجه الله، وديني يأمرني بالامتناع عن اللذائذ.

فهذه آثار الرسول ﷺ، أما الذين وقفوا بوجه الرسول ﷺ وبوجه دعوته فقد تحولوا إلى رمل وتراب، وتحوّلوا إلى مذمة في فم التأريخ. دخل رجل كانت عنده قضية على سليمان بن عبد الملك فطرحها أمامه، فوقع جدال بينه وبين الآخرين، فالتفت إلى سليمان وقال له: اذكر يوم الأذان. فسأل سليمان شخصاً بجانبه عن ذلك فقال له: إنه يقول: اذكر الآية: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ

﴿لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[1]، أي يقول لك: إن ظلمك هنا في الدنيا، أمّا يوم القيامة فلا نفوذ لك، حيث ستعرض بين يدي الله. فقال سليمان: نِعم ما قلت[2].

فالآية الكريمة تقول: انظر كيف كان عاقبة الظالمين الذين حالوا بينك وبين أداء رسالتك، ثم إن ثمرة الحياة بهذا أصبحت ناشئة؛ ولذلك فإن منزلة العالم لا تضاهيها منزلة.

ونحن الليلة نذكر قمر بني هاشم العباس﵇؛ فهو ذو منزلة رفيعة؛ حيث إنه كان عالماً، وقد ذكر جملة من المحققين أنه﵇ كان من علماء أهل البيت﵈، وذلك لأدلة كثيرة حيث يذكر أحد العلماء أنه قد أخذ من أبيه﵇ وأمّه علماً كثيراً. فنحن نعرف أن فضة من جواري الإمام علي﵇، وكان عندها إلمام بالقرآن، وكانت تجيب بآيات قرآنية، ولها منزلة كبيرة في أماكن العلم[3]، ومثلها أناس عاشوا في بيوت العلم خدماً لأصحابها، وحملوا علماً

---

(١) الأعراف: ٤٤. (٢) المستطرف من كل فن مستظرف ١: ٢٣٥.

(٣) عن أبي القشيري في كتابه: قال بعضهم: انقطعت في القافلة فوجدت امرأة، فقلت لها: من أنت؟ فقالت: ﴿وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الزخرف: ٨٩. فسلّمت عليها، فقلت: ما تصنعين هاهنا؟ قالت: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ الزمر: ٣٧. فقلت: أمن الجنّ أنت أم من الإنس؟ قالت: ﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الأعراف: ٣١. فقلت: من أين أقبلت؟ قالت: ﴿يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فصلت: ٤٤. فقلت: أين تقصدين؟ قالت: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾. فقلت: متى انقطعت؟ قالت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ق: ٣٨. فقلت: أتشتهين طعاماً؟ فقالت: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ الأنبياء: ٨. فأطعمتها، ثم قلت: هرولي وتعجّلي. قالت: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ البقرة: ٢٨٥. فقلت: أردفك؟ فقالت: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ الأنبياء: ٢٢. فنزلت وأركبتها، فقالت: ﴿سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ الزخرف: ١٣.

كثيراً، وهو ما نجده عند بعض بوابي وخدم الأيمّة عليهم السلام، فقد كانوا على علم. وهذا علي بن أبي طالب عليه السلام الذي ربي في بيت النبوة والعطاء يقول: **«علمني رسول الله ألف باب من العلم ينفتح لي من كلّ باب ألف باب»**[1].

والعباس عليه السلام هو ابن مدينة علم الرسول صلى الله عليه وآله؛ لذلك فهو صاحب علم وفضيلة، ولهذا تخاطبه الزيارة: **«لعن الله أمّة استحلّت منك المحارم، وانتهكت في قتلك حرمة الإسلام»**[2].

فحرمة الإسلام لا تهتك بقتل إنسان عادي وإنما بقتل حملة الإسلام. فهذا المقطع من الزيارة ينم عن أنه عليه السلام كان على علم جمّ ومن العلماء، وهذا ما يتّضح جلياً في كل مواقفه التي تنم عن علم وعقيدة. وهو عليه السلام كيان مشرف حيث يدعو إخوته من أمّ البنين ـ وهم أربعة أولاد خرجوا للطف مع الحسين عليه السلام ـ ويقول لهم: تقدموا حتى أرزأ بكم.

☚ فلما أدركنا القافلة قلت: ألك أحد فيها؟ قالت: ﴿يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ ص: ٢٦، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ﴾ آل عمران: ١٤٤، ﴿يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ مريم: ١٢، ﴿يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ القصص: ٣٠. فصحت بهذه الأسماء، فإذا أنا بأربعة شباب متوجّهين نحوها، فقلت: من هؤلاء منك؟ قالت: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الكهف: ٤٦. فلما أتوها واستقر بهم الجلوس قالت: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ الكهف: ١٩. فمضى أحدهم فاشترى طعاماً، فقدّموه بين يدي، فقالت: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ الحاقة: ٢٤. ثم قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ القصص: ٢٦. فكافوني بأشياء، فقالت: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ البقرة: ٢٦١. فزادوا علي، فسألتهم عنها، فقالوا هذه أمنا فضّة جارية الزهراء عليها السلام لم تتكلّم منذ عشرين سنة إلّا بالقرآن. انظر: مجمع النورين: ٣١، وفي المستطرف من كلّ فن مستظرف ١: ١٢٨ ـ ١٢٩ عن عبد الله بن المبارك.

(١) الخصال: ٥٧٢ / ١، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٨٥.

(٢) المزار (المشهدي): ١٧٨، بحار الأنوار ٩٨: ٢١٨.

وحينما ينقل بعض المؤرخين الحاقدين هذا المقطع يروي أنه قال لهم: «تقدموا حتى أرثكم»[١].

فلك أن تتصوّر هذا الحقد، فهل إن العباس ﷺ كان يأمل أن يبقىٰ بعدهم حتى يرثهم؟ وهل هذا له صلة بنفسية العباس ﷺ الذي جاء ليضحي بها في سبيل الله؟ وهكذا نرىٰ مبلغ النفوس الخسيسة التي تحاول النيل من العباس.

علىٰ أية حال فقد قال ﷺ لإخوته: «تقدموا حتى أرزأ بكم»، أي أقدّمكم قرابين لله؛ فإني أُريد أن أراكم مصرّعين حتى ينالني الأجر، ثم أُضحّي بنفسي.

وفعلاً قدم إخوته قرابين بين يدي أبي عبد الله ﷺ، فهو يواسي الحسين ﷺ مواساة لا حدود لها. يقول الشيخ المفيد: «أقبل العباس ﷺ إلىٰ أخيه الإمام الحسين ﷺ وقال له: أبا عبد الله، هل سمعت أصوات النساء والأطفال؟ اسمح لي أن أجلب لهم قليلاً من الماء»[٢].

وبعد أن قتل إخوته رجع إلىٰ المخيم، فنادته إحدىٰ جواري أُخته زينب، وكانت واقفة على باب الخباء وقالت له: أبا الفضل، لي إليك حاجة. فرجع إليها فقالت: إن أُختك داخل الخباء، وهي تريد محادثتك.

كانت هذه المحاورة قد وقعت إثر محاورة أُخرىٰ بين عبد الله بن أبي المحلّ ـ ابن عمّة أُمّ البنين، وكان صديقاً لابن زياد ـ وبين العباس ﷺ، حاول

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٤: ٣٤٢، الكامل في التاريخ ٤: ٧٦، والحقيقة هي ما رواها بعض المنصفين، وهي أنه قال لهم: تقدموا حتىٰ أراكم قتلىٰ فأحتسبكم. انظر مقاتل الطالبين: ٨٢، مقتل الحسين ﷺ (أبو مخنف): ١٨٤.

(٢) لم نعثر عليه، وقريب منه ما في بحار الأنوار ٤٥: ٤١.

فيها أن يميل العباس عليه السلام عن أخيه أبي عبد الله عليه السلام ، وكان عبد الله بن أبي المحلّ قد قال لابن زياد: عندنا أولاد أُختنا مع الحسين، فهل تمانع أن تمنّيهم ـ أي ترغّبهم بمال أو بمركز ـ حتىٰ نستطيع أن نجلبهم ونفردهم عن الحسين؟ فقال ابن زياد: لا مانع لديّ، اكتب الكتاب وأنا أُوقّعه. فأخذ صحيفة كتب بها ما يريد فوقّعها ابن زياد وأرسلها للعباس، فتبسم العباس وقال: «لا حاجة لنا في أمانكم أمان الله خير من أمان ابن سمية». ثم أرسل إخوته لخالهم مع الرسول: «لعنك الله ولعن أمانك، لئن كنت خالنا أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له؟»[1].

والذي يبدو أن زينب عليها السلام سمعت هذه المحاورة فقالت له: أبا الفضل، إن أبانا أمير المؤمنين عليه السلام قد تزوّج أُمّك من أجل هدف هو أن تلد له أولاداً ليكونوا أنصاراً لأخيهم الحسين عليه السلام في طفّ كربلاء، فلا تبعد عنا. فقال: أُخيّة قرّي عيناً، أنا وإخوتي فداء للحسين عليه السلام ولأهل بيته.

هذا، والحسين عليه السلام لم يكلفه بقتال، وإنما طلب منه الماء للعيال:

يومٌ أبو الفضلِ تدعو الظامئاتُ به ... والماءُ تحت شبا الهنديةِ الخذمِ

والخيلُ تصطكُ والزغبُ الدلاصُ على ... فرسانِها قد غدت ناراً على علمِ[2]

فأقبل الليثُ لا يلهيه خوفُ ردى ... بادي البشاشة كالمدعوِّ للنعمِ[3]

فامتطى جواده ونزل إلى الفرات إلى أن انتهى إلى المشرعة. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**كان قلب عمّي العباس كصالية الجمر من الظمأ**»[4]. فمد يده إلى

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٤: ٣١٤، مقتل الحسين (أبو مخنف): ١٠٣.

(٢) الدلاص: الدرع اللينة البرّاقة. العين ٧: ٩٩ ـ دلص، الصحاح ٣: ١٠٤٠ ـ دلص.

(٣) ديوان الشيخ هاشم الكعبي: ٨٠.

(٤) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، بحار الأنوار ٤٥: ٤٠.

الفرات وأخذ غرفة وأدناها إلى فمه لكنه سرعان ما قال: لا والله لا أشرب بارد الماء وأبو عبد الله عطشان. وهكذا كان كل همه أن يوصل الماء إلى الأكباد العطشة، وملأ قربته وحملها وأقبل بها إلىٰ معسكر أخيه ، وكان الجيش في انتظاره، فقطعوا عليه الطريق وضُرب على يمينه وقطعت، وضرب على شماله فقطعت، فاحتضن اللواء بين زنديه وضمه إلى صدره، وأقبل بالماء، وبينما هو كذلك إذ ضرب على رأسه بعمد من الحديد فخر إلى الأرض منادياً. السلام عليك أبا عبد الله. فوصل صوته إلى الحسين فأقبل مهرولاً على مصرعه، ووقف عنده، ولم يكن العباس يرى ؛ لأن إحدى عينيه جمد عليها الدم والأُخرى نبت فيها السهم، فأحس بحركة رجل فظن أنه من جيش ابن زياد جاء ليحتزّ عنقه، فقال: ياهذا، أُقسم عليك بمن تعبد، إلّا أمهلتني فواق ناقة. قال: «**ما تصنع بها؟**»، قال: حتى يأتي أخي وابن والدي فأُودّعه ويودّعني، وأشمّه ويشمني. قال: «**أنا أخوك وابن والدك**». قال: ضع فمك أبا عبد الله على فمي. فوضع فمه على فمه إلى أن فاضت روحه الطاهرة، وأخذ الحسين يكفكف دموعه[1]:

خويه العلم گلي وين اودّيه ... ينور العين دربي بيش أجِد بيه

أراد الإمام الحسين حمله إلىٰ الخيمة، فقال له العباس: يا أخي لا تحملني. قال: «**لماذا؟**». فأجابه بأنه قد وعد سكينة بالماء وهو مستحٍ منها:

يگله أيّست سكنه من الماي ... تجي يمّي ذليله وتوگف احذاي

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، بحار الأنوار ٤٥: ٤٠، ينابيع المودة ٣: ٦٨.

﴿ ٩٢ ﴾

القرآن دستور الحياة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: أن القرآن حاكم على ما أُنزل من كتب قبله

القرآن الكريم كما يعبر عنه الإمام زين العابدين بما اعتاد عليه من الدعاء عند ختم القرآن الكريم: **«الذي أنزلته نوراً وجعلته مهيمناً علىٰ كل كتاب أنزلته»**[2]. فالقرآن الكريم جاء ليختم الرسالات، وهو يحمل للبشرية زاداً يغطّي كل حاجاتها وأبعادها؛ ولذلك نلاحظ الحثّ الشديد على قراءته[3].

---

(١) النساء: ٨٢.

(٢) الصحيفة السجادية الكاملة: ١٩٧ / ٤٢.

(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « القرآن مأدبة اللّه، فتعلّموا من مأدبته ». وسائل الشيعة ٦: ١٦٨ / ٧٦٤٨، مستدرك وسائل الشيعة ٤: ٢٣٢٥ / ٤٥٦٩ عن لب اللباب للراوندي.

وورد عنه صلى الله عليه وآله وعن أمير المؤمنين عليه السلام في الحثّ على ذلك أنهما قالا: « تعلّموا القرآن الكريم فإنه أحسن الحديث، وتفقّهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص ». انظر: نهج البلاغة / الخطبة: ١١٠، تاريخ مدينة دمشق ١١: ١٦٧.

ولفظ القرآن الكريم مشتق من القَرْء[١]، وهو الجمع[٢]، فهو يجمع السور والآيات والأحكام التي تغطّي حاجات البشريّة. ومن هنا نجد أن القرآن الكريم نفسه يحثّ على قراءته، وأنه ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[٣]. والروايات التي تتضافر على أهميّة القرآن الكريم تدفع كلّ مسلم إلى ألّا يكون بعيداً عنه، وأن يكون دائماً على تماسّ معه؛ لأن ميزته عن الكتب السماوية الأُخرى أنه يعيش مع الإنسان في كلّ لحظة من لحظات حياته، فهو يعيش معه في سلوكه مع أُسرته، وفي كيفيّة الدخول إلى البيت، والتعامل مع من فيه. فكلّ ذلك له أحكام خاصّة ينظّمها القرآن الكريم، بل إننا نجده حتى في التعامل مع اللّه عند الخلوة، أو في غرفة النوم، وفيما يمكن أن يقرأ قبيل النوم، أو ماذا يقرأ في الصباح عندما نواجه الحياة.

فالقرآن ينبغي أن يكون لصيقاً بنا وألّا نبتعد عنه؛ لأنه مصدر حضارتنا، وهو الذي أهّلنا لأن نحتلّ هذه المكانة الكبرى. فالإسلام استطاع أن يثبت وجوده في زحمة الصراع مع الأنظمة الضخمة على الرغم ممّا لاقى من صراع وكفاح، والفضل في ذلك كلّه يعود للقرآن الكريم. فهو إذن إمامنا وربيع قلوبنا[٤] ومصدر هدايتنا. وإذا كان كذلك فإن قراءته لا بدّ أن تكون على نمط معيّن، وهذا ما تكفّلت بإيضاحه الآية الكريمة.

ومن هنا فإنه لا بدّ ألّا تقتصر قراءة القرآن الكريم على عامل البركة، أو أن

---

(١) انظر المحصول في علم الأُصول ١: ٣٠١.

(٢) لسان العرب ١: ١٣١. (٣) البقرة: ١٨٥.

(٤) ورد في دعاء السجاد ﷺ: «وأن تجعل القرآن ربيع قلبي». الصحيفة السجادية: ٦٤/٢٢ ـ دعاؤه ﷺ كل صباح ومساء المعروف بالحرز الكامل.

نقصر اقتناءه ووجوده في البيت علىٰ أنه للبركة. فهذا وإن كان صحيحاً لكن مضامين القرآن الكريم أكبر من ذلك؛ لأنه نظام الحياة والكون، وهو للأُمة الإسلامية أشبه بالروح للجسد.

المبحث الثاني: في التدبّر ولوازمه

تقول الآية الكريمة: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القرآن﴾، وفي هذا المقطع الشريف من هذه الآية أُمور:

الأول: أن التدبّر يستلزم التأنّي وتصوير الموقف

فمعلوم أن التدبّر يستلزم التأنّي فيه والقراءة الهادئة. وللقراءة شروط لابدّ من تحقّقها، فالصوت لابدّ من أن يتكيّف مع مشاهد القرآن الكريم، والقارئ لابدّ أن يتكيّف مع مضمون الآية التي يقرؤها؛ من أداء، وتعبير، ونبرات، وأُصول قراءة؛ لأن القرآن الكريم إذا قرئ وفق ضوابط القراءة الصحيحة وأُصولها المقرّرة استطاع القارئ أن يجسّد المضامين القرآنية. فالناس كلّهم مثلاً يطبخون الطعام، لكن البعض منهم فقط من يطبخه بشكل يثير الشهيّة ويحرّكها، ويجعلك تقبل عليه. وقراءة القرآن الكريم هكذا، فمنهم من تسمعه يقرأ القرآن الكريم فلا يلامس سمعك، ومنهم من يشدّك إليه شداً.

وقد كان الإمام زين العابدين عليه السلام إذا قرأ القرآن الكريم انقطع الطريق من المارّة، وكان كلّ من يمرّ يقف على باب البيت ولا يستطيع المرور، فتأخذه النغمة والترتيل والأداء الجيّد وتجسيد المضامين والتكيّف مع معاني القرآن الكريم وأجوائه. وفي القرآن الكريم مشاهد متنوّعة، فلو أن قارئاً مرّ بصورة من صور القيامة كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ

﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ﴾[1] وأداه بصورة معبّرة، وتكيّف معه فإنه سيشعرك كأنك تعيش في مشهد حقيقي للقيامة.

وعندما يمر بما أعدّ اللّه للصالحين في قوله تعالى: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً* وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيراً * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً * عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنثُوراً * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾[2]، ويتكيّف في أدائه فإنه يشعرك كأنك ممّن كتب اللّه لهم أن يدخلوا هذا المشهد. وهكذا فإذا كان في القراءة تدبّر وتأمّل وتأنٍّ، فإنها تصبح فيها القدرة على إعطاء القرآن الكريم حقّه.

ولذا حصل حملة القرآن الكريم على ميزة لم يحصل عليها أحد، فالروايات تقول: «إنهم أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»[3] بمعنى أنهم يرفعون رؤوسهم وهم يشعرون بالفخر والاعتزاز بما أعدّ اللّه لهم من فضل، فيمشون مزهوّين معتزّين؛ لأنهم حاملون للقرآن ولمضامينه الضخمة. فمن يمرّ وهو يحمل قنينة عطر مفتوحة فما من شك أن هذا العطر ينفذ إلى الأنوف ويمتع أصحابها بزكاوته، وكذا حامل القرآن الكريم وقارئه.

---

(١) إبراهيم: ٤٨ ـ ٥٠. (٢) الإنسان: ١٢ ـ ٢٢.

(٣) لم نعثر عليه في قراء القرآن، بل ورد أنه في المؤذنين، انظر: عيون أخبار الرضا ﷺ ١: ٦٧ / ٢٤٩، مسند أحمد ٣: ١٦٩.

وعليه فإن هناك نوعين من القرّاء: فمنهم من يقرؤه ويحمل معانيه، ويتأثّر به، ومنهم من يقرؤه ولا يتجاوز تراقيه كما يصفه الرسول الأكرمﷺ[١]، أي لا يجاوز حناجرهم. ولذا فإن القرآن الكريم يأمرنا بالتدبّر، ويقول لنا: اعرضوا هذا العطاء بصورة جيدة؛ لأن العرض الجيّد يلعب دوره في بيان المضمون. فالبضاعة المادّيّة إذا عرضت بشكل جيّد، فإن العرض يلعب دوراً كبيراً في تسويقها وحمل الناس علىٰ شرائها، وكذلك البضاعة المعنوية.

ومن هنا نفهم أنه لا بدّ من مدرسة لتعليم القرآن الكريم ومضامينه وأدائه وأبعاده.

الثاني: أن التدبّر يرشد إلى مضامين القرآن

فقراءة التدبّر كما هو ملموس تهدي إلى المضامين القرآنية العالية، فالإنسان تارة يقرأ الآية ويجتازها دون تفكّر، وتارة يقرؤها بتفكّر فيها وبتدبّر في معانيها؛ فمثلاً يقول تعالى: ﴿**فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ**﴾[٢]، وهنا لا بدّ من وقفة أمام فكر القرآن الكريم حيث إنه يقسم الموجودات إلى قسمين: قسم نراه، وقسم لا نراه. وهذا يقتضي أن يكون هناك ما يبعثنا على التأمّل فيما لا نراه من الأشياء، ثم نبحث عن ذلك. وهذا هو معنى التدبر.

إن ضوء الشمس مثلاً هو حزمة ضوئيّة مؤلّفة من عدّة أمواج، بعضها مرئي والآخر غير مرئي. فالأشعّة السينيّة لا يراها الإنسان، وهي التي تخترق الأجسام الكثيفة التي لا يخترقها الضوء العادي، ويستفاد منها الآن في

---

(١) مجمع الزوائد ٦: ٢٢٥ ـ ٢٣٢ /باب ماجاء في الخوارج، ٧: ١٦٨.
(٢) الحاقة: ٣٨ ـ ٣٩.

المجالات الطبّية وغيرها. ولا يمكن للإنسان أن يراها لأن موجاتها أقصر بـ(١٠,٠٠٠) مرّة من الموجات العاديّة. ورحم اللّه عبد اللّه بن عباس الذي يقول: إن في القرآن الكريم معاني يفسرها الزمن.

فالمسلم عندما يعرف أن القرآن الكريم كنز الأُمّة الإسلاميّة فلابدّ له أن يرجع إلى الآيات التي فيها مثل هذا الإعجاز العلمي وغيره. فالأشعّة فوق البنفسجيّة مثلاً ينصّ العلم على أنها تقضي على الجراثيم الضارّة، والذي نعرفه أن اللّه تعالى عندما يُقسِم فلابدّ أنه يقسم بشيء مهم. فلولا عملية التطهير التي تقوم بها الشمس بفاعلية هذه الأشعّة لأصبح الكون كلّه ملوثاً؛ فهذه الأشعّة تلعب دوراً مهماً في تطهير الأرض.

والغريب أن المشرّع الإسلامي اعتبر الشمس إحدى المطهّرات، فهي تطهّر الأرض والجدران والشجر وما عليه من الثمار. والتطهير في مثل هذه الحالة هو القضاء على الأجسام الضارّة فيها.

فالآية السابقة إذن هي في معرض الامتنان علينا بنعم اللّه تعالى، فأنت لابدّ أن تعيش على الأرض ثم تدفن فيها، وفي جسمك الكثير من الخلايا الجسميّة والميكروبيّة، ولابدّ لذلك من تنظيم، وهذا التنظيم هو أن تطهّر الشمس ظاهر الأرض.

ومن هنا تظهر فائدة الدفن عند المسلمين؛ لأن الإنسان بمجرّد أن يدفن تهجم عليه البكتيريا وتقضي على كلّ شيء فيه. والدفن يجمع بين التطهير والرقّة الإنسانية، فهناك مثلاً من يحرق الميّت، وهذا ما لا تقبله المشاعر الرقيقة، والإسلام يربّي الإنسان على المشاعر الرقيقة. فكيف يمكن للإنسان الرقيق أن يحرق عزيزاً من أعزّائه؟ إننا نعتبر الإنسان إذا وقف على القبر ولم

يبكِ أنه غليظ لا رقّة عنده[١]. فكيف بحرق الميّت؟ فإن كان الهدف من الحرق هو الخلاص من الجراثيم فإن التربة قد تكفّلت بذلك. ومن هنا يمكن أن ندرك حكمة الإسلام.

فالجانب غير المنظور من الكون جانب عظيم، وهو يخدمنا في مختلف الأبعاد. قال تعالى: **﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾**[٢]. فما هي الأعمدة غير المرئيّة؟ هل هي الجاذبيّة؟ وما هي حقيقة الجاذبيّة؟[٣] إن القرآن الكريم أرشدنا إلى هذه القوة الخفيّة التي حفظت الكون في كلّ أبعاده.

فيجب إذن أن تقرأ مثل هذه الآيات بلون من التدبّر والتأمّل؛ لكي تتحقق الغاية من إنزال القرآن الكريم على الأرض وتحصل بذلك الفائدة. فليس الهدف من إنزال القرآن الكريم أن نضعه في المكتبة وننظر إليه أو نقتنيه لمجرد البركة.

فقراءة التدبّر تجعلنا نتتبّع مضامين القرآن الكريم لنصل إلى حقائق تغيّر وجه الكون.

الثالث: أن التدبّر هو فهم القرآن من قول المعصوم عليه السلام

ومن هذا المقطع يستدل الفقهاء أيضاً على منهج من مناهج التفسير. فهناك

---

(١) ورد في الدعاء: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ... ومن عين لا تدمع، ومن قلب لا يخشع». مصباح المتهجّد: ٢٢٦ / ٣٣٥.

(٢) الرعد: ٢.

(٣) إحدى القوى الأربع التي تحكم الكون، وهي مجال كوني تتأثّر به كلّ كتلة في الكون وتؤثّر بما جاورها عن طريقها. ويتم تبادل الجذب بين كل كتلتين في الكون بجسيمات افتراضية تسمى الگرافيتونات. القوّة العظمى (باول ديفز): ٨٠ ـ ٨١، موجز في تاريخ الزمن (ستيفن هوكنغ): ٩١.

مجموعة من الفقهاء يذهبون إلى أن القرآن الكريم لا يجوز تفسيره إلا بما ورد عن المعصوم. ومن أراد أن يفهم حكم الآية فلابدّ أن يفهمه من قول المعصوم. ففي قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾**[1]، تحديد للجزء المغسول، ولكن في قوله تعالى: **﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾**[2] لم يحدّد لنا محلّ القطع، فلابدّ من الأخذ بقول المعصوم. وهذا القول محلّ توقف؛ لأن اللّه تعالى لما أنزل القرآن الكريم لم يجعله مفتقراً إلى غيره، فلابدّ من أن نستنبط منه ونتدبّره، فهو قد نزل باللغة العربيّة.

وقد حلّ الإمام الجوادﷺ مثل هذه المشكلة عندما اختُلف في القطع بقوله: **«اليد هي أطراف الأصابع»**. فقيل له: وما الدليل على ذلك؟ قال: **«القرآن الكريم، حيث يقول: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾[3]، فالأصابع تسمى يداً، وإن قُطعت حصل الامتثال»**.

مناهج التفسير

هناك العديد من المناهج التي تنتهج في التفسير، والتي يشكّل كلّ منها مدرسة مستقلّة. ومن هذه المناهج:

الأوّل: الرجوع إلى قول اللغوي

فقد يُرجع إلى العرب أو اللغوي فيسألون عن بعض الألفاظ والاستخدامات، فمثلاً يقول تعالى: **﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾**[4]، فما هو التفث؟ هنا

---

(١) المائدة: ٦. (٢) المائدة: ٣٨.

(٣) البقرة: ٧٩. (٤) الحج: ٢٩.

يُسأل العرب عن ذلك فيقولون: إنه الأوساخ والقاذورات والشعر الطويل والظفر والأدران. فهذا منهج من مناهج التفسير، وهو تفسير القرآن الكريم بلغة العرب.

وكقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ﴾[1]، فما هو القُرء؟ إن العرب يسمون الحيض قرءاً كما يسمون الطهر قرءاً. وهنا يختلف الفقهاء، فهل إن المرأة تحل للأزواج بمجرّد أن تحيض أو إلّا أن تغتسل؟ هنا أرجع إلى لغة العرب، فأرى أنهم يؤنّثون العدد مع المذكّر، ويذكّرونه مع المؤنّث[2]، وقد جاء في الآية مؤنّثاً، فلابدّ أن يكون المراد من القرء مذكّراً، ويكون معناه الطهر. وهنا فسّرنا القرآن الكريم بلغة العرب.

الثاني: المنهج العقلي

وهو منهج يمكّنني من استنباط الحكم الشرعي مباشرة دون الرجوع إلى قول المعصوم أو اللغوي، فمثلاً يقول تعالى:﴿فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾[3]، وهنا أعرف بدليل الأولويّة أن ضربهما حرام. ودليل الأولويّة هو الاستدلال علىٰ شيء أشدّ بشيء أقل شدّة منه نهي عنه أو أُمر به فلو قال قائل: لا تمشِ علىٰ

---

(١) البقرة: ٢٢٨.

(٢) فهم يقولون: ثلاث حيضات، وثلاثة أطهار، فهنا لوحظ معنى القرء لا لفظه. ولهذا نظائر في الشعر، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

وكان مجنّي دون من كنت أتّقي ثلاث شخوص كاعبان ومعصرُ

ديوان عمران أبي ربيعة: ١٢٠.

فذكّر لفظ «ثلاث» بلحاظ معنى الشخوص والمراد منه، وهو النساء؛ بدليل قوله: «كاعبان ومعصرٌ»، مع أن لفظ «شخوص» مذكّر.

(٣) الإسراء: ٢٣.

السطح لأنه ركيك وسيقع، فإن الركض عليه من باب أولىٰ منهي عنه؛ لأنه أشد من المشي.

الثالث: تفسير القرآن بالمأثور من القرآن والسنّة

وهو قسم من المدرسة التي تفسّر بالمأثور؛ فهي قسمان:

١ ـ تفسير القرآن بالقرآن

وهو أن تكون هناك آيات يوهم ظاهرها شيئاً، فترد عليها آية أُخرى تكشف عن خبيئها؛ وهي إما أن تقيّد الإطلاق، أو تخصّص العموم، أو تبيّن المجمل. فمثلاً: يقول تعالى: ﴿**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾[1]، ويقول: ﴿**لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾[2]، وهنا أعرف أن اليد هنا لا يقصد بها الجارحة، وإنما يقصد بها القوّة، وذلك كقولنا في مصطلحاتنا العرفية: إن يد فلان أعلى الأيدي، أي أنه غني أو كريم. وأمثال ذلك في لغتنا كثير.

٢ ـ تفسير القرآن بالسنّة

أي بما ورد عن النبي ﷺ أو المعصومين عليهم السلام. ومن أمثلة هذا التفسير ما يلزم معرفته من أحكام وأفعال في قوله تعالىٰ: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ**﴾[3]، فكيف يكون الحجّ؟ ومتى نقف في عرفات ونبيت في منى؟ وكيف نرمي الجمرات؟ فهذا ما لم تبيّنه الآية الكريمة، بل تكفّلت ببيانه السنّة النبويّة الشريفة.

الرابع: تفسير القرآن بالرأي

وهذا التفسير أيضاً يندرج تحته قسمان:

---

(١) الفتح: ١٠. (٢) الأنعام: ١٠٣.

(٣) آل عمران: ٩٧.

١ـ بالرأي القائم على العلم

أي أن المفسّر يمتلك الأُصول الفنّيّة في التفسير، والعلوم الخاصّة به، فيقوم بتفسير القرآن وبيان معانيه على ضوء هذه الأُسس.

٢ـ بالرأي غير القائم على علم

وذلك بألّا يكون الإنسان متمكّناً من أدوات التفسير وعلومه، فيفسر القرآن الكريم بما يعنّ له في ذهنه ويستحسنه. وهذا النوع من التفسير خاصّة ممنوع طبعاً.

فالآية موضوع البحث تضع لنا منهجاً جديداً في التفسير، وهو أن على الإنسان أن يقرأ القرآن الكريم بتدبّر وتفكّر؛ ليفهم معانيه وأغراضه حتى يستنبط منه تشريعاته وأحكامه.

المبحث الثالث: في أن القرآن ليس فيه تناقض أو اختلاف

ثم قالت الآية: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾. وهنا نلاحظ مايلي:

أولاً: أن هذه الشبهة أثيرت أيام النبي ﷺ

فالمعروف أن قريشاً لمّا رأوا أثر القرآن الكريم الكبير على النفوس أرادوا أن يكافحوه، وذلك بإثارة شبهة أن القرآن الكريم ليس من عند اللّه وإنما ابتدعه النبي محمد ﷺ، ودعّموا هذه الدعوى بقولهم: إن القرآن الكريم ليس فيه شيء، وإننا نستطيع أن نأتي بمثل ما فيه من الآيات.

غير أن الحقائق العلميّة تفنّد أفكار هؤلاء؛ إذ لو كان رسول اللّه ﷺ هو الذي جاء به من عند نفسه لا من عند اللّه فأنىٰ له أن يعرف أن للنمل لغة؟

ومن منهم في زمانه كان يعرف أن للنمل لغـة، وأن له تـصرفاتٍ مـضمونة ومأمونة وغاية في الدقة؟ وهل كان المحيط العربي الذي كانوا يعيشون فيه يعرف ذلك؟ قطعاً لا، فإنه مجتمع غارق في الجهل إلى أُذنيه، فـإن مـرض عندهم مريض أتوه بعظمٍ ميت وعلّقوه عليه، وكأن هذا تطعيم ضد المرض، وأنه بهذا سوف يشفى. فهل إن مثل هذا المجتمع يعرف أن للنمل لغة يتفاهم بها؟ قال تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾[1].

والغريب أنني رأيت أحد علماء التاريخ الطبيعي وهـو «ديكـنسون» الأميركي، يذكر في كتابه الموسوم بـ «شخصيّة الحشرات» في باب النمل أن له أشكالاً من النظام غاية في الدقة، فيقول: «إن النمل مملكة عجيبة، فهي تحرث الأرض وتزرع أنواعاً من النبات، وتحتلب الأبـقار، وتـربّي بـعض الحيوانات التي تجعلها عمياء في الظلام كيلا تخرج إلى الخارج، وتدرّ عليها اللبن[2]. كما أنه يتفاهم بلغة معيّنة»، إلى غير ذلك مما يذكره. وهذا العالم من أكاديميّة علميّة ضخمة، ويُطمأنّ إلى كلامه. وهو كلام يعيننا على تفسير الآية

---

(١) النمل: ١٨.

(٢) هناك بعض الحشرات تسمىٰ «بقرات النمل»، وهي حشرات لها قابلية تحويل نسغ نوع معيّن من النباتات إلىٰ سائل أبيض يشبه الحليب في شكله وقوامه وتركيبه. وهـنا يـعمد النمل إلىٰ سرقة بيوض هذه الحشرات ونقلها إلىٰ مستعمراته حيث يضعها في مكان خاص من المستعمرة ويوفّر لها الظروف المناسبة لتفقيسها. وبعد أن تنمو هذه الحشرات تأخذ كل نملة حشرة إلىٰ ذلك النوع الخاص من النبات حيث تضع عليه تلك الحشرات التي لا تلبث أن تمتص نسغها، وتحوّله إلىٰ ذلك السائل المشابه للحليب، ثمّ يقوم النـمل بـقتل هـذه الحشرات واستخراج السـائل الحليبي من جوفها وإطـعامه لصـغارها كـي تـتغذّىٰ وتـنمو وتكبر.

الواردة في سورة (النمل). فمن أين جاء النبيﷺ بكل هذه المعلومات الهائلة والنظام المتكامل؟

إن دستور أيّة أُمّة من الأُمم يحتاج إلى مدّة طويلة، ومجموعة من الاختصاصيّين الذين يعملون على تشريعه، ولا يمكن أن يشرّعه شخص واحد. فهل يمكن للقرآن الكريم الذي تناول كلّ أبعاد الحياة أن يخترعه رجل أُمّي[1] يعيش في قلب الجزيرة؟

ثمّ بعد ذلك أخذ بعض الأوروبيّين الخبثاء ـ المستشرقين منهم بشكل خاص ـ يرددون هذا الكلام، لكنهم رأوا أنهم كلّما بثّوا دعاية ضدّه انتشر أكثر، وكلّما وقفوا ضدّ النبيﷺ تجذّر وجوده وعمقه في القلوب والنفوس أكثر؛ ولذا توقّفوا عن ذلك، وتلاشت تلك النغمة الحادّة التي كانت عند المستشرقين قبل أكثر من (٣٠٠) أو (٤٠٠) سنة.

وقد كانت قريش تحاول إقناع الناس أن القرآن الكريم لا قيمة له، ولا يحمل مفاهيم إنسانيّة، وأن النبي محمداًﷺ يريد أن يخدع الناس به. لكن دعايتهم فشلت أيضاً، وأخذ القرآن الكريم طريقه إلى النفوس.

ثانياً: أنواع الاختلاف

فالاختلاف الممكن تصوّر وقوعه في القرآن الكريم يمكن أن يحتمل أو يثار على ثلاثة مستويات هي:

الأوّل: أنه اختلاف في المضامين

والاختلاف في المضامين هو أن يكتب كاتب ما مادّة أدبيّة أو علميّة أو

---

(١) أُمّيّة أبجديّة لا حضاريّة، كما سبق أن نوّه له المحاضر.

قانونيّة، فيقع في كتاباته هذه تصادم وتناقض، فمثلاً يسنّ المشرّع القانوني مادّة تقول: يجب مراعاة التقاليد، وتغذية الناس بالفضيلة. ثم يسنّ مادّة أُخرى تقول: يجب توفير الحرية للناس في كلّ ما يمارسونه من أعمال. ومن جملة هذه الأعمال أن يسمح لامرأة عارية أن تهتزّ بين الناس. فكيف يمكن الجمع بين هاتين المادّتين؟ وكيف يمكن لهذا المشرّع أن يغذي الناس بالفضيلة وهو يعرّض الشباب في أوج شهوتهم إلى هذا الإغراء بالجسد العاري؟ فأين موقع الفضيلة إذن من ذلك؟ أليس هذا تناقضاً في المضمون عنده؟

إن مثل هذا التناقض موجود في الكثير من دنيا الاقتصاد والأخلاق والسياسة والعلائق الاجتماعية وغير ذلك. أما القرآن الكريم فليس فيه مثل هذا التناقض.

من شبهات التناقض

نعم، إن هناك من الناس من يتصوَّر وجود مثل هذا التناقض فيه؛ ولذا أثاروا مجموعة من الشبه في هذا المجال، ومنها[1]:

الشبهة الأُولى: آيات الزواج

فالقرآن يقول: ﴿**وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾[2]، ويقول في مكان آخر: ﴿**فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**﴾[3]. فلم أباح التعدد إذن؟ أليس هذا تناقضاً؟

---

(١) وقد مرّت مع غيرها من الشبه في محاضرة (مسألة التحريف في القرآن).

(٢) النساء: ١٢٩.

(٣) النساء: ٣، مع أن ذيل هذه الآية الشريفة يؤكّد الآية السابقة كما سبق أن نوّهنا له في

والجواب: أنه ليس كذلك ؛ فلا تناقض ، فقوله تعالى: **﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾** متعلّق بالمودّة ، فالإنسان لا يستطيع أن يعدل في ذلك ، أما في النفقة فيستطيع . واللّه جلّ وعلا أمر بالعدل في النفقة . والعدل هو وضع الشيء في موضعه[1] . فالقرآن الكريم يقول: إن استطعت أن تعدل بالنفقة بحيث تكون عندك قدرة مالية وجسدية فخذ من النساء مثنى وثلاث ورباع ، أما إذا لم تستطع أن تعدل بحيث يكون في التعدّد جور وظلم فلا .

أمّا في الآية الأُخرى : **﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾** ، فذلك في المودّة ؛ إذ لا يستطيع الإنسان أن يعدل في المودّة ، فلابدّ أن تكون لإحداهن ميزة تختلف عن الأُخرى . بل حتى لو لم يكن ذلك فإن الميل النفسي يجعل الإنسان يميل من جانب إلى آخر .

فلا تناقض في الأمر ؛ لأن متعلّق العدل هنا هو المال ومتعلّقه هناك هو المودة .

الشبهة الثانية: آيات الجبر والاختيار

وذلك في قوله تعالى: **﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾**[2] ، وقوله تعالى: **﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾**[3] . وهذا تضارب واضح ؛ فهو تعالى من جهة يقول لي: أنت حرّ ، ومن جهة أُخرى يقول لي: أُنت لا تستطيع فعل شيء إلّا إذا أراد اللّه ذلك . أليس هذا قيداً؟

☚ ص ١٥٣ من هذا المجلّد ، لا أنه يناقضها .

(١) انظر : العدة في أُصول الفقه ١ : ٣١ (حجري) ، شرح نهج البلاغة ٢٠ : ٨٥ .

(٢) الكهف: ٢٩ . (٣) الانسان: ٣٠ .

فنقول: إن هذا أيضاً لا تضارب فيه ؛ لأنه تعالى عندما يقول: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فمعناه أنني في أي حركة أتحرّكها لا أستطيع ذلك لولا أن يوفر اللّه لي الأساسيّات. فقد أعطاني القوّة والعقل والجسم، ولولا هذه لما استطعت أن أفعل شيئاً. لكنني عندما أُريد تشغيل هذه الطاقات فإنني أُشغّلها باختياري، فهذه الرِّجل يمكن أن يذهب بها الإنسان إلى حانة يشرب فيها الخمر أو إلى معمل يطعم عائلته من عمله فيه. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

فلا تناقض إذن في ذلك كلّه، بل إن المشكلة تكمن في هؤلاء الذين يتوهّمون وقوع مثل هذا التناقض في القرآن الكريم ؛ لأنهم ليس لديهم خلفيّة علميّة. وحاشا القرآن من التناقض.

الثاني: أنه اختلاف في الأسلوب

أي أن القرآن الكريم لو كان من إنسان لوُجد فيه اختلاف في الأُسلوب. خذ أي أديب ؛ شاعراً كان أو كاتباً، وانظر إلى أُسلوبه هل يأتي دائماً بصورة واحدة؟ كلّا، إنه يأتي بصور مختلفة ؛ ضعيفاً تارّة، وقويّاً أو متوسّطاً أُخرى، ولا يمكن أن يكون دائماً على مستوى واحد. فمثلاً يقول بشّار بن برد:

إذا ما غضِبنا غضبةً مضريّةً ... هَتَكنا حجاب الشمس أو تمطر الدِّما

إذا ما أعَرْنا سيّداً من قبيلةٍ ... ذُرا مِنبَرٍ صلّى علينا وسلّما[1]

وهذا أُسلوب قوي محبوك رنّان، لكنه يقول في مناسبة ثانية وفي محلّ آخر:

(١) ديوان بشار بن برد: ٥٩٠.

ربــــابةُ ربَّــةُ البــيتِ تــصبّ الخــلّ بــالزيتِ
لهـــا ســبع دجــاجاتٍ وديك حسن الصـوتِ(١)

فأين هذا المستوى في الأُسلوب من ذاك؟

وتقرأ للمتنبي المعروف (أنه قيثارة الدهر) وهو يمدح أحدهم:

عــظمتَ فــلما لم تُكَــلَّمْ مَــهابةً عظمتَ فأنت العُظم عُظماً على عُظمِ(٢)

وكأنك عندما تسمع ذلك تظن أنك في جبّانة كلّها عظام، في حـين أنـه يقول في مناسبة ثانية:

نُــعِدُّ المشــرفية والعــوالي وتــقتُلنا المَــنون بــلا قــتالِ
ونَــرتَبِطُ السَّــوابِقَ مُـقْرَباتٍ وهل يُنجينَ من خَبَبِ اللَّـيالي

إلىٰ أن يقول:

رمــاني الدَّهــرُ بــالأرزاءِ حَــتَّى فُــؤادي فــي غِشــاءٍ مِــن نِـبالِ
فــصرت إذا أصــابتني ســهامٌ تكسّرت النصال على النصالِ(٣)

وهنا تقرأ شعراً رائعاً راقياً.

وكذلك الحال في النصوص الأدبيّة النثريّة الأُخرى، أما القرآن الكريم فلا اختلاف في أُسلوبه، بل إن أُسلوبه واحد من فاتحته إلى خاتمته، والمتانة في السور كلّها واحدة. فلا تهافت فيه؛ بأن تكون هناك آية ضعيفة وأُخرى قويّة؛ لأنه كلام اللّه عزّ وجلّ.

الثالث: أن الاختلاف في أخبار الأمم

أي فيما حمله القرآن الكريم من أخبار الأُمم. وهذا ما لم يقع في القرآن

---

(١) ديوان بشار بن برد: ٢٢٦، تاريخ مدينة دمشق ٤٩: ٨١.
(٢) ديوان المتنبي ٢: ٨٠.
(٣) ديوان المتنبي ٢: ٢٦٥.

البتة ؛ فقد تحدث القرآن الكريم عن قصّة آدم وأولاده، وعن نوح وسفينته والطوفان، وعن لوط وغيره. وكلّ ذلك موافق لما جاء به العلم من هذه الأخبار. ولم يأتِ باحث أو كاتب فكذّب هذه الأخبار أو شكّك في واقعيّتها أبداً. في حين أننا نلاحظ الاختلاف أو التأثّر بالأهواء، أو قلب الحقائق أحياناً في كتابات أي كاتب من كتّاب الأرض. ومن ذلك هذه المآسي التي نراها في تأريخنا. أما القرآن الكريم فهو صادق مصدّق في أدائه، عادل في نهجه.

ومن هنا نستدلّ أيضاً على أن الأسلوب في (نهج البلاغة) هو أسلوب علي بن أبي طالب[1]؛ لأن أهل التخصّص في الأدب يعرفون نفس كلّ أديب، فعندما يقرؤون قصيدة يعرفون أنها للبحتري أو للمتنبي أو غيرهما؛ وذلك نتيجة للمران والمطالعة والممارسة الطويلة.

وعندما نقرأ لأمير المؤمنين قوله: «**والله لو شئت لاهتديت الطريق إلىٰ مصفّىٰ هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يقودني هواي، أو يغلبني جشعي إلى تخيّر الأطعمة. ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع، أأبيت مبطاناً وحولي بطون غرثىٰ؟**»[2]. فإني أعرف أن هذا نَفَسُ علي؛ لأنه زاهد الليل. وعندما أقرأ له: «**ولقد رقعت مدرعتي حتىٰ استحييت من راقعها، وحتىٰ قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟**

---

(١) قد مرّ بنا استدلال ابن أبي الحديد وفق وحدة الأُسلوب والمنهج علىٰ صحة كون (نهج البلاغة) من صنعة أمير المؤمنين في ص ١٥٥ من هذا المجلد.

(٢) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

فقلت اعزب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ»[١]. فإني ألمح على ذلك روح أمير المؤمنين عليه السلام وأداءه ونفَسه. والذي قادني إلى ذلك هو الأُسلوب.

فهل يمكن أن تجد في أُسلوب علي عليه السلام في (نهج البلاغة) ركّة؟ نعم، قد يأتي من يدّعي دعوى كهذه وما هو إلّا إنكار للبديهيات.

وفعلاً لم يسلم أمير المؤمنين عليه السلام ولا بنوه من تحامل المتحاملين، وقد أراد الأُمويّون أن يمسخوا سيرته في نفوس الناس، يقول أحدهم: مررت بمسجد حمص فسمعت رجلاً يشتم أبا تراب، ويسأله رجل إلىٰ جانبه: ويحك، من أبو تراب هذا؟ فيقول له: أحسبه لصّاً من لصوص الفتن[٢].

ثم جاء دور حرم رسول الله صلى الله عليه وآله حيث اقتيدت أُسارى إلى مجلس يزيد، فقام إليه أحد من كانوا في مجلسه وقال: هؤلاء خوارج؟ قال: بلى. قال: إن بيتي خالٍ، وهؤلاء بغاة علىٰ الإمام ويصح أن نستخدمهم، ولا توجد عندي خادمة، وأنا أُريد هذه الجارية خادمة في بيتي. وأشار إلى فاطمة بنت الإمام الحسين عليه السلام. تقول فاطمة: فتعلقت بثياب عمتي زينب، وقلت: عمة مع الأسر أُستخدم وأنا ابنة الحسين؟ فقالت له:« مه، ما جعل اللّه ذلك لك ولا لأميرك». فقال لها يزيد: بلى لو شئت أفعل ذلك لفعلت. قالت: «كلا إلّا أن تخرج عن ديننا وتدين بغير ملتنا». فقال: إياي تستقبلين؟ إنما خرج عن الدين أبوك وأخوك. فعند ذلك اختنقت بعبرتها، وغالبتها دموعها، ثمّ قالت: «يزيد أنت أمير تشتم ظالماً وأنا امرأة»:

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٠، عيون المواعظ والحكم: ٤٠٥.

(٢) مروج الذهب ٣: ٤٢.

لا والدٌ لي ولا عـــمٌ ألوذ بـــه ... ولا أخ لي بقي أرجوه ذو رحمِ[1]

* * *

فالتفتت يميناً وشمالاً، فلم تجد أحـداً حـولها، فكـتمت لوعـتها إلى أن أُدخلت إلى الخربة، ودلفت إلى رأس أبي عبد الله:

أنه امنين أبو فاضل أجـيبه ... أراويه حـال اختـه الغـريبه

---

(١) شجرة طوبى ١: ١٢٩، وله بيت ثانٍ هو:

أخي ذبيـح ورحلي قد أُبـيح وبـي ... ضاق الفسيح وأطفالي بغير حـميْ

المحتويات

